

الجمهوريـــــة الجزائريـــة الديمقراطيـة الشعبيـــة
الجمهوريـــــة الجزائريـــة الديمقراطيـة الشعبيـــة
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليـم العـــالي والبـــحث العلـــمي
Ministère de L'enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية
قسم التاريخ و علم الآثار

الروابط العلمية بين بلاد المغرب و الأندلس على عهد الموحدين

(541-626هـ / 1146-1228م)

أطروحة لنيل شهادة الدكتورة في تاريخ المغرب الاسلامي

اعداد الطالب:
حاكمي الحبيب

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد القادر بوباية

الإسم و اللقب	الرتبة	المؤسسة	الصفة
بلهواري فطيمة	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران1	رئيسا
عبد القادر بوباية	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران1	مقررا
بوجمعة جهيدة	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران1	مناقشا
شخوم السعدي	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
بوداود عبيد	أستاذ التعليم العالي	جامعة معسكر	مناقشا
بلغيث محمد الأمين	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 1	مناقشا

السنة الجامعية:1437-1438 هـ/2016-2017 م

الجمهوريـــــة الجزائريـــة الديمقراطيـة الشعبيـــة
الجمهوريـــــة الجزائريـــة الديمقراطيـة الشعبيـــة
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليــم العـــــالي والبـــحث العلـــمي
Ministère de L’enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique



كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية
قسم التاريخ و علم الآثار

الروابط العلمية بين بلاد المغرب و الأندلس على عهد الموحدين

(541-626هـ / 1146-1228م)

أطروحة لنيل شهادة الدكتورة في تاريخ المغرب الاسلامي

اعداد الطالب:
حاكمي الحبيب

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد القادر بوباية

الإسم و اللقب	الرتبة	المؤسسة	الصفة
بلهواري فطيمة	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران1	رئيسا
عبد القادر بوباية	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران1	مقررا
بوجمعة جهيدة	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران1	مناقشا
شخوم السعدي	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
بوداود عبيد	أستاذ التعليم العالي	جامعة معسكر	مناقشا
بلغيث محمد الأمين	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 1	مناقشا

السنة الجامعية:1437-1438 هـ/2016-2017 م

مقدمة:

يكاد يجمع السواد الأعظم من الباحثين- على اختلاف أجناسهم ومدارسهم الفكرية- عن دور الحضارة الإسلامية الغنية بقيمها الروحية ومظاهرها المادية في تطوير مناهج البحث والرفع من مستويات التفكير لقرون من الزمن خدمة للحضارة الإنسانية، وبعيداً تماماً عن ضروب التهويل والتخويف التي تتخندق خلفها بعض الأبواق المشككة في الإنتاجات المعرفية للمسلمين؛ بل وفي الإسلام ذاته، هذه الحضارة التي ارتكزت في انطلاقها على المعاني السامية لوجوب نفاذ أمر الظاهرة العلمية المختزلة في الفعل "إقرأ"، ومن الملاحظ أنّها لازالت تثير اهتمام من تعلّق بموروثها المصدري المخطوط من حيث التنقيب عنه والكشف عن قيمته العلمية في إعلان عن استمرارية عطائها المتجدد، وقد وقع الاختيار على حلقة من تاريخها الطويل تبحث في تاريخ العلوم واتصالها بين الشعوب بمعالم زمنية ومجالية محددة سميتها **"الروابط العلمية بين بلاد المغرب والأندلس على عهد الموحدين (541-626هـ/1146-1228م)"** ضمن مقاربة تاريخية الهدف منها الكشف عن سبل ومظاهر التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، وفي اعتماد المؤرخين والجغرافيين لمصطلح "العدوتين" أكثر من دلالة تعبيرية على القرب وسهولة الرحلة بالرغم من التباين التاريخي والجغرافي والاجتماعي بين الصُقعين.

ومن دواعي اختياري لهذا الموضوع:

- اهتمامي بتاريخ المغرب الإسلامي وحضارته عامة، وتعلقي بتتبع مختلف العلوم والفنون و حركيتها عبر التاريخ.
- محاولة الوقوف على أبرز جوانب الإسهامات الحضارية والعلمية للمغاربة والأندلسيين ضمن مقاربة الروابط العلمية ومعرفة مدى نجاعتها، وإعادة ترتيب مختلف المعطيات والنصوص التاريخية لاستنباط آراء ومفاهيم أقرب لفحوى هذه الوثائق المصدرية بعيداً عن التأويل وتحميل النص ما ليس فيه.
- محاولة رصد آراء المؤرخين والباحثين عن الوتيرة التنافسية الحاصلة بين العدوتين، وتدافعها الحضاري، ومدى تأثرها بالتحولات السياسية والاجتماعية في ظل الهيمنة الموحدية على مشاهدها التنظيمية ذات الأبعاد العقدية والمذهبية.

تفرض طبيعة الموضوعات ذات المسالك المتداخلة الاستفهام عن التأثيرات السياسية للسلطة الموحدية في مشهد الحياة العلمية، وكيفية تفاعل المصادر والموارد المرافقة لهذه الحقبة الزمنية أو القريبة منها مع ما اشتهر من العلوم في المرحلة الوسيطية والطبائع المصاحبة لمنتحلها من حيث الإثبات والنفي أو الإقبال والنّفور ومبرراتهما ؟ ويتفرع عن محورها محاولة الإجابة عن مدى تأثر هذه المعارف بتداعيات الأنماط الاجتماعية والتاريخية التي عرفتها المنطقة؟ وما أبرز تأثيراتها في ذهنية العالم والمتعلم وفرص تواصلهما من عدمه بين بلاد المغرب والأندلس سواء لمن اهتم بالنقليات أو العقليات منها ؟ وهل ثمة ما يفيد في معرفة دوافع ظهورها وانتشارها أو معوقات انحسارها وأفولها؟

ومن هنا تتضح أهداف الموضوع في إمكانية التعرف على تأثير الأبعاد السياسية والاجتماعية بظهور الحكام المغاربة في إدارة الدولة المشرفة على الشؤون العامة للسكان، وربطه بالأبعاد و الاعتبارات المعرفية للعناصر المعنية بالدراسة ممثلة في نخبة المجتمع وأعيانه، وتتبع ذكر أعلام العلماء في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتب التراجم ومحاولة تحديد فوارق المجال الجغرافي بين الأندلسيين والمغاربة، ثم مقارنتها بعهودهم السابقة عن الفترة المدروسة.

نظراً إلى طبيعة الموضوع المركبة وتعدد مسالك أبعادها السياسية والعلمية آثرت الاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي في تتبع الأطوار التاريخية التي مرّت بها حركة التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، ودعمه بالمنهج الإحصائي الكمي لأجل سبر غور إسهام الأعلام ومعرفة أسمائهم ومراتبهم العلمية ومواطن استقرارهم؛ وهو ما حتم إدراجهم ضمن جداول إحصائية جمعت بين التحقيب الزمني والمجال الجغرافي للأعلام المترجم بهم، مع الوقوف على إنتاجهم العلمي وإسهامهم الحضاري، والغاية من ذلك هو الاطلاع على مدى فعالية مبادراتهم الفردية والجماعية في انتقال العلوم ونشرها بين ضفتي المتوسط، ورصد دور السلطة الموحدية في الأحداث التي رافقت الظاهرة العلمية ذات الشهرة الواسعة بالمجتمعات الإسلامية في الحقبة الوسيطية على اختلاف تجلياتها ومشارب روادها.

تعددت الأبحاث التي رصدت مختلف مناحي الحياة السياسية والعلمية في بلاد المغرب والأندلس في عصر الدولة الموحدية؛ غير أنّ ما وقع بين أيدينا منها لا يكاد يظهر بالشكل والمضمون اللذين ظهر بهما الصُقع الأندلسي وأهله لاسيما حركة تنقل العلماء- في شمول استغراق هذا الجمع لأهل العلم ومن انتسب إليهم- من أهل العدوتين ضمن هذا المجال الجغرافي، وما من تفسير واقعي ومقنع لاهتمام جمهرة من الباحثين المحدثين بالأندلس إلى درجة الانبهار ومنذ ثلاثينيات القرن الماضي إلاّ لأنهم أحيطوا بزخم تراثي مشبع ومتنوع بعطائه العلمي والحضاري المستفاد من رسوخ أقدام المسلمين فيها زهاء الثمانية قرون.

الظاهر من هذا التفوق الأندلسي - منذ العهد الأموي- وما قابله من تأخر في بلوغ بلاد المغرب وأهلها للمستوى المادي والحضاري الذي عرفته الأندلس بالرغم من ظهور بوادر المنافسة والمجاراة إلاّ أنّ هذا انعكس على معظم الدراسات التي انساقت ورواء الموضوعات ذات المواد المصدرية الوافرة، وابتعدت عن نظيرتها التي تشهد شحا في المعلومات وندرتها في أحايين كثيرة، غير أنّ هذا لم يمنع من ظهور بعض الأبحاث العلمية والأطروحات الأكاديمية التي رصد أصحابها أوضاع الحياة العلمية بمختلف تجلياتها بين العدوتين الأندلسية والمغربية في العصر الموحدي؛ ومنها: ما قدمه محمد المنوني في كتابه "حضارة الموحدين" بحيث عدّد أنواع العلوم والفنون التي انتشرت في عهد الدولة الموحدية، وبيّن دور خلفائها في تشجيع عامة الناس على تعاطيها والاشتغال بها إلاّ أنه أولى اهتماما واضحاً لقطر المغرب الأقصى فلم تنل بقية المدن والحواضر في بلاد المغرب إلاّ النزر القليل، وسار على هذا النهج مواطنه علي عبد الله علام في بحثه "الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي".

وفي عمل أكاديمي قدم الباحث يوسف العريني دراسة عن "الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين"، وفيها إحاطة بالموضوع من خلال ما رصده من مصادر تاريخية وتراجمية أثرت دراسته؛ بيد أنه أفرغ جهده في تتبع إسهامات الأندلسيين وأخبارهم، ولم يحظ غيرهم من المغاربة؛ وبخاصة من دخل منهم إلى الأندلس بنصيب وافر من الترجمة والتنويه، وأكثر من ذلك أنه تجنب الخوض في الجوانب السياسية والعقدية لدى الموحدين فلم تظهر صورة علاقتهم بالحركة العلمية التي عرفتها المنطقة في عهدهم.

من بين الدراسات التي فتحت المجال للنقاش حول أبعاد تأثير الاختلافات المذهبية والعقدية للموحدين في حياة أهل المعارف بين بلاد المغرب والأندلس ظهرت دراسة الباحث محمد المغراوي في رسالته للدكتوراه والموسومة بـ"العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين"، ولكن اقتصاره على طبقة المتصوفة ينسجم مع ما تمّ إقراره آنفاً من شح المادة العلمية المتعلقة ببلاد المغرب خلافاً للمتصوفة الذين تعددت مصادر تراجمهم لا سميا في القرنيين السادس والسابع الهجريين، وذاك كان مسعى الباحث وغايته من خلال وقوفه على معلومات أثرى بها دراسته، ولكن ما يلاحظ على هذه الدراسة أنّ صاحبها غلّب الجانب التصوفي على غيره حتى عند الأعلام الذين ورد التصوف في حياتهم عرضاً وليسوا متصوفة بالأساس، إضافة إلى أنّ مصطلح "المغرب" الوارد في عنوان الأطروحة محدود المعالم الجغرافية بما لا يتوافق مع الحدود السياسية للدولة الموحدية في أقصى اتساعها.

ولهذا الغرض حاولت الاطلاع قدر الاستطاعة على ما وقع بين يدي من مصادر ومراجع لإثراء موضوع البحث وتنويع موارده المطبوع منها والمخطوط، واقتناء العديد منها، والاستفادة من آراء من سبقني من الباحثين الذين اهتموا بالأبحاث ذات الصلة بموضوع الأطروحة؛ ولأجل ذلك لم أكتف بما حصلت عليه في جامعة وهران فقمت بزيارة جامعة الجزائر العاصمة وكبرى مكتباتها، وجامعتي منتوري والأمير عبد القادر بقسنطينة، كما سافرت إلى جامعة تونس واطلعت على أبرز الأطروحات العلمية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وما احتوت عليه مكتبتها، وتجولت بين بعض جامعات المملكة المغربية وعدد من مراكز البحث وخزائن المخطوطات بها.

قسّمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول وقسم خاص بالملاحق، وقدمت لها بمقدمة استهلالية وفصل تمهيدي ورد فيه عرض توضيحي للمعالم الاختيارية المركبة في عنوان الأطروحة بغرض استجلاء أبعاده الزمنية والمجالية، وبسط القول في إشكالية الاختلافات المنهجية الظاهرة عند المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين، وتقديم مبررات التوصيف الإصطلاحي لعبارة "الروابط العلمية" عند مؤرخي العلوم، وأهمية المرافقة الإحصائية للنصوص التاريخية في استنباط الآراء واستخلاص النتائج.

وأما الفصل الأول فكان عن الأوضاع السياسية وتأثيرها في الحياة العلمية بالعصر الموحدي بداية بالمرحلة التي أعقبت سقوط مدينة مراكش، وإعلان نهاية الدولة المرابطية، وكيفية تعامل الموحدين مع ما شهدته الأندلس من اضطرابات، ومعرفة تأثيرها في حياة الأندلسيين؛ وبخاصة طبقة العلماء، ثمّ تتبع أبرز الأعمال التي قام بها الموحدون بعد جوازهم إلى الأندلس سواء تعلق الأمر بالجوانب السياسية والأمنية أو الحياة العلمية لتكاملهما في تحقيق غاية التواصل والاستقرار مع عرض لأهم نتائج إسهاماتهم في المجال العلمي.

وأما الفصل الثاني فتم فيه رصد أبرز الأعلام الذين أسهموا في تولي الخطط الدينية والإدارية في الدولة الموحدية سواء كانوا من الأندلسيين أو المغاربة، وتقديم ما يبرر كثرة تواجدهم في بلاد المغرب مقارنة بالعهود السابقة، وتتبع أهمية ظهورهم على رأس الهياكل التنظيمية للدولة، و مدى تأثير مكانتهم في المجتمع، ومبلغ استفادة الموحدين من هذا الدور في ترسيخ سلطتهم بالعدوتين المغربية والأندلسية، والتعرض للخصائص التي ميّزت الإدارة الموحدية خلال الفترة التي أدار فيها خلفاء الدولة وولاتها جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والحضارية.

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن أشهر العلوم النقلية التي تم تداولها في المراكز التعليمية، ومعرفة عوامل انتشارها وتحليلها عند مقارنتها ورصد أبرز أعلامها، والهدف من ذلك هو الاطلاع على مدى تأثير الظروف المحيطة بحياة العلماء في دعم أواصر التواصل المعرفي بين المغرب والأندلس، والتطرق إلى مظاهره والعوامل المحفزة على انتشار العلوم، ودوافع طبقة العلماء في اختيار مناطق استيطانهم، والتعرف على علاقتهم بالسلطة الحاكمة، وما تخلل ذلك من مناقشات لآراء الباحثين حول جملة من الأطروحات والنظريات التي ظهرت في أبحاثهم عن تاريخ العلوم في العصر الموحدي.

أما الفصل الرابع فورد فيه التأريخ للعلوم العقلية ومحاولة تقصي أبرز معالمها، والترجمة لأشهر المشتغلين بها مع التطرق إلى إشكالية النفور من بعض فنونها؛ وهي الظاهرة التي عرفتها العصور الإسلامية في مرحلتها الوسيطية، ومناقشة آراء الباحثين حول بعض موضوعاتها ذات الصلة بالانتشار والانحسار، وتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف،

والغاية من ذلك هو محاولة الكشف عن موقف السلطة والمجتمع ممن جاهر بالخوض في فنونها، ومدى انتشارها بين الأندلس وبلاد المغرب في ظل ما اشتهر تاريخياً عن من انتحلها علماً، وتتبع مواطن استقرار روادها وأهم تنقلاتهم بين الضفتين.

وأما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التي خلص إليها البحث.

وعن مصادر البحث فقد جاءت متنوعة بين كتب التراجم والتاريخ والأدب، والعلوم العقلية والجغرافية، وتأتي كتب التراجم على رأس القائمة نظراً لأهميتها للباحث عن الحياة العلمية قصد تتبع سيّر العلماء ومراتبهم المعرفية و أماكن تواجدهم، وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة.

- المصادر والمراجع: (عرض ونقد)

آثرت ترتيب المصادر بحسب مبلغ إفادتها لموضوع الدراسة لا على اعتبارات زمنية أو موضوعية يتم الاستناد فيها إلى سنوات الوفاة وطبيعة الموضوع ونوعه كمعايير في التصنيف، واقتصرت منها على المصنفات الأولية التي اعتمدت عليها في عرض فصول الدراسة ومباحثها، ونقدها وإظهار مدى أهمية كل منها.

أ- كتب التراجم :

تأتي كتب التراجم والفهارس على قمة هرم الاستفادة المصدرية لارتباطها الوثيق بتاريخ العلوم واتصال أسانيد نشرها من عدمه، وتتبعها لحياة أعلام العلماء ومراتبهم؛ وهو ما يتيح فرص الاطلاع على إسهاماتهم في الحياة العلمية.

1.التّكملة لكتاب الصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المتوفى سنة 659هـ/1261م، جمع ابن الأبار بين عدة فنون فأجاد فيها، فهو المؤرخ والشاعر والأديب والكاتب، له مصنفات عديدة تنم عن ما وصف به، ويعتبر كتابه التكملة من المصادر الأولية في التأريخ لسيرة علماء الأندلس ومن دخلها من المغاربة، وقد تولى الكتابة عن بعض ولاة الموحدين في آخر دولتهم في الأندلس؛ وهو بذلك شاهد عيان للكثير من الأحداث التي عرفتها المنطقة، وأفادته تنقلاته بين الأندلس وبجاية وإفريقية من رصد أوضاع جالية الأندلس ومعرفة مدى إسهاماتهم في الحياة العلمية، غير أنّ مكمن القصور في مؤلفه هذا

هو تعصبه لأهل بلده، وعدم تتبع أخبار المراكز العلمية التي بدأت بالظهور في بلاد المغرب ومن وفد إليها من طلبة الأندلس إلاّ من بعض الحالات التي أشار إليها.

2.الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى سنة 703هـ/1303م، نوّع ابن عبد الملك من موارده فبلغنا كتابه متحفاً بالمصنفات التي ملك أصولها أو اطلع عليها -وهي تعود إلى العصر الموحدي ومعظمها في حكم المفقود- وبالرغم من أنّ كتابه لم يصل إلينا كاملاً؛ وبخاصة القطع المتمّمة لقسم الغرباء وتحديداً من كان منهم من أعلام المغاربة إلاّ أنّه قدم معلومات في غاية الأهمية عن أوضاع الحياة العلمية في الحقبة المؤرخة – نقلاً عن شيوخه وعن المصادر المعاصرة لهذه الفترة- وحمله لشعار المنافحة عن المغاربة لإحاطته بسيرة حياتهم ومعارفهم، وتتبع تاريخ خلفاء الدولة الموحدية وولاتها في مجال خدمة العلم وأهله، ومن بين الأمور التي تؤخذ عليه هو انسياقه وراء شروط الأندلسيين في التأليف؛ ولذلك لم يلتفت لمن لم يسعفه الحظ بالدخول إلى الأندلس من المغاربة، ويضاف إلى ذلك قلة تنقلاته بين مدن بلاد المغرب والأندلس الأمر الذي جعله يغلّب ذكر أعلام المنطقة الغربية لبلاد المغرب على حساب المنطقة الشرقية كبجاية ومدن بلاد إفريقية.

3.أعلام مالقة:

لأبي عبد الله محمد بن عسكر المتوفى سنة 636هـ/1238م، والذي أكمله أبو بكر بن خميس (كان على قيد الحياة سنة 638هـ/1240م) ، ويعتبر هذا الكتاب من أبرز المصادر التي اهتمت بالترجمة لأعلام المغاربة الداخلين إلى الأندلس على الرغم من أن صاحبه اقتصر في شرطه على من دخل مالقة، وما وصلنا منه لا تتجاوز تراجمه 174 ترجمة بحكمما أصاب آخر الكتاب من بتر، ومع ذلك أفاد البحث في توضيح صورة تواجد خلفاء الدولة وولاتها في الأندلس ومدينة مالقة تحديدا، ونبرة ولائه للدولة واضحة من سياق أسلوبه، ولم يفرد كتابه للعلماء فحسب وإنما انفرد بالترجمة لغيرهم من قادة الموحدين و أحفاد بني عبد المؤمن، وأسهم المؤلفان في رصد حركة تنقل العلماء بين العدوتين وتأثير ذلك في التواصل العلمي بينهما.

4.عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية:

لأبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني البجائي (ت714هـ/1314م)، وفيه ترجم صاحبه لعلماء مدينة بجاية سواء كانوا من أهلها أو ممن استوطنها أو وفد عليها خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وقد رصد صاحبه هجرات العلماء بين العدوتين الأندلسية والمغربية؛ وما وقف عليه من وثائق نصية لإجازات الشيوخ ومراسلاتهم العلمية؛ وهو مصدر مهم في تتبع حياة المتصوفة من الصلحاء والعباد بحكم تركيزه على هذه الشريحة المؤثرة في المجتمع حينئذٍ، وما يلاحظ عليه أنّه أغفل الكثير من علماء بجاية من غير المتصوفة ممن اشتغلوا بالعلوم النقلية والعقلية، وأسهموا في الحياة العلمية بالمدينة على غرار الكُتاب والقضاة والشعراء والأطباء والفلاسفة وغيرهم.

5.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:

لأبي العباس أحمد بن محمد الشهير بالمقري التلمساني المتوفى سنة1041هـ/1631م، جمع فيه صاحبه بين عدّة فنون كالتاريخ والتراجم والشعر والأدب؛ ونقل عن عدد كبير من المصادر المتنوعة فعدّ بحق موسوعة تاريخية وأدبية، ومورد مهم للحياة العلمية والاجتماعية، وبالرغم من أنّ المقري من المتأخرين عن الفترة المدروسة إلاّ أنّه حافظ على جملة من المصادر والروايات التي فقدت أصولها، ولعل هذا ما أهل كتابه لأنّ يحظى بمكانة بين المصادر المتقدمة والمعاصرة لأحداث الدولة الموحدية وغيرها، وقد أفاد البحث في تتبعه لأخبار أعلام العلماء في مجال العلوم النقلية والعقلية، وكشف لمواطن تجوالهم واسقرارهم بين المدن والحواضر؛ وبخاصة عوامل هجراتهم ونتائجها، غير أنّ الإشكال الذي يقف أمام الباحث في موضوعات كتابه هو عدم اتباعه لمنهج واضح في تدوين معلوماته فتراه ينتقل بين الأخبار والأحداث من دون ترتيب ولا مبرر تاريخي، وإكثاره من الاستطرادات، ويشفع له ذلك بُعده عن مكتبته، واكتفائه بما كان بين يديه وما رواه من ذاكرته.

6.عيون الأنباء في طبقات الأطباء:

لابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجى موفق الدين المتوفى سنة 668هـ/1269م، عاصر صاحب هذا الكتاب فترات مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وقريب عهد بالكثير من الأحداث التي مرّت بها، وتكمن أهميته في إفراد الترجمة لأشهر أطباء المغرب الإسلامي؛ وبخاصة من عاشوا في القرن السادس والسابع الهجريين، وقد أفاد البحث في التعرف على أسمائهم وأشهر مؤلفاتهم وعلاقتهم بالسلطة الموحدية، كما بيّن فيه إسهامات خلفاء الدولة في العلوم الطبية؛ وهو بذلك يعد من أهم المصادر التي أرّخت لتاريخ الطب في المنطقة، غير أنّ ما يلاحظ على هذا المصنف أنّ صاحبه أولى اهتماماً بالتوسع في الترجمة لأشهر الأطباء بينما وردت معلوماته مقتضبة عن غيرهم؛ وبخاصة أهل بلاد المغرب.

أ- كتب التاريخ:

ارتبط التحقيب الزمني بمختلف مجالات حياة الفرد والمجتمع، وشكّلت كتب التاريخ موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول والسلالات الحاكمة موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول وحكامها ضمن المسار التفاعلي لحركة التاريخ، ومن أهمها:

1.المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب:

لأبي محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي كان بقيد الحياة سنة 621هـ/1224م، ألف كتابه هذا في مدينة بغداد، وقد عاصر عبد الواحد فترة مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وبحكم قربه من حكام الموحدين حرص على تدوين ما شاهده من أحداث، أو سأل عنه من يثق به، وفي كتابه أخبار عن بعض ملامح الحياة العلمية في بلاد المغرب والأندلس، و وصف لأحوال العلماء وعلاقة السلطة الموحدية بهم، غير أن شمولية المنهج الذي اتبعه في التأليف بين الطريقة الحولية والموضوعية جعله يغفل الكثير من التفاصيل ذات الصلة بالحياة العلمية بحسب ما اشترطه في كتابه، وأنّ بعده عن مجريات الأحداث؛ وبخاصة في المراحل الأخيرة من تاريخ الدولة جعلته يلتزم الاختصار.

2.البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب (قسم الموحدين):

لأبي عبد الله محمد، الشهير بابن عذاري المراكشي (كان بقيد الحياة سنة 712هـ/1312م) خصص هذا الجزء من كتابه للدولة الموحدية وفيه أورد أخبار حولية مفصلة عن الدولة الموحدية، وإسهامات خلفائها وولاتها في المجالات السياسية والعلمية والحضارية، وتكمن أهميته في الاعتماد على روايات عاصر أصحابها دولة الموحدين، ومنهم من خدم في بلاطهم كالكُتّاب والمؤرخين، ومعظمها في حكم المفقود، غير أنّ ما يؤخذ على صاحب هذا الكتاب هو عدم تنويعه في المصادر التاريخية غير تلك التي كانت تدين بالولاء للموحدين، فظهر مؤلفه بنسق تاريخي واحد لا يحيد فيه عن نظرة مؤرخي البلاط.

3.تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين:

لأبي مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى سنة 594هـ/1198م، دوّن ابن صاحب الصلاة الكثير من الأحداث التي عاشها بحكم خدمته في دواوين الموحدين وولائه لهم، فاعتمد على رواية الأخبار التي عاصرها، والسؤال عن تلك التي لم يشهدها بنفسه أو بسبب بعده عنها، والكتاب لم يصل إلينا كاملا والموجود بين أيدينا ما هو إلا قطعة منه أرخ فيها للحوادث الواقعة بين سنتي 544 و568هـ، وأهميته تكمن في وصفه للأحداث التي أعقبت دخول الموحدين إلى الأندلس، وأبرز إسهاماتهم العلمية والحضارية، كما انفرد بذكر ما له صلة بالتواصل العلمي بين الأندلس وبلاد المغرب من خلال ذكر بعض أعلام المنطقة، ولا يختلف ابن صاحب الصلاة عن مؤرخي البلاط؛ بحيث تظهر عليه النزعة الذاتية المفاخرة بالدولة وأعلامها.

4.ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر

لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى سنة 808هـ/1406م، وابن خلدون من أبرز المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ المغرب الإسلامي، ومعرفة شعوبه وقبائله وتاريخ دوله، وجمعه بين مختلف الروايات مع إبداء رأيه في الكثير من أخبارها، وقد خصص الجزء السادس من كتابه للتأريخ لبلاد المغرب والأندلس؛ ولأنّ البحث وطيد الصلة بتاريخ العلوم والفنون فلا خفاء ما لمقدمته الشهيرة من إفادة في تعريفها وتتبع نبذ عن تاريخها، وما عرضه من آراء ونظريات عن انتشارها وأبرز روادها بين العدوتين الأندلسية والمغربية.

5.المُغرب في حلى المَغرب:

لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي المتوفى سنة 685هـ/1286م، هذا الكتاب تعاقب على تأليفه ستة من عائلة ابن سعيد، وعلى مدار مائة وخمسة عشر عاماً، وهو يقوم على ترتيب مواده على البلاد وما فيها من خصائص جغرافية وسياسية، ثم يعرف بطبقات كل بلد بداية بالأمراء والعلماء والشعراء ثم من ليس له نظم ولا يحسن إغفاله، والكتاب يحتوي على معلومات تاريخية مهمة عن دولة الموحدين، وبه تراجم لكثير من أعلام المغاربة، وقد عاصر ابن سعيد السنوات الأخيرة من تاريخ الموحدين في بلاد المغرب والأندلس؛ وهو قريب عهد بالأعلام الذين خدموا في دواوين الدولة؛ فوثّق معلوماته عنهم، وكتابه هذا يضاف إلى تصانيفه الأخرى ذات الفائدة البالغة في معرفة تاريخ العلوم ومصنفاتها، وإن بدا اهتمامه بالأدب وأهله أكثر من غيره .

6.الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس:

لأبي الحسن علي بن أبي زرع الفاسي الشهير بابن أبي زرع (كان حيا سنة726هـ/1326م)، أرّخ ابن أبي زرع لأخبار ملوك بلاد المغرب ودولهم من لدن الفتح الإسلامي إلى سنة 726هـ التي توقف فيها كتابه، وفيه عرض لتاريخ الموحدين وإسهاماتهم الحضارية في العدوتين الأندلسية والمغربية، ومن الملفت أنّ ابن أبي زرع كان يكتب متحرراً من رواية مؤرخي الدولة الموحدية فكثيراً ما كان يخالفهم في الرأي أو ينبه إلى ما ورد عند غيرهم، غير أنّ اختصاره لبعض المحطات التاريخية المهمة في حياة أعلام الأندلس وبلاد المغرب وخلفاء الدولة وأمرائها- بالرغم من انفراده بذكرها- قلل من فائدة إيرادها؛ بحيث لم تتضح صورتها عند غيره.

ج. الكتب الجغرافية:

1.الروض المعطار في خبر الأقطار:

لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري الصنهاجي (ت727هـ /1326م)، تكمن أهمية هذا الكتاب في الربط بين الوصف الجغرافي والخبر التاريخي، مع ذكره لأخبار ذات صلة بالجوانب المعمارية والعلمية لمدن الأندلس والمغرب، وقد وقف الحميري عند العديد من

الأخبار الخاصة بتاريخ الموحدين من خلال ذكر أسماء أعلامهم ومنجزاتهم، وما عرفته المدن من عمارة وتشييد أو خراب ومعارك أثرت في تركيبة سكانها؛ وهو ما يتيح للباحث معرفة مواطن هجرة العلماء وأسبابها، كما أفاد البحث في رفع الجهالة عن الكثير من المدن حين التعريف بها، واكتفى الحميري من كل ذلك بمجرد النقل عن غيره، من دون التصريح بأصحاب الروايات الأصليين مع عدم إبدائه لرأيه.

2.نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق:

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف الإدريسي المتوفى حوالي سنة 560هـ/1066م، عاش الإدريسي فترة نهاية تواجد المرابطين على الأراضي الأندلسية، وقد أفاد البحث في وصفه لأوضاع الأندلس خلال هذه الفترة الانتقالية من تاريخ المنطقة، كما عرّف بأماكن استقرار المغاربة، وأعطى صورة عن أحوال المدن و القرى.

ولأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون، سبق التعريف بكتابه في التاريخ، وأهمية مقدمته في تاريخ العلوم إجمالاً، إلاّ أنّ ثمة جانباً مهماً انفرد به ابن خلدون في مقدمته؛ وهو التعريف برواد العلوم العقلية في تاريخ الإسلام إلى غاية العصر الذي عاش فيه مع ذكر أهم مصنفاتهم العلمية وإسهاماتهم الحضارية كالأطباء والمهندسين والفلاسفة وأهل الحساب وغيرهم، ولأنّه من أهل بلاد المغرب فلا غرابة أنّ تقدّم آراؤه على غيره في الكثير من الموضوعات التي تتضارب فيها الروايات أو يحوم حولها الغموض، ويعود ذلك إلى سعة اطلاعه ومعرفته بالأطوار التي مرّت بها العلوم العقلية والنظرية، وإحاطته بعلاقات حكام الدول بأهلها وموقفهم منها، ومناهج تعليمها وأسباب تطورها أو انحسارها.

هذه جملة من المصادر الأولية التي اقتصرت على ذكر بعضها، وفي ثنايا هذه الدراسة عرض لغيرها من الدواوين والمصنفات المطبوعة والمخطوطة، ومختلف الأبحاث العربية والأجنبية الخاصة بالباحثين المحدثين وفي مختلف التخصصات النقلية والعقلية، والهدف منها إحاطة الموضوع - قدر الإمكان- من جميع جوانبه بما يكفي لسبر غور مباحثه واقتفاء آثار رجالات العلوم وإسهاماتهم في مختلف المعارف والفنون في مقاربة تاريخية ضمن الحدود الزمنية والمجالية للدولة الموحدية.

ومن الصعوبات التي واجهت مراحل إعداد البحث وتقصي موضوعاته هو عدم التمكن من الاطلاع على العديد من المخطوطات النادرة التي تعود إلى الحقبة المدروسة؛ وبخاصة في مجال العلوم العقلية مع إمكانية الوصول إلى أرقامها وتصنيفاتها في دور المخطوطات وخزائنها، وأخص بالذكر مكتبة الإسكوريال بإسبانيا ومكتبة لشبونة الوطنية بالبرتغال ومكتبة جامعة غوتينغن بألمانيا، مع استفراغ الجهد في اتباع جميع الإجراءات القانونية والإدارية، والتواصل مع الباحثين العرب والأجانب للظفر ببعض نسخها المهمة؛ غير أنّ ما يؤسف له أنّني اكتفيت بمجرد المحاولة حتى لا أقول الفشل، وحق لها بذلك أن تصنّف ضمن تراثنا المخبوء.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت في الإلمام بأهم مباحث هذه الدراسة وما اخترته لها من مصادر ومراجع، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

فصل تمهيدي

- مصطلحا "بلاد المغرب" و"الأندلس" ومعاني دلالاتهما الجغرافية والسياسية:

تكمن أهمية ضبط المصطلح الجغرافي وتحديد معالمه في معرفة مدى تطابق نصوص الأمكنّة والمواطن الجغرافية مع الفترة المؤرخة من جهة، وتفادي المصطلحات المستحدثة في الإستريوغرافية العربية بعد العصر الموحدي من جهة أخرى؛ ولذلك نجد أنّ من أشهر المصطلحات التي عاصر ظهورها تاريخ المنطقة هي: "بلاد العدوة"، و"بلاد المغرب"، ولا خلاف حول لفظ "الأندلس" إلاّ ما تناقص منها بسقوطه في أيدي النصارى، و وقع النزاع حوله بين الموحدين وخصومهم- وهو ما سيرد لاحقاً- أو تحديد مواقع المدن بدون ضابط جغرافي آخر مثلما هو الحال في كتابات البيدق الصنهاجي (من أهل القرن 6هـ/12م)، و"المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة (كان بقيد الحياة سنة595هـ/1198م).

استمرت هذه العبارات عند من تأخر عنهم من المؤرخين والجغرافيين الذين أوردوا مصطلح "المغرب" وأشاروا به إلى تلك المنطقة الممتدة من الحدود المصرية شرقاً إلى المحيط غرباً؛ وهو المقصود في اختيار ابن عذاري "البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، بينما استعمل اللفظ ذاته ليشمل منطقة "الأندلس والمغرب" معاً عند المعاصرين للدولة الموحدية، أو من كان قريب عهد بها كابن جبير(ت614هـ/1217م) في جغرافيته الوصفية، وعبد الواحد المراكشي (كان بقيد الحياة سنة621هـ/1224م) في "المُعجب في تلخيص أخبار المغرب"، وابن عسكر (ت636هـ/1238م) في "أعلام مالقة"، وابن سعيد الغرناطي (ت685هـ/1286م) في "المُغرب فى حلى المغرب" وغيرها من مؤلفاته.

إنّ تقسيم منطقة بلاد المغرب إلى أقاليم جغرافية مختلفة (أدنى وأوسط وأقصى)، وإخضاعها للبحث والدراسة السياسية والاقتصادية و الاجتماعية والحضارية ضمن النطاق الضيق لمفهوم الدولة القطرية الحديثة في ظل سيادة الدول الموحدة للضفتين الأندلسية والمغربية قد لا يتوافق مع طبيعة التوجهات الوحدوية، ومعالم الاختيارات السياسية التي أرستها مدينة "مراكش" كحاضرة للعدوتين بداية من ظهور المرابطين ثمّ شمول دلالاتها

الجغرافية والسياسية في العصر الموحدي[1]؛ وبخاصة أنّ اتباع منهجية كرونولوجية في ترتيب النصوص وتفريغها على مدار السنوات المتعاقبة لهذه المرحلة لا تبرز بينها مصطلحات وتعابير تنم عن تباين للأقاليم الثلاثة؛ بينما تظهر أسماء الحواضر في الفترة الموحدية من دون ربطها بالحدود السياسية لهذه المناطق التي تخلّف ظهورها إلى ما بعد القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي[2].

ولنا في السياقات الجغرافية التي أفرد لها عبد الواحد المراكشي- المعاصر للموحدين - حيزاً بآخر كتابه "المُعجِب" ما يؤكد ذلك ويدلل عليه؛ بحيث أورد ذكر المدن من دون إضافتها إلى كيان جغرافي آخر، ويتوافق هذا تماماً مع النصوص التي رصدها ابن عذاري في البيان المغرب- قسم الموحدين- وفصل أهل التراجم في أحيان كثيرة بين إفريقية وبلاد المغرب زيادة منهم في التوضيح ورفع الالتباس عن الأعلام المترجم بهم[3]، والظاهر أنّ العديد من الدراسات -لا سيما العربية منها- لم تأخذ هذه المعطيات بعين الاعتبار وإنّما اتبعت نفس النسق الذي ظهر مبرزاً ضمن عناوين المدونات التاريخية العامة التي بدأ ظهورها الأول في القرن التاسع عشر على يد أبي العباس أحمد الناصري السلاوي في كتابه "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"؛ بحيث اتخذ من الدولة القطرية الحديثة معلما أرّخ من خلاله لأخبار الدول التي ظهرت فيها بقوله: " ذكرت فيه دول هذا القطر المغربي من لدن الفتح الإسلامي إلى وقتنا هذا"[4] بينما تجده يتحدث في عصري المرابطين

1- بقيت بعض المناطق في بلاد المغرب خارجة عن سيطرة المرابطين؛ ومنها مدن إفريقية بحيث وقع الصراع عليها بين أمراء صنهاجة والقبائل العربية الهلالية، وسيطر الحماديون على بجاية وما جاورها، بينما امتدت سلطة الموحدين إلى الحدود المصرية شرقا. ينظر الهادي روجي إدريس- الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن10 إلى 12م- تر حمادي السّاحلي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1- 1992م- ج1- ص ص 245- 359.

2- يلاحظ هذا بوضوح عند ابن عبد المنعم الحميري(ت727هـ/1326م) الذي عاصر هذه التقسيمات؛ فتجده يربط بين المدينة والإقليم الذي تعود إليه فمثلا: تلمسان وبجاية يضيفها للمغرب الأوسط، ومراكش وفاس للمغرب الأقصى، وتونس وما جاورها لإفريقية. ينظر الروض المعطار في خبر الأقطار- تح إحسان عباس- مكتبة لبنان- بيروت- ط2- 1984م- ص 80-143-135-434-540، وكذلك ابن خلدون- ابن خلدون، عبد الرحمن- مقدمة ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر- ضبط ومراجعة خليل شحاتة وسهيل زكار- دار الفكر- بيروت- (د ط)- 2001م-ج6- ص29.

3- ابن عبد الملك المراكشي- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة- تح محمد بن شريفة- مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية- المغرب- (دط)- 1984م- ج8- ص 237.

4- السلاوي، أبو العباس أحمد الناصري- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- تح جعفري الناصري و محمد الناصري- دار الكتاب- الدار البيضاء- المغرب- ط1- 1997م-ج1- ص58.

والموحدين عن مجال جغرافي أبعد من عنوانه المسمى، مما اضطره في مواضع كثيرة إلى اعتماد مصطلح "بلاد المغرب"[1].

مثّل هذا الاتجاه - بعد السلاوي- محمد المنوني في مختلف أبحاثه و دراساته، محاولاً الربط بين النصوص التاريخية للمرحلة الوسيطية والمعنى المحدود للدولة القطرية، وغلب عليه الجانب الحضاري بشقيه التعريف بالتراث المصدري المطبوع منه والمخطوط، وإبراز الجانب العلمي والمعماري الموصوف، وقد تجسد الأول في كتابه "المصادر العربية لتاريخ المغرب"، والهدف منه هو مضامين "المؤلفات التي تتصل بتاريخ المغرب الأقصى"[2]، وعلى الرغم من وقوفه على النصوص التي تفيد الفترة التي ارتسمت فيها المعالم السياسية للصُقع المغربي بعد العصر المريني إلاّ أنه لم يحدد مضامين الاستفادة من المصادر الحولية والشاملة التي أرخت لبلاد المغرب والأندلس، ولم يرد فيها ما يشير إلى هذا التحديد؛ ومنها على سبيل المثال لا الحصر كتاب "المُعجب" لعبد الواحد المراكشي فاكتفى بالتعريف العام بها[3]، وتجسد الثاني في مصنفه "حضارة الموحدين"؛ والذي يتبادر للمطلع على عنوانه شمولية المعنى الحضاري الذي بلغته مدن و حواضر بلاد المغرب والأندلس خلال العهد الموحدي - بغض النظر عن مواقعها الجغرافية - إلاّ أنه اقتصر في محتواه على ما يدور في فلك المفهوم الضيق للدولة القطرية الحديثة.

وفي موضوع الدراسة تم الوقوف على نماذج عديدة - أبحاث مستقلة وأخرى أكاديمية- اتبعت الاتجاه نفسه؛ بحيث اتخذت من الحقبة الموحدية مورداً لطرق مختلف الموضوعات السياسية والحضارية، غير أنها لم تلتزم بالبعد الجغرافي والحضاري للدولة الموحدية، إما بدراسة إقليم مجتزئ من عموم الدولة، أو الربط بين عموم ما عرف من حضارتها وإلحاقه بجزء جغرافي منها، وحكموا بذلك على الكل بمصير الجزء، وبناءً عليه تمّت التفرقة بين

1- السلاوي- المرجع السابق- ج2- ص ص 29- 143.
2- محمد المنوني- المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط - جامعة محمد الخامس- المغرب- (د ط) - 1983م- ج1- ص 14.
3- المرجع السابق- ص50. وقف ابن سودة عند هذا المفهوم فاشترط في كتابه: دليل مؤرخ المغرب الأقصى ذكر "التآليف التي ألفت في تاريخ المغرب فقط لا من ذكر المغرب على التبع لغيره" غير أنّه خرج عن هذا الشرط فذكر مؤلفات عامة ذكرت المغرب بالتبع لغيره. ينظر مؤلفه دليل مؤرخ المغرب الأقصى دليل ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، ويليه ذيل دليل مؤرخ المغرب الأقصى- دار الفكر- بيروت- ط1- 1997م- ص 5.

النصوص ذات النسق التاريخي الواحد، الأمر الذي انجرّ عنه إغفال الكثير من الأعلام والمدن؛ لأنها ليست ضمن مجالها المحدد سلفاً، والحقيقة أنه نوع من القصور الذي لا يتحمله المنهج التاريخي الذي يربط بين الأبعاد الثلاثة: الجغرافي والسياسي والزمني في العملية التأريخية، ولذلك وقف المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال مطولا للفصل بين المفهومين الزمني والجغرافي فيم اتّصل بالمصطلح الحديث للمغرب ومجاله الحضاري تحديدا[1].

إنّ السعي وراء تتبع معالم الخريطة الجغرافية للدولة الموحدية في أقصى اتساعها يحتم على الدارس عرض مقاربة حضارية ترتكز على انتقاء نصوص ومواد علمية تتوافق مع هذا الطرح، والتمثيل لها بما يتمّ إحصاؤه من عينات تسهم في رصد صورة مقربة لما كانت عليه الحياة العلمية في مختلف المدن وإن تباعدت جغرافياً، وللخروج من معترك الاصطلاحات المعتمدة حديثاً وقع الاختيار على مصطلح "بلاد المغرب" الذي يتناسب مع الفترة المؤرخة، وتمّ انتقاؤه من مؤرخ عاصر الحقبة الموحدية وعبر بقلمه عمّا كان سائداً أو متعارفاً عليه في وقته؛ وهو عبد الواحد المراكشي الذي ختم ما بسطه جغرافياً بقوله: "فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ومسافات الأبعاد التي بين كل بلد وبلد؛ ومنها ما سافرت فيه بنفسي، ومنها ما نقلته مستفيضاً عن السفار المترددين"[2]، والأمر ذاته عند الزهري (كان بقيد الحياة منصف القرن6هـ/12م) في جعرافيته[3]؛ وهو من معاصري الموحدين.

وأما المعالم الجغرافية لمصطلح "الأندلس" في العصر الموحدي فليست هي ذاتها الموصوفة في المصادر التاريخية والجغرافية التي بلغت أقصى اتساعها إلى نهاية عصر الولاة سنة 138هـ/755م بسبب توقف الفتوحات الإسلامية في المناطق الشمالية منها، وبداية استيلاء الممالك النصرانية على مناطق واسعة منها؛ وبخاصة في عصر ملوك

1- ليفي بروفنسال- مؤرخو الشرفاء- تعريب عبد القادر الخلادي- مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر- الرباط - (د ط)-1977م- ص ص 24- 27.

2- عبد الواحد المراكشي- المُعجب في تلخيص أخبار المغرب- اعتنى به صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- بيروت- ط1- 2006م- ص 268.

3- الزهري، أبو عبد الله محمد- الجعرافية- تح محمد حاج صادق- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- (دط)-(دت)- 106.

الطوائف[1]، و بالرغم من القوة الرادعة التي شكلتها الجيوش المرابطية والموحدية ضد هجمات الممالك النصرانية والحدّ من تقدمها جنوبا إلاّ أنّها لم تتمكن من استرداد جميع ما فقد في العهود السابقة.

وفي الفترة التي تولى فيها عبد المؤمن بن علي الكومي[2] (524-558هـ/1129-1162م) تمكن من إلحاق معظم المدن الأندلسية تحت رايته بداية من سنة 541هـ/1146م، وأحكم قبضته على مدنها الكبرى غير أنّ المنطقة الشرقية للأندلس بقيت خارجة عن سيطرته، بالرغم من محاولاته المتكررة، وتوفي قبل إخضاعها لحوزته بسبب ظهور إمارة ناصبت العداء للموحدين فيها رسمت لنفسها حدوداً سياسية، ومعالم حضارية شملت معظم الحواضر الكبرى لهذه الجهة، وعرفت بإمارة ابن مردنيش[3] (ت567هـ/1178م) واستمر وجودها لأزيد من عقدين، ولازال الغموض يراوح تاريخ ظهورها وقدرتها على مقارعة الموحدين بسبب ندرة المادة التاريخية عن هذه الحقبة إجمالاً، ويضاف إليها منطقة الجزائر الشرقية؛ وهي تضم ثلاث جزر بحرية[4] في البحر المتوسط بقيت ردحا من الزمن بيد بني غانية[5]، ويفهم من هذا أنّ عبارة "الأندلس" عندما تطلق يجب أن تحدد خريطتها على ضوء معرفة الأوضاع السياسية المراد الحديث عنها.

1- من أشهر المدن الشمالية الكبرى التي سقطت في يد النصارى مدينة بنبلونة سنة 131هـ/748م، وبرشلونة سنة 375هـ/985م، وشلمنقة سنة 447هـ/1055م، ومجريط سنة 477هـ/1084م، وطليطلة سنة 478هـ/1085م، وشنترين سنة541هـ/1146م، ينظر المقري- المصدر السابق -ج1- ص 234، و حسين مؤنس- موسوعة تاريخ الأندلس- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- ط1-1996م-ج1- ص36 وج2- ص ص 381.

2- هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلا الكومي الزناتي، نسبه مؤرخوا دولته إلى قيس عيلان، أصله من تاجرة (تلمسان)، وقد لزم المساجد منط صغره، وبويع بالخلافة بعد وفاة المهدي سنة524هـ/1129م إلى غاية وفاته سنة 558هـ/1162م. ابن أبي زرع – المصدر السابق- ص ص 183-202.

3- هو أبو عبد الله محمد بن سعد الجذامي الشهير بابن مردنيش، استطاع إحكام السيطرة على مدن شرق الأندلس، وتمكن أبو يعقوب بن عبد المؤمن من إخضاعه ومصاهرته بزواجه من ابنته، وقد رجح حسين مؤنس أنّ أصل اسم مردنيش يرجع إلى اللغة اللاتينية (Martinez)، ونقل عن المراجع الإسبانية أنه كان يتشبه في هيئته ولباسه بالنصارى إلى جانب الحديث بلغتهم، ينظر هامش تحقيقه لكتاب الحلة السيراء لابن الأبار- دار المعارف- القاهرة- ط2- 1985م-ج2- ص ص 232-233، وموجز أخبار هذه الإمارة أوردها ابن الخطيب لسان الدين- تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام- تحقيق ليفي بروفنسال- دار المكشوف- بيروت- ط2- 1956م - ص ص 270- 275.

4- وهي ميورقة ومنورقة ويابسة، من جزر البحر المتوسط، وتكبرهم ميورقة من حيث المساحة. ينظر عنها ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص567.

5- أصلهم من قبيلة مسوفة البربرية إحدى قبائل صنهاجة، ينتسبون إلى علي بن يوسف المسوفي أحد رجال يوسف بن تاشفين الذي زوجه من قريبة له تدعى غانية؛ فأنجبت ولدين هما محمد ويحي وعرفا باسم أمهم على عادة هذه القبائل، استطاع بنو غانية التفرد بحكم الجزائر الشرقية بعد سقوط دولة المرابطين، ولم يعترفوا بسلطة الموحدين بحيث؛ أقاموا

وتكمن أهمية العلاقة بين الواقع الميداني للأراضي الأندلسية وجوانب الحياة العلمية وتواصلها بين العدوتين فيما يلي:

- اختفاء النسبة البلدانية للأعلام الذين سقطت مدنهم في أيدي النصارى خلال العهود المذكورة كالطليطلي والمجريطي والشنتريني والشلمنقي وما شابه إلاّ ما كان على سبيل التذكير بأصولهم.

- عدم إضافة أسماء الأعلام الذين انتسبوا لمدن شرق الأندلس والجزر الشرقية إلى الدولة الموحدية؛ كالقضاة والفقهاء والكتاب ومن انتسب للعلم وأهله، وورد التنبيه من أهل التراجم والطبقات بانتسابهم لإمارة ابن مردنيش إلى غاية سقوطها في أيدي الموحدين، والأمر ذاته بالنسبة لبني غانية إلى نهاية حكمهم سنة 599هـ/1203م إلاّ من ثبت تجوالهم بين مدن بلاد المغرب والأندلس، أو تبيّن اتصالهم بالموحدين والالتحاق بمراكزهم التعليمية، ولا خفاء ما لذلك من ارتباط بمسألة الولاءات السياسية والعقدية؛ وهو ما سيتم الوقوف عليه في فصل الحياة العلمية.

التحقيب الزمني لسلطة الموحدين على العدوتين المغربية والأندلسية:

لا يستقيم التأريخ للحياة السياسية والحضارية من دون مجال زمني ومكاني يتعين فيه معرفة بداية الظهور الفعلي للدول ونهايته، وإن اتجهت بعض الآراء إلى حصره فقط في الجوانب السياسية وما تعلق بها للفصل بين الأحداث والوقائع المرتبطة بالسلط الحاكمة للمقارنة بين سياسات الدول في التفاعل معها وإظهار أدوارها، وما تميز به كل عصر، وأما الحياة الاجتماعية والمعرفية وما اتصل بها فليس ثمة ما تدعوا الحاجة إليه لضبط التحقيب الزمني من بداية الظهور إلى الأفول لتداخلها في أحايين كثيرة، والاكتفاء بإلحاقها بالعصر المؤرخ باسم الدولة وموطنها، غير أنّ طبيعة بعض الموضوعات التي تتضارب فيها

الدعوة للخلافة العباسية، واستمر صراعهم مع الموحدين إلى غاية سنة 599هـ/1203م تاريخ سقوط الجزائر الشرقية في أيدي محمد الناصر الموحدي. عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص ص195-231. ابن عذاري- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- قسم الموحدين- تح محمد إبراهيم الكتاني وآخرون- دار الغرب الإسلامي- بيروت- دار الثقافة- المغرب- ط1- 1985م - ص ص183-240. وينظر تفصيل تسميتهم عند حسين مؤنس- المرجع السابق-ج2- ص117.

روايات أخذ البيعة والإقرار بفروض الطاعة والولاء تفرض نوعاً من التحري في تزمين المراحل الانتقالية للخروج من دائرة التعميم في التوصيف التاريخي المطلق؛ وهو ما ظهر جليا في تاريخ العلاقات بين العدوتين المغربية والأندلسية، وبروز الحاجز الجغرافي بينهما في خضم الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة منذ العهد الأموي.

تكمن أهمية هذه الحيثيات في تتبع مصائر التدرج بين القوة والضعف عند تأسيس الدول وانهيارها؛ ولذلك خصّها ابن خلدون بنظريته الشهيرة حول نشوء الدول المستجدة على أنقاد تلك المستقرة، وساق من أمثلته ما حدث للموحدين مع من سبقهم من الأمم "وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقّصوه من أطرافها"[1]، ومصير نهاية عهدها حين "أدركها الهرم والضعف فإنّما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف"[2].

تظهر إشكالية تحديد الفترة الزمنية وتحقيبها بالنسبة للدولة الموحدية في فترات ضعفها وبداية انّفصال أقاليمها، علماً أنّه لا خلاف في تحديد تاريخ البداية الرسمية لكيان الدولة من خلال معرفة سنة دخول الموحدين إلى حاضرة المرابطين "مراكش" وسقوطها بأيديهم سنة 541هـ/1146م، وإن سبقت مبادرة اتصالهم بالعدوة الأندلسية لهذه السنة[3]، غير أنّ تاريخ فك الارتباط عنها ينتابه الغموض، وتتضارب حوله الروايات بسبب نشوب الفتن بداية من سنة621هـ/1224م، وتواصلها لعقد من الزمن حسب ما رصده المؤرخون وأهل التراجم، وتقديم ما يبرر ترجيح اختيار سنة 626هـ/ 1228م تاريخ خروجها عن سلطتهم وانبعاث الصراع داخل البيت الموحدي على ما بقي تحت لوائهم من حواضر بلاد المغرب إلى غاية السقوط النهائي لدولتهم على يد المرينيين سنة 668هـ/1269م؛ فما السبب وراء التنبيه على هذا التاريخ بالذات للفصل السياسي بين العدوتين المغربية والأندلسية في الوقت الذي

1- ابن خلدون- المصدر السابق- ج1- ص 373.
2- المصدر نفسه- ص 203.
3- أشار ابن أبي زرع إلى أن سنة 539هـ/1144م ملك فيها الموحدون مدينة شريش الأندلسية وخطب لهم بها، بينما أورد ابن عذاري أنّ أول خطبة خطبت لعبد المؤمن بن علي في الأندلس كانت سنة 540هـ/1145م. ينظر على التوالي الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط -(د ط)- 1972م- ص 262، والبيان المغرب- المصدر السابق- ص 34.

تتضارب فيه السنوات المقترحة في عناوين أبحاث الباحثين المحدثين[1]- سيرد ذكرها في مضامين هذه الدراسة – أو يتم التخلي عن التحقيب الزمني خروجاً من الخلاف مما يصعب على الباحث تعيين تاريخ محدد يعتمد عليه؟

حصر الروايات التاريخية ونقدها:

إنّ الهدف من جمع الروايات وإعادة تفريغ نصوصها وترتيب سنواتها هو معرفة مواطن الاختلاف بين المؤرخين والرواة حول بداية فك الارتباط بين العدوتين المغربية والأندلسية، والوقوف على دواعي تحديدها بسنة 626هـ؛ وهو ما يفتح المجال لأجل رصد تداعيات هذا الاختيار على المستويين السياسي والعلمي.

ذكر ابن عذاري أنّ في سنة 626هـ بدأ ظهور أبي عبد الله محمد بن هود[2] في الأندلس، وطاعت له "أكثر بلادها ورؤسائها وأنجادها وخعلوا طاعة الموحدين عنها وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلاّ من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم"[3]، وانفرد ابن أبي زرع بتحديد شهر ذي القعدة الذي بايع فيه أهل الأندلس ابن هود، وقاموا بإخراج الموحدين من السنة ذاتها[4].

من جهة أخرى أثبت لسان الدين بن الخطيب خروج أبي العلاء إدريس المأمون بن المنصور الموحدي[5] (624-629هـ/1226-1231م) من الأندلس سنة 626هـ قاصدا

1- يظهر ذلك بشكل واضح في عناوين الكتب والرسائل الجامعية المقيدة بقسم البيبليوغرافيا، ويذكر منها كأنموذج دراسة الباحث مصطفى أبو ضيف أحمد عمر- القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين والمرينيين، وعنوانها لا يتطابق مع شرحه للمصطلح في بابها الأول- ينظر بحثه من طبعة ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-(دط)-1982م- ص27.
2- هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي، وقد شكك ابن سعيد في انتسابه إلى بني هود ملوك سرقسطة، وخصّه ابن الخطيب بالترجمة، وأنه ملك بعد الموحدين مرسية و قرطبة وإشبيلية وغيرها، وكان يدعى بأمير المسلمين ويلقب بالمتوكل على الله، وساء حاله في آخر حياته وتوفي مغرباً عن وطنه في مدينة آسفي. ينظر ابن سعيد – المغرب في حلى المغرب- تح شوقي ضيف- دار المعارف- القاهرة- ط4- 1995م- ج2- ص251، وابن الخطيب- المصدر السابق- ص 279.
3- ابن عذاري- المصدر السابق- ص 288.
4- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 275.
5- هو أبو العلاء إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، بويع بالخلافة في إشبيلية سنة 624هـ/1226م، وهو أديب وشاعر بليغ، أشاد بذكره ابن الخطيب وأفرد له ترجمة خاصة في الإحاطة، وقد اختلف

مراكش، ودخوله في أتون الفتنة التي حدثت بين أبناء عمومته، والتي انتهت بوفاته[1]، والرواية ذاتها عند صاحب "تاريخ الأندلس"، ونص حديثه عن ابن هود "واستجابت له أقطار الأندلس فبايعه جميعها ودخلت في طاعته، وخطبت له جميع منابرها؛ وذلك في أول سنة 626هـ"[2]، وتتفق معها رواية ابن خلدون؛ بحيث أورد هو أيضاً السنة نفسها التي استولى عليها ابن هود على الأندلس" وأخرج منها سائر الموحدين، وقاتلتهم العامة في كل مكان"[3].

الظاهر من بين هذه الروايات أن مؤرخي القرن الثامن كانوا مجرد ناقلين للأحداث عن من سبقهم؛ ووقع الخلاف بينهم في ثورة أهل الأندلس بين سنتي 625 و 626هـ، والسنة التي توفي فيها أبو العلاء المأمون، وإن لم يختلفوا في سنة خروجه من الأندلس، ولذلك فالرواية الأرجح بين هذه الروايات هي تلك التي عاصر أصاحبها تلك الأخبار، وكانوا شهود عيان لتفاصيل وقائعها؛ ومنهم: المؤرخ والكاتب ابن عسكر المالقي (ت636هـ/1238م) صاحب كتاب "أعلام مالقة" الذي قدم لنا ترجمة وافية عن ابن هود ووقف على تاريخ مبايعته باليوم والشهر و السنة، حين وصفه قائلاً: "انتظمت له البلاد واتّفقت الأقطار على مبايعته والدخول في دعوته؛ فبايعه الناس في بلاد الأندلس، وخلعت دعوة الموحدين منها، وذلك في عام 626هـ"[4]، وظهرت نصوص روايات الكتاب أكثر ترتيباً؛ بحيث رتّبت الخطوة التي أقدم عليها ابن هود قبل بيعته في مدينة مالقة[5] عندما عيّن أحد أعيانها قاضيا عليها في العام ذاته[6]، وما يؤكد ضبطه للحقبة الزمنية لهذه الأحدث هو تفصيله للبيعة العامة من أهل مالقة لابن هود التي تأخرت إلى "يوم الإثنين 29 من شعبان

في سنة وفاته فقيل 629هـ/1231م، وقيل 630هـ/1232م. ابن عذاري- المصدر السابق- ص 274. الإحاطة في أخبار غرناطة- ضبط وتقديم- يوسف علي الطويل- دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 2003م- ج1- ص 222.

1- ابن الخطيب- الإحاطة في أخبار غرناطة- ضبط وتقديم- يوسف علي الطويل- دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 2003م- ج1- ج1- ص 223.

2- مؤلف مجهول- تاريخ الأندلس - تحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 2007م- ص 265.

3- ابن خلدون- المصدر السابق- ج6- ص 341.

4- ابن عسكر، أبو عبد الله محمد الغساني وابن خميس، أبو بكر محمد - أعلام مالقة - تح عبد الله المرابط الترغي- دار الغرب الإسلامي ودار الأمان- الرباط - ط1- 1999م- ص 174.

5- مدينة بالأندلس على شاطئ البحر عليها سور من صخر، وهي حسنة عامرة في غاية الحصانة والمنعة، وبها مبانٍ فخمة وحمامات حسنة وأسواق جامعة. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص ص 517- 518.

6- هو القاضي محمد بن الحسن بن محمد الجذامي المالقي يكنى أبا عبد الله، من حسباء مالقة وأعيانها، عرف بنظمه للشعر، وتولى قضاء مالقة أيام بن هود إلى غاية وفاته بغرناطة سنة 631هـ/1233م. المصدر السابق- ص 165.

من العام بعده، فأول جمعة أقيمت لدعوته ودعوة العباسيين كانت في 4 من رمضان من العام المذكور"[1]، ويمكن أن يفسر ذلك بالبعد الجغرافي لمدينة مالقة في أقصى جنوب الأندلس، وقربها من بلاد المغرب.

وأما من تأتي روايته في المرتبة الثانية من حيث الترتيب الزمني؛ فهو المؤرخ ابن سعيد الغرناطي (ت685هـ/1286م) الذي عاصر هذه الأحداث وأثبت في كتاباته ما يدل على ذلك؛ حين صرّح برؤيته لشخص ابن هود ومعاصرته له بقوله: "وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة"[2]، وحدد بداية الاضطرابات "ولما كانت سنة 625هـ وثارت الأندلس على مأمون بني عبد المؤمن بسبب قيام ابن هود"[3]، ثمّ أثبت ظهور الثورة على الموحدين وخروج أبي العلاء المأمون عن الأندلس بقوله: "وصفا الأمر لأبي العلاء بالمغرب دون الأندلس، ثمّ مات سنة 630هـ"[4]، مما يجعل تقديم روايته أولى من رواية من تأخر عنه.

أما الروايات التي اعتمد عليها بعض الدارسين المحدثين في حصر تاريخ خروج الأندلس عن سلطة الموحدين عسكريا وسياسيا، وتأثر علاقتهم بالمجتمع في العدوتين الأندلسية والمغربية؛ فهي تختلف باختلاف مغزى ما تشير إليه أحداث كل سنة؛ فمنهم من توقف عند سنة 609هـ/1212م تاريخ انهزام الموحدين في معركة العِقاب[5]، وبالرغم من أنّ هذه المعركة أحدثت خللاً في ميزان القوى بين المسلمين والنصارى، وكانت لها انعكاسات سلبية على الحياة السياسية والاجتماعية في المغرب الإسلامي إلاّ أنّها لم تقطع صلة الدولة بأقاليمها، ولم تؤثر على الوجود العسكري للموحدين في الأندلس ممثلاً في

1-ابن عسكر وابن خميس- المصدر السابق- ص 174.

2- المقري- أبو العباس أحمد- نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب- تحقيق إحسان عباس- دار صادر- بيروت- (د ط)- 1988م -ج1- ص 222.

3- المصدر السابق-ج4- ص 464.

4- المصدر نفسه - ص 384 وص 464.

5- اعتبر الباحث محمد العمراني أنّ موقعة العِقاب في الأندلس سنة 609هـ/1212م - انهزم فيها المسلمون بقيادة محمد الناصر وكانت الغلبة للنصارى- هي تاريخ نهاية القوة العسكرية للمسلمين في الأندلس في الفترة الموحدية، غير أن ذلك لا يقوم دليلا على هذا التحقيب؛ وبخاصة أنه ربط موضوعه بعلاقة الدولة بالمجتمع، بينما تتحدث الروايات عن استمرار الرابطين معا لأزيد من عقد من الزمن. تنظر دراسته: الموحدون في الأندلس، الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع (541-609هـ/1147-1212م)- أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ غير منشورة - جامعة محمد الخامس أكدال- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط -2002-2003م- ص ص 17-36.

الجيوش التي بقيت مرابطة في المناطق الغربية منها، وصمدت في الدفاع عن المدن الأندلسية بعد هذه المعركة؛ وهي بذلك محطة من محطات سجال الحروب بين المسلمين والنصارى في الأندلس بدليل ما أكد عليه صاحب الروض المعطار عن "وقعة الحمار" نسبة إلى "موضع من عمل إشبيلية كانت فيه وقعة للمسلمين على النصارى، وذلك سنة 610هـ"[1]، وفيها واجه المسلمون جيوش ممالك الشمال النصرانية التي زحفت نحو المناطق الغربية للأندلس "فخرج السيّد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن صاحب إشبيلية بعسكر الأندلس الوافر الذي لم تلحقهم معرة العِقاب في السنة الماضية"[2] ثمّ أورد مجرياتها وآلاف من قتل فيها، وختم بالقول: "وكانت وقيعة تُحُدّثَ بها زمانًا، وما زال أهل إشبيلية يعتزون بما اتفق فيها"[3].

هناك من اتخذ من سنة 630هـ/1232م تاريخاً لنهاية الوجود الموحدي لأنها السنة التي توفي فيها المأمون بن المنصور- حسب إحدى الروايات- وبداية نشوب الصراع الداخلي في بلاد المغرب والذي مهد بدوره إلى ظهور النزاعات الإنفصالية بين أمراء البيت الموحدي، وهذه السنة - مع ورود الاختلاف حولها- لم ترد أصلاً ضمن الروايات السابقة، ولا تقوم مقامها.

أما من أوصلها إلى سنة 635هـ/1237م فمن أجل التأكيد على عودة الأندلس إلى سلطة الموحدين[4]؛ ومن نصوصها ما ذكره ابن سعيد من أنّه بعد وفاة المأمون عُقدت البيعة لابنه

1- ربط ابن عبد المنعم الحميري بين روايات هذه المعارك، ورتبها ترتيبا كرونولوجيا بداية بانتصار محمد الناصر على النصارى في معركة شلبطرة سنة 608هـ/1211م، ثم انهزامه في العِقاب سنة 609هـ/1212م، والعودة إلى الانتصار في وقعة الحمار سنة 610هـ/1213م. المصدر السابق- ص ص344- 611، ومن الغريب أنّ ابن عذاري تجاوز هذا الحدث ولم يشر إليه. المصدر السابق- ص 265.

2- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 612.

3- نفس المصدر والصفحة.

4- ذكرت سنة (635هـ) عند ابن الخطيب في أعمال الأعمال على أنها السنة التي دخل فيها المأمون إلى الأندلس عند مواجهته لابن هود، وابن الخطيب هو ذاته من أورد أنّ وفاة المأمون كانت سنة 630هـ مما يعني أنه خطأ من النساخ دون أن يشير إلى ذلك المحقق ليفي بروفنسال، و لم يتنبه أيضا سيد كسروي حسن لهذا الخطأ عندما أعاد تحقيق الكتاب. تنظر نشرة ليفي بروفنسال - المصدر السابق- ص 279. وطبعة دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2003م- ج2- ص 248.

عبد الواحد الرشيد[1] "وبايعه بعض أهل الأندلس"[2]، غير أنّ صيغة التبعيض التي أوردها تتضح أكثر عند ابن أبي زرع وابن عذاري وابن خلدون الذين تتفق روايتهم على أنّ وفداً من أهل إشبيلية بزعامة أبي عمرو بن الجد[3] اتجه إلى العدوة لمبايعة الرشيد بعد نشوب الثورة فيها ضد ابن هود، وهناك رواية تعود للعصر الموحدي تثبت أنه بويع بعد وفاة أبيه بيعة خاصة لا عامة، وحسب سياق هذه الروايات فإنّ ولاء فئة من المتنفذين للموحدين هي التي كانت وراء محاولة إعادة الدعوة الموحدية وإحيائها؛ وبخاصة أنّ والده المأمون عمل منذ سنة 626هـ/1228م على تغيير رسوم الدعوة؛ ولا يستبعد معها إرباكه للطلبة وأنصار سلطته بإعلانه زوال العقيدة التومرتية التي خط معالمها ابن تومرت[4](ت524هـ/1129م) داعية الموحدين وإنكار عصمته ومهديته، وإسقاط اسمه من الخطبة، بينما خالفه ابنه عبد الواحد الرشيد فأعاد الأمر على ما كان عليه في محاولة لإعادة إحياء تلك الرابطة الشرعية غير أنها باءت بالفشل[5].

تزامنت هذه الظروف مع ظهور أمير أندلسي طموح عمل على جمع كلمة الأندلسيين تحت رايته في ظل غياب سلطة توحد صفوفهم عرف باسم ابن الأحمر[6] غير أنّ الأحداث العصيبة والمضطربة التي مرت بها الأندلس خلال ثلاثينيات القرن السابع الهجري الثالث

1- هو أبو محمد عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس المأمون بن أبي يوسف يعقوب المنصور، بويع له بعد وفاة أبيه المأمون، وعرفت فترة توليه اضطرابات سياسية عديدة إلى غاية وفاته سنة 640هـ/1242م. ابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 299-359.

2- المقري- المصدر السابق- ج4- ص 384.

3- لم أقف على ترجمته، وكل ما ورد عنه أنه كان أحد موظفي الدولة الموحدية في إشبيلية، وذكر بعد ذلك في أحداث سقوط مدينة إشبيلية.

4- هو محمد بن عبد الله المعروف بابن تومرت، وقد رفع مؤرخوا الدولة الموحدية نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونقل ابن أبي زرع عن غيرهم أنّه دعي في هذا النسب، وأنّه رجل من هرغة إحدى قبائل المصامدة، بينما تمسك ابن خلدون بصحة نسبه الشريف، رحل ابن تومرت في طلب العلم إلى بلاد المشرق، وعند عودته أعلن الثورة على المرابطين وتسمى بالمهدي وادعى العصمة سنة 518هـ/1123م، ووضع لأتباعه مناهج فقهية وعقدية مستنبطة من الكتاب والسنة، وبعد وفاته سنة 524هـ/1129م استمر خلفاؤه بالدعاء له في المنابر والمحافل بالمهدي المعصوم، ونشروا كتبه وآراءه. ينظر عن حياته ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 172، وابن عذاري- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب- تح بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد- دار الغرب الإسلامي- تونس- ط1- 2013م- ج3 - ص ص 55-70، وابن خلدون- المصدر السابق- ج6- ص 371.

5- ابن خلدون- المصدر السابق- ص 381.

6- هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي الأنصاري، ملك مدينة غرناطة عام 635هـ/1237م، مؤسس الدولة النصرية، وقد استمر في ولايته إلى غاية وفاته سنة 671هـ/1272م،ابن الخطيب- اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية- نشره محب الدين بن الخطيب- المطبعة السلفية- القاهرة- (دط)-1347هـ/1928م- ص ص21-22، و- أعمال الأعمال- ص278.

عشر ميلادي فرضت عليه عدم قطع صلته بحكام بلاد المغرب؛ فكان يدعوا لأمرائهم على المنابر طلباً للعون والمدد سواء من ممثلي سلطة الموحدين في مراكش ثمّ من الحفصيين في إفريقية[1] بحكم الخطر النصراني الذي كان يهددهم، وتوالي سقوط المدن الأندلسية الكبرى في أيديهم[2].

نخلص من هذا العرض للروايات أنّ خروج إدريس المأمون الموحدي من الأندلس في سنة 626هـ/1228م وقيام الثورة في مدنها كان بمثابة إعلان نهاية الوجود العسكري والسياسي للموحدين في الأندلس، ولم يثبت بعد هذا التاريخ أن وطأها خلفاء الدولة وولاتها بما في ذلك مدينتهم المفضلة إشبيلية.

تكمن أهمية إعادة ترتيب هذه المعطيات في تتبع الأحداث السياسية بين الأندلس وبلاد المغرب في التحديات التالية:

- إمكانية استمرار الدعوة الموحدية والإقرار بالولاء لها، وعلاقة السلطة على اختلاف توجهاتها السياسية والعقدية بالمجتمع الأندلسي في خضم التغيرات التي عرفتها الدولة في الثلث الأول للقرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وتأثيرها في الحياة العلمية على وجه التحديد.

- القدرة العسكرية للموحدين على مواجهة التمردات، وأهمية الربط بين البعدين السياسي والعلمي في مقاربة التواصل التاريخي بين العدوتين.

- معرفة مصير العصبية القبلية ممثلة في قبيلة المصامدة ومن انضوى تحت لوائها من القبائل البربرية والعربية التي تم توطينها بداية من النصف الثاني للقرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي[3]؛ واستمرار ظاهرة استيطان هذه القبائل لمختلف المدن والحواضر

1- ابن الخطيب- اللمحة البدرية- ص34. ابن خلدون- المصدر السابق- ج6- ص396.

2- منها سقوط جزيرة ميورقة سنة 627هـ ومدينة قرطبة سنة 633هـ/1235م، و بلنسية سنة 636هـ/1238م.

3- أشار البيدق إلى عمليات التوطين المتعمدة التي لجأ إليها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في المدن الأندلسية لتأمين استقرار المناطق الثائرة، تنظر أسماء هذه القبائل في كتابه أخبار المهدي بن تومرت- تح عبد الحميد حاجيات- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر- ط1- 1975م- ص 136.

الأندلسية على مدار فترة قاربت القرن من الزمن، وخلالها أنشأت بعض المدن والقصبات لتأمين استقرارها[1] "فظهرت شريحة اجتماعية جديدة مسيطرة حلت مكان تلك الشرائح القديمة"[2]؛ وهو ما أسهم إجمالاً في تعدد ذكر أسماء أعلام المغاربة في الأندلس، وفي المقابل سجل ارتفاع في أعداد من دخل من الأندلسيين إلى بلاد المغرب عند تتبع سير حياتهم في مصنفات طبقات العلماء والأعيان؛ وهو ما سيتم الوقوف عليه في ثنايا هذه الدراسة.

أهمية الإحصاء الكمي في بنية التراكم المعرفي:

إنّ اختيار مصطلح "الروابط العلمية" ضمن فواصل الحدود التعريفية المقترحة بعنوان الدراسة إنّما فرضته طبيعة الموضوع الذي يرتكز بالأساس على مفهوم التواصل العلمي بين صقعين مختلفين جغرافياً وحضارياً، وفيه ما يشير إلى معنى الرابطة والوحدة التي كانت إحدى الأهداف التي بُنيت عليها الدعوة الموحدية في بعديها السياسي والحضاري، وأنّ نهجها الديني الذي سلكته ضاعف من قوة عصبيتها[3] التي رسخت منذ بداية الظهور الفعلي للدولة المحتظنة من وفور قبائلها، والمتميزة برسومها وتنظيماتها، واستفادتها من الزخم العلمي والحضاري الموروث عن العهود السابقة والبناء عليه ضمن مسار التراكمية المعرفية.

وأبلغ ما يستشف من المركب اللفظي "الروابط العلمية": هو معرفة مدى انسياب حركة تداول المعارف والفنون بين حواضر بلاد المغرب والأندلس في العصر الموحدي، هذه الحركية الفعّالة التي اختار لها ابن خلدون في رصده لتاريخ العلوم تعبير يتناسب مع هذا الوصف ويؤكده؛ وهو اتصال سند التعليم أو انقطاعه[4]، وأفرد لها غيره من أهل التراجم

1- من أشهرها بناء قصبة إشبيلية سنة 543هـ/1148م، ومدينة جبل الفتح التي أنشأها عبد المؤمن بن علي بجبل طارق سنة 555هـ/1160م، وعميات التوسعة التي عرفتها المدن الأندلسية في فترات أبنائه وأحفاده. ينظر عنها ابن عذاري- المصدر السابق- ص 39، و ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة و جعلهم الوارثين- تح عبد الهادي التازي- دارالأندلس للطباعة والنشر- بيروت- ط1- 1964م- ص137.

2- عز الدين موسى- الموحدون في الغرب الإسلامي- تنظيماتهم ونظمهم- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1-1991م ص213.

3- ابن خلدون- المقدمة -ج1- ص 198.

4- المصدر السابق- ص544.

مصطلح "التجول"[1] للتعبير عن كثرة ارتحال العلماء وتنقلهم بين المدن، وأنّ اختيار مصطلح "العلمية" إنّما ورد لتوافقه مع التعابير المتفق عليها في المضامين النصية للأندلسيين والمغاربة في العصر الوسيط؛ بحيث قد يعتري غيرها القصور حين إطلاقها كمفاهيم للتعبير عن العلوم على اختلاف أنواعها، وهي عندهم أشمل لفظ استعمل للتعبير عن "الأفانين التي يطلق عليها في قديم الدهر وحديثه اسم العلم والعلوم"[2].

توالى هذا اللفظ وتكرر في تضاعيف مدوناتهم فظهرت مصطلحات "المجالس العلمية" و"المادة العلمية"[3]، و"الحلق العلمية" وما يناقش فيها من "المسائل العلمية"[4]، وغيرها من "فنون المقاصد العلمية التي يحرص الأفاضل على نيل بعضها من أكابر شيوخهم"[5]، وظهر هذا الإجماع الإصطلاحي وعمّم استعماله بين أهل العلم من دون أن يعوزهم القصور إلى ألفاظ أخرى تأكدت وفرتها المعجمية، ولذلك ألحق بها ابن خلدون جميع ما ارتبط بموضوعاتها من مظاهر المعرفة، لاستجلاء مقاربة توضح المجال والغاية من الملكة العلمية[6]، وأضحى بذلك "شعار العلمية"[7] يطلق ويراد به عموم العلوم النقلية والعقلية.

أفضل طريقة يمكن الاعتماد عليها في تقريب صور التواصل العلمي بين بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الموحدي؛ هو اتباع مسلك البيانات الإحصائية الوصفية لتاريخ العلوم والمعارف وما دوّن حولها، والإحاطة بتداعياتها وأبرز مظاهرها في الحياة العلمية، ومعرفة أعلام العصر بحسب علومهم ومراتبهم وإنتاجاتهم، وما اتصل بسّيرهم ومكانتهم في المجتمع، والوقوف على مختلف المناهج المطبقة في المراكز التعليمية، وأنواع الطرائق المتعارف عليها بين الشيوخ في عمليات التلقين المعرفي وما خبروه على مدار السنين المتعاقبة في الأندلس وبلاد المغرب.

1- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص 48.
2- ابن حزم، أبو محمد علي- رسائل ابن حزم الأندلسي- تحقيق إحسان عباس- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت-ط2- 1983م- ص81.
3- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد- التكملة لكتاب الصّلة- تح عبد السلام الهراس- دار الفكر- بيروت- (د ط)- 1995م- ج2- ص 65. ابن خلدون- المصدر نفسه- ص 546.
4- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ص 171
5- المصدر نفسه- ص 172.
6- ابن خلدون- المصدر السابق- ص 545.
7- المصدر نفسه- ج5- ص 346.

ومن أبرز السمات التطبيقية لهذا المنهج في دراسة الظواهر العلمية في العهد الموحدي:

- توثيق أسماء الأعلام حسب تخصصاتهم (عناصر تتوافق سنوات وفاتهم مع العصر المؤرخ).

- توثيق المدوّنات وتصنيفها (نماذج لعيّنات من الكتب على اختلاف موضوعاتها).

- ترتيب المراكز التعليمية ومعرفة مواضعها الجغرافية فيما يتناسب مع معالم الحدود السياسية للدولة الموحدية.

- القدرة عل الربط بين البعدين الحضاري والسياسي.

ولا مناص من العودة إلى النصوص والوثائق المصدرية للوقوف على ما يمكّن الباحث من استخلاص آراء تدعم أصل مذهبه في البحث، ومنه يتم توثيق نصوص الموارد الأصلية المرتبطة بالفترة الموحدية والمقارنة بينها في العملية الاستدلالية.

تأتي كتب التراجم على قمة سلم الوثائق المصدرية التي سيتم الاعتماد عليها بشكل كبير لسبر غور محاور هذه الدراسة؛ وذلك لارتباطها الوثيق بالنشاط المعرفي للأعلام المترجم بهم سواء تعلق الأمر بإسهاماتهم في الميادين التعليمية أو إنتاجاتهم المجسدة في مختلف المصنفات والرسائل العلمية.

والواقع أنّ هذا النوع من الأساليب المنهجية يتوافق إلى حد كبير مع مصادر التراجم التي تعتمد على الإيجاز في توفير المعلومات الإحصائية عن أعلام العلماء بداية بأصل التسمية والنشأة العلمية، وربطها بالانتماء الجغرافي ثمّ الإسهام العلمي والحضاري، وتختم بذكر سنة الوفاة؛ وهي المعيار الذي يضبط على أساسه عصر الشخص المترجم به.

على الرغم من أنّ هذه المعطيات إيجابية بالنسبة للباحث عن الحياة العلمية في مجمل حواضر بلاد المغرب والأندلس إلاّ أنّ لها جوانب سلبية أخرى تعود بالأساس إلى شروط التأليف المنصوص عليها في ثنايا كتب السواد الأعظم من أهل التراجم - أكثرهم من أهل الأندلس- الذين أفردوا الترجمة لأهلهم دوناً عن غيرهم، واعتبروا من وفد إليهم وإن

استوطن أرضهم من الغرباء وعلى هذا الأساس تم تصنيفهم، في حين أخملوا ذكر غيرهم من المغاربة وإن كانوا من ذوي العلم والنباهة لمجرد أنهم لم يدخلو الأندلس، في حين أثبتت التراجم انتقال طلبة الأندلس إليهم للرواية عنهم؛ ولهم بذلك يد في الروافد المكونة للحياة العلمية بالعدوة الأندلسية.

من بين الدراسات التي اهتمت بالعطاء المعرفي للعلماء سواء تعلق الأمر بالحركة التأليفية، أو القيام بمهنة التدريس ونشر العلوم على مدار الحقبة الزمنية الممتدة بين القرنيين الخامس والسابع الهجريين الحادي عشر والثالث عشر ميلاديين (5-7هـ/11-13م)؛ هي الدراسة الأكاديمية للباحث الفرنسي دومنيك إرفوي الموسومة بـ"عالم علماء الأندلس"، والتي اتّبع فيها منهج الإحصاء الرقمي والبياني لإعطاء صورة عن حال الحياة العلمية، وإسهام العلماء فيها من حيث أعدادهم وتوزيعهم الجغرافي، غير أنّ نتائج هذا النوع من الأبحاث تبقى محدودة في ظل اعتمادها على الأرقام والبيانات -على اختلاف أنواعها- وتجريدها الكلي من الوثائق والقرائن النصية، إضافة إلى عدم وضوح صورة التواصل الحضاري مع بلاد المغرب في الحقبة التي تحولت فيها الأندلس إلى مجرد إقليم تابع إداريا لمدينة مراكش، وتغيرت على إثر ذلك جملة من المعطيات الحضارية والبشرية مع تولي المرابطين ثمّ الموحدين[1].

توالت بعد هذه المرحلة العديد من الدراسات ضمن ذات التحقيب الزمني واستندت إلى العمليات الإحصائية لمختلف العلوم الشرعية واللسانية وما اتصل بها أو تفرع عنها من فنون علمية كالفهرسة والتوثيق أو ظواهر اجتماعية كظاهرتي التصوف وهجرة العلماء - وسيتم الوقوف على العديد منها في فصول هذا البحث- غير أنّ الأندلس حازت النصيب الأوفر من مجمل هذه الموضوعات، ولم يظهر معها دور أهل بلاد المغرب بالقدر الذي نالته الأندلس وأهلها؛ ولذلك ارتكزت مقاربة هذه الدراسة على محاولة التوفيق بين المحاور المنهجية والموضوعاتية الثلاثة:

1- Dominique Urvoy : Le Monde des Ulémas Andalous du V/XI^{e} au VII/ XIII^{e} siècle, librairie droz, Genève- 1978 , PP 139-181.

- الاستعانة بالعمليات الإحصائية والوصفية للظاهرة العلمية في العصر الموحدي.
- الربط بين العدوتين المغربية والأندلسية فيما اتصل بالمعارف والعلوم دون إغفال لبعدها السياسي.
- التنويع في نصوص ووثائق المصادر المطبوعة والمخطوطة التي تعود إلى الحقبة الموحدية أو قريبة عهد بها.

: .

: :

: .

: .

-1 .

-2 .

-3 ه .

: .

-1 .

. .

- .:

. .

-2 .

. .

. .

-3 .

: .

.1 .

.2 .:

.3 .

.4 .

.5 .

.6 .

يكاد يجمع السواد الأعظم من الباحثين- على اختلاف أجناسهم ومدارسهم الفكرية- عن دور الحضارة الإسلامية الغنية بقيمها الروحية ومظاهرها المادية في تطوير مناهج البحث والرفع من مستويات التفكير لقرون من الزمن خدمة للحضارة الإنسانية، وبعيداً تماماً عن ضروب التهويل والتخويف التي تتخندق خلفها بعض الأبواق المشككة في الإنتاجات المعرفية للمسلمين؛ بل وفي الإسلام ذاته، هذه الحضارة التي ارتكزت في انطلاقها على المعاني السامية لوجوب نفاذ أمر الظاهرة العلمية المختزلة في الفعل "إقرأ"، ومن الملاحظ أنّها لازالت تثير اهتمام من تعلّق بموروثها المصدري المخطوط من حيث التنقيب عنه والكشف عن قيمته العلمية في إعلان عن استمرارية عطائها المتجدد، وقد وقع الاختيار على حلقة من تاريخها الطويل تبحث في تاريخ العلوم واتصالها بين الشعوب بمعالم زمنية ومجالية محددة سميتها **"الروابط العلمية بين بلاد المغرب والأندلس على عهد الموحدين (541-626هـ/1146-1228م)"** ضمن مقاربة تاريخية الهدف منها الكشف عن سبل ومظاهر التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، وفي اعتماد المؤرخين والجغرافيين لمصطلح "العدوتين" أكثر من دلالة تعبيرية على القرب وسهولة الرحلة بالرغم من التباين التاريخي والجغرافي والاجتماعي بين الصُقعين.

ومن دواعي اختياري لهذا الموضوع:

- اهتمامي بتاريخ المغرب الإسلامي وحضارته عامة، وتعلقي بتتبع مختلف العلوم والفنون و حركيتها عبر التاريخ.
- محاولة الوقوف على أبرز جوانب الإسهامات الحضارية والعلمية للمغاربة والأندلسيين ضمن مقاربة الروابط العلمية ومعرفة مدى نجاعتها، وإعادة ترتيب مختلف المعطيات والنصوص التاريخية لاستنباط آراء ومفاهيم أقرب لفحوى هذه الوثائق المصدرية بعيداً عن التأويل وتحميل النص ما ليس فيه.
- محاولة رصد آراء المؤرخين والباحثين عن الوتيرة التنافسية الحاصلة بين العدوتين، وتدافعها الحضاري، ومدى تأثرها بالتحولات السياسية والاجتماعية في ظل الهيمنة الموحدية على مشاهدها التنظيمية ذات الأبعاد العقدية والمذهبية.

تفرض طبيعة الموضوعات ذات المسالك المتداخلة الاستفهام عن التأثيرات السياسية للسلطة الموحدية في مشهد الحياة العلمية، وكيفية تفاعل المصادر والموارد المرافقة لهذه الحقبة الزمنية أو القريبة منها مع ما اشتهر من العلوم في المرحلة الوسيطية والطبائع المصاحبة لمنتحلها من حيث الإثبات والنفي أو الإقبال والنّفور ومبرراتهما ؟ ويتفرع عن محورها محاولة الإجابة عن مدى تأثر هذه المعارف بتداعيات الأنماط الاجتماعية والتاريخية التي عرفتها المنطقة؟ وما أبرز تأثيراتها في ذهنية العالم والمتعلم وفرص تواصلهما من عدمه بين بلاد المغرب والأندلس سواء لمن اهتم بالنقليات أو العقليات منها ؟ وهل ثمة ما يفيد في معرفة دوافع ظهورها وانتشارها أو معوقات انحسارها وأفولها؟

ومن هنا تتضح أهداف الموضوع في إمكانية التعرف على تأثير الأبعاد السياسية والاجتماعية بظهور الحكام المغاربة في إدارة الدولة المشرفة على الشؤون العامة للسكان، وربطه بالأبعاد و الاعتبارات المعرفية للعناصر المعنية بالدراسة ممثلة في نخبة المجتمع وأعيانه، وتتبع ذكر أعلام العلماء في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتب التراجم ومحاولة تحديد فوارق المجال الجغرافي بين الأندلسيين والمغاربة، ثم مقارنتها بعهودهم السابقة عن الفترة المدروسة.

نظراً إلى طبيعة الموضوع المركبة وتعدد مسالك أبعادها السياسية والعلمية آثرت الاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي في تتبع الأطوار التاريخية التي مرّت بها حركة التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، ودعمه بالمنهج الإحصائي الكمي لأجل سبر غور إسهام الأعلام ومعرفة أسمائهم ومراتبهم العلمية ومواطن استقرارهم؛ وهو ما حتم إدراجهم ضمن جداول إحصائية جمعت بين التحقيب الزمني والمجال الجغرافي للأعلام المترجم بهم، مع الوقوف على إنتاجهم العلمي وإسهامهم الحضاري، والغاية من ذلك هو الاطلاع على مدى فعالية مبادراتهم الفردية والجماعية في انتقال العلوم ونشرها بين ضفتي المتوسط، ورصد دور السلطة الموحدية في الأحداث التي رافقت الظاهرة العلمية ذات الشهرة الواسعة بالمجتمعات الإسلامية في الحقبة الوسيطية على اختلاف تجلياتها ومشارب روادها.

تعددت الأبحاث التي رصدت مختلف مناحي الحياة السياسية والعلمية في بلاد المغرب والأندلس في عصر الدولة الموحدية؛ غير أنّ ما وقع بين أيدينا منها لا يكاد يظهر بالشكل والمضمون اللذين ظهر بهما الصُقع الأندلسي وأهله لاسيما حركة تنقل العلماء- في شمول استغراق هذا الجمع لأهل العلم ومن انتسب إليهم- من أهل العدوتين ضمن هذا المجال الجغرافي، وما من تفسير واقعي ومقنع لاهتمام جمهرة من الباحثين المحدثين بالأندلس إلى درجة الانبهار ومنذ ثلاثينيات القرن الماضي إلاّ لأنهم أحيطوا بزخم تراثي مشبع ومتنوع بعطائه العلمي والحضاري المستفاد من رسوخ أقدام المسلمين فيها زهاء الثمانية قرون.

الظاهر من هذا التفوق الأندلسي - منذ العهد الأموي- وما قابله من تأخر في بلوغ بلاد المغرب وأهلها للمستوى المادي والحضاري الذي عرفته الأندلس بالرغم من ظهور بوادر المنافسة والمجاراة إلاّ أنّ هذا انعكس على معظم الدراسات التي انساقت وراء الموضوعات ذات المواد المصدرية الوافرة، وابتعدت عن نظيرتها التي تشهد شحا في المعلومات وندرتها في أحايين كثيرة، غير أنّ هذا لم يمنع من ظهور بعض الأبحاث العلمية والأطروحات الأكاديمية التي رصد أصحابها أوضاع الحياة العلمية بمختلف تجلياتها بين العدوتين الأندلسية والمغربية في العصر الموحدي؛ ومنها: ما قدمه محمد المنوني في كتابه "حضارة الموحدين" بحيث عدّد أنواع العلوم والفنون التي انتشرت في عهد الدولة الموحدية، وبيّن دور خلفائها في تشجيع عامة الناس على تعاطيها والاشتغال بها إلاّ أنه أولى اهتماما واضحاً لقطر المغرب الأقصى فلم تنل بقية المدن والحواضر في بلاد المغرب إلاّ النزر القليل، وسار على هذا النهج مواطنه علي عبد الله علام في بحثه "الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي".

وفي عمل أكاديمي قدم الباحث يوسف العريني دراسة عن "الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين"، وفيها إحاطة بالموضوع من خلال ما رصده من مصادر تاريخية وتراجمية أثرت دراسته؛ بيد أنه أفرغ جهده في تتبع إسهامات الأندلسيين وأخبارهم، ولم يحظ غيرهم من المغاربة؛ وبخاصة من دخل منهم إلى الأندلس بنصيب وافر من الترجمة

والتنويه، وأكثر من ذلك أنه تجنب الخوض في الجوانب السياسية والعقدية لدى الموحدين فلم تظهر صورة علاقتهم بالحركة العلمية التي عرفتها المنطقة في عهدهم.

من بين الدراسات التي فتحت المجال للنقاش حول أبعاد تأثير الاختلافات المذهبية والعقدية للموحدين في حياة أهل المعارف بين بلاد المغرب والأندلس ظهرت دراسة الباحث محمد المغراوي في رسالته للدكتوراه والموسومة بـ"العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين"، ولكن اقتصاره على طبقة المتصوفة ينسجم مع ما تمّ إقراره آنفاً من شح المادة العلمية المتعلقة ببلاد المغرب خلافاً للمتصوفة الذين تعددت مصادر تراجمهم لا سميا في القرنيين السادس والسابع الهجريين، وذاك كان مسعى الباحث وغايته من خلال وقوفه على معلومات أثرى بها دراسته، ولكن ما يلاحظ على هذه الدراسة أنّ صاحبها غلّب الجانب التصوفي على غيره حتى عند الأعلام الذين ورد التصوف في حياتهم عرضاً وليسوا متصوفة بالأساس، إضافة إلى أنّ مصطلح "المغرب" الوارد في عنوان الأطروحة محدود المعالم الجغرافية بما لا يتوافق مع الحدود السياسية للدولة الموحدية في أقصى اتساعها.

ولهذا الغرض حاولت الاطلاع قدر الاستطاعة على ما وقع بين يدي من مصادر ومراجع لإثراء موضوع البحث وتنويع موارده المطبوع منها والمخطوط، واقتناء العديد منها، والاستفادة من آراء من سبقني من الباحثين الذين اهتموا بالأبحاث ذات الصلة بموضوع الأطروحة؛ ولأجل ذلك لم أكتف بما حصلت عليه في جامعة وهران فقمت بزيارة جامعة الجزائر العاصمة وكبرى مكتباتها، وجامعتي منتوري والأمير عبد القادر بقسنطينة، كما سافرت إلى جامعة تونس واطلعت على أبرز الأطروحات العلمية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وما احتوت عليه مكتبتها، وتجولت بين بعض جامعات المملكة المغربية وعدد من مراكز البحث وخزائن المخطوطات بها.

قسّمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول وقسم خاص بالملاحق، وقدمت لها بمقدمة استهلالية وفصل تمهيدي ورد فيه عرض توضيحي للمعالم الاختيارية المركبة في عنوان الأطروحة بغرض استجلاء أبعاده الزمنية والمجالية، وبسط القول في إشكالية الاختلافات

المنهجية الظاهرة عند المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين، وتقديم مبررات التوصيف الإصطلاحي لعبارة "الروابط العلمية" عند مؤرخي العلوم، وأهمية المرافقة الإحصائية للنصوص التاريخية في استنباط الآراء واستخلاص النتائج.

وأما الفصل الأول فكان عن الأوضاع السياسية وتأثيرها في الحياة العلمية بالعصر الموحدي بداية بالمرحلة التي أعقبت سقوط مدينة مراكش، وإعلان نهاية الدولة المرابطية، وكيفية تعامل الموحدين مع ما شهدته الأندلس من اضطرابات، ومعرفة تأثيرها في حياة الأندلسيين؛ وبخاصة طبقة العلماء، ثمّ تتبع أبرز الأعمال التي قام بها الموحدون بعد جوازهم إلى الأندلس سواء تعلق الأمر بالجوانب السياسية والأمنية أو الحياة العلمية لتكاملهما في تحقيق غاية التواصل والاستقرار مع عرض لأهم نتائج إسهاماتهم في المجال العلمي.

وأما الفصل الثاني فتم فيه رصد أبرز الأعلام الذين أسهموا في تولي الخطط الدينية والإدارية في الدولة الموحدية سواء كانوا من الأندلسيين أو المغاربة، وتقديم ما يبرر كثرة تواجدهم في بلاد المغرب مقارنة بالعهود السابقة، وتتبع أهمية ظهورهم على رأس الهياكل التنظيمية للدولة، و مدى تأثير مكانتهم في المجتمع، ومبلغ استفادة الموحدين من هذا الدور في ترسيخ سلطتهم بالعدوتين المغربية والأندلسية، والتعرض للخصائص التي ميّزت الإدارة الموحدية خلال الفترة التي أدار فيها خلفاء الدولة وولاتها جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والحضارية.

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن أشهر العلوم النقلية التي تم تداولها في المراكز التعليمية، ومعرفة عوامل انتشارها وتحليلها عند مقارنتها ورصد أبرز أعلامها، والهدف من ذلك هو الاطلاع على مدى تأثير الظروف المحيطة بحياة العلماء في دعم أواصر التواصل المعرفي بين المغرب والأندلس، والتطرق إلى مظاهره والعوامل المحفزة على انتشار العلوم، ودوافع طبقة العلماء في اختيار مناطق استيطانهم، والتعرف على علاقتهم بالسلطة الحاكمة، وما تخلل ذلك من مناقشات لآراء الباحثين حول جملة من الأطروحات والنظريات التي ظهرت في أبحاثهم عن تاريخ العلوم في العصر الموحدي.

أما الفصل الرابع فورد فيه التأريخ للعلوم العقلية ومحاولة تقصي أبرز معالمها، والترجمة لأشهر المشتغلين بها مع التطرق إلى إشكالية النفور من بعض فنونها؛ وهي الظاهرة التي عرفتها العصور الإسلامية في مرحلتها الوسيطية، ومناقشة آراء الباحثين حول بعض موضوعاتها ذات الصلة بالانتشار والانحسار، وتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف، والغاية من ذلك هو محاولة الكشف عن موقف السلطة والمجتمع ممن جاهر بالخوض في فنونها، ومدى انتشارها بين الأندلس وبلاد المغرب في ظل ما اشتهر تاريخياً عن من انتحلها علماً، وتتبع مواطن استقرار روادها وأهم تنقلاتهم بين الضفتين.

وأما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التي خلص إليها البحث.

وعن مصادر البحث فقد جاءت متنوعة بين كتب التراجم والتاريخ والأدب، والعلوم العقلية والجغرافية، وتأتي كتب التراجم على رأس القائمة نظراً لأهميتها للباحث عن الحياة العلمية قصد تتبع سيّر العلماء ومراتبهم المعرفية و أماكن تواجدهم، وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة.

- المصادر والمراجع: (عرض ونقد)

آثرت ترتيب المصادر بحسب مبلغ إفادتها لموضوع الدراسة لا على اعتبارات زمنية أو موضوعية يتم الاستناد فيها إلى سنوات الوفاة وطبيعة الموضوع ونوعه كمعايير في التصنيف، واقتصرت منها على المصنفات الأولية التي اعتمدت عليها في عرض فصول الدراسة ومباحثها، ونقدها وإظهار مدى أهمية كل منها.

ب- كتب التراجم :

تأتي كتب التراجم والفهارس على قمة هرم الاستفادة المصدرية لارتباطها الوثيق بتاريخ العلوم واتصال أسانيد نشرها من عدمه، وتتبعها لحياة أعلام العلماء ومراتبهم؛ وهو ما يتيح فرص الاطلاع على إسهاماتهم في الحياة العلمية.

1.التّكملة لكتاب الصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المتوفى سنة 659هـ/1261م، جمع ابن الأبار بين عدة فنون فأجاد فيها، فهو المؤرخ والشاعر والأديب والكاتب، له مصنفات عديدة تنم عن ما وصف به، ويعتبر كتابه التكملة من المصادر الأولية في التأريخ لسيرة علماء الأندلس ومن دخلها من المغاربة، وقد تولى الكتابة عن بعض ولاة

الموحدين في آخر دولتهم في الأندلس؛ وهو بذلك شاهد عيان للكثير من الأحداث التي عرفتها المنطقة، وأفادته تنقلاته بين الأندلس وبجاية وإفريقية من رصد أوضاع جالية الأندلس ومعرفة مدى إسهاماتهم في الحياة العلمية، غير أنّ مكمن القصور في مؤلفه هذا هو تعصبه لأهل بلده، وعدم تتبع أخبار المراكز العلمية التي بدأت بالظهور في بلاد المغرب ومن وفد إليها من طلبة الأندلس إلاّ من بعض الحالات التي أشار إليها.

2.الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى سنة 703هـ/1303م، نوّع ابن عبد الملك من موارده فبلغنا كتابه متحفاً بالمصنفات التي ملك أصولها أو اطلع عليها -وهي تعود إلى العصر الموحدي ومعظمها في حكم المفقود- وبالرغم من أنّ كتابه لم يصل إلينا كاملاً؛ وبخاصة القطع المتمّمة لقسم الغرباء وتحديداً من كان منهم من أعلام المغاربة إلاّ أنّه قدم معلومات في غاية الأهمية عن أوضاع الحياة العلمية في الحقبة المؤرخة – نقلاً عن شيوخه وعن المصادر المعاصرة لهذه الفترة- وحمله لشعار المنافحة عن المغاربة لإحاطته بسيرة حياتهم ومعارفهم، وتتبع تاريخ خلفاء الدولة الموحدية وولاتها في مجال خدمة العلم وأهله، ومن بين الأمور التي تؤخذ عليه هو انسياقه وراء شروط الأندلسيين في التأليف؛ ولذلك لم يلتفت لمن لم يسعفه الحظ بالدخول إلى الأندلس من المغاربة، ويضاف إلى ذلك قلة تنقلاته بين مدن بلاد المغرب والأندلس الأمر الذي جعله يغلّب ذكر أعلام المنطقة الغربية لبلاد المغرب على حساب المنطقة الشرقية كبجاية ومدن بلاد إفريقية.

3.أعلام مالقة:

لأبي عبد الله محمد بن عسكر المتوفى سنة 636هـ/1238م، والذي أكمله أبو بكر بن خميس (كان على قيد الحياة سنة 638هـ/1240م) ، ويعتبر هذا الكتاب من أبرز المصادر التي اهتمت بالترجمة لأعلام المغاربة الداخلين إلى الأندلس على الرغم من أن صاحبه اقتصر في شرطه على من دخل مالقة، وما وصلنا منه لا تتجاوز تراجمه 174 ترجمة بحكمما أصاب آخر الكتاب من بتر، ومع ذلك أفاد البحث في توضيح صورة تواجد خلفاء الدولة وولاتها في الأندلس ومدينة مالقة تحديدا، ونبرة ولائه للدولة واضحة من سياق أسلوبه، ولم يفرد كتابه للعلماء فحسب وإنما انفرد بالترجمة لغيرهم من قادة الموحدين و

أحفاد بني عبد المؤمن، وأسهم المؤلفان في رصد حركة تنقل العلماء بين العدوتين وتأثير ذلك في التواصل العلمي بينهما.

4.عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية:

لأبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني البجائي (ت714هـ/1314م)، وفيه ترجم صاحبه لعلماء مدينة بجاية سواء كانوا من أهلها أو ممن استوطنها أو وفد عليها خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وقد رصد صاحبه هجرات العلماء بين العدوتين الأندلسية والمغربية؛ وما وقف عليه من وثائق نصية لإجازات الشيوخ ومراسلاتهم العلمية؛ وهو مصدر مهم في تتبع حياة المتصوفة من الصلحاء والعباد بحكم تركيزه على هذه الشريحة المؤثرة في المجتمع حينئذٍ، وما يلاحظ عليه أنّه أغفل الكثير من علماء بجاية من غير المتصوفة ممن اشتغلوا بالعلوم النقلية والعقلية، وأسهموا في الحياة العلمية بالمدينة على غرار الكُتاب والقضاة والشعراء والأطباء والفلاسفة وغيرهم.

5.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:

لأبي العباس أحمد بن محمد الشهير بالمقري التلمساني المتوفى سنة1041هـ/1631م، جمع فيه صاحبه بين عدّة فنون كالتاريخ والتراجم والشعر والأدب؛ ونقل عن عدد كبير من المصادر المتنوعة فعدّ بحق موسوعة تاريخية وأدبية، ومورد مهم للحياة العلمية والاجتماعية، وبالرغم من أنّ المقري من المتأخرين عن الفترة المدروسة إلاّ أنّه حافظ على جملة من المصادر والروايات التي فقدت أصولها، ولعل هذا ما أهل كتابه لأنّ يحظى بمكانة بين المصادر المتقدمة والمعاصرة لأحداث الدولة الموحدية وغيرها، وقد أفاد البحث في تتبعه لأخبار أعلام العلماء في مجال العلوم النقلية والعقلية، وكشف لمواطن تجوالهم واسقرارهم بين المدن والحواضر؛ وبخاصة عوامل هجراتهم ونتائجها، غير أنّ الإشكال الذي يقف أمام الباحث في موضوعات كتابه هو عدم اتباعه لمنهج واضح في تدوين معلوماته فتراه ينتقل بين الأخبار والأحداث من دون ترتيب ولا مبرر تاريخي، وإكثاره من الاستطرادات، ويشفع له ذلك بُعده عن مكتبته، واكتفائه بما كان بين يديه وما رواه من ذاكرته.

6.عيون الأنباء في طبقات الأطباء:

لابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجى موفق الدين المتوفى سنة 668هـ/1269م، عاصر صاحب هذا الكتاب فترات مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وقريب عهد بالكثير من الأحداث التي مرّت بها، وتكمن أهميته في إفراد الترجمة لأشهر أطباء المغرب الإسلامي؛ وبخاصة من عاشوا في القرن السادس والسابع الهجريين، وقد أفاد البحث في التعرف على أسمائهم وأشهر مؤلفاتهم وعلاقتهم بالسلطة الموحدية، كما بيّن فيه إسهامات خلفاء الدولة في العلوم الطبية؛ وهو بذلك يعد من أهم المصادر التي أرّخت لتاريخ الطب في المنطقة، غير أنّ ما يلاحظ على هذا المصنف أنّ صاحبه أولى اهتماماً بالتوسع في الترجمة لأشهر الأطباء بينما وردت معلوماته مقتضبة عن غيرهم؛ وبخاصة أهل بلاد المغرب.

ب- كتب التاريخ:

ارتبط التحقيب الزمني بمختلف مجالات حياة الفرد والمجتمع، وشكّلت كتب التاريخ موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول والسلالات الحاكمة موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول وحكامها ضمن المسار التفاعلي لحركة التاريخ، ومن أهمها:

1.المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب:

لأبي محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي كان بقيد الحياة سنة 621هـ/1224م، ألف كتابه هذا في مدينة بغداد، وقد عاصر عبد الواحد فترة مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وبحكم قربه من حكام الموحدين حرص على تدوين ما شاهده من أحداث، أو سأل عنه من يثق به، وفي كتابه أخبار عن بعض ملامح الحياة العلمية في بلاد المغرب والأندلس، و وصف لأحوال العلماء وعلاقة السلطة الموحدية بهم، غير أن شمولية المنهج الذي اتبعه في التأليف بين الطريقة الحولية والموضوعية جعله يغفل الكثير من التفاصيل

ذات الصلة بالحياة العلمية بحسب ما اشترطه في كتابه، وأنّ بعده عن مجريات الأحداث؛ وبخاصة في المراحل الأخيرة من تاريخ الدولة جعلته يلتزم الاختصار.

2.**البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب** (قسم الموحدين):

لأبي عبد الله محمد، الشهير بابن عذاري المراكشي (كان بقيد الحياة سنة 712هـ/1312م) خصص هذا الجزء من كتابه للدولة الموحدية وفيه أورد أخبار حولية مفصلة عن الدولة الموحدية، وإسهامات خلفائها وولاتها في المجالات السياسية والعلمية والحضارية، وتكمن أهميته في الاعتماد على روايات عاصر أصحابها دولة الموحدين، ومنهم من خدم في بلاطهم كالكُتّاب والمؤرخين، ومعظمها في حكم المفقود، غير أنّ ما يؤخذ على صاحب هذا الكتاب هو عدم تنويعه في المصادر التاريخية غير تلك التي كانت تدين بالولاء للموحدين، فظهر مؤلفه بنسق تاريخي واحد لا يحيد فيه عن نظرة مؤرخي البلاط.

3.تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين:

لأبي مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى سنة 594هـ/1198م، دوّن ابن صاحب الصلاة الكثير من الأحداث التي عاشها بحكم خدمته في دواوين الموحدين وولائه لهم، فاعتمد على رواية الأخبار التي عاصرها، والسؤال عن تلك التي لم يشهدها بنفسه أو بسبب بعده عنها، والكتاب لم يصل إلينا كاملا والموجود بين أيدينا ما هو إلا قطعة منه أرخ فيها للحوادث الواقعة بين سنتي 544 و568هـ، وأهميته تكمن في وصفه للأحداث التي أعقبت دخول الموحدين إلى الأندلس، وأبرز إسهاماتهم العلمية والحضارية، كما انفرد بذكر ما له صلة بالتواصل العلمي بين الأندلس وبلاد المغرب من خلال ذكر بعض أعلام المنطقة، ولا يختلف ابن صاحب الصلاة عن مؤرخي البلاط؛ بحيث تظهر عليه النزعة الذاتية المفاخرة بالدولة وأعلامها.

4.ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر

لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى سنة 808هـ/1406م، وابن خلدون من أبرز المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ المغرب الإسلامي، ومعرفة شعوبه وقبائله وتاريخ دوله، وجمعه بين مختلف الروايات مع إبداء رأيه في الكثير من أخبارها، وقد خصص الجزء السادس من كتابه للتأريخ لبلاد المغرب والأندلس؛ ولأنّ البحث وطيد الصلة بتاريخ

العلوم والفنون فلا خفاء ما لمقدمته الشهيرة من إفادة في تعريفها وتتبع نبذ عن تاريخها، وما عرضه من آراء ونظريات عن انتشارها وأبرز روادها بين العدوتين الأندلسية والمغربية.

5.المُغرب في حلى المَغرب:

لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي المتوفى سنة 685هـ/1286م، هذا الكتاب تعاقب على تأليفه ستة من عائلة ابن سعيد، وعلى مدار مائة وخمسة عشر عاماً، وهو يقوم على ترتيب مواده على البلاد وما فيها من خصائص جغرافية وسياسية، ثم يعرف بطبقات كل بلد بداية بالأمراء والعلماء والشعراء ثم من ليس له نظم ولا يحسن إغفاله، والكتاب يحتوي على معلومات تاريخية مهمة عن دولة الموحدين، وبه تراجم لكثير من أعلام المغاربة، وقد عاصر ابن سعيد السنوات الأخيرة من تاريخ الموحدين في بلاد المغرب والأندلس؛ وهو قريب عهد بالأعلام الذين خدموا في دواوين الدولة؛ فوثّق معلوماته عنهم، وكتابه هذا يضاف إلى تصانيفه الأخرى ذات الفائدة البالغة في معرفة تاريخ العلوم ومصنفاتها، وإن بدا اهتمامه بالأدب وأهله أكثر من غيره .

6.الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس:

لأبي الحسن علي بن أبي زرع الفاسي الشهير بابن أبي زرع (كان حيا سنة726هـ/1326م)، أرّخ ابن أبي زرع لأخبار ملوك بلاد المغرب ودولهم من لدن الفتح الإسلامي إلى سنة 726هـ التي توقف فيها كتابه، وفيه عرض لتاريخ الموحدين وإسهاماتهم الحضارية في العدوتين الأندلسية والمغربية، ومن الملفت أنّ ابن أبي زرع كان يكتب متحرراً من رواية مؤرخي الدولة الموحدية فكثيراً ما كان يخالفهم في الرأي أو ينبه إلى ما ورد عند غيرهم، غير أنّ اختصاره لبعض المحطات التاريخية المهمة في حياة أعلام الأندلس وبلاد المغرب وخلفاء الدولة وأمرائها- بالرغم من انفراده بذكرها- قلل من فائدة إيرادها؛ بحيث لم تتضح صورتها عند غيره.

ج. الكتب الجغرافية:

1.الروض المعطار في خبر الأقطار:

لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري الصنهاجي (ت727هـ /1326م)، تكمن أهمية هذا الكتاب في الربط بين الوصف الجغرافي والخبر التاريخي، مع ذكره لأخبار ذات صلة بالجوانب المعمارية والعلمية لمدن الأندلس والمغرب، وقد وقف الحميري عند العديد من الأخبار الخاصة بتاريخ الموحدين من خلال ذكر أسماء أعلامهم ومنجزاتهم، وما عرفته المدن من عمارة وتشييد أو خراب ومعارك أثرت في تركيبة سكانها؛ وهو ما يتيح للباحث معرفة مواطن هجرة العلماء وأسبابها، كما أفاد البحث في رفع الجهالة عن الكثير من المدن حين التعريف بها، واكتفى الحميري من كل ذلك بمجرد النقل عن غيره، من دون التصريح بأصحاب الروايات الأصليين مع عدم إبدائه لرأيه.

2.نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق:

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف الإدريسي المتوفى حوالي سنة 560هـ/1066م، عاش الإدريسي فترة نهاية تواجد المرابطين على الأراضي الأندلسية، وقد أفاد البحث في وصفه لأوضاع الأندلس خلال هذه الفترة الانتقالية من تاريخ المنطقة، كما عرّف بأماكن استقرار المغاربة، وأعطى صورة عن أحوال المدن و القرى.

ولأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون، سبق التعريف بكتابه في التاريخ، وأهمية مقدمته في تاريخ العلوم إجمالاً، إلاّ أنّ ثمة جانباً مهماً انفرد به ابن خلدون في مقدمته؛ وهو التعريف برواد العلوم العقلية في تاريخ الإسلام إلى غاية العصر الذي عاش فيه مع ذكر أهم مصنفاتهم العلمية وإسهاماتهم الحضارية كالأطباء والمهندسين والفلاسفة وأهل الحساب وغيرهم، ولأنّه من أهل بلاد المغرب فلا غرابة أنّ تقدّم آراؤه على غيره في الكثير من الموضوعات التي تتضارب فيها الروايات أو يحوم حولها الغموض، ويعود ذلك إلى سعة اطلاعه ومعرفته بالأطوار التي مرّت بها العلوم العقلية والنظرية، وإحاطته بعلاقات حكام الدول بأهلها وموقفهم منها، ومناهج تعليمها وأسباب تطورها أو انحسارها.

هذه جملة من المصادر الأولية التي اقتصرت على ذكر بعضها، وفي ثنايا هذه الدراسة عرض لغيرها من الدواوين والمصنفات المطبوعة والمخطوطة، ومختلف الأبحاث العربية والأجنبية الخاصة بالباحثين المحدثين وفي مختلف التخصصات النقلية والعقلية، والهدف

منها إحاطة الموضوع - قدر الإمكان- من جميع جوانبه بما يكفي لسبر غور مباحثه واقتفاء آثار رجالات العلوم وإسهاماتهم في مختلف المعارف والفنون في مقاربة تاريخية ضمن الحدود الزمنية والمجالية للدولة الموحدية.

ومن الصعوبات التي واجهت مراحل إعداد البحث وتقصي موضوعاته هو عدم التمكن من الاطلاع على العديد من المخطوطات النادرة التي تعود إلى الحقبة المدروسة؛ وبخاصة في مجال العلوم العقلية مع إمكانية الوصول إلى أرقامها وتصنيفاتها في دور المخطوطات وخزائنها، وأخص بالذكر مكتبة الإسكوريال بإسبانيا ومكتبة لشبونة الوطنية بالبرتغال ومكتبة جامعة غوتينغن بألمانيا، مع استفراغ الجهد في اتباع جميع الإجراءات القانونية والإدارية، والتواصل مع الباحثين العرب والأجانب للظفر ببعض نسخها المهمة؛ غير أنّ ما يؤسف له أنّني اكتفيت بمجرد المحاولة حتى لا أقول الفشل، وحق لها بذلك أن تصنّف ضمن تراثنا المخبوء.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت في الإلمام بأهم مباحث هذه الدراسة وما اخترته لها من مصادر ومراجع، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

الفصل الثاني: إسهام أعلام بلاد المغرب والأندلس في تولي الخطط الدينية والسلطانية ضمن الترتيبات الإدارية للدولة الموحدية.

المبحث الأول: الاستعانة بأشياخ الأندلس وأعيانها في مجال السياسة والحكم.

المبحث الثاني: خطة القضاء (القضاة ومن ناب عنهم).

1. أشهر القضاة الأندلسيين في بلاد المغرب.
2. أشهر القضاة المغاربة في الأندلس.

المبحث الثّالث : الكتابة والكتاب.

1. مفهومها وضوابها.
2. أشهر الكتاب المغاربة والأندلسيين في دواوين الدولة.
3. انتشار خطوط الكتابة وتنوع أشكالها.

المبحث الرابع: الموثقون (عاقدوا الشروط) .

المبحث الخامس : إمامة الخطبة والصّلاة.

1. إسهام المساجد في ترسيخ حكم الموحدين.
2. أشهر الخطباء والأئمة تنقلاً بين بلاد المغرب والأندلس.

المبحث السادس: تأديب الصبيان (مؤدبوا أبناء الخلفاء والأمراء).

1. تلقين أبناء الأسر الحاكمة وتأديبهم.
2. أشهر المؤدبين في دور الأسر الموحدية الحاكمة.

المبحث السابع: الإشراف الوظيفي الخاص.

1. الإشراف على البيمارستان: (رئاسة دار الفرج).
2. الإشراف على الطلبة: (رئيس الطلبة).
3. الإشراف على خزائن الكتب السلطانية: (الخزانة العالية).
4. خطة الحسبة والإشراف على الجباية.
5. خطة النقابة : (معرفة أنساب الأشراف).
6. خطط و وظائف أخرى.

الفصل الأول: الأوضاع السياسية وتأثيرها في الحياة العلمية في العصر الموحدي.

لا خلاف في أنّ ثمّة ترابطا وثيقا بين الاستقرار السياسي مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية؛ إذ شكلت الاضطرابات والفتن حواجز أمام التقدم الحضاري للدول، وقد استغل محمد بن تومرت حين اشتداد دعوته مواطن الضعف التي كانت تمر بها الدولة المرابطية لتوسيع مواجهته إلى جميع الحواضر؛ وهي المهمة التي أتمها خليفته عبد المؤمن بن علي إثر وفاة ابن تومرت سنة 524هـ/1129م، وبذلك سادت المنطقة إضطرابات وأزمات أثّرت على أوضاع المجتمع، واشتدت وتيرتها بداية من سنة 539هـ/ 1144م، وهو ما حمل الباحثين على تسميته بعصر الطوائف الثاني[1].

المبحث الأول: الأوضاع السياسية في بلاد المغرب والأندلس في نهاية الدولة المرابطية:

عرفت السنوات الأخيرة من عمر دولة المرابطين اضطرابات سياسية هددت كيان الدولة ونسيجها الإداري، وكان لقيام الموحدين دور بارز في تفاقمها انطلاقاً من بلاد المغرب ووصولاً إلى الأندلس، وتتبعاً لتأثير هذه الأوضاع على الحياة العامة نعرج على بعض المحطات الكبرى، ومعرفة مدى انعكاسها السلبي في المجتمع.

1- في عدوة المغرب:

بعد وفاة ابن تومرت خشي الموحدون على تفكك أمر دعوتهم، فما كان من عبد المؤمن بن علي وقبائل المصامدة إلاّ كتمان موته "حتى إذا استحكم أمرهم وتمكنت الدعوة من نفوسهم كافتهم وكشف القناع عن حالهم"، وخلال هذه الفترة تواصلت المعارك بين المرابطين والموحدين، وفي خضم أتون هذه المعارك توفي سير بن يوسف بن تاشفين ولي العهد في سنة 533هـ/1140م، وهو الحادث الذي أعقبه ظهور الصراع داخل البيت المرابطي، إضافة إلى نشوب الخلاف بين القبائل والعصبيات المرابطية، وقد استغل الموحدون هذه الظروف وقاموا بضم المخالفين إلى صفوفهم.

1- عصمت عبد اللطيف دندش- الاندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصر الطوائف الثاني- دار الغرب الإسلامي- ط1- 1988م- ص9.

وعلى الرغم من تمكن علي بن يوسف بن تاشفين (500-537هـ/1106-1142م) من مواجهة الخطر النصراني في الأندلس بقيادة ابنه تاشفين، إلاّ أن ضربات الموحدين في بلاد المغرب اشتدت وتيرتها، وعندما رأى ذلك وجه الدعوة لابنه لمواجهة الخطر الداخلي غير أنه انهزم في موقعة "منانة"[1] سنة 533هـ/1138م التي حسمت لصالح الموحدين[2].

وشمل الحصار مناطق عديدة في شمال حاضرة المرابطين مراكش وجنوبها، وبعدما استحكم الأمر للموحدين قاموا بمحاصرة مراكش والتضييق على سكانها، وساءت أحوال المرابطين أكثر مع وفاة علي بن يوسف بن تاشفين سنة537هـ/1142م، ولم يتمكن خليفته تاشفين من حشد أنصاره بحيث توجه إلى تلمسان ولما رأى من أهلها ما لم يرضه غادرها إلى وهران و أبقى ابنه وولي عهده إبراهيم على مراكش؛ غير أن الموحدين تمكنوا من محاصرته، وفيها لقي مصرعه سنة 539هـ/1144م.

ومن العوامل التي أسهمت في انهيار الدولة المرابطية كثرة الأزمات الاقتصادية، وتعدد الكوارث الطبيعية؛ وهو ما أدى إلى ظهور المجاعة وانتشار الأمراض، ويحدد ابن عذاري سنة 535هـ/1140م تاريخ هجرة المغاربة إلى الأندلس بسبب هذه الأوضاع المتردية.

2- في عدوة الأندلس:

لم تكن الأندلس بعيدة عن الأحداث الدائرة في بلاد المغرب بحيث شهدت هي أيضاً اضطرابات وثورات أسهمت في تردي الأوضاع، وعجّلت بسقوط الدولة المرابطية، فقد استولى النصارى على أجزاء كثيرة من شمالها؛ بحيث أورد صاحب المعجب "أن ملك أراغن استولى على بلاد أفراغة وسرقسطة وكثيراً من أعمال تلك الجهات"[3]، وأمام ضعف أحوال المرابطين وارتباك أمرهم وجد الأندلسيون الفرصة سانحة لأن يعلنوا انفصالهم وكانت البداية بصورة المريدين.

1- موضع بالقرب من منطقة بني ملول بإقليم حاحا بالمغرب، موطن قبيلة جزولة. ابن القطان، أبو محمد- نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان- تح محمود علي مكي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1- 1990م- ص ص 263-264.

2- ابن عذاري- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب- تح بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد- دار الغرب الإسلامي- تونس- ط1- 2013م- ج3- ص 81.

3- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 126.

أ. ثورة المريدين وتأثيراتها:

ظهرت هذه الثورة في الأندلس بقيادة ابن قسي[1] (ت546هـ/1151م) الذي اختار الزهد والتصوف طريقة في حياته، وتمكن من تزعم طائفة كبيرة من المتصوفة في الأندلس، وقد تزامن ظهوره وقيادته لهذه الجماعة مع نشوب الصراع في بلاد المغرب بين الموحدين والمرابطين؛ وهي سانحة لم تكن لأن يفوتها ابن قسي للانتقام من المرابطين الذين تضرر المتصوفة في عهدهم بوقوفهم في وجه توجهاتهم الصوفية على طريقة أبي حامد الغزالي[2].

وقد امتازت حركة ابن قسي بالسرية في بداية أمرها بين مريديه، وقد أشار ابن الأبار إلى أن ادعاء المهدوية والإمامة كانتا من بين الأساليب التي اعتمد عليها ابن قسي للتمكن من نشر أفكاره الصوفية والعقدية[3]، وفي سنة 539هـ/1144م بدأت حركته بالظهور العلني فلتف حوله الناس والمريدون وكثر أتباعه، ومن أعماله الثورية الناجحة هجومه على حصن مارتلة[4]، وتمكنه من الدخول إليه وإحكام سطيرته عليها، وعندما دخل مريدوه أمنوا السكان، ولم يتمكن المرابطون من افتكاكه منهم، ومن مارتلة وجّه ابن قسي دعوته إلى الناس كافة، وإعلانه الثورة الموسعة على حكم المرابطين، واستطاع في وقت وجيز السيطرة على مناطق عديدة في غرب الأندلس[5].

لقد أثرت ثورة المريدين على السلم والاستقرار الذي عرفته الأندلس في بداية حكم المرابطين، وكانت من بين الأسباب التي أسهمت في ضعف سلطة المرابطين وتقويض حكمهم في الأندلس، ولم تهدأ تداعيات هذه الثورة إلاّ بمقتل ابن قسي على يد أهل مدينة

1- هو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي، أول الثائرين بالأندلس، وهومن أصل رومي من بادية شلب، اتبع التصوف والزهد، صمّ ادعى المهدية وتسمى بالإمام، غير أن نهايته كانت على يد اهل شلب سنة 546هـ/1151م. إبن الأبار- الحلة السيراء- المصدر السابق-ج2- ص ص 197-198.

2- هو أبو حامد زين الدين محمد بن محمد الطوسي المعروف بالغزالي، أجاد عدة علوم وألف حولها الكثير من الكتب، غير أنّه اشتهر بالفقه وأصوله والخوض في التصوف، وكانت وفاته سنة 505هـ/1111م. الذهبي- سير أعلام النبلاء- تح شعيب الارناؤوط- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط11- 1996م- ج19- ص ص 322-346.

3- المصدر السابق- ص197.

4- حصن بجزيرة الأندلس على نهر بطليوس. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 521.

5- ابن الأبار- المصدر السابق- ج2- ص 198.

شلب[1] سنة 546هـ/1151م، وحينها كان الأمر قد حسم لصالح الموحدين في بلاد المغرب، وبداية ترتيبهم لأمور الأندلس.

ب. ثورة كبار قضاة الأندلس:

أمام كثرة الفتن ونشوب الصراع بين المرابطين والموحدين في بلاد المغرب لم يجد أهل الأندلس- وبخاصة في الحواضر الكبرى- غير القيام على من تبقى من المرابطين ومحاصرتهم، غير أن أمر ولايتهم أوكل إلى ممثلي السلطة الشرعية وأهل الولايات الدينية، وعلى رأسهم القضاة؛ وهذا لاعتبارات عدة، ولعل من أبرزها مالهم من مكانة واحترام في أوساط العامة إضافة إلى مكانتهم العلمية بين طبقة الفقهاء وأهل المعرفة، وقد نقل لسان الدين بن الخطيب رواية عن مؤرخ هذه الفترة عبارة يستشف منها أخذهم بزمام المبادرة حين تعرض لقيام القاضي ابن حسون[2] في مدينة مالقة سنة 538هـ/1143م، بقوله: "ثمّ دعا لنفسه لما تكاتبت القضاة"[3]، ويظهر هذا النص أن اضطراب الأوضاع في الأندلس في نهاية الدولة المرابطية حمل قضاتها على التواصل فيما بينهم، والإقرار بالمكاتبة لما في أيديهم، والثورة على من بقي من المرابطين درءاً للفساد الذي قد ينجم عن اختلال أمر السلطة الحاكمة، وسداً لأبواب التفرقة.

يفسر هذا الرأي ظهورهم في مختلف مناطق الأندلس على رأس المدن الثائرة في وجه المرابطين؛ ومنهم: القاضي ابن حمدين[4]، ويبدأ ظهوره بعد ثورة أهل قرطبة ضد الوجود المرابطي المنهك، وتمكنهم من السيطرة على المدينة؛ فقدموا القاضي ابن حمدين لولايتها بعدما بايعوه بالإمارة في رمضان من سنة 539هـ/1144م وتلقّب بأمير المسلمين، غير أن

1- مدينة من بلاد الأندلس، وهي قاعدة كورة أكشونبة، وهي بقبلي مدينة باجة على بسيط من الأرض، وعليها سور حصين، ولها جنّات وغلات. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر نفسه- ص 342.

2- هو أبو الحكم الحسين بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الكلبي، واشتهر بكنيته ابن حسون قاضي مالقة، تولى أمرها عند إضطراب أمر المرابطين، وعارض الموحدين عند دخولهم مالقة مما عجل بمقتله سنة547هـ/1152م. ابن الخطيب- أعمال الأعلام- ص ص 254- 255.

3- المصدر نفسه- ص 255.

4- هو أبو جعفر حمدين بن حمدين بن محمد التغلبي، فقيه مالكي تولى القضاء في قرطبة للمرابطين، وثار عليهم سنة 539هـ/1144م، ولم يتمكن من الإمارة فلجأ إلى مالقة وبها توفي سنة 547هـ/1152م. النباهي- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا- تح لجنة إحياء التراث العربي- دار الآفاق الجديدة- بيروت- ط5- 1983م- ص ص 103- 104.

الخلافات حالت دون تمكنه من إدارة قرطبة[1] فوجه فريق منهم الدعوة لسيف الدولة أحمد بن هود[2] بحيث رأوا فيه الأقدر على توليها، وما لبث أن دخلها معلناً خلع القاضي ابن حمدين الذي لاذ بالفرار، ولكن فريقه ما لبث أن ثار ضدّ ابن هود بعد عدة أيام من توليته؛ فخرج عن قرطبة واستولى على مدينة جيّان[3]، وتمكن القاضي ابن حمدين من العودة إلى قرطبة، ولأنها مقر الإمارة وحاضرة الأندلس منذ الحقبة الأموية رأى أن يوجه دعوة الاعتراف بولايته إلى جميع القضاة والأعيان الثائرين في مختلف المناطق الأندلسية للدخول في طاعته؛ وقد غذت النعرات القبلية والعصبية الأندلسية هذه الأحداث، ومن أشهر الثائرين الذين لبوا نداء القاضي ابن حمدين:

- أخيل بن إدريس الرندي[4] الثائر في مدينة رندة[5]، وهو أحد كتاب الأندلس وشعرائها المعروفين.

- القاضي أبو الحسن بن أضحى[6] في مدينة غرناطة.

- أبو الغمر بن السائب بن عزون[7]، وكان من أوائل الثائرين على الرغم من انتمائه إلى قبيلة لمتونة الصنهاجية، وقد ثار في مدينة شريش[8] وما جاورها.

- القاضي ابن حسون في مدينة مالقة.

1- ابن الخطيب- المصدر السابق- ص 255.

2- هو أحمد بن عبد الملك بن هود، حكم أجداده وآباؤه مدينة سرقسطة إلى غاية دخول المرابطين إليها سنة 503هـ/1109م، ولم يتمكن المرابطون من الحفاظ عليها فسقطت في أيدي النصارى سنة512هـ/1118م فبقي في كنفهم، ثمّ دخل أتون الثورة على المرابطين في مرسية وغيرها، وانتهت بمقتله سنة 540هـ/1145م. ابن الخطيب- المصدر السابق- ص175-176.

3- مدينة بالأندلس كثيرة الخصب، وبها جنات وبساتين ومزارع، وهي في سفح جبل، ولها أقاليم كثيرة وقرى عامرة. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص ص 183-184.

4- هو أخيل بن إدريس بن علي بن إبراهيم من أهل رندة، شاعر وكاتب وأديب، مدح بني عبد المؤمن، وكان أحد أشهر شعرائهم، وتوفي سنة 560هـ/1164م- ابن الأبار- الحلة السيراء-المصدر السابق- ج2- ص 241.

5- مدينة بالأندلس؛ وهي قديمة ، وتقع على نهر ينسب إليها. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر نفسه- ص 269.

6- هو علي بن عمر بن محمد بن مشرف بن أضحى الهمداني من أهل غرناطة، ولي القضاء زمن المرابطين في المرية ثمّ غرناطة، وترأسها أيام الفتنة، ولم تدم مدته بسبب وفاته سنة 540هـ. ابن الأبار- التكملة- ج3- ص 192.

7- لم أقف على ترجمة وافية له، وكل ما هنالك أنه أحد ثوار الأندلس في نهاية الدولة المرابطية دعا لابن حمدين في بداية أمره، ثم خلع طاعته واستقل بمدينة شريش وأركش ورندة، إلى أن اتصل بالموحدين وصار واحداً منهم، ينظر ابن عذاري، المصدر السابق، ص38، وابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص242.

8- مدينة بالأندلس، وهي من كور شذونة على مقربة من البحر، وهي حصينة ومتوسطة حسنة الجهات. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر اليابق- ص 340.

- القاضي أبو جعفر محمد بن أبي جعفر[1] في مرسية.

- القائد علي بن عيسى بن ميمون[2] في مدينة قادس

وقد استجاب بعضهم لدعوة ابن حمدين والدخول في طاعته في حين تردد غيرهم، ولم يروه أهلاً لتولي أمر الأندلس.

كانت المعارك سجال خلال الفترة الممتدة من سنة 539هـ/1144م وإلى غاية 541هـ/1146م تتجاذبها عدة أطراف، فالمرابطون يحاولون استعادة السيطرة على الأندلس بقيادة ابن غانية، والقاضي ابن حمدين تجرأ بالتحالف مع ملك قشتالة الذي أعانه بجيش من النصارى لإحكام السيطرة على قرطبة، غير أن ابن غانية استطاع مواجهة المتحالفين وأحكم سيطرته على المدينة[3]، و انفرد ابن حيون الصقلي برواية عن ثورة القبائل البربرية في مختلف المدن الأندلسية، "ولم تهدأ ثورتهم إلاّ بدخول الموحدين"[4].

ج. الثورة في شرق الأندلس:

امتدت الاضطرابات إلى أماكن واسعة من الأراضي الأندلسية، وشارك في أتونها مختلف عناصر المجتمع؛ ومنها ثورة العامة في المناطق الشرقية، وكانت بدايتها الأولى في مدينة بلنسية على حكم المرابطين المهدد بالزوال في جنوب الأندلس وبلاد المغرب، ووقع اختيار الثائرين على القاضي أبي مروان بن عبد العزيز[5] الذي تمكن من إخراج والي المرابطين وحلفائه، وتمت مبايعته قبل انقضاء سنة 539هـ/1144م، وتمكن من محاصرة

1- هو أبو جعفر محمد بن عبد الله الخشني من أهل مرسية وقاضيها، وكان قد تقلّد أمر مدينته عندما ثار القضاة، وانتهت بمقتله على يد المرابطين سنة 540هـ/1145م. ابن الخطيب- المصدر السابق- ص 258.
2- هو أبو الحسن علي بن عيسى بن ميمون اللمتوني قائد الأسطول البحري في دولة المرابطين، استقل بجزيرة قادس في أعقاب الدولة المرابطية، وإليه ينسب تحطيم صنم قادس الشهير، بايع الموحدين وقدم خدماته لهم، ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص345، وابن عذاري، المصدر نفسه ، ص34.
3- ابن الخطيب- الإحاطة - ج4- ص ص 300-301.
4- ابن حيون الصقلي الأندلسي- كتاب الجمان في أخبارالزمان- مخطوط رقم 2614- المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة- الورقة رقم 416.
5- هو أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز، أحد قضاة مدينة بلنسية، تأمّر عليها بعد بيعة أهلها له، ولم يتمكن من ذلك فخرج من الأندلس وانتهى به المطاف إلى مراكش وبها توفي سنة 578هـ/1182م. ابن الخطيب- أعمال الأعلام- ص 256.

المرابطين في مدينة شاطبة وضمها إلى ولايته[1]، ومع بداية سنة 540هـ/1145م ثار العامة والجند على القاضي ابن عبد العزيز لإجحافه في جمع الضرائب ومنعه الناس أرزاقهم، ولجأ الثائرون ضده إلى تقديم قائد عسكري هو عبد الرحمن بن عياض الذي تمكن في ظرف وجيز من السيطرة على المنطقة الشرقية والتي تضمن ثلاث مدن رئيسة؛ وهي بلنسية ومرسية وشاطبة لحوالي سنتين، وكانت نهايته على يد القشتاليين حين دخل في حروب مريرة معهم، وذلك سنة 542هـ/1147م[2]، وخلفه أحد نوابه وهو محمد بن سعد بن مردنيش الذي تمكن من إحكام السيطرة على المنطقة الشرقية إلى دخول الموحدين الذين بدورهم لم يتركوا له الفرصة للانفراد بحكم المنطقة؛ بحيث انتهت سطيرته بوفاته سنة 567هـ/1178م[3].

لم يكن لهذه الثورات لأن تحدّ من رغبة الموحدين على المضي قدماً في مخطط ضم الأندلس إلى سلطتهم، "ولم تكن تشكل في معظمها خطراً على زعزعة الوضع الأمني للدولة واستقرارها، كما أنها لم تؤثر على البناء الإيديولوجي والمذهبي لنظام الدولة"[4]، وقد أثبتت كذلك المصادر العربية الحضور الموحدي المكثف قصد وقف الزحف النصراني على المدن والقرى الأندلسية وبخاصة في المناطق الغربية[5].

المبحث الثاني: أثر الفتن في ارتحال العلماء وتغيير مواطنهم:

إنّ الاضطرابات السياسية التي عرفتها دولة المرابطين في أواخر عهدها أبانت عن عدم قدرة الدولة على فرض سيطرتها، وتحكمها في الأوضاع، وصاحب ذلك تدهور اقتصادي أثر في بنية المجتمع والحياة العامة، وقد أشار ابن خلدون في نظريته حول نشوء الدول

1- ابن بسام، أبو علي الشنتريني- الذخيرة في محاسن الجزيرة- تح سالم مصطفى البدري- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1998م- ج1- ص 98.
2- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 134.
3- المصدر نفسه - ص 156.
4- محمد العمراني- الأندلس بين الخضوع والثورة، العصر الموحدي 541-609هـ/1147-1212م- نادية للنشر- الرباط- ط1- 2015م- ص 93.
5- حسام الدين بن صالح شاشية- غرب الأندلس أو البرتغال الإسلامية ومدينة ميرتلة في المصادر العربية- مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية- مج11- العدد 2- ديسمبر2014م- ص ص 119-120.

وسقوطها إلى تلك العلاقة بين مرحلة اختلال الدولة وكثرة الفتن المفضية إلى انقراضها[1]، وهو ما يقاس على ما آلت إليه أحوال المرابطين قبل سقوط دولتهم.

ويتفق المؤرخون وكتاب التراجم على أنّ سنة 539هـ/1144م هي السنة التي بلغ فيها الاضطراب ذروته، وعرفت باسم الفتنة؛ وهي العبارة ذاتها التي أطلقها أهل الأندلس على الفترات المضطربة من تاريخهم، وقد عاصر الشريف الإدريسي هذه الأحداث ووصف ما لحق بالأندلس من أضرار يوم زارها؛ ومنها مدينة قرطبة التي "طحنتها رحى الفتنة وغيرتها حلول المصائب والأحداث مع اتصال الشدائد على أهلها"[2]، وأشار ابن سعيد الغرناطي إلى أنّ أحد المؤرخين- ولم يذكر اسمه- ألف كتاباً جمع فيه أخبار ما جرى ورتبه على السنين بداية من السنة المذكورة وإلى غاية سنة 547هـ/1152م[3]، أغلب الظن أنه هو الكتاب ذاته الذي ألفه أبو عامر السالمي، وسماه "عبرة العبر وعجائب القدر في ذكر الفتن الأندلسية والعدوية بعد فساد الدولة المرابطية"؛ وقد وقف عليه ابن عبد الملك المراكشي بخط صاحبه سنة 699هـ/ 1299م حين سفره إلى تلمسان[4]؛ وهو في حكم المفقود.

هدّدت هذه الأحداث المتلاحقة استقرار السكان وعرضت على العديد منهم الارتحال نحو أماكن أكثر أمناً واستقراراً، ومن جملتهم أعيان المدن والحواضر من قضاة وفقهاء وأدباء، ومن انتسب للعلم وأهله، وقد أحصى كتاب التراجم جمهرة من أعلام بلاد المغرب والأندلس الذين أزعجتهم الفتن، فاضطروا لتغيير أوطانهم طلباً للنجاة بأنفسهم وعيالهم، فضلاً عن أنّ الأمن والاستقرار من ضروريات تحصيل العلم ونشره، كما "كانت الهجرة في كثير من الأحيان وسيلة من الوسائل للتخلص من أزمة داخلية أو مصالح تجارية"[5].

شكّلت هذه الهجرات الجماعية نحو بلاد المغرب أولى الانتقالات البشرية الكبرى التي شهدتها المنطقة منذ الفتح الإسلامي للأندلس؛ وذلك بحسب الإحصاءات التي تمّ التركيز فيها

1- الإدريسي- المصدر السابق-ج2- ص579.
2- نفس المصدر والجزء والصفحة.
3- نقلاً عن المقري- المصدر السابق-ج3- ص 181 .
4- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج6- ص 9.
5- علي أحمد على كرير- المهاجرون الأندلسيون وتأثيراتهم على بلاد المغربين الأدنى والأوسط خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (13- 14م)- دار الكتب الوطنية- بنغازي- ط1- 2013م- ص 69.

على معرفة المدن التي استقر فيها المهاجرون بداية من سنة 539هـ/1144م، وقد بدا ذلك واضحا عند تتبع أهل التراجم لأصول مؤسسي مختلف البيوتات الأندلسية والمغاربية؛ وبخاصة تراجم القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي التي يتم التذكير فيها بأصل المنشأ، والحقبة التي تمت فيها مغادرة الأوطان، وقد تعددت الآثار الناجمة عن هذه الفتن ولاسيما الأمنية منها والاقتصادية.

من أمثلة ما تم الوقوف عليه من تعليقات أهل التراجم ما ذكره ابن الزبير عن أحد العلماء الذين أزعجتهم الفتنة قائلاً: "ولما طرأت الفتنة بين أيام لمتونة وأيام الموحدين، ودخلت الغنائم في الأموال، لم يأكل لحم بهيمة الأنعام بوجه"[1]، ونبّه على آخر من أهل إشبيلية أنه " توفي بمدينة سبتة فاراً من الغلاء والفتن سنة 541هـ"[2]، فيما فضل أندلسي آخر اللجوء إلى بلاد المشرق "عند ابتداء فتنة المريدين والفقهاء بالأندلس إذ خرج فاراً منها"[3]، ومنهم عالم اللغة والنحو أحمد بن محمد بن حزم الإشبيلي[4] الذي "أجاز البحر إلى العدوة أول الفتنة الحادثة بين اللمتونيين والموحدين، وتطور بأطوار فكان تارة جندياً وأخرى كاتباً إلى غير ذلك من التّقلبات"[5].

توالت الهجرات بعد هذه الفترة وتلازم ظهورها مع تجدد الفتن والحروب في الأندلس؛ وبخاصة إلى مدن بلاد المغرب بحيث تطلعنا كتب التراجم على من غير موطنه عقب هزيمة العِقاب سنة 609هـ/1212م بحثاً عن الأمن والاسقرار، وسنة 621هـ/1224م، وسنة 626هـ/1228م، ونبّه ابن الأبار البلنسي إلى كثرة ما شاهد من الأندلسيين عند زيارته لإفريقية[6]، لاسيما من أهل شرق الأندلس، والظاهر أنّ هذا تمّ بعد عمليات الحصار والتضييق التي تعرض لها السكان من طرف الممالك النصرانية، والأمر ذاته أشار إليه ابن

1- ابن الزبير- المصدر السابق- ص65.
2- المصدر نفسه- ص 107.
3- نفسه- ص173.
4- هو أبو عمر أحمد بن محمد بن حزم من أهل إشبيلية كان أديبا ماهرا في علوم اللسان، من اشهر مؤلفاته " الزرايغ والدوامغ" و"الرسالة الصئول على الباغي والجهول"، ولم تحدد سنة وفاته. ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج407.
5- نفس المصدر والجزء والصفحة.
6- ابن الأبار- المصدر السابق- ج3- ص 154.

غالب الأندلسي، وأجمل في شهادته الهجرة إلى جميع مناطق العدوة المغربية الساحلية منها والداخلية، وعدّد عناصر مختلفة من المجتمع الأندلسي من أهل العلم والحرفيين والصنّاع[1].

الملاحظ أنّ وقع فتنة المرحلة الإنتقالية بين سنتي 539 و 542هـ وصدى تأثيرها كان أكبر على أهل الأندلس من غيرها، وتوالى خبرها إلى أهل التاريخ والتراجم فدونوا ما بلغ مسامعهم عن سببها في هجرة العلماء، وتغيير أوطانهم، والظاهر من تتبع كتاب تراجم الأعلام لأصول العلماء وبيوتاتهم بين بلاد المغرب والأندلس ما يفيد بتعدد ظاهرة الهجرة والارتحال بداية من هذه الفترة؛ إذ أنّ معظم طبقات التراجم التي ظهر أصحابها في القرنين السادس والسابع الهجريين ورد التنبيه إلى أصل الموطن بالرغم من اختلافه عن موطن المولد والنشأة؛ كأن يكون المترجم به من أهل تلمسان مثلاً بينما أصله من إشبيلية، وكثيراً ما تعقب ابن الأبار في تكملته سبب الاختلاف في ذلك بهجرة الأصول[2].

وفي الإحصاءات الآتية توضيح لذلك.

1- المقري- المصدر السابق- ج3- ص 152.
2- ينظر على سبيل المثال- المصدر السابق- ج2- ص ص 159-163.

انتقال العلماء بين العدوتين المغربية والأندلسية في المرحلة الانتقالية

أسماء الأعلام	مكانتهم العلمية	أصل مواطنهم	زمن الجلاء	مكان انتقالهم	سنة الوفاة
أحمد بن محمد بن حزم	أستاذ بالعربية	إشبيلية	سنة 539هـ	عدوة المغرب	/
- محمد بن عبد الله بن محمد الخشني	قاضي	مرسية	سنة 539هـ	غرناطة	540هـ
- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الصقلي	لغوي	إشبيلية	خرج زمن الفتنة	سبتة	541هـ
- محمد بن أحمد بن إبراهيم البغدادي	فقيه	جيّان	سنة 539هـ	فاس	546هـ
- علي بن أحمد بن محمد الكلبي	فقيه	قرطبة	539هـ	مرتلة ثم مراكش	565هـ
- عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف السكوني	من أهل العلم	لبلة	540هـ	بلاد المشرق	/
-محمد بن خليل بن مفرج بن عبد العزيز	فقيه وقاضي	المرية	أزعجته الفتنة عن موطنه	بلنسية	/
- محمد بن محمد بن أحمد التجيبي	قاضي	قرطبة	خرج زمن الفتنة	مرسية	567هـ
- محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأنصاري	قاضي	غرناطة	سنة 539هـ	بلنسية	567هـ
- محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري	فقيه ومشاور	قرطبة	خرج من بلاده في الفتنة	مراكش	567هـ
- إبراهيم بن الحاج أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري	قاضي	غرناطة	أزعجته الفتنة عند انقراض الملثمين	ميورقة	579هـ
-عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي.	فقيه ومحدث	إشبيلية	خرج من موطنه في الفتنة	لبلة ثم بجاية	582هـ
- أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري	فقيه وتاجر	قرطبة	خرج زمن الفتنة	لبلة ثم فاس	610هـ

ليس الهدف من هذا الإحصاء حصر جميع الأعلام الذين غادروا مدنهم كرهاً، وإنما هي مجرد نماذج لشريحة واسعة من المجتمع الأندلسي وقع اختيارها من بين العشرات الذين أورد ذكرهم أهل التراجم على مراتبهم العلمية، وأصل مواطنهم مع تقييد زمن جلائهم، ومكان انتقالهم وسنوات وفاتهم.

ومن العبارات التي ترددت عند ابن خلدون وابن الأبار على وجه التحديد عنهم عبارة "جالية الأندلس"[1]، وإلاّ فإن حصر من ذكر انتقالهم بسبب الفتنة دون إيراد لهذه المعطيات قد يطول، وما يستفاد عن هؤلاء الأعلام أن منهم من اختار اللجوء إلى المدن الأندلسية الآمنة ولم يبغ عنها بديلاً رغم أن هذا بدا مؤقتاً وأكثر ارتباطاً بمدى تحسن الأوضاع فيها مع قصر المدة، بدليل أننا نجد في السنة الواحدة (539هـ/1144م) من انتقل من مرسية إلى غرناطة والعكس، بينما اختار آخرون الانتقال إلى مدن بلاد المغرب، وهو ما أهلها لأن تكون أماكن استيطان دائم للعديد منهم على غرار مراكش وفاس وبجاية وسبتة والجزائر وتلمسان، رغم ما عرف عن الأندلسيين من حب لمدنهم وشدة تعلقهم بها.

و يلاحظ أن القضاة والفقهاء والأدباء يأتون على رأس من مستهم الأوضاع المضطربة، وكانوا في هذه الفترة أكثر عرضة للخطر من غيرهم، فاضطروا إلى المغادرة طلباً للنجاة، في حين استغل آخرون منهم مكانتهم في المجتمع وهموا بالدعاء لأنفسهم سعياً وراء تولي الإمارة فانغمسوا في أتون الفتنة، ولأن التراجم خصصت لأهل العلم والأدب دون غيرهم، فلا يستبعد هجرة غيرهم من أهل الصنائع والحرف.

حاول أهل التراجم الإحاطة بأهم محطات حياة الأعلام المترجم بهم؛ فذكروا أنسابهم وأصول مواطنهم وأبرز شيوخهم وتلامذتهم، وتواريخ وفاتهم، وكانوا ينبّهون إلى من تغيرت أحوالهم بسبب الحروب والفتن، وامتحنوا بتغير أماكن نشوئهم فاستوطنوا بلداناً غير بلدانهم، ويمكن استخلاص أبرز المتغيرات التي ترتبت عن انتقال أعلام العلماء فيما يلي:

- انتقال سند التعليم رواية ودراية، وبذلك أسهم تغيير العلماء لمواطنهم ظهور مراكز تعليمية جديدة، وهو الأمر الذي استفادت منه الدولة الموحدية كثيرا.

1- ابن الأبار- المصدر السابق- ج3- ص 154، وابن خلدون- المصدر السابق- ج1- ص 514.

- انتقال خزائن الكتب؛ وهو ما سهل عملية نسخها، وبخاصة ما ندر منها إضافة إلى حركة التصنيف التي ستعرفها بلاد المغرب خلال هذه الحقبة في مختلف العلوم والفنون؛ وهو ما سيتم التطرق إليه في روابط الحياة العلمية بين العدوتين المغربية والأندلسية.

- لطالما تفاخرت المدن بأعلامها، وتنافست بذكر فضائل علمائها وصلحائها، وفي انتقالهم يعلو ذكر بعضها ويخبو ذكر أخرى.

- عادة ما يكون تغيير العلماء لمواطنهم سبباً في تغيير طلبة العلم لمسار رحلاتهم العلمية؛ فلا تكون الرحلة إلى المدينة بعينها، وإنما إلى من سكنها من العلماء.

- بدا اختلاف البيئة واضحاً في كتابات بعض العلماء بحيث دونوا مشاهداتهم عن طبائع من هجروا إليهم، ومختلف ما بلغ مسامعهم من غريب ألسنتهم وعاتداتهم.

- أسهمت المراتب العلمية في تقلد بعض الأعلام للمناصب العليا في الدولة الموحدية، والوجاهة بين الناس، ولم تقف غربتهم حائلاً أمام بلوغهم لهذه المناصب؛ وهو ما سيتم الحديث عنه بالتفصيل في الفصول اللاحقة.

المبحث الثالث: دور الموحدين في إعادة الاستقرار وتوحيد العدوتين.

1- توحيد بلاد المغرب:

ما إن تمكن الموحدون من دخول مراكش في شهر شوال من سنة 541هـ/1146م حتى هموا بتأمين المدن والأقاليم[1]، وملاحقة من بقي من أمراء المرابطين، وتأديب القبائل الموالية لهم؛ وبخاصة تلك التي انحازت للمناطق الساحلية، وإخماد ثورة الماسي[2] في بلاد السوس.

كان من نتائج إحكام سيطرتهم على بلاد المغرب قدوم الوفود للمبايعة والإقرار بحكمهم؛ ومن أشهرهم وفد من علماء الأندلس قدم من مدينة إشبيلية على عبد المؤمن بن علي في

1- ابن عذاري- المصدر السابق- ص 27.
2- هو محمد بن عبد الله بن هود، كان أبوه دلالاً بالسوق فادعى الهداية وسمى نفسه بالهادي، غير أن الموحدين وجهوا له جيشاً فقتل أثناء المعركة. المصدر نفسه- ص ص 30- 31.

في أواخر سنة 541هـ/1146م، وكان على رأسهم القاضي أبو بكر بن العربي المالكي[1].

تمكن الموحدون من الدخول إلى أشهر حواضر بلاد المغرب، ولم يتركوا مدينة أو صقعاً إلاّ وفرضوا سيطرتهم عليه؛ وبخاصة في الفترة التي حكم فيها عبد المؤمن بن علي، ومنها حركته إلى مدينة بجاية سنة 547هـ/1152م واستيلائه على ملك الحماديين[2]، وفي آخر سنة 553هـ/1160م أخذ في الحركة إلى إفريقية ودخل مدينة تونس عنوة، وامتدت سيطرة الموحدين على المهدية وطرابلس وما والاها من البلاد، ولخص عبد الواحد المراكشي المناطق التي سيطر عليها عبد المؤمن في حياته بأنها تمتد من "طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة وأكثر جزيرة الأندلس"[3].

2- جواز الموحدين إلى الأندلس وتوحيد العدوتين:

تتفق معظم المصادر عن دواعي انتقال الموحدين إلى الأندلس حول رواية من وفد إلى حاضرتهم مراكش من أهل إشبيلية الذين بادروا إلى الاستنجاد بهم ومبايعتهم[4] ؛ لأنّ كفة ميزان القوة لديهم أضحى هو الغالب على الرغم من أنّ الأمر لم يكن لهم في بلاد المغرب بحكم انشغالهم بمحاصرة من بقي من المرابطين، وكان أطراف الصراع الداخلي بالأندلس هي من بادرت بالاتصال بالخليفة عبد المؤمن بن علي، حيث تلقى مبايعة أبي الغمر السائب بن عزون الثائر بمدينة شريش، وطاع له علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول البحري للمرابطين والمنتزي عليهم بقادس[5] التي خطب بجامعها أول خطبة لعبد المؤمن سنة 540هـ/1146م[6].

1- ابن سماك العاملي- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية- تح عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2010م- ص 223.

2- ابن عذاري- المصدر السابق- ص 64.

3 - عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 169.

4- خالف البيدق هذه الرواية فتحدث عن ارتداد أهل المرية قبل جواز الموحدين في إشارة قد يفهم منها بلوغ دعوة الموحدين في وقت مبكر إلى الأندلس. ينظر البيدق- أخبار المهدي ابن تومرت- تح عبد الحميد حاجيات- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1975م، ص 69.

5- جزيرة جنوب الأندلس، طولها من القبلة إلى مدينة الجوف أثنا عشرة ميلاً، بها مزارع كثيرة ومن أعجب آثارها الصنم الذي في وسطها. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص287.

6- ابن عذاري- المصدر نفسه- ص27.

واجتاز إليه ابن قسَي صاحب ثورة المريدين، فكان أن " تحفى عبد المؤمن به وأكرم وفادته، ثم انصرف إلى الأندلس"[1]، ولم يقتصر الأمر على القادة العسكريين فقد قصده القاضي ابن حمدين -الثائر بقرطبة- بعدما انفرط أمره" فأقبل عليه وأحسن وعده"[2].

يفهم من مجمل الروايات التاريخية أن هذه المبايعة إنما وقعت تحت ظرف المصالح السياسية وتبادل الأدوار، فقد نزع كل من ابن قسي وابن حمدين يديهما منها[3]، وأما الموحدون فإنهم "بقدر ما اجتهدوا في تحطيم الدولة المرابطية، حاولوا بصلابة حماية إرثها الوحدوي الذي اعتبر تجربة مغربية رائدة، ولم يقبلوا بأن يرتبط تفتيته باسمهم"[4] حيث شكلت مبايعة وفد إشبيلية المكون من أبرز أعيانها وفقهائها[5] الدعم السياسي والشرعي الذي حفزهم للانطلاق نحو مختلف المدن الأندلسية، وتحقيق رغبة أهلها في توحيد ما تفرق، والوقوف في وجه تكالب النصارى وبخاصة بعد أخذهم لإشبيلية إحدى كبرى قواعد الأندلس من يد المرابطين في 12شعبان541هـ/1146م، ودخول عبد المؤمن مراكش منتصراً في شوال من السنة ذاتها[6].

اعتمد الموحدون عند جوازهم على توطين القبائل البربرية والعربية داخل المدن وقصباتها قصد إحكام سيطرتهم عليها بضمان ولاء جيوشهم مقارنة بجند الأندلس وقادتهم، وما يؤكد هذه السياسة في تدبير حكمهم لقواعدها اقتصارهم على آل عبد المؤمن وقرابته عند تعيين الولاة عليها[7]، والتي "امتدت إلى الأجهزة الاستشارية والإدارية خاصة العسكرية، فظهرت شريحة اجتماعية جديدة مسيطرة حلت مكان تلك الشرائح القديمة"[8]، ورغم أن ما تم جمعه من معطيات لا يفصح عن تفاصيل الحياة الاجتماعية لأفراد هذه

1- ابن الخطيب- المصدر السابق- ص 251.
2- المصدر نفسه- ص 254.
3- نفسه- ص ص251- 254.
4- محمد المغراوي، المرجع السابق – ص 30.
5- ترأس هذا الوفد أبو بكر بن العربي الفقيه المالكي إلى جانب عدد من الفقهاء والأعيان، وقد أورد أسماءهم صاحب الحلل الموشية- ص147.
6- ابن عذاري- المصدر السابق- ص33، و الحلل الموشية- ص 138.
7 - ابن الخطيب- المصدر نفسه- ص 268.
8- عز الدين موسى- المرجع السابق- ص213. عبد الوهاب بن منصور- قبائل المغرب- المطبعة الملكية- الرباط-(دط)- 1998م- ص ص 67-82.

القبائل في بيئة تختلف عما تعودوا عليه في بلاد المغرب، فإن الأمر لا يخلو من إشارات توضح ما تميز به المغاربة الوافدون على الأندلس، كظهور لغة تخاطبهم باللسان البربري[1] في مجتمع متعدد الأجناس والقوميات، وشيوع أسماء المصامدة في الوسط الأندلسي نسبة إلى كبرى قبائل الموحدين، وهو ما تعداه إلى التسمية القبلية للدولة عند ابن سعيد وعبد الواحد المراكشي بوصفهما لها بـ"دولة الصامدة"[2] خلافاً لما درج عليه كتاب الدولة أو من أرخها.

من الواضح أن الأندلس أضحت مقبلة على مرحلة جديدة من حكم قبائل بلاد المغرب بعد تلك التي شهدتها زمن المرابطين غير أنها ذات توجهات فكرية وعقدية مختلفة تماماً، جسدت بعض ملامحها أقدم رسالة[3] ـ بين أيدينا من حيث تاريخ صدورها ـ وجهها عبد المؤمن بن علي إلى عيّنهم على إدارة المدن الأندلسية وتولي أمرها، وفيها حثّهم على العدل بين الناس، وحذّهم من مغبة قتل المسلمين واستباحة أموالهم وأعراضهم، وإبطال ما كان يؤخذ عنهم من مغارم بمختلف أنواعها[4] مهدداً ومتوعدًا من يأمر بشيء من ذلك؛ فقد كان يهدف إلى إسكان العامة، لخطورة المرحلة التي كانت تمر بها المنطقة؛ لاسيما وأنها كانت منقسمة على نفسها تتجاذبها عدة زعامات أندلسية بالإضافة إلى خطر الممالك النصرانية المتربصة بالثغور، ويرى بذلك "ضرورة قطع تلك المفاسد وإشعار السكان بالاطمئنان إلى الحكم الجديد وتشريعاته"[5].

1- ودليله تلك الخطب التي كانت تلقى على جيوش الموحدين باللسان البربري، منها الخطبة التي ألقاها الشيخ الزاهد أبو محمد عبد الواحد بن عمر ـ أحد أعلام البربر ـ عند حصار رندة سنة 567هـ/1171م. ينظر مقتطف منها بالملحق رقم01 ص353، وأخرى ألقاها في حضرة أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي سنة 568هـ/1172م عند محاصرة آبلة، ابن صاحب الصلاة- المصدر السابق- ص 524.

2- ينظر عبد الواحد المراكشي-المصدر السابق- ص12-179 و223، وابن سعيد- المصدر السابق- ج1- ص ص 193-340، و-ج2- ص ص 250-257.

3- وجه عبد المؤمن بن علي هذه الرسالة عندما وصل إلى تينملل في 16 ربيع الأول سنة 543هـ/1148م- رسائل موحدية- جمع وتحقيق أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- المغرب 1995م- ج1- ص61.

4- ومنها:المكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها- أحمد عزاوي- رسائل موحدية- المصدر السابق-ج1- ص 64.

5- أحمد عزاوي- المصدر السابق- ج2- ص 14.

3- سياسة الموحدين اتجاه الأندلس وأهلها:

عملت الدولة الموحدية – حديثة النشأة- على توطيد صلتها بسكان الأندلس عن طريق نشر العدل والمساواة، ومن ذلك قيام الموحدين بمعالجة أخطاء قادتهم في حق الأندلسيين بصرامة وحزم؛ خشية أن ينسب للدولة ما يتعارض مع ما روجت له من أفكار وشعارات، ومن بين الأعمال المصاحبة لذلك ما جرى لأخوي المهدي بن تومرت بإشبيلية بعد "استطالة أيديهما على أهلها وعلى الأندلسيين المجاورين لها"[1] وقد ظهر منهما "مذهب في قتل الناس وإباحة الدماء وأخذ الأموال واتصال الاعتداء"[2] فكان أن أخرجهما عبد المؤمن من الأندلس وقطع صلتهما بها، وتعقب من تعسف في سلطته من عماله وموظفيه بالمحاكمة والعزل من الأندلس، ومن ذلك على سبيل المثال مواجهته لما قام به أبو زكرياء يحيى بن يمور[3] باعتدائه على أهل لبلة[4] حيث أقدم على "إنفاذ السيف في برهم وخبيثهم، ولم يصغ إلى صوت مستغيثهم"[5] ، فلما بلغ خبره عبد المؤمن أمر باعتقاله في الحديد وإعادته إلى عدوة المغرب، ولم تخل عهود أبناء عبد المؤمن من أحداث مشابهة سببها جور الولاة والعمال والتي تم مجابهتها بإنزال العقوبة على المتسببين فيها[6]، مع ما يمكن أن نستشفه من استمرار التذكير بإتباع منهج الكتاب والسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي نصّت عليهما بعض رسائلهم الرسمية الموجهة إلى القائمين على شؤون الدولة في الأندلس.

1- ابن عذاري- المصدر السابق- ص39.
2- المصدر نفسه- ص98.
3- لم أقف على ترجمته، وحسب ابن عذاري فإنه كان متردداً بالنظر والحماية بما أمر به من الولاية بقرطبة وإشبيلية- نفسه- ص 52 .
4- مدينة في غرب الأندلس قديمة، وهي حسنة متوسطة القدر، ولها سور منيع، وبها أسواق وتجارات. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص ص 507-508.
5- ابن عذاري- المصدر نفسه- ص39.
6- في سنة 568هـ/ 1172م أقدم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بقتل عامله عمر بن سحنون والي باجة لاستبداده وظلمه للرعية، و في سنة 573هـ/1177م كانت السطوة على الوزراء والعمال ومنهم أبو عبد الله محمد بن معلم مشرف إشبيلية، وفي سنة 571هـ/1175م نكب محمد بن عيسى مشرف إشبيلية بعد أن أخذ ماله، وفي عهد المنصور الموحدي كانت نكبة والي مرسية أبي حفص الملقب بالرشيد سنة 584هـ/1188م لأخذه أموال التجار وإذايته للناس، وعزل محمد الناصر بن المنصور عمه أبا إسحاق بن أبي يعقوب والي إشبيلية سنة601هـ/1204م بسبب مظالم الخاصة والعامة. ينظر ابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 128- 243، و غيرها من الأحداث الشبيهة.

من قرائن اهتمام الموحدين بأمرها ما نقل عن عبد المؤمن بن علي قوله: " إن أرض الأندلس تستحق منا كل غال ونفيس"[1]، وفي وصية أبي يوسف يعقوب المنصور[2] (580-595هـ/1184-1198م) ما يدل على سمو المكانة التي احتلتها الأندلس وأهلها في نفسه، وهذا عندما عبّر بلسانه عن حالها، ورغبته من انتشالها من الضياع بقوله: "أوصيكم بالأيتام واليتيمة"[3] وعندما سئل عن معنى ذلك قال: " الأيتام أهل جزيرة الأندلس، والأندلس هي اليتيمة"[4] ثم ذكرهم بما يجب عليهم فعله تحصيناً لها من ضربات النصارى حماية لها ولأهلها، كما أمرهم بإجراء الشرائع على منهاجها[5].

المبحث الرابع: دور الموحدين في تفعيل الحياة العلمية في بلاد المغرب والأندلس:

سلك الموحدون منذ ظهور دعوتهم طريق العلم والمعرفة، واتباع نهج الإصلاح والتغيير، وبدا ذلك واضحاً في الحياة الدعوية للمهدي بن تومرت منذ عودته من بلاد المشرق فقد عاد "بحراً متفجراً من العلم وشهاباً وارياً من الدين"[6]، وبادر إلى التأليف في شتى المعارف والفنون السياسية والشرعية؛ إذ هي الوسيلة الأنجع بين يديه لتبليغ دعوته وترشيدها، وقصد مواجهة عجمة اللسان التي كانت عليها معظم قبائل المصامدة، اضطر للاستعانة بلغتهم" فعلمهم التوحيد باللسان البربري"[7]، وبعد وفاته سنة 524هـ/1129م سار على نهجه عبد المؤمن بن علي خليفته في الإمامة والدعوة.

بعد أنّ تمكن خليفة ابن تومرت من تأسيس أركان الدولة ووضع تنظيماتها بادر إلى الاهتمام بالجانب العلمي للأجيال فأسس بحاضرته مراكش أول مجمع لطلبة بلاد المغرب والأندلس يتعلمون فيها علوم الشريعة ويتدارسون مؤلفات ابن تومرت، وأقام لهم بحيرة

1- ابن القطان- المصدر السابق- ص139.

2- هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالمنصور ولد سنة 554هـ/1159م، بويع له بالخلافة سنة 580هـ/1184م، وكانت وفاته سنة 595هـ/1198م، وفي عهده بلغت الدولة الموحدية أوج ازدهارها. ابن عذاري- نفسه- ص ص 171-225.

3- ابن سماك العاملي الأندلسي- رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير- تح سليمان القرشي- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2004م، ص157. وينظر مقتطف من هذه الوصية بالملحق رقم02 ص354.

4- المصدر السابق- ص 175.

5- نفس المصدر والصفحة.

6- ابن خلدون- المصدر السابق- ج6- ص 302.

7 - ابن سماك العاملي- الحلل الموشية- ص 179.

خاصة يتدربون فيها على السباحة وفنون الحرب، وقد عرفت هذه الفئة منذ ذلك الوقت باسم طلبة الحضر، "ولما كمل له المراد فيهم عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة"[1]، وقد ذهب أحد الباحثين إلى اعتبارها خطوة علمية مدروسة واستشرافية لمستقبل الدولة بحكم تواصل ظهورهم في تاريخ الموحدين[2]، متشبهاً بذلك بحال الأمراء في بلاد المشرق الذين قاموا بتربية المماليك ذخراً للدولة.

تواصل تفعيل الحياة العلمية مع عمليات التوسع الجغرافي في العدوتين المغربية والأندلسية، ولا تطلعنا المصادرعلى صور التعنيف أو الإكراه في عملية تبليغ تعاليم ابن تومرت وما خلّفه من تراث؛ وبخاصة "أن التومرتية تحولت إلى مجرد رسوم وطقوس رسمية، أصبح الهدف منها هو تقوية تماسك الصف الداخلي للعصبية المتحولة إلى دولة"[3].

وعلى الجملة فإنّ البحث عن جوانب الحياة العلمية و مدى إسهام الموحدين فيها بقي متبايناً بين مختلف حواضر بلاد المغرب والأندلس؛ بحيث ظلّ التفوق الأندلسي هو السائد بحكم رسوخ حضارتهم مما فتح المجال أمام الموحدين للاستفادة منه، وهو الأمر الذي حمل ابن خلدون للتأكيد على أنّ الحظ الوافر من حضارة الموحدين إنما يعود بالأساس إلى الأندلس وأهلها؛ والشواهد على ذلك كثيرة، غير أنه أقحم أسلوب الإكراه في انتقال العلماء إليهم بعد استيلائهم على الأندلس[4]، وهو ما لم تشر إليه كتب التراجم والتاريخ، ولا وجود لنماذج تدعم رأيه هذا، في حين أنها تتفق على اتباع الموحدين لنهجي الاندماج والاحتواء للموروث الأندلسي وتداعياته على حياتهم الاجتماعية، وفي القرينة التي ذكرها ابن عبد الملك المراكشي أبلغ شاهد على بعدهم عن هذا الأسلوب عندما عرّف بالفقيه المتحقق بعلم الكلام واللّسان محمد بن علي الفندلاوي[5](ت597هـ/1200م)، ثمّ عقّب على علو كعبه أنّ

1- المصدر السابق- ص 150، وعبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 172.

2- Allen j.Fromherz, the Almohads the rise of an islamic empire, edition new paperback, published by I.B.tauris e co ltd, 2013, p p 126 – 127.

3- محمد المغراوي- المرجع السابق- ص 52.

4- ابن خلدون- المصدر السابق- ج1- ص 464.

5- هو ابو عبد الله محمد بن علي بن عبد الكريم من أهل فاس، دخل الأندلس وروى عن شيوخها، وتفرغ للتعليم والاجتهاد في الأعمال صالحة. ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج8- ص ص 331-332.

"المنصور من بني عبد المؤمن قد رغب في أن يكون من طلبة مجلسه فما قدر عليه البتة"[1].

لا خفاء ما للجانب العلمي في بلاد المغرب والأندلس من أهمية بالغة في التاريخ الحضاري للدولة الموحدية، وتتطلب طبيعة الموضوع عرض ما اتصل بركن مهم في نسيج الدولة ونظامها ؛ ويتعلق الأمر بالنظام التعليمي ، ومحاولة معرفة مدى إسهام الموحدين في تنشيطه، وعلاقة توجهاتهم المذهبية والعقدية على منحاه العام في بلاد المغرب و الأندلس حيث تعدد ذكر أعلام العلماء.

1- المراكز التعليمية في بلاد المغرب والأندلس:

يعود ظهور المدارس التعليمية على اختلاف طرائقها في المغرب الإسلامي إلى بداية الفتوحات الإسلامية، بحيث فتحت الكتاتيب في القيروان - أولى المدائن ظهوراً- لتعليم القرآن واللغة العربية، ثمّ انتشر هذا النوع من المدارس في المدن التي بلغتها رسالة الإسلام، كما أنّ البعثات المشرقية تواصلت إلى بلاد المغرب حتى بعد نهاية عملية الفتح، ومن أشهرها بعثة عمر بن عبد العزيز الأموي (99-101هـ/717- 719م)، المكونة من عشرة فقهاء[2].

وفي العصر الموحدي نشطت الحياة التعليمية وأسهم خلفاء الدولة في حركيتها، ولتكن البداية بأولى مراحلها في حياة المتعلم لاعتبارات عدة، ومن أهمها أنها اللبنة الأساسية في حياته، وعليها يتوقف تحصيله ومعرفة مدى نباهته وقدرته على التعلم، والقصد من ذلك الاطلاع على أسمائها ومناهجها، ومناقشة آراء الباحثين حول دورها في فترة الدولة الموحدية.

أ. مكاتب تلقين الصبيان وتأديبهم:

1- نفس المصدر والجزء والصفحة.
2- الدباغ، أبو زيد الأنصاري- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان- تح عبد المجيد خيالي- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2005م- ج1- ص ص 150- 160.

أولى المسلمون ومنذ فجر الإسلام اهمية لتعليم الأولاد في المراحل الأولة من حياتهم، واتّضح بما عهدوه وجرى به العمل مبلغ رسوخ ما يتعلمه الصبي في صغره فحرصوا على مزاولة ذلك والأخذ به، وقبل الخوض في دور مراكز تعليم الصبيان وتربيتهم لابد بداية من تحديد أصل التسمية للتفرقة بينها؛ وتبرير سبب اختيار مصطلح "المكاتب" بدل غيره؛ ذلك أنّ تسمية دور تعليم الصبية في بلاد المغرب والأندلس تختلف عن بلاد المشرق؛ بحيث ظهرت عدة مصطلحات عبر الحقب الزمنية المتعاقبة فيما دوّنه أهل العدوتين؛ إذ من النادر أن نعثر على المصطلح المتداول لدى المشارقة؛ وهو "الكُتاب" وتجمع "كتاتيب"، وأما المدوّن في كتب التراجم والطبقات والفهارس - وبخاصة في الأندلس - هو اسم "المَكتب" وجمعها "مَكاتب" ومنه اشتقوا اسم القائم على تعليم الصبية وتأديبهم بـ "المُكتب"[1]، إضافة إلى اسم "المؤدب"، ثمّ الأقل تداولاً منهما وهو "المعلم"، ومنها أيضاً "المحضرة" و"المحاضر"[2]، وتختلف أماكن وجود هذه المكاتب والمحاضر في المساجد أو بالقرب منها، كما أنّ بعضها ظهر بالحارات تبعاً لدور المؤدبين، ولا تكاد تخلو مدينة أو قرية منها، إنما تتفاوت في شهرة المؤدبين في الحواضر الكبرى كقرطبة ومراكش وفاس وبجاية وتلمسان وغيرها.

وأما عن طرق تنظيمها، والمناهج التعليمية المعتمدة في تلقين الصبيان وتأديبهم فلا خلاف أنّ القائمين عليها في العصر الموحدي استفادوا مما دوّنه علماء المغرب والأندلس حولها- حسب إشارات ابن خلدون- ولعل من أقدمها ظهوراً رسالة عبد الملك بن حبيب[3]

1- لازال مصطلح "المَكتب" يطلق على دور تعليم الصبية في تونس، وقد وقفت على ذلك وسألت عنه، ومن المسميات ظهوراً أيضاً في العدوتين المغربية والأندلسية مصطلح "المسيد"، والظاهر أنها متأخرة عن العهد الموحدي، ينظر عن هذه المصطلحات واختلافاتها، الزجّالي- تاريخ الأمثال والأزجال- تح محمد بن شريفة- منشورات وزارة الثقافة- المغرب- ط1- ج1- ص 286، وابن عبدون ثلاثة رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب- تح ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية- القاهرة- 1955م ص25-26، بينما يؤكد الرّصاع أن المغاربة يطلقون على المكتب اسم المسيد، فهرست الرصاع- تح محمد العنابي-المكتبة العتيقة- تونس 1967م ص14 .
2- رسائل موحدية- ج2- ص210.
3- هو أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي، نشأ في قرطبة وتعلم على يد علمائها، رحل إلى المشرق لطلب العلم، وعند عودته ضمه الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي إلى طبقة المفتين وأهل الشورى إلى أن توفي سنة 238هـ/852م، ولابن حبيب عدة مؤلفات في الفقه والحديث والتاريخ. ابن الفرضي- المصدر السابق- ج1- ص 359.

(ت238هـ/852م) إلى معلم ولده[1]، وبعده ظهرت عدة كتب منها: كتاب " آداب المعلمين" في خمسة أجزاء لأبي عمر أحمد بن عفيف القرطبي[2] (ت 347هـ/958م)، وأما المؤلفات التي عاصر أصحابها دولة الموحدين فنجد منها ما عرضه أبو بكر بن العربي والرعيني(ت666هـ/1267م) من آراء حول تعليم الصبيان[3]، وتحدثت كذلك كتب الحسبة عن الموضوع ذاته[4].

وفيه ألف أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي[5] (ت582هـ/ 1186م) رسالة سماها "تلقين الوليد الصغير"[6]، وقد ناقش بعض الباحثين بإسهاب تاريخ المكاتب وما يتصل بها في الأندلس، وعرضت منقاشات عديدة حول حركة التعليم لدى ثلة من الباحثين اتفقت معظمها حول نهج التطور الذي عرفته مدراس تعليم الصبيان في العهد الموحدي وتم ربط ذلك بالمجهودات التي بذلها خلفاء الدولة للدفع بها[7]، وأظهرت المصادر مدى حرص الموحدين على العناية بالصبيان وتحفيزهم على التعلم في المراحل الأولى من حياتهم في بلاد المغرب والأندلس[8]، وأظهرت أكثر من وثيقة نصية في شكل عقود عمليات استئجار مؤدبي الصبيان، وفيها من الشروط ما ينم عن الاهتمام بالصبية والحرص على تعليمهم[9].

1- ابن حبيب، عبد الملك الأندلسي- رسالة إلى معلم ولده- تح سعيد أعراب- مجلة الثقافة المغربية- العدد 7- 1972م- ص ص 57-59.

2- هو أحمد بن عفيف بن عبد الله بن مريوال بن جراح بن حاتم الأموي من أهل قرطبة، كان يعظ الناس بمسجده بحوانيت الريحاني، ويعلم القرآن فيه، ابن بشكوال- المصدر السابق- ص 47.

3- عمار طالبي- آراء أبي بكر بن العربي الكلامية- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر (د ت)- ج1- ص 233-234، والرعيني- برنامج شيوخ الرعيني- تح إبراهيم شبوح- مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم- دمشق 1962م- ص 270.

4- السقطي- المصدر السابق- ص 68، وابن عبدون- المصدر السابق- ص 25.

5- هو عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي، ولد سنة 510هـ/1116م، كان ذا حظ من الفقه والحديث واللغة، رحل إلى بجاية وتخيرها وطناً، وفيها تولى الخطبة وصلاة الجماعة بجامعها الأعظم، وولاية القضاء، رحل إليه الطلبة من كل صوب، وقد خلف عدة تآليف، توفي في بجاية سنة 582هـ/1188م. الغبريني- المصدر السابق- ص 18.

6 - حققه أبو الفضل بدر العمراني الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.

7- منهم محمد عبد الحميد عيسى- المرجع السابق- ص217، ويوسف العريني- المرجع السابق- ص79، وصفية الديب، التربية والتعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحدين- رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة- قدمت بكلية العلوم الإنسانية- قسم التاريخ- الجزائر- 2000- 2001م- ص 138.

8- ابن القطان- المصدر السابق- ص 178.

9- ينظر نصها بالملحق رقم 03ص 355 و الملحق رقم04 ص 356.

- **إسهام الموحدين في إنشاء مكاتب تعليم الصبيان:**

أظهرت إحدى الرسائل الموجهة من عبد المؤمن بن علي إلى عماله في حواضر بلاد المغرب والأندلس شدة حرصه على تعليم القرآن والاهتمام به، وذلك باختبار المهرة من القراء والحفاظ لأجل ذلك[1]، وكان خلفاء الدولة من بعده وولاتها يختارون أحذق المؤدبين والقراء لتعليم أبنائهم وتأديبهم، ومن لطائف ما أوردته المصادر التاريخية أنّ أبا يوسف يعقوب المنصور أراد اختبار مؤدبين ذكر عن أحدهما أنه برّ في دينه، والآخر بحر في علمه فأجاب من وصفهما له بقوله: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ظهر الفساد في البر والبحر"[2] في إشارة منه لعدم مطابقة ما وصفا به.

لا نقف على نصوص وروايات صريحة تبين علاقة الدولة بهذه المكاتب من حيث تنظيمها والإشراف عليها مما يشير إلى أن أمرها كان بيد العامة من الناس يديرونها حسب أعرافهم، وأن علاقتهم بالمؤدبين تكون طبقاً لشروط العقود المبرمة معهم سواء اتصل الأمر بمرتباتهم وأيام تعليهم وعطلهم، ومحتوى مناهجهم وفقاً لرغباتهم؛ وقد يتشارك لأجل ذلك عدة معلمين في هذه المهنة مثلما تظهره عدة وثائق تعود إلى القرنيين السادس والسابع الهجريين[3]، وفي ذلك حرية واضحة تختلف عن المدارس المشرقية التي كانت تدار بإشراف الدولة ورعايتها[4].

ولا يخفى ما كانت تغدقه خزينة الدولة الموحدية على الطلبة خدمة للعلم وأهله، وإكرام العلماء لاسيما من كانوا من الوافدين على حاضرة الدولة مراكش أو دخلوا قصورهم وتقربوا منهم[5].

1- رسائل موحدية عن كتاب الدولة المؤمنية- تحقيق ليفي بروفنسال-الرباط-1941م- ص133.
2- الزّركشي أبوعبد الله- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية- تح حسين اليعقوبي- المكتبة العتيقة- تونس- ط1- 1998م- ص32. وكلام المنصور من آية قرآنية؛ وهي الآية 41 من سورة الروم.
3- ينظر منها الملاحق رقم: 05 ص 357.
4 - Allen j.Fromherz, op cit, p128.
5- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 204.

وأشارت إحدى الرسائل التي ردّ بها أهل إشبيلية على المنصور الموحدي بعد وصول مصنف خاص كان قد أرسله إليهم – دون ذكر لاسمه- بأنهم "أخذوا بتحصيله كافة نسائهم وصبيانهم وإمائهم (...) وعمرت بدراسته المساجد والمحاضر"[1].

ب. دور المساجد وبيوت العلماء في نشر العلم والمعرفة:

قامت المساجد منذ تأسيسها في التاريخ الإسلامي بدور كبير في نشر العلم وإصلاح ذات البين، إضافة إلى أدوار اقتصادية واجتماعية، وفي الجانب العلمي قامت مكان المدارس النظامية التي شاع ذكرها في البلاد المشرقية؛ إذ ليس "لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة"[2] ولعل الفارق الوحيد في اتخاذ المساجد منارات لتدريس العلوم أن أمرها اقتصر فقط على العلوم النقلية ومنها الشرعية واللسانية دون العقلية كالطب والهندسة والحساب، وما اصطلح على تسميته بعلوم الأوائل، ولم يرد في النصوص المصدرية الإشارة إلى إثارة مسائل في العلوم العقلية ضمن حلق العلم إلاّ ما كان له ارتباط وطيد بعلوم الشريعة كالمسائل الحسابية ذات الصلة بعلم الفرائض وتقسيم التركة بين الورثة، وقد اشتهر أمرها بين العلماء في مدينة قرطبة بالذات، وسيرد الحديث عنها بشيء من التفصيل في مباحث علوم العدد والحساب.

قام الموحدون ببناء العديد من المساجد في بلاد المغرب والأندلس، وتفننوا في تعميرها، ووسعوا تلك التي ضاقت بأهلها، وكانت استعانتهم بأشهر المهندسين والبنائين، فبناء مسجد إشبيلية والجامع الأعظم بمراكش استغرق إتمامهما عدة سنوات حتى تعاقب الخلفاء على إتمامهما[3]، وفي الجدول التالي بيان لأشهرها في العدوتين المغربية والأندلسية.

1- رسائل موحدية- ج2- ص210.
2- المقري- المصدر السابق-ج1- ص 220.
3- ابن سماك العاملي- المصدر السابق- ص 157.

اسم المسجد	مكان إنشائه	بانيه	سنة إنشائه
مسجد تاجرة	تاجرة (تلمسان)	عبد المؤمن بن علي	بعد سنة553هـ
جامع الكتبيين	مراكش	اشترك في بنائه وتوسعته عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب	بداية من سنة553هـ
جامع إشبيلية	إشبيلية	أنشأه يوسف بن عبد المؤمن وأتمه ابنه يعقوب	بدأ بإنشائه سنة 575هـ وأُتم سنة 581هـ
جامع العدبس	إشبيلية	وسعه يوسف بن عبد المؤمن	سنة 572هـ
جامع حسان	الرباط	يعقوب المنصور	بدأ سنة 581هـ ولم يتمه

لا تختلف دور العلماء وبيوتهم عن المساجد في الإسهام بنشر العلم والتوسعة على طلبته؛ بحيث تطلعنا المصادر على اتخاذ البعض بيوتهم مدارس خاصة، ومنهم على سبيل المثال: أبو عمر أحمد بن سعيد الأندلسي[1] الذي كان يقصده الطلبة بإحدى قرى الأندلس وهم" نيف على أربعين تلميذاً"[2]، وقد جهز لهم ما يعينهم على الطلب لمدة ثلاثة أشهر كالطعام والتدفئة.

هناك من العلماء من كان يتعاهد طلبته في بيته بقرطبة[3]، فيما اختار آخرون دكاكين الموثقين والوراقين لتلقين معارفهم.

1- هو أحمد بن سعيد بن علي الأنصاري القرطبي، اشتهر بتعليم الطلبة وإكرامهم- ابن بشكوال- المصدر السابق- ص 245.
2- المصدر نفسه- ص 249.
3- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج6- ص 216.

2- الموحدون وإسهاماتهم في الحياة العلمية بالعدوتين:

أ. أهمية العلم في حياة الموحدين:

عندما أحكم الموحدون وضع اليد على المنطقة الشاسعة لبلاد المغرب والأندلس، وقاموا بتأمين السبل وتحقيق الاستقرار، تفرغوا للإسهام في الحياة العلمية، وقد أعانهم على ذلك حبهم للعلم وتشبعهم بمختلف العلوم والآداب منذ نعومة أظفارهم، وكان لهذا دور في رعاية العلوم وتشجيع الناس على طلبها، ففتحوا المدارس وأقاموا المجالس السلطانية.

وصف ابن أبي زرع حال عبد المؤمن بن علي ومرتبته العلمية بقوله: " كان عبد المؤمن فصيح اللسان، نبيها عالما بالجدل فقيها في علم الأصول، حافظا لحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متقن الرواية، مشاركا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية إماما في النحو واللغة والأدب والقراءات، ذاكرا للتاريخ وأيام الناس"[1]، وأن شغفه بالعلم وأهله جعله يقربهم، "ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم"[2].

وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية ذكرت بعض الشواهد على امتحانه للعلماء، وتعرضهم للتضييق في عهده إلاّ أنّ لهذا ما يبرره، وليست بالسمة الغالبة في حياته، وكان يختار لأبنائه أشهر المؤدبين والعلماء، وكان خليفته أبو يعقوب يوسف[3](585-580هـ/1161-1148م) " أحسن الناس ألفاظا بالقرآن، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية "[4]، وأن والده عينه واليا على إشبيلية وهو لم يتجاوز 18 من عمره، وفيها قضى 8 أعوام مكنته من الإطلاع على الحياة العلمية والفكرية المزدهرة بها[5]، وعند توليه الخلافة بعد وفاة أبيه اهتم برعاية العلماء واستجلابهم وإغداق

1- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 267.

2- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 172.

3- هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي، كان محباً للعلم والعلماء، وفي عهده تمكن من ضم ما كان بيد ابن مردنيش في شرق الأندلس، وكانت وفاته بعد وعكة أصابته حين غزوته في غرب الأندلس. ابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 83- 167.

4- المصدر نفسه- ص 135.

5- عبد الله عنان- دولة الإسلام في الأندلس- العصر الثالث، عصر المرابطين والموحدين والأندلس- مكتبة الخانجي القاهرة - ط2-1990م- ص135.

العطايا والأرزاق عليهم، وكان شغوفا بجمع الكتب حتى شبه بالحكم المستنصر بالله الأموي[1]، وقد أعجب ابن رشد بحب أبي يعقوب وشدة تعلقه بعلم الفلسفة بقوله: "رأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن "[2].

وكان ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور "عالما بالحديث والفقه واللغة مشاركا في كثير من العلوم النافعة للدين والدنيا، محبا في العلماء معظما لهم صادرا عن رأيهم"[3]، وأسهم في " بناء المساجد والمدارس في بلاد المغرب والأندلس وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم"[4]، وقد نبّه أبو فارس الملزوزي (ت697هـ/1297م) في نظمه إلى هذه السّمة التي اشتهر بها المنصور الموحدي بقوله: [الطويل]

وَكَـانَ ذَا عِلْمٍ يُحِبُ الْعُلَمَــا   مُـلاَزِمَاً لِلْفُقَـهَــا وَ الحُـكَمَـا

أَوّلُ مَـنْ قَدْ صَنَعَ الْمَدَارِسَـا   وَمُكْرِماً مَنْ ظَلَّ فِيهَا دَارِسَا

وَكَمْ بَنَا مِنْ مَسْجِدٍ وَصَوْمَعَة   وَمِـنْ قِبَـابٍ كُلُـهَا مُـنَوَعَــة[5]

اتفق لسان الدين بن الخطيب مع هؤلاء المؤرخين عندما أثبت علو كعب المنصور الموحدي في تعاطي العلوم، واهتمامه ببناء المراكز التعليمية والدينية كالمدارس والمساجد في منظومته الشهيرة بالحلل قائلاً: [الرجز]

وَكَانَ ذَا عِلْمٍ شَهِيرْ وَعَمَلْ   وَنَالَ مِنْ فِعْلِ التُّقَى كَلَّ أَمَلْ

وَشَيّـدَ الآثَـارَ وَالمَدَارِسَـا   وَنَـوَهَ القُصُـورَ وَالمَجَالِسَا[6]

1- عبد الواحد المراكشي- المصدرالسابق- ص 175.
2- المصدر نفسه- ص 175.
3- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 284.
4- المصدر نفسه- ص 284.
5- الملزوزي عبد العزيز- نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء و الملوك- تح عبد الوهاب بن منصور- المطبعة الملكية- الرباط- ط1- 1963م- ص 58.
6- ابن الخطيب- رقم الحلل في نظم الدول- طبع بالمطبعة العمومية- تونس- (دط)- 1316هـ/1898م- ص 55.

إنّ ذكر الملزوزي وابن الخطيب للمدارس هنا لايفهم منه في الظاهر ما كان معمولاً به في بلاد المشرق والتي نتشرت في مختلف المدن وبرعاية الدولة وتنظيمها.

تابع محمد الناصر لدين الله والده المنصور على ذات النّهج (595-610هـ/1198-1213م) فاحتفى بالعلماء وأكرم وفادتهم عليه وأجزل لهم العطاء على ما كان يرفع إليه من كتب ومصنفات[1].

على الرغم من تأثير الأوضاع السياسية المضطربة بعد موقعة العِقاب سنة (609هـ/1212م) على يد النصارى في الأندلس، وانعكاساتها السلبية على بلاد المغرب، وبداية مرحلة الضعف وكثرة الفتن إلا أن الحركة العلمية الأندلسية استمرت في الاحتفاظ بنشاطها[2]، واستمرار خلفاء الدولة في تشجيع العلماء والحياة العلمية على الجملة، ولذلك وصف ابن أبي زرع إدريس المأمون بن يعقوب المنصور (624هـ- 629هـ/1226م-1231م) بحب العلم والمشاركة في العلوم والآداب[3]، وكان يرسل رجاله للبحث عن نفائس الكتب التي لا يجد لها أصولاً في خزانته الخاصة، ولمجالسه العلمية في مراكش وإشبيلية شهرة لا تخفى[4]، وقد نوّه ابن الخطيب بعلمه في مصدرين مختلفين ففي الإحاطة أفرد له ترجمة خاصة أشاد فيها بما كان يتقنه من علوم وفنون؛ ومنها البراعة في اللغة والشعر والبلاغة، واقتطع فصولاً من رسائله دلت على ما وصف به[5]، ثم كرر هذا المعنى في ما سلف من منظومته : [الرجز]

وَكَانَ كَاتِباً فَصِيحَ الْقَلَمْ   يَجْلُو بِنُورِ العِلْمِ جُنْحَ الظُّلَمْ[6]

تعاقب بنو عبد المؤمن على ولاية الحواضر الكبرى لبلاد المغرب والأندلس، واشتهروا بعقد مجالس العلم واتخاذ خزائن الكتب في معظم الولايات التي تولوا أمرها، وبحثوا عن

1- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج5- ص 321.
2- عبد الله عنان- المرجع السابق- ص 645.
3- المصدر السابق- ص 249.
4- ابن سعيد الغرناطي- إختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى- تح إبراهيم الأبياري- دار الكتاب المصري- القاهرة - ط2- 1980م- ص ص 149- 153.
5- ابن الخطيب- الإحاطة- ج1- ص ص 222- 228.
6- ابن الخطيب- الحلل- ص 56.

الأعلاق النفيسة منها[1]، ومن مناقبهم ما ذكره ابن عبد الملك المراكشي عند ترجمته لأبي زكرياء مجد الدين الأصفهاني الوافد إلى غرناطة، وقد أقدم واليها أبو إبراهيم إسحاق بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن على إرسال من يوصله إليه، وعندما أبى ذلك هم الوالي بالاتفاق معه والالتقاء بمكان لا يراهما فيه أحد للأخذ عنه، وفي هذا إشارة إلى حرص الوالي على العلم والتقرب من العلماء[2] .

ومنهم عثمان بن عبد المؤمن، ويكنى أبا سعيد، ولاه والده على غرناطة فكان "محباً للآداب مؤثرا لأهلها، يهتز للشعر ويثيب عليه، وقد اجتمع عنده من الشعراء وأعيان الكتاب ما لم يجتمع عند غيرهم[3]، وكان أبو عمران بن أبي عبد الله بن يوسف بن عبد المؤمن والي إشبيلية يتخير أمهر الكتاب والنساخ في الأندلس، ويشير عبد الواحد المراكشي عند نزوله بهذه المدينة أن أحد أصدقائه قدمه "من واليها إبراهيم بن أبي يعقوب يوسف أخي الخليفة الموحدي الناصر فحظي عنده وأصبح من أصحابه وجلاسه "[4].

ومنهم سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن (ت604هـ/1207م)، يكنى أبا الربيع، شاعر وأديب مشهور، واشتهر بمجالسه العلمية والأدبية عندما كان والياً على بجاية ثمّ تلمسان "وحيثما كانت ولايته اجتمع إليه أهل الأدب واشتهر مكانه، فقد كان متميزاً في قومه عالماً فيهم بهذا الشأن، وقد اشتهر اختصاره للأغاني، وديوان شعره مجموع بأيدي الناس"[5]، وساق له ابن سعيد الغرناطي حكاية مع ابن عمه المنصور الموحدي- وكانت بينهما جفوة- حينما وفد عليه أهل الشام في مراكش، فأنشده: [الكامل]

يَا كَعْبَةَ الْجُـودِ الَّتِي حَجـَّتْ لَهَـا   عـرَبُ الشَّـامِ وَغِـزُّهَا وَالدَّيْلَـمُ

طُوبَى لِمَنْ أَمْسَى يَلُوذُ بِهَا غَداً   وَيَطُوفُ بِالبَيْتِ العَتِيقِ وَيُحْرِمُ

1- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج5- ج5 ص 297-299.
2- نفسه ج8- ص411.
3- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 165.
4- المصدر نفسه - ص 173.
5- ابن سعيد- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تح إبراهيم الأبياري- دار المعارف- القاهرة- ط2-(دت). وينظر ديوانه- تح محمد بن تاويت وآخرون- منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس- الرباط-(دط)-(دت)- ص8.

ولما بلغت المنصور استحسنها، وأمر أن يكون في صحبتهم عند الدخول عليه[1]، وهو من الأمراء المغاربة القلائل الذين اهتم أهل الأندلس بترجمتهم، والاهتمام بإنتاجهم الفكري، ولعل هذا يعود إلى براعتهم في الأدب والشعر ولم يكن من بد أن لا يشار إليهم، ومنهم: أبو العلاء إدريس المأمون بن المنصور صاحب المعارف والأديب الشاعر الذي اشتهرعند أهل العلم بمجالسه العلمية التي كان يعقدها في جميع الولايات التي أشرف عليها كقرطبة ومالقة وإشبيلية قبل توليه الخلافة؛ إذ كان معظما للعلماء عارفا بحقهم[2]، وعلى الجملة فقد أثبت أبناء عبد المؤمن بن علي وأحفاده وولاة الدولة على امتداد ظهورهم التاريخي لا سيما عند دخولهم الأندلس أنهم ليسوا أقل شأنا من الأندلسيين أهل الحضارة والعلم رغم قدومهم من بيئة بربرية يغلب عليها طابع البداوة[3]، وإسهامهم في التحولات الحضارية والسياسية بالعدوتين المغربية والأندلسية.

ب. الكتب وخزائنها:

من الجدير بالذكر أن يتم الوقوف على أهمية التأريخ للكتاب كوسيلة لنقل المعارف على اختلاف فنونها وأغراضها؛ ولذلك اجتهد حكام الدول ممن تعلقوا بالعلم وأهله بتوفير جميع ما يحقق رغباتهم من بذل للمال في اقتنائه، وتخيّر لأحذق الرجال في سبيل الحصول على النفيس منه، والاعتناء به نسخاً وجمعاً وحسن مظهر، وتظهر مختلف المصادر التي تمحور موضوعها حول تاريخ الموحدين في العدوتين المغربية والأندلسية مدى الاهتمام الكبير الذي أظهروه خدمة للعلم وطلبته، وأنجع طريقة اعتمد عليها للإلمام بمختلف المصنفات العلمية هي إنشاء خزائن خاصة بها، ولا سبيل لتوضيح صورة هذا المشهد الحضاري في العهد الموحدي من اتباع طرق إحصائية لما عرضته العديد من الموارد التاريخية والأدبية

1- ابن سعيد- المصدر السابق- ص 132.
2- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص261.
3 - Dominique Urvoy, pensé d'Al-Andalous, la vie intellectuelle a cordoue et seville au temps des empires berbères, (fin XI^{e} siècle- début XIII^{e} siècle)- édition du centre national de la recherches scientifique, Toulouse,1990.P 63.

حولها؛ في مقاربة الهدف منها تفريغ معطيات النصوص لمعرفة مدى تغطية الموحدين للمرحلة التي أرخت لظهورهم، ورسمت معالم إسهاماتهم في التواصل المعرفي البنّاء بين مدن وحواضر بلاد المغرب والأندلس.

لم يقتصر الأمر على خلفاء الدولة وإنّما ظهر الإحتفاء بالكتاب وحسن الإعتناء به عند أهل العلم، ورتّبت خزائن كتبهم ضمن قسم الخزائن الخاصة عند جل الباحثين[1]، وقد رافقت كتب التراجم ذكرها لدى جمهرة من الأعلام عاصروا الحقبة الموحدية، وتنافسوا في اقتنائها، ومما سّهل ظهورها بأي طلبة العلم هو مباشرتهم عمليات النسخ في حلق العلم، وهنا تتفاوت نسخهم من حيث إجادة الخط وضبطه[2]، وأشار ابن الأبار إلى الفوارق في الخطوط بين طلبة العلم لما كان يقع بين أيديه منها[3]، ولا يستبعد مع ذلك نقلها معهم في فترات تجوالهم لاسيما من كانوا من أهل الأندلس.

وفي الجدول التالي ذكر لبعض الخزائن التي ظهرت في العصر الموحدي، وأسهم حكام الدولة في إنشائها.

خزائن الكتب	اسم من ظهرت في عهده	سنة ظهورها	ملحوظة عامة	المصدر
خزانة قصر الخلافة(مراكش)	عبد المؤمن بن علي وأبناؤه	بعد541هـ	//	التكملة ووصف افريقيا
خزانة قصرقرطبة	ولاة بني عبد المؤمن	بعد541هـ	/	نفح الطيب
خزانة قصرإشبيلية	أبويعقوب يوسف وابنه المنصور	بداية 558هـ	وسعها المأمون	المعجب
خزانة قصرغرناطة	ولاة بني عبد المؤمن	ق6هـ	القراءة	الذيل والتكملة
خزانة مدينة جيّان	من إنشاء الموحدين	ق6هـ	//	كنز الكتاب
خزانة والي بلنسية	ولاة بني عبد المؤمن	بعد 580هـ	//	التكملة

1- أحمد شوقي بنبين- تاريخ خزائن الكتب بالمغرب- تر مصطفى طوبي- المطبعة والوراقة الوطنية- مراكش- ط1-2003م - ص ص 124-125.
2- ابن الأبار- المصدر السابق-ج2-ص36.
3- المصدر نفسه- ج2- ص 26.

خزانة والي مالقة	محمد بن يحي بن تلكعت المسوفي	580-608هـ	القراءة والنسخ والمقابلة	أعلام مالقة
خزانة تلمسان	ظهرت في الفترة الموحدية	ق6هـ	//	الذيل والتكملة
خزانة والي بجاية	ظهرت في الفترة الموحدية	ق6هـ	//	الذيل والتكملة
خزانة القصر بفاس	ظهرت في الفترة الموحدية	ق6هـ	//	جذوة الاقتباس وجنى زهرة الآس

اقتصر الإحصاء هنا على ما كان للدولة من يد في ظهورها في مختلف مدن وحواضر بلاد المغرب والأندلس، وأما ما كان بأيدي العامة فلا يكاد يحصى عداً؛ بل لاتخلو ترجمة من ذكر ما لصاحبها من علاقة بالكتب ونسخها، وتميز خطوطها وترتيب خزائنها.

3- أشهر الحواضر العلمية في بلاد المغرب والأندلس:

لقد أولى الباحثون اهتماماً كبيراً بالحياة العلمية في الأندلس وبلاد المغرب عبر مختلف الفترات الزمنية التي مرت بها، والأكيد أن للزخم المعرفي المتنوع الذي اشتهرت به سواء العقلي والنقلي، المنشور منه والمخطوط، دوراً في فسح مجال اختيارات الباحثين لرصدها، فجاءت أبحاثهم متنوعة بتنوع الفنون والعلوم، وشملت عدة حقب سياسية متباينة، وشملت معظم حواضر بلاد المغرب والأندلس، وإنما امتدت إلى أقاليم جغرافية محددة منها، كما انحصرت في مدن خاصة وأفراد بعينهم من أهل السلطة والحكم، وأن الواقف على هذه الأبحاث مجتمعة يدرك أهمية الإشعاع الحضاري الذي قدمته الأندلس ليس للمسلمين وحسب وإنما للإنسانية جمعاء، وفي العصر الموحدي اعتبرت مراكش جذوة بدايته، وفيها استمر رسوخ التعليم والحضارة.

إن سبب التركيز على ما قدمه الموحدون خدمة للعلم والعلماء في المغرب الإسلامي فيه رد على التغييب المتعمد الذي سلكه بعض الأندلسيين في حقهم؛ من خلال تخصيص كتب التراجم والصلات لمن انتمى للأندلس فحسب بينما اعتبروا من وفد إليهم من الغرباء

الطارئين عليهم، ومحاولة إظهار مدى انسجام أعلام بلاد المغرب مع وتيرة التقدم العلمي والحضاري الذي عرفت به العدوة الأندلسية، وإسهامهم في الدفع به من جهة والاستفادة منه من جهة أخرى، وهذا بسبب استمرار ظاهرة المنافرة بين العدوتين والتي غذتها النظرة العنصرية المتفشية داخل المجتمع الأندلسي، وأما عن أطوار الحياة العلمية في العهد الموحدي، والهدف منها هو معرفة العلوم وأنواعها وانتشار مراكز تحصيلها بالقدر الذي يمكننا من توضيح علاقة الموحدين بذلك.

يظهر التأثير الموحدي بالقدر الذي يعكس ظروف انتقالهم كمغاربة إلى الأندلس، وتوحيدهم للعدوتين، ورفع شعارات التومرتية بما تحمله من توجه عقدي وفكري وإصلاحي جديد يختلف عما كان الحال عليه في البيئة الأندلسية، ولذلك فإن عملية حصر أعلام الفترة المدروسة قياساً على سنوات وفاتهم دون التطرق إلى علاقتهم بالموحدين- في حدود ما تطلعنا به تراجمهم ومؤلفاتهم- استدرج الباحث محمد المنوني إلى عرض نظرة شمولية وإيجابية، بالنظر إلى العدد المعتبر من الأعلام والمصنفات وخزائن الكتب ودور العلم التي قام برصدها، بينما تطلعنا المصادر على طبقة من القضاة والفقهاء والكتاب والشعراء وغيرهم وقد انقسمت على نفسها بين فئة معارضة لكل ما له صلة بالموحدين، وأخرى موالية ومدافعة عنهم وعن توجهاتهم السياسية والمذهبية، وثالثة محايدة أو أن المصادر لم توضح بما يكفي لإثبات نظرتها لهم.

حاول خلفاء الدولة الموحدية الاستفادة من الموروث العلمي الذي خلّفه ابن تومرت، وتشجيع الناس على الأخذ به فأوعزوا لطلبتهم إدخال ما جاد به إلى كبرى الحواضر كإشبيلية وقرطبة، إلاّ أن تأثيرها بقي محدوداً بحكم تشبث أعلام بلاد المغرب والأندلس بالمذهب المالكي، وتردد خلفاء الدولة في إلزام الناس بعقيدة ابن تومرت ومذهبه، وسار العلماء في نشر العلم في مختلف المراكز التعليمية على عادة أسلافهم، ومن أشهر الحواضر التي ذاع صيتها في هذا الجانب نجد :

أ- أشهر الحواضر العلمية في بلاد المغرب:

لا تكاد تخلوا مدينة أو قرية في بلاد المغرب خلال الحقبة الموحدية من مسجد تعقد فيه حلق العلم أو مدرسة أو مكتب لتعليم الصبيان، ومن الصعوبة بما كان تتبعها جميعاً؛ ولذلك سيتم الاقتصار على أشهر الحواضر وإظهار أهميتها ضمن النسق العام لحركة العلوم خلال العصر الموحدي، وقد أسهم العلماء والأدباء والكتاب في تنشيط الحياة العلمية بمختلف مراكزها التعليمية، وبخاصة أهل الأندلس الذين سيتردد الحديث عنهم كثيراً في هذا البحث، ومنهم من استوطن هذه المدن بينما اكتفى غيرهم بزيارتها؛ وهو ما سيتم الحديث عنه بشيء من التفصيل في الفصول القادمة.

- مدينة مراكش: تعتبر سنة 541هـ/1146م بالنسبة للدولة الموحدية البداية الفعلية للمدينة كحاضرة سياسية لبلاد المغرب والأندلس، وقد أولى الموحدون لها مكانة رفيعة للمباهاة بها بين بقية المدن والحواضر فبنيت فيها المساجد والقصور والمدراس وخزائن الكتب، ووفد إليها العلماء من جميع الأصقاع، وكتب عنها الرحالة والجغرافيون، وكان لعلماء الأندلس- على اختلاف مشاربهم- الحظ الأوفر في دخولها؛ فمنهم من اتخذ منها موطناً، ومنهم من انتصب للتعليم فيها لمدة معينة ثمّ غادرها، بينما انتقل أهل مراكش إلى الأندلس لطلب العلم والاشتغال بالوظائف الدينية والإدارية، وشكلوا جزءا من أقسام الغرباء الداخلين إلى الأندلس في التراجم الأندلسية، ومن أهم مرافق مدينة مراكش العلمية:

المساجد التي كانت تلقى فيها علوم اللسان والشريعة إضافة إلى دروها الديني والدعوي، ومن أشهر مساجدها تداولاً في كتب التراجم "الجامع الأعظم" ويعرف بالكُتُبيين، واختلف في سبب هذه التسمية، والراجح لأنه بني بالقرب من دكاكين بائعي الكتب والوراقين[1]، ومن اهتمام الموحدين به أنهم كانوا يتخيرون له أبرز الخطباء من ذوي الفصاحة والبلاغة،

1- مشتاق كاظم المياح- مراكش خلال عصر الموحدين دراسة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية- دار عدنان للطباعة والنشر والتوزيع- بغداد- وومطبعة صفحات للتشر والتوزيع- الإمارات العربية المتحدة- 2014م-ط1- ص 186.
محمد رابطة الدين- مراكش زمن الموحدين، جوانب من تاريخ الإنسان والمجال- المطبعة والوراقة الوطنية- مراكش- 2008م- ط1- ج1- ص 243.

إضافة إلى الإحاطة بعلوم الشريعة، وينصّبون أشهر العلماء للتدريس فيه، و إليهم رحل الطلبة من عدة بقاع[1].

وانتشرت المدارس القرآنية ومكاتب تأديب الصبيان منذ عهد عبد المؤمن بن علي، وفي عهد حفيده المنصور ذاع صيتها، وبنى داراً خاصة للطلبة بها سكنهم وتعليمهم "وهي مكان جليل به خزائن الكتب، وفيه كان خلفاء بني عبد المؤمن يجالسون العلماء"[2]، وانتشرت الخزائن الخاصة بالكتب، ومنها ما كان بإشراف الدولة ورعايتها وعرفت بالخزانة السلطانية، وخزانة القصر العامة، ولها ناظر يقوم على خدمتها وترتيب محتوياتها، والظاهر من النصوص أنها كانت تفتح للعامة في أيام مخصصة لذلك[3]، وتشير كتب التراجم إلى خزائن خاصة بالعلماء عمرت بها بيوتهم، وتنافسوا في جمع الأعلاق النفيسة من المصنفات والرسائل العلمية[4].

شجع هذا الحراك سوق الوراقين والنساخ، ويضاف إلى هذا النشاط شهرة خلفاء الدولة بإقامة المجالس العلمية التي كانت تعرض فيها المسائل الفقهية والعقدية، ولها ترتيبات سلطانية خاصة كأن يتصدر الخليفة مجلسها ويفتتح الكلام حول مسألة بعينها ويختمها بالدعاء، ويقابله على التوالي خطيب الجامع ثم قاضي الجماعة، ورئيس الأطباء، ثمّ أكابر العلماء والطلبة على اختلاف مراتبهم، ويكرم العلماء ويوسع عليهم[5]، وقد عرفت مراكش أزهى فتراتها في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي؛ بحيث وفد إليها الأطباء والفلاسفة و الفقهاء والشعراء والأدباء ووجد الكل ضآلته، و"استدعى العلماء ورواة الحديث، وأهل الفنون المختلفة؛ فجلبوا إليها من الأقطار فكثر فيها العلماء وامتلأت بوجوه أهل البلاد من كل صقع، وقصدها التجار من كل جهة (...) وتناهت ضخامتها، وانقادت

1- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج5- ص 140. أحمد شوقي بنين- تاريخ خزائن الكتب بالمغرب- تر مصطفى طوبي- المطبعة والوراقة الوطنية- مراكش- 2003م- ط1- ص ص 52- 53.
2- ابن فضل الله العمري- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار- تح محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى هزايمة ويوسف أحمد بني ياسين- مركز زايد للتراث والتاريخ- الإمارات العربية المتحدة- 2001م- ط1- ج4- ص 123.
3- أحمد شوقي بنبين- المرجع السابق- ص 53.
4- ابن الأبار- المصدر السابق- ج3- ص 141.
5- ابن أبي أصيبعة- عيون الأنباء في طبقات الأطباء- تح عامر النجار- دار المعارف- القاهرة- 1996م- ط1- ج2- ص 188، وعبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 209.

إلى طاعتها أقاليم المغرب وبلاد الأندلس"[1]، ووفد إليها علماء الفلك والنجوم للقيام بأرصادهم؛ وبخاصة بالقبة المنصورية- سيتم الحديث عنها في فصل العلوم العقلية- وبنى داراً خاصة بالمرضى عرفت بـ"دار الفرج"، وجعل عليها أمهر الأطباء[2].

- مدينة فاس: ثاني المدائن شهرة بعد مراكش من حيث اتصال تاريخها بالأندلس منذ العهد الأموي حين نزلها جماعة من الأندلسيين واستوطنوها فعرفت أحياؤهم بعدوة الأندلسيين؛ ولذلك ورد تعريفها عند الجغرافين على أساس أنها مدينتان في الأصل يشق بينهما وادي فاس الكبير، وعرفت إحداهما بعدوة القرويين نسبة لمن هجر إليها من أهل القيروان، والثانية بعدوة الأندلسيين، واستمرت علاقاتها السياسية والعلمية بالأندلس إلى عهود متأخرة من تاريخ مملكة المسلمين في غرناطة[3].

دخل الموحدون مدينة فاس سنة 540هـ/ 1145م، وفي عهدهم ازدهرت فبنيت فيها المساجد والقصور والمدارس والحدائق والمتنزهات، "وانتهى عدد مساجدها في أيام المنصور وولده الناصر سبعمائة واثنتين وثمانين مسجداً"[4]، ووفد إليها العلماء من مختلف الأصقاع مشرقاً ومغرباً فكانت بحق مدينة العلم والعلماء، و"أهلها ظرفاء أدباء أكثرهم فقهاء، وذلك أنّ فيهم أناساً تناسلوا من أهل القيروان"[5]، ووصفها الحميري بقوله: "وكملت بهجتها في أيام بني عبد المؤمن"[6]، وسيتم الوقوف- في فصول تاريخ العلوم- على جمهرة من علماء الأندلس الذين درّسوا بها مختلف العلوم والفنون، والتعرف على أشهر شعرائها وأدبائها، وما يؤكد التواصل العلمي لأهلها بالأندلس هو انتقال أعداد كبيرة منهم إليها إما طلباً للعلم أو لأجل الاشتغال بالوظائف الإدارية؛ بل ومنهم من انتصب للتدريس في كبرى الحواضر الأندلسية.

1- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 541.
2- نفس المصدر والصفحة.
3- إيمان بنت دخيل الله العصيمي- العلاقات العلمية بين الأندلس ومدينة فاس من بداية القرن الثالث الهجري وحتى سقوط غرناطة (201-897هـ/817-1492م)- رسالة ماجستير غير مطبوعة - جامعة أم القرى- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- قسم التاريخ والحضارة الإسلامية- المملكة العربية السعودية-2009م- ص ص 140-152.
4- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص47.
5- الزهري- المصدر السابق- ص114.
6- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 435.

ومن أشهر مساجدها التي اتخذت منارات للعبادة ونشر العلم نذكر: "جامع القرويين" الذي أسس في القرن الثالث الهجري التاسع ميلادي، وإليه كانت تشد الرحلة لطلب العلم والأخذ عن جهابذة العلماء الذين انتصبوا للتدريس فيه[1]، مع تشجيع الموحدين لهم بإكرام وفادتهم وجزالة أعطياتهم، ومنها "جامع ابن حنين" الذي اشتهرت حلقاته بتدريس علوم القرآن والحديث، إضافة إلى "جامع الأندلس" المشهور بتخريج طلبة الفقه وفروعه، وهو ما يقال عن "مسجد الحوراء"[2].

- مدينة سبتة: هي مدينة على ساحل البحر لا يفصلها عن الأندلس سوى مضيق جبل طارق، وقد اشتهرت في تاريخها الإسلامي بحركة علمية نشطة، وإليها انتسب ثلة من العلماء والأدباء، وغدت في العصر الموحدي واحدة من أهم الحواضر جلباً للعلماء والطلبة على حد سواء، وفد إليها عدد كبير من علماء الأندلس في هذه الفترة، كما انتقل أهلها إلى الأندلس طلباً للعلم، وقد أسهم قربهما الجغرافي في مد أواصر التواصل العلمي والتجاري[3].

ومن أشهر صروحها العلمية والدينية تعدد الربط والزوايا، وكثرة المساجد ومن أبرزها في الجانب العلمي : "مسجد القفال" ومسجد "الجامع العتيق"، و"مسجد سويقة سرذينة"، و"مسجد ابن خبازة"، و"مسجد زقاق الخشابين"؛ بحيث كانت تعقد فيهما حلق العلم[4]، ومن أشهر مدارسها مدرسة الشيخ الشاري الغافقي[5] (ت641هـ/1243م)، وإلى جانب ذلك ظهرت بالمدينة خزائن علمية خاصة وأخرى عامة[6]، ونافس أعلامها نظراءهم من الأندلسيين والمغاربة.

- مدينة تلمسان: نالت مدينة تلمسان شهرة واسعة في العصر الموحدي؛ وهو ما أتثبته مختلف النصوص التاريخية والجغرافية في شقيها السياسي والحضاري، وكانت محطة

1- المصدر نفسه - ص ص52-62.
2- ابن الأبار- الصدر السابق-ج2- ص 21. ابن أبي زرع- المصدر نفسه- ص 76.
3- محمد الشريف- سبتة الإسلامية، دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي، عصر الموحدين والمرابطين- منشورات جمعية تطاون- المغرب- 1995م- ط1- ص 26.
4- ابن القاسم محمد الأنصاري- اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار- تح عبد الوهاب بن منصور- (د ن)- الرباط- 1983م- ط1- ص 27.
5- المصدر نفسه- ص 29.
6- محمد بن القاسم الأنصاري- المصدر السابق- ص ص 29-30.

عبور خلفاء الدولة إلى بلاد إفريقية، ولمدينة تلمسان قرى كثيرة وعمائر متصلة، دخلها الموحدون سنة 539هـ/1144م، وعيّن عبد الؤمن بن علي ابنه عمر ويكنى أبا حفص والياً عليها، وبقيت خاضعة لسلطتهم إلى سنة 633هـ/1235م[1]، ونشطت الحياة العلمية في عهدهم، وإليها انتسب الكثير من العلماء وبخاصة من أهل الأندلس للتدريس بها، وطلب العلم عن أشهر أعلامها.

تأتي المساجد في مقدمة مرافقها التعليمية إلى جانب دورها الديني، ومن أشهرها الجامع الكبير الذي بني في العهد المرابطي سنة 530هـ/1135م، وزاد عبد المؤمن بن علي في توسعته وعمارته، وبنى جامعاً بمنطقة تاجرة[2] مسقط رأسه، وحصنها بالأسوار، وكان هذا بعد سنة 553هـ/1158م، ومن مساجدها أيضاً الجامع الكبير بمدينة ندرومة الذي يعود أيضاً إلى الحقبة المرابطية[3].

عقدت في هذه المساجد وغيرها حلق العلم في مختلف الفنون والمعارف، كما انتشرت دور تعليم القرآن والحديث النبوي[4]، وتطلعنا كتب التراجم الأندلسية عن جمهرة من الطلبة الذين رحلوا إلى تلمسان للأخذ عن أشهر قرائها وحفاظها سواء من مدن بلاد المغرب أوالأندلس، ومن أشهرها مدرسة المحدث والفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني(ت603هـ/1206م)[5]، أو ألئك الأئمة والأعلام الذين وفدوا عليها، وهو ما سيتم الوقوف عليه في فصل تاريخ العلوم النقلية والعقلية.

1- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 135.

2- قرية بجبل تاجرا بالقرب من ندرومة، وبها ولد عبد المؤمن بن علي. عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 171.

3- ابن عذاري- المصدر السابق- ص 314.

4- المصدر نفسه- ص 23. وخالد بلعربي- تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الزيانية (55-633هـ/675-1235م)- الألمعية للنشر والتوزيع- قسنطينة- ط1- 2011م- ص 169.

5- هو أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان اليفرني الندرومي من أهل تلمسان، أخذ العلوم عن علماء بلده، وتجول في طلب العلم بين مراكش وفاس وسبتة وإشبيلية، وبرع في علوم جمة، وكان مولعاً بجمع الكتب، انتصب للتدريس بمدينة تلمسان، ورحل الطلبة إليه للأخذ عنه لشهرته وعلو سنده، ذكر له مترجموه عدة مؤلفات في الفقه والحديث واللغة، واشتهر بعلو إسناده، وكانت وفاته بمسقط رأسه سنة 625هـ/1227م. ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج8- ص ص 317-322.

- مدينة الجزائر: وصفت في العصر الوسيط بأنها مدينة على ضفة البحر، وهي عامرة وآهلة، ويقصدها أصحاب السفن من إفريقية والأندلس[1]، ولموقعها أهمية جغرافية يسمح لأهلها الاتصال بالدول المجاروة وربط علاقات تجارية وعلمية معها؛ وبخاصة الأندلس.

دخل الموحدون مدينة الجزائر سنة 548هـ/1153م بعدما أخرجوا عامل الحماديين منها[2]، وفي عهدهم نشطت الحياة العلمية، ووفد عليها العلماء من مختلف الأقطار، وتعتبر المساجد من أشهر مراكزها التعليمية والدينية، وأبرزها الجامع الكبير الذي شيّد في عهد الأمير يوسف بن تاشفين سنة490هـ/1096م، وعلى الرغم من أنها كانت قصبة صغيرة تابعة إدارياً لمدينة بجاية[3]، والمادة العلمية حول مراكزها قليلة فإن كتب التراجم تطلعنا على على عدد كبير من الأعلام الذين تصدروا للتدريس بها، كما تنقل أهلها إلى مدن بلاد المغرب والأندلس طلباً للعلم، وسعياً وراء تولي مناصب دينية وإدارية، وهو ما سنتعرف عليه لاحقاً، وتبعاً لذلك أشارت كتب التراجم إلى استيطان العديد من الأندلسيين مدينة الجزائر في فترات زمنية مختلفة.

- مدينة بجاية: كانت بجاية قاعدة مهمة في عهد الحماديين؛ وهي مدينة كبيرة على ضفة البحر، ويسافر إليها براً وبحراً[4]، وهي في طريق حجاج الأندلس، دخلها عبد المؤمن بن علي سنة 547هـ/1152م، وأنهى بذلك حكم الحماديين عليها[5]، وعلى الرغم من الاضطرابات السياسية التي حدثت بسبب هجمات أمراء جزيرة ميورقة[6] الموالين للمرابطين إلاّ أنّ الموحدين تمكنوا من استرجاعها وإخضاعها لسيطرتهم[7]، وقد ازدهرت الحياة العلمية بالمدينة خلال الحقبة الموحدية، ووفد إليها العلماء من بلاد المشرق والمغرب،

1- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 163. أثبتت كتب التراجم والفهارس المعتمدة ذكر مدينة الجزائر في هذه الفترة – في كثير من الأحيان- من دون إضافة اسم بني مزغنة إحدى بطون قبيلة صنهاجة التي نسبت إليها، وهو ما سيتم الوقوف عليه عند ذكر أسمائهم في الفصول اللاحقة.
2- ابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 45-46.
3- ابن الأبار- المصدر السابق- ج3 ص 248.
4- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 80.
5- ابن عذاري- المصدر نفسه- ص 45.
6- جزيرة في البحر الزقاقي، تتوسط جزيرتي منرقة ويابسة، تقابلها بجاية في بر العدوة، فتحها المسلمون سنة 290هـ/902م، وسقطت بيد النصارى سنة 627هـ/1229م. ابن عبد المنعم الحميري- المصدرالسابق- ص 567.
7- محمد الشريف سيدي موسى- مدينة بجاية الناصرية، دراسة في الحياة الاجتماعية والفكرية- دار كرم الله للنشر والتوزيع-2010م- ط1- ص 20.

وكانت مقصد طلبة العلم، ومحطة مهمة في طريق الحج إلى بيت الله بالنسبة للأندلسيين والمناطق الواقعة غربها من مدن بلاد المغرب[1]، وقد استوطنتها الجالية الأندلسية في أوقات الفتن والحروب التي عرفتها مدنهم نظراً لقربها الجغرافي وتشابه طبيعتها ومناظرها بالمدن الساحلية للأندلس.

وتعتبر المساجد من أشهر مراكزها التعليمية، وقد أفادنا الغبريني (ت714هـ/1314م) - وهو قريب عهد بالعصر الموحدي- بذكر مجموعة من المساجد التي كان يؤمها العلماء والخطباء لأداء الفريضة ونشر العلم ومنها:

جامع بجاية الأعظم، و مسجد الفقيه أبي زكريا الزواوي، و مسجد الإمام المهدي، و مسجد سيدي المرجانين و مسجد النطاعين، ومسجد الريحانة[2].

ويرد في كتب التراجم اسم "جامع بجاية الأعظم"، ويبدو أنه الأكبر و الأشهر بينها، إضافة إلى الزوايا و الربط التي تكرر ذكرها في مؤلف الغبريني، واهتمت بتعليم القرآن و الحديث والتصوف[3]، ولا يستبعد وجود خزائن بها خاصة بالكتب والمدونات العلمية.

- إفريقية: وتشمل العديد من المدن والحواضر الكبرى كتونس والمهدية والقيروان وطرابلس، وقد تضم إليها أحيانا مدينة بجاية، وكانت بعض مناطقها الساحلية بيد النصارى إلى منتصف القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي؛ ومنها مدينة المهدية التي حاصرها الموحدون لمدة سبعة أشهر حتى تم لهم فتحها سنة 553هـ/1158م، وكانت الحروب حولها سجال بين الموحدين والميورقيين أحياناً، ومع القبائل الهلالية المعززة

1- المقري- المصدر السابق- ج5- ص 486.
2- الغبريني- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية- تح عادل نويهض- منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروت- 1979م- ط2- ص ص 27- 199. وابن الأبار- المصدر السابق- ج3- ص 231.
3- الغبريني- المصدر السابق- ص ص 140- 179.

بالحملات الأيوبية أحياناً أخرى[1]، ولم تقف هذه الاضطرابات أمام الحركة التعليمية التي عرفتها هذه الحواضر.

وقد قامت المساجد فيها بدور فعال في نشر العلوم، ودخول العلماء والفقهاء إليها وتصدرهم للتدريس بها، ومن أبرز مساجدها شهرة في هذا الجانب: مساجد أسست منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب؛ ومنها مسجد القيروان، والجامع الأعظم بتونس الشهير بجامع الزيتونة المعروف بكبره؛ إذ كانت به (500) سارية[2]، ثمّ ظهرت مساجد مع ظهور الدول المتعاقبة؛ ومنها جامع سوسة[3] في عهد الأغالبة، والجامع الكبير بالمهدية الذي بناه الفاطميون، وعقدت بهذه المساجد وغيرها حلق العلم في مختلف العلوم والفنون، وكانت منارات للعلم والعبادة، ونشطت بها مكاتب تعليم الصغار، ووفد إليها العلماء والفقهاء وتصدروا للتدريس بها[4]، وانتشرت خزائن الكتب وتنافس الناس في إنشائها واقتناء نفائس المصنفات لها[5].

وتطلعنا كتب التراجم والفهارس - خلال العصر الموحدي- على عدد كبير من أعلام حواضر بلاد إفريقية ممن تجولوا في بلاد المغرب والأندلس طلباً للعلم، ومنهم من ارتحل للتدريس.

ب- أشهر الحواضر العلمية في بلاد الأندلس:

عرفت المدن والحواضر الأندلسية حركة علمية نشطة منذ القرن الثالث الهجري التاسع ميلادي، وازدهرت بازدهار المدن وإسهام حكام الدول المتعاقبة في تفعيلها وتطوير

1- ينظر عن تفاصيل هذه الحملات محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي- كتاب مضمار الحقائق وسرّ الخلائق، فقرات حول حملة قراقوش على إفريقية (575-584هـ/1180-1188م)- المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة- تونس-2012م- ط1- ص ص 35- 88.

2- الزهري- المصدر السابق- ص 108.

3- مدينة من بلاد إفريقية؛ وهي على ساحل البحر، عامرة بالناس، وكثيرة المساجد، وأسواقها عامرة، والمسافرون إليه والصادرون عنها بأعداد كبيرة. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 331.

4- نجوى عثمان- مساجد القيروان- مطبعة دار عكرمة- دمشق- 2000م- ط1- ص ص 13-45. ويوسف أحمد حواله- الحياة العلمية في إفريقية "المغرب الأدنى" منذ انتهاء الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري- طبعة جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية- مكة المكرمة-2000م- ط1- ص ص 200-24.

5- المرجع السابق- ص ص 250-257.

المظاهر الحضارية بها سواء تعلق الأمر بانتشار العلوم والفنون أو تنويع منشآتها المعمارية، ولا يكاد يخلو عصر من عصورها إلاّ و به خصائص وسمات يتميّز بها، ونافس أهلها بلاد المشرق في شتى الجوانب العلمية والحضارية كما تنافست المدن والأقاليم الأندلسية فيما بينها.

ولم يقتصر هذا النشاط العلمي على المدن الكبرى فحسب بل تعداه إلى القرى والحصون والقلاع، ولعل ما يدلل على ذلك اهتمام ابن الأبار برصد أسمائها ومواقعها وذكر من انتسب إليها من الأعلام[1]، وبذلك حافظ على نبذ من تاريخها وجغرافيتها بينما أهملت كتب الجغرافية ذكرها.

وأمام هذا الزخم الكبير للمراكز العلمية سيتم الاقتصار على نماذج لأشهر قواعدها عبر مختلف الجهات الجغرافية للأندلس، ومنها:

- قرطبة: وهي مثابة العلم والعلماء منذ العهد الأموي، وقد أشاد الحميري بمكانتها العلمية عبر العصور، ووصفها "بأم البلاد وواسطة عقد الأندلس"[2]، وهي "أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة"[3]، وبها مساجد كثيرة، وأشهرها جامعها الكبير، و"مسجد أبي رباح"، و"مسجد رحبة أبان"، و"مسجد كوثر" و"مسجد أم هشام"، و"مسجد أبي حامد"، و"مسجد ابن حنين"، و"مسجد البلنسي"، وفيها درّست مختلف العلوم[4]، وتعددت مكاتب تعليم الصبيان، وتنافس أهلها في اقتناء الكتب[5]، ومن لطائف ما روي عن الحوار الذي دار بين ابن رشد القرطبي(ت595هـ/1198م) وعالم آخر من إشبيلية، وقد تفاخر كل منهما ببلده في حضرة أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي فردّ ابن رشد قائلاً: "لا أدري ما تقول غير أنه إذا

1- ينظر منه على سبيل المثال- التكملة-ج3- ص58.
2- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 456.
3- المقري- المصدر السابق- ج1-
4- وردت أسماء هذه المساجد عند ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج5- ص ص 306-486 و –ج6- ص ص 102-153.
5- إحسان عباس- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة- دار الثقافة- بيروت- ط2- 1969- ص ص 21-32.

مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُملت إلى قرطبة حتى تُباع فيها، و إن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُملت إلى إشبيلية، قال: و قرطبة أكثر بلاد الله كتبا"[1].

لقد تعددت في قرطبة الأسواق الخاصة بالوراقين والنساخ وبائعي الكتب، واشتهرت في الأمصار بكثرة مكتباتها[2].

وكان دخول الموحدين مدينة قرطبة سنة 543هـ/1148م، ولم تكن تعقد ولايتها إلاّ لأبناء الخلفاء أو المقربين منهم، وحرصوا في مدة ولايتهم عليها بالأخذ بمظاهر الحضارة ومخالطة العلماء لما اشتهر من حال قرطبة العلمي، فأخذ ولاتها بتنظيم مجالس علمية خاصة يحضرها العلماء والطلبة والحفاظ، وتناقش فيها مختلف المسائل العلمية، وقد رصدت كتب التراجم العديد من علمائها في مدن بلاد المغرب خلال الحقبة الموحدية[3].

- إشبيلية: مدينة كبيرة وعامرة، وبها خلق كثير[4]، وقد بادر أهلها بإرسال وفد من أشهر الفقهاء لمبايعة عبد المؤمن حين دخوله مراكش، وهو ما عجّل بدخول الموحدين إليها قبل انقضاء سنة 541هـ/1146م، وفرار من كان بها من المرابطين، ويرى غير واحد من الباحثين أن مبادرة أهل إشبيلية هي التي كانت وراء اهتمام الموحدين بها إضافة إلى قربها الجغرافي من أقرب مجاز إلى بر العدوة المغربية واتصال نهرها الكبير بالبحر المحيط[5].

لقد جعلها الموحدون ثاني مدينة بعد حاضرتهم مراكش، ونقطة انطلاق جيوشهم الداخلة إلى الأندلس، ولم يعيّن من الولاة عليها إلاّ أبناء الخلفاء، وكبار الدولة من أبناء عمومتهم، وكان عبد المؤمن بن علي أول المبادرين بذلك فعيّن ابنه وولي عهده على رأسها وهو لا يزال شاباً[6]، وعلى الرغم من أنّ إشبيلية عرفت بعمارتها الدينية والعسكرية منذ عهد بني

1- المقري- المصدر السابق- ص 155.
2- جودة هلال ومحمد محمود صبح- قرطبة في التاريخ الإسلامي- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- 1986م- (د ط)- ص 81.
3- سيرد الحديث عنهم وتتبع أخبارهم في الفصلين المخصصين لمختلف العلوم المتداولة في الفترة الموحدية.
4- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 58.
5- عبد الله عنان – المرجع السابق- ص 642. وحسين مؤنس- معالم تاريخ المغرب والأندلس- طبعة دار الرشاد- القاهرة- 2004م- ط1- ص ص 437-440.
6- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 165. وابن عذاري- المصدر السابق- ص 56.

عبّاد إلاّ أنّ الموحدين أولوا لها اهتماماً بالغاً فبنوا المساجد والقصور، وجددوا مرافقها (شبكات المياه)، وبقيت آثارهم شاهدة على صنيعهم، وقد خصتها إحدى الباحثات بدراسة توثيقية لآثارهم للتعرف على مدى إسهامهم في تطورها الحضاري، والتنافس في عمارتها على الرغم من طابع البداوة الذي وصف به المصامدة، وناسب أن تسمي بحثها "إشبيلية الموحدية"[1].

بادر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن والي إشبيلية من قبل أبيه إلى تقريب العلماء والفلاسفة، وعقد مجالس للمناظرة العلمية بين العلماء، وكان "يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء خاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب"[2].

لا خفاء لما آلت إليه إشبيلية في العصر الموحدي من اهتمام فاق غيرها من المدن الأندلسية، ولعل ما سيتم التعرض له حين تتبع العمائر الهندسية التي ظهرت في عهدهم ما يدلل على هذا التوجه الملفت للإنتباه، كما لا تختفى تلك المنافسة الدائرة بين بني عبد المؤمن وأحفاده على ولايتها، ونزول من حظي منهم بالخلافة إليها كلما اجتاز إلى الأندلس، وعن ذلك روى ابن سعيد الغرناطي عن أبي العلاء المأمون بن المنصور الموحدي حين بايعه أهل إشبيلية بالخلافة، وكان مقامه في غرناطة وقتها، ولم يسْلِه حسنها عن إشبيلية فأنشد قائلاً: [الكامل]

سَئِمْـتُ الْمُقَـامَ بِغَرْنَـاطَــةَ   وَأَلْسُنُ حَالِي بِذَا تَنْطِـقُ

وَمَا أَنْكَرَتْ مُقْلَتِي حُسْنَهَا   وَلَكِنَّهَــا غَيْرَهَـا تَعْشَـقُ[3]

وقد عرفت إشبيلية بكثرة مساجدها منذ العهد الأموي، ومن أشهر جوامعها التي اتخذت منارات للعلم والعبادة "جامع إشبيلية الأعظم" الذي بناه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن،

---

1 -Magdalena Valor piechotta, sevilla almohade, editorial sarriá, Malaga, 2008, p 63.
2- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 176.
3- ابن سعيد الغرناطي- المغرب- ج2- ص 287.

وأتم صومعته ابنه يعقوب، و"مسجد العدبس"، و"مسجد عرفة"، و"مسجد ابن الأخضر"، و"مسجد التبانين"، و"مسجد الصباغين"[1]، وغيرها.

- غرناطة: من مدن الأندلس الكبيرة، إحدى قواعدها المحصنة، وفي أوصاف الجغرافيين لخيراتها ما يغني عن تتبع ما تحوزه منها، عمّرها وحصّنها ملوك صنهاجة في القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، وهي ذات عمائر دينية ومدنية[2]، وبالرغم من المحاولات المتكررة للموحدين من دخولها إلاّ أنهم لم يتمكنوا من إخضاعها إلى سلطتهم إلاّ في سنة 557هـ/ 1161م ويعود السبب في ذلك إلى قدرة من بقي من المرابطين وحلفائهم على تحصينها والصمود فيها[3]، وكغيرها من القواعد الأندلسية لم يوكل عبد المؤمن أمر ولايتها إلاّ لمن يثق به " فتناوبها جملة من بنيه وأقاربه"[4].

وفي أحيائها وأرباضها مساجد عديدة، وأشهرها "الجامع الأعظم"، و"مسجد البيازين"، و"مسجد دار القضاء"، والظاهر أنه كان بالقرب من دار القضاء فسمي بذلك، و"مسجد حمزة"، و"مسجد الغبار"، و"مسجد القاضي"، و"مسجد قنطرة الحواتين"[5]، وقد ذاع صيت علمائها في المشرق والمغرب، ورحل الطلبة إليها من جميع البلدان، وتعددت بها مكاتب تأديب الصبيان[6]، وتم رصد أعلام كثر من ذوي الأصول الغرناطية في مدن بلاد المغرب على اختلاف مراتبهم وعلومهم خلال القرنيين السادس والسابع الهجريين.

- بلنسية: مدينة بشرق الأندلس، وقاعدة من قواعدها، ولها أقاليم كثيرة، وهي على نهر جار متصل بالبحر وعبره تدخل السفن إليها، واتصلت عمائرها الدينية والعسكرية خلال العهود الإسلامية التي مرت بها[7]، وفي فترة الاضطرابات التي مرت بها الدولة المرابطية في آخر

1- ينظر عن هذه العمائر الدينية ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج5- ص ص98-206.
2- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 45.
3- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 196. وابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 74-77.
4- ابن الخطيب- المصدر السابق- ج1- ص 41.
5- ينظر عن هذه المساجد ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج6- ص ص 369-380.
6- تعقب ابن الأبار ذكرها في غرناطة، وترجم لبعض المؤدبين فيها ينظر على سبيل المثال- المصدر السابق- ج3- ص73.
7- كمال السيد أبو مصطفى- تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري- مركز الإسكندرية للكتاب- الإسكندرية- (د ت)- ص ص 193-200.

عهدها تمكن محمد بن سعد الشهير بابن مردنيش من الوقوف في وجه تطلعات الموحدين لتوحيد الأندلس تحت رايتهم؛ بحيث لم يتمكن عبد المؤمن بن علي من وضع يد الموحدين على المنطقة الشرقية وكبرى قواعدها بلنسية بسبب تحالف ابن مردنيش مع مملكة قشتالة للوقوف أمام تقدمهم[1]، واستمرت إمارته زهاء العشرين عاماً إلى غاية وفاته سنة 567هـ/1171م، وهي السانحة التي مكّنت يوسف بن عبد المؤمن من التحرك نحو بلاده وإخضاعها لسلطته " ودان له جميع بلاد شرق الأندلس"[2].

تعتبر كتابات ابن الأبار وما رصده من معلومات عن الحياة العلمية ومراكزها في مدينة بلنسية أثبتها بين المصادر؛ إذ هو من يمكن الاعتماد عليه في التعرف عليها لعدة اعتبارات؛ ومن أهمها أنه بلنسي المولد والنشأة، وقريب عهد بالعصر الموحدي، ولأنه أرّخ للحياة العلمية من خلال تراجمه لعلماء الأندلس، وقد احتوى كتابه "التكملة" على ذكر عدد من المساجد التي انتصب العلماء للتدريس بها، وتتبع آثارهم وأخبارهم، وضبط سنوات وفاتهم، وسيتم الاقتصار منها على ما يوافق الفترة الموحدية.

ومن أشهرها ذكراً: "جامع بلنسية الأعظم"، ومن أبرز من درّس فيه محمد بن عمر بن واجب القيسي (ت583هـ1187م) ، و"مسجد ابن عيشون" نسبة إلى عبيد الله بن عيشون[3] (ت574هـ/1187م)، و"مسجد الشراجب" وفيه كان عبيد الله بن خلف الأزدي[4] (ت600هـ/1203م)، و"مسجد السيدة"، وفيه أقرأ عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي[5] (ت619هـ/1222م)، و"مسجد رحبة القاضي"، وفيه كان محمد بن أبي زاهر[1]

1- ابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 88-89.

2- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 211.

3- هو عبيد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عيشون المعافري من أهل بلنسية، رحل إلى بلاد المشرق فأخذ عن علمائها، وعاد إلى بلده لنشر ما رواه، وكان من أهل اليسار وهو الذي بنى المسجد المنسوب إليه، وتوفي سنة 574هـ/1187م. ابن الأبار- المصدر السابق- ج2- ص ص 312-313.

4- هو أبو مروان عبيد الله بن عبد الله الأزدي من أهل إشبيلية وسكن بلنسية، كان حافظاً لمسائل الرأي وعارفاً بالفروع، وأمّ صلاة الفريضة والخطبة في مساجد بلنسية، وكانت وفاته بعد سنة 600هـ/1232م. نفس المصدر والجزء- ص 314.

5- هو أبو محمد عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله القضاعي، والد ابن الأبار أصله من أندة، وسكن بلنسية، عالم بالقراءات وله نصيب من الآداب، وكان بصلي بالناس بمسجد السيدة ببلنسية، وكانت وفاته سنة 619هـ/1222م. نفسه- ص ص 291-292.

(ت633هـ/1235م)، إضافة إلى "مسجد بني واجب" و "مسجد باب القنطرة" و"مسجد ابن جرج"، و"مسجد بني حزب الله"، و"مسجد الزقاق"، و"مسجد الغرفة" ويعرف بجامع ابن سرنباق، و"مسجد الغلبة" و"مسجد حميد"[2].

وفي دراسة قام بها الباحث الإسباني بثنتي كوسكويا عن مدينة بلنسية في الحقبة الإسلامية ضمن مقاربة حاول فيها تعقب مرافقها الحضارية والتعريف بها؛ ومن بينها المساجد و مدارسها القرآنية التي أكد تحولها إلى كنائس عقب سقوط المدينة في يد النصارى بداية من سنة636هـ/1238م، ووقف على تحديد مواقعها، بينما شكلت لدى المسلمين واجهة للمدينة بحيث لم تتخذ مكاناً للعبادة وحسب؛ وإنما كانت ذات توجهات علمية وسياسية واجتماعية بمثابة المعاهد الجامعية[3]، مع العلم أنه أهمل المادة التي رصدها ابن الأبار في مؤلفاته عن مدينته بلنسية وما تبعها من أرباض وقرى وحصون؛ وبخاصة في كتابه "التكملة".

والملاحظ أنه لا تخلو أي مدينة كانت سواء في بلاد المغرب أو الأندلس من جامع كبير يطلق عليه في العادة "الجامع الأعظم" ثمّ بقية المساجد في مختلف أحياء المدينة وما بها من أحواز وأرباض.

المبحث الخامس: مظاهر اتصال أسانيد التعليم وتداعياتها بين العدوتين:

عبّر ابن خلدون عن سبل انتقال العلوم بين الشعوب والأصقاع وتواصلها أو انقطاعها بحركة سند التعليم، وبيّن أنّ حركة العلماء من ذوي الكفاءات العلمية قد يسهمون في انتقال العلوم والفنون في حال الهجرة والتجوال بين الأقطار، وما رافق ذلك من اتصال المرويات و مختلف الإجازات، وأمكن لهذا الأسلوب من تحقيق أهدافه التعليمية، وتنشيط الحياة

1- هو أبو حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي زاهر المكتب من أهل بلنسية، له إجازة في القراءات، وكان يكتب المصاحف، وعرف بالنزاهة والعدالة، وصلى بالناس في مسجد رحبة القاضي، وكانت وفاته سنة 633هـ/1235م. نفسه- ص 135.

2- تنظر أسماء هذه المساجد عند ابن الأبار- نفسه- ج4- ص 179و-ج2- ص 291. و-ج3- ص 73.

3 -Vicente Coscollá Sanz, La Valencia musulmana, carena editors, valencia, 2003, p p:75-76.

العلمية في مدن المغرب الإسلامي التي لم تعرف أنماط المدارس النظامية التي ظهرت في بلاد المشرق.

1.إسهام الإجازات العلمية في مد جسور المعرفة:

تعتبر الإجازات العلمية من أشهر الطرق في نشر العلوم وتداولها بين طبقات أهل العلم، وهي قديمة من حيث الظهور؛ إذ تعود في تاريخ العلوم عند المسلمين إلى القرن 2هـ/8م؛ وهي الفترة التي انتشرت فيها المرويات العلمية بين الشيوخ وتلاميذهم في مختلف الأمصار[1]، وورد في معناها العام الإذن برواية العلم وتحمله من المجيز إلى المجاز، وارتبط تعريفها برواية الحديث ثمّ عممت على سائر العلوم والفنون، وهي تختلف من حيث صيغها وأنواعها وطرق تحملها بحسب كل فن، وبين العلماء اختلافات حول جواز ما وقع فيه التساهل وكثر فيه الترخيص[2]، ولا تخفى ما كان منها عن بعد؛ إذ "من منافعها أن ليس كل طالب وباغ يقدر على سفر ورحلة، وبالخصوص إذا كان مرفوعاً إلى علّة أو قلة"[3] فتغنيه الإجازة الخطية المرسلة عن تحمل مشقة ذلك.

يطلع المتنقل بين تراجم علماء المغرب والأندلس على الانتشار الكبير للإجازات العلمية وأهميتها في اتصال العلوم بين القطرين لاسيما ما كان منها عن طريق المباشرة؛ وهي "إيراد ما رواه بالقراءة أو السماع وبالمناولة، الإعلام بروايتهم إياه بالإجازة (...) لما في ذلك من علو الرواية وقرب الإسناد"[4]، وقد تكون عن طريق المكاتبة الخطية أو بالوسائط[5]، وتنافس الطلبة في من يحوز على الإكثار من إجازات الشيوخ والتفاخر بها[6]، وقد أفضى ذلك إلى التمييز بين خطوط الشيوخ، ومعرفة أسماء الرواة المجازين؛ وهو ما مكّنهم من معرفة الإجازات المزيفة من الصحيحة لسهولة التزوير والتحريف التي قد تتعرض لها هذه

1- ذياب سعد آل حمدان الغامدي- الوجازة في الأثبات والإجازة- دار قرطبة- بيروت-ط1- 2007م- ص ص 21-25.
2- ينظر عن أنواعها واختلافات علماء المغرب والمشرق حولها- المرجع السابق- ص ص 32- 41.
3- السلفي، أبو طاهر صدر الدين- الوجيز في ذكر المُجاز والمُجيز- تع محمد خير البقاعي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1-1991م- ص 23.
4- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص 444.
5- نفس المصدر والجزء والصفحة.
6- نفسه-ج1- ص501.

الوثائق، وقد نبّه على ذلك ابن عبد الملك المراكشي عن أحدهم "كان خبيثاً مزوراً خطوط الشيوخ لنفسه ولأبيه ولغيرهما"[1]، وأورد رواية لطيفة تظهر ما بلغته التنافسية العلمية بين العلماء في مسائل الإجازات وتتبع أصولها، وشبه ما وقع بين أحدهما "من التنافس ما يكون بين المتواردين على مشرع واحد"[2]، وأفضى ذلك إلى تأليف أحد المتنافسين لكتاب ردّ فيه إجازات طلبة منافسه سمّاه "المبدي خطأ الرندي"[3].

أشارت العديد من التراجم إلى ضربين من الإجازة بين عموم العلماء؛ ومنها نوع عرف بالإجازة الخاصة وتكون من الشيخ إلى الطالب المذكور باسمه في نص الإجازة في علم بعينة أو كتاب باسمه من دون تعميم، ونوع منها عامة؛ وفيها ينص الشيخ على إجازة مروياته إلى جميع من طلبها من عموم الناس[4]، ويفرقون بعبارات واضحة بين الإجازات المباشرة بحضور الشيخ وطالبها وتلك التي تكون بالمراسلة عن بعد أو عن طريق الوسائط؛ كأن يقول المترجم " كتب إليه مجيزاً ولم يلقه"[5]، وسيتم التعرض إلى هذه الإجازات بحسب كل فن في فصلي العلوم النقلية والعقلية، ويلاحظ أنّ جمهرة من أهل الأندلس وبلاد المغرب تساهلو في أمرها فأجازوا للصبية الصغار بطلب من آبائهم[6]، وأظهرت نصوص هذه الإجازات بعض ضوابط وشروط طلب الإجازة من الشيوخ والأدب في مخاطبتهم [7].

تكمن أهمية هذه الإجازات العلمية في فتح مجال تلقي العلوم وروايتها لأكبر عدد ممكن من طلبة العلم والراغبين في تحصيله، وقد أسهمت في التواصل العملي بين مدن بلاد المغرب والأندلس، وفي الجدول التالي تتبع للمسارات التي سلكتها هذه الإجازات بين العدوتين فيما يتوافق مع العصر الموحدي، والاقتصار منها على ذكر الشيوخ الذين درّسوا لأزيد من عقد زمني، واشتهر أمرهم بين طلبة العلم في المنطقة.

1- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج8- ص 234.
2- المصدر نفسه- ج5- ص 453.
3- نفس المصدر والجزء والصفحة.
4- نفسه-ج6- ص ص 295-296. وج1- ص369.
5- نفسه-ج1- ص 216.
6- نفسه-ج8- ص ص 299-301، وج5- ص 257.
7- ينظر نص استجازة ابن حبوس الهمذاني إلى أبي عبد الله بن عبد الحق التلمساني مؤرخة سنة 615هـ/1218م بالملحق رقم: 06 ص 358.

المُجيز	أصله	المُجاز	موضع الإجازة	نوع الإجازة
عبيد الله بن عمر الحضرمي (ت550هـ)	إشبيلية	طلبة مغاربة ومن وفد عليهم	مكناسة- مراكش- تلمسان	القراءات
محمد بن يوسف بن مفرج (ت600هـ)	إشبيلية	طلبة تلمسان ومن وفد عليها	تلمسان	القراءات
أبو بكر محمد بن عبد الله العبدري (ت567هـ)	قرطبة	طلبة مراكش ومن وفد عليها	مراكش	التفسير
عمر بن عبد المجيد الأزدي(ت616هـ)	رندة	طلبة مراكش وسبتة	مراكش	التفسير
عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي (ت582هـ)	إشبيلية	طلبة بجاية ومن وفد عليها	بجاية	الحديث وعلومه
علي بن محمد ابن القطان الكتامي (ت628هـ)	فاس	طلبة فاس ومن وفد عليها	فاس	الحديث وعلومه
علي بن عتيق بن أحمد الأنصاري (598هـ)	فاس	طلبة فاس ومن وفد عليها	فاس	العقائد
أبو الحسن علي بن أحمد ابن خمير(ت614هـ)	سبتة	طلبة أندلسيون ومغاربة	سبتة	العقائد
أبو محمد عبد المنعم بن عشير(ق6هـ)	الجزائر	عتيق بن علي المالقي وغيره	الجزائر (سنة561هـ)	الفقه وأصوله
أبو عبد الله محمد بن أحمد النفزي (ت610هـ)	شاطبة	طلبة أندلسيون ومغاربة	بجاية	الفقه وأصوله
أبو علي حسن بن عبد الله الأشيري (ت569هـ)	تلمسان	طلبة أندلسيون ومغاربة	تلمسان	النحو واللغة والأدب

أبو موسى عيسى الجزولي(ت607هـ)	مراكش	طلبة أندلسيون ومغاربة	الجزائر- المرية- مراكش	النحو واللغة والأدب
أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال(ت578هـ)	قرطبة	طلبة أندلسيون ومغاربة	قرطبة	التراجم والتاريخ
أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي(ت581هـ)	الأندلس	طلبة أندلسيون ومغاربة	إشبيلية- مراكش	التراجم والتاريخ
أبو الوليد بن رشد(ت595هـ)	قرطبة	طلبة أندلسيون ومغاربة	قرطبة- مراكش	العلوم العقلية (المنطق والفلسفة والطب)
أبو الحجاج يوسف بن محمد ابن طُمْلُوس (ت620هـ)	جزيرة شقر (الأندلس)	طلبة أندلسيون ومغاربة	الأندلس- مراكش	

وقع الاختيار في هذه النماذج المعروضة على التباعد الزمني في سنوات الوفاة بين القرنيين السادس والسابع الهجريين عند عرض كل علم، والهدف من ذلك هو التأكيد على نهج التواصل في منح الإجازات العلمية لا سيما في العلوم النقلية التي ذكرت فيها الألفاظ الدالة على ذلك، غير أنّ طبيعة بعض العلوم العقلية تتطلب التجريب والمعاينة كالعلوم الطبية، ولا يتم ذلك إلاّ بملاقاة شيوخ هذه الفنون والأخذ عنهم، وسيتم التعرض لذكر أشهر الشيوخ والتلاميذ عند الحديث عن العلوم العقلية بشيء من التفصيل.

2. المنافسة العلمية بين الصُقعين:

للمنافسة في منحاها العام عدة أبعاد ومسالك قد تؤدي إلى إذكائها في المجتمع الواحد وبين الشعوب وإن تباعدت، وهي ذات بعد اجتماعي وسياسي أو حضاري وعلمي، وتعود جذور المنافسة بهذا المفهوم بين المغاربة والأندلسين إلى فترة القرن الرابع الهجري العاشر ميلادي ممثلة في الصراع السياسي القائم بين الفاطميين والأمويين، والذي شكل العلماء

والأدباء جزءاً من مشهده العام[1]، وازدادت وتيرة هذه المنافسة مع هجرة المغاربة إلى الأندلس، ورحلتهم لطلب العلم في أوج التطور الحضاري الذي بلغته الأندلس في هذه الفترة، وتأثير فتنة القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي في قرطبة على بعض مؤرخي الأندلس وأدبائها حين عكست كتاباتهم صور البغض والمنافرة للمغاربة من ذوي الأصول البربرية بسبب اشتراكهم في أحداثها[2].

ازدادت شدّة هذه المنافرة وارتسمت معالمها مع توحيد العدوتين تحت راية المرابطين، وانتقال الحاضرة السياسية للدولة إلى بلاد المغرب، وبداية الظهور الفعلي لمظاهرها ضمن التدافع الحاصل بين بيئتين مختلفتين؛ بيئة مغاربية ضاربة في البداوة والبعد عن محاسن الدنيا وبهرجها، وبيئة أندلسية تنافس أهلها في تتبع الكماليات إلى حد العُجب والمبالغة في التصنع، وقد لخصت رسالة ابن أبي الخصال الأندلسي[3](ت540هـ/1145م) هذه النمطية في المنافرة لدى الأندلسيين من نظرائهم المغاربة في رسالته إلى جنود الملثمين حين تخاذلهم في الحرب؛ ومنها "ومن لرعاة الإبل بالحد المقبل لقدم ما أذهبتم التالد والطارف (...) فلولا من لدينا من ذويكم، وضراعتهم فيكم، لألحقناكم عجلاً بصحرائكم، وطهرنا الجزيرة من رحضائكم، بعد أن نوسعكم عقاباً، ونحدَّ أن لا تلووا على وجه نقابا"[4].

ليس من الغريب أنّ تمتد هذه المنافرة إلى ميادين العلم وحلقه، وتثبّت في المدونات وما خلّفه المغاربة وأهل الأندلس من آثار دون أن يرد ما يشير إلى بلوغها حد التشهير والإستهزاء بالمغاربة في الأندلس، أو من هاجر من الأندلسيين إلى بلاد المغرب، وينساق تعجب الفقيه ابن رشد القرطبي (ت520هـ/1126م) من فرط ذكاء تلميذه عياض اليحصبي

1- ينظر بعض نماذج هذا الصراع والمنافسة عبد العزيز فيلالي- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب- دار الفجر للنشر والتوزيع- القاهرة- 1999م- ط2- ص ص 127- 232. وفتحي زغروت- العلاقات بين الأمويين والفاطميين في الأندلس والشمال الإفريقي 300-350هـ- دار النشر والتوزيع الأسلامية- القاهرة- 2006م-ط1- ص ص 285-291.

2- ينظر تفاصيل هذه الأحداث عبد القادر بوباية- البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (92-422هـ/711-1031م)- دار الكتب العلمية- بيروت-2011م- ط1- ص ص 390-430.

3- هو محمد بن مسعود بن فرج بن أبي الحصال، أحد أعيان الكتاب، أصله من فرغليط، من ناحية شقورة، شاعر وأديب، وليلقب بذي الوزارتين، وكانت وفاته سنة 540هـ/1145م. ابن سعيد- المصدر السابق- ج 2- ص66.

4- ينظر نص رسالته، حسين مؤنس، نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- ط1- 2000م- ص23.

السبتي (ت544هـ/1149م) مع هذا المنحى بقوله: "عجباً لرجل ينشأ في البلاد البحرية على أكل السمك من أن يكون له هذا النبل والذكاء"[1]، وقد انفرد المقري بنقل هذا الخبر، وأورده في سياق افتخاره بمغاربية القاضي عياض والإشادة بعلمه وفضائله.

أما في فترة احتدام الصراع بين المرابطين والموحدين نجد الشاعر يحيى بن سهل اليكي الأندلسي[2] (ت560هـ/ 1164م) يصف المرابطين بقبيح هجائه حين يجردهم من أصولهم البشرية وقد شبههم بالزّراجين[3]، بقوله: [البسيط]

رأَيْتُ آَدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَـهُ   أَبَا الَبرِيَةِ إِنَّ النَّاسَ َقدْ حَكَمُوا

أَنَّ الزَّرَاجِيْنَ رَهْطُ ِمنْكَ قَالَ إِذاً   حَوَّاءُ طَالِقَةُ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا[4]

استمرت الطبائع النمطية المنفّرة بين العدوتين، وفي العصر الموحدي نكّب يعقوب المنصور القاضي ابن رشد الحفيد (ت595هـ /1198م) لما بلغه من وصفه له بملك البربر، وهو يصف حيوان الزرافة ورؤيته لها عنده في كتابه "الحيوان " فلم يشفع له اعتذاره بأن الأمر مجرد تصحيف وأن أصلها "ملك البرين"[5]، وهذا التبرير لا يحجب مدى الكره والبغض الذي كان يكنه ابن رشد لبربر بلاد المغرب، والغرباء عن الأندلس، ففي معرض تلخيصه لكتاب الخطابة للفيلسوف اليوناني أرسطو قام بتفصيل شرح العداوة بين بني البشر ومثل لها بقوله: "والبغضة والعداوة فقد تكون وإن لم يفعل المبغضُ بالمبغضِ له شيئاً فإنا نبغض ذوي النقائص وإن لم يجنو علينا شيئاً، و بالجملة إذا ظننا بالمرء ما يستحق

1- المقري- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض- تح سعيد أحمد أعراب وعبد السلام الهراس- طبع اللجنة المشتركة لنشر الكتاب الإسلامي- المغرب و الإمارات العربية المتحدة- 1980م- (د ط)- ج5- ص 79.

2- هو يحيى بن عبد الجليل بن سهل اليكي، أديب وشاعر أندلسي، توفي نحو سنة 560هـ/1164م، واشتهر بالهجاء الخبيث. الضبي- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس- ضبط وتقديم صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- بيروت- ط-1 2005م- ص467- وخير الدين الزركلي- المرجع السابق- ج8- ص152.

3- الزّراجين: يرى ابن القطان أنها صفة أطلقها ابن تومرت على المرابطين، حيث شبههم بطائر أسود البطن أبيض الريش يقال له " الزّرجان " لأنهم بيض الثياب سود القلوب، ابن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان- تح محمود علي مكي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1- 1990م- ص 132.

4- أبو بحر صفوان بن إدريس- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر- أعده وعلق عليه عبد القادر حداد- دار الرائد العربي- بيروت- 1980م- ص120.

5- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق- ج2- ص ص 488- 489، وروى الغبريني أن أحد الفقهاء هو الذي أنقذ ابن رشد فأشار عليه بهذه الحيلة- المصدر السابق- ص 96.

البغضة فنحن نبغضه أبدا "[1]، ثم مثل لقوله : "وأما البغضة والعداوة فإنها تكون للجنس فإنا نبغض البربر ويبغضوننا"[2]، ثمّ فرّق بين الغضب والبغضة؛ فالأول عنده "إنما هو تشوق إلى شر محدود أن ينزل بالمغضوب عليه"[3]، وأما الثانية "فإنها تشوق إلى أن ينزل بالمبغض شر غير محدود"[4].

تعود سلوكيات التعصب بين الأندلسيين والمغاربة إلى جذور تاريخية قديمة قبل عصر ابن رشد وقد ألمح إلى استمراريتها عبر التاريخ "ما لم يفعل المعادى بالمعادي ما يوجب مودته "[5]، وفي شرحه لمعاني الجور والظلم أقحم صنف الغرباء من الناس بقوله: "وهنا صنف من الناس يجار عليهم وينالون بالضر والانتقام، لا لمنفعة، لكن لمكان الإستلذاذ بذلك، وهؤلاء هم الغرباء، إما في المدينة وإما في الجنس وإما في الشيم، وإما في اللسان وإما في الملة (...) وإنما يستلذ الجور على الغرباء لأنهم لا يعرفون ما هو إهانة واستخفاف عند أهل تلك المدينة أو عند ذلك الجنس"[6].

أ. تشبث الأندلسيين بالترجمة لأهل حواضرهم:

تدخل الترجمة للعلماء والتأريخ لحياتهم ومدنهم ضمن باب المنافسة والمفاخرة البلدانية؛ بحيث تشبث الأندلسيون بشروط الترجمة للأندلسيين مولداً ونشأةً، واعتبار غيرهم من فئة الغرباء، وقد شكّلت هذه الشروط مثار جدل بين المغاربة والأندلسيين، واعترض عليها ابن عبد الملك المراكشي وهو يقدم لكتابه "الذيل والتكملة"، فتتبع ما دوّنه ابن بشكوال(ت578هـ/1182م) في كتابه " الصلة"، وابن الأبار(ت658هـ/1259م) في "التكملة لكتاب الصلة" بعدة مواضع، وبين تعصبهما للأندلس وأهلها.

1- ابن رشد- تلخيص الخطابة- تح محمد سليم سالم- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة- 1967م- ط1- ص 311.
2- نفس المصدر والصفحة.
3- ابن رشد المصدر السابق- ص 312.
4- المصدر نفسه- ص 313.
5- نفسه.
6- نفسه- ص ص 206-207.

ومن المفارقة أنّ أهل التراجم كثيراً ما ربطوا بين الترجمة للأعلام والتاريخ السياسي لعصورهم، الأمر الذي فتح المجال لظهور علاقاتهم بالحكام والولاة والوقائع والأحداث غير أنّ الأّمر اختلف مع ابن بشكوال الذي عاصر فترتين مهمتين من تاريخ بلاد المغرب والأندلس ألا وهي فترة المرابطين والموحدين، بحيث لم يورد ولا معلومة عن هذه الحقب الزمنية متعمداً تجاهلها، بينما يظهر ما ارتبط بالتاريخ السياسي للأمويين وملوك الطوائف.

وحسب تتبع التسلسل الزمني لحياة ابن بشكوال (494-578هـ/1100-1182م)، ندرك أنه عاصر ثلاث فترات مختلفة من تاريخ الأندلس وبلاد المغرب ميزتها مجموعة من الأحداث كان لها تأثير مباشر في مسيرة العلماء والحياة العلمية بها، وهي على التوالي:

- فترة تولي المرابطين حكم الأندلس (بداية بولاية علي بن يوسف بن تاشقين500-537هـ/1106-1142م).

- الفترة الانتقالية من نهاية المرابطين ومستهل الموحدين (فتنة 539هـ/1144م)).

- فترة جواز الموحدين إلى الأندلس وتولي أمر المسلمين بها، ومعاصرته لابن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف.

ولا ترد أية علاقة مباشرة له مع من تولى حكم الأندلس وبلاد المغرب خلال هذه المدة غير ما ذكره ابن الأبار من توليه لخطة القضاء[1]؛ وهو المنصب الأقرب إلى مخالطة أهل السياسة والخوض في أمورها بحكم تدخل ولاة الأمر في تعيين من يتولاها، حيث يترتب عنها- في أحسن الأحوال – تعرض صاحبها للعزل دونا عن إرادته أو اعتزاله بمحضها، وقد بادر ابن بشكوال إلى اعتزال هذا المنصب، ولا يعرف على وجه التحديد سبب ذلك ولا الفترة التي تولى فيها هذه الخطة الدينية.

والدافع وراء خوضه لفن كتابة التراجم - مثلما جاء في مقدمته- هو مواصلة التعريف بأعلام الأندلس، وإتمام ما بدأه ابن الفرضي المتوفى سنة (403هـ/ 1012م) في كتابه "تأريخ علماء الأندلس"، وعن ذلك يقول : "من حيث انتهى كتابه وأين وصل تأليفه متصلا

1- ابن الأبار- المصدر السابق- ج2- ص226.

إلى وقتنا"[1]، ومؤكدا على إتباع منهجه في التأليف: "ورتبته على حروف المعجم ككتاب ابن الفرضي وعلى رسمه وطريقته، وقصدت إلى ترتيب الرجال في كل باب على تقادم وفياتهم كالذي صنع هو رحمه الله"[2]، ولكن عقد مقارنة بين الكتابين تظهر لنا أن ابن بشكوال تحايل في إتباع هذا المنهج، ولم يلتزم فيه خطأً واحدا، ويتضح ذلك من خلال إعراضه وتجاوزه عن وصل النبذة التاريخية التي استهل بها ابن الفرضي كتابه عندما تعرض لذكر من تولى حكم الأندلس من بني أمية وإلى غاية آخر خليفة عاصره وهو المؤيد بالله هشام بن الحكم[3] مبينا غرضه من ذلك بقوله:" لما رأيت كثيرا من الوفيات ترتبط بدول الملوك، لم أجد بدا من ذكرها في صدر هذا الكتاب ليكون دليلا على ما تعلق بها و أضيف إليها، مع ما في علم ذلك من الفائدة "[4].

والمتتبع لهذه الإشارة عند ذكر الأعلام المترجم بهم في كتابه يدرك أن الفائدة التي رام ابن الفرضي التنبيه إليها؛ هي أن معرفة الفترة السياسية التي عاصرها العلماء، غايتها إيضاح علاقة السلطة بأهل العلم خاصة وبالحياة العلمية عامة، ولذلك لم يغفل مختلف المحن التي تعرضوا لها على أيديهم تنويها بصبرهم وصلابتهم واتعاظ من يقتدي بهم، كما أنه لم يفوت ذكر ما نالوه منهم من تكريم وحظوة واحتفاء[5].

كان الأحرى بابن بشكوال-على ما قرره في شرطه- أن يبدأ من حيث انتهى ابن الفرضي فيفتتح كتابه بذكر من تولى حكم الأندلس، إما بإعادة من ذكرهم ابن الفرضي ثم وصل ذلك بمن تولى بعد هشام المؤيد بالله إلى آخر من عاصر من حكام الموحدين، وهو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، كما فعل الضبي في بغيته عندما وصل كتاب "جذوة

1- ابن بشكوال- المصدر السابق- ص17.

2- نفس المصدر والصفحة.

3- هو هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الأموي يكنى أبا الوليد ويلقب بالمؤيد بالله، أمه أم ولد تسمى صبح، ولي وعمره عشرة أعوام فتغلب عليه حاجبه المنصور بن أبي عامر، وقد جرت له أحداث ومحن في حياته إلى أن قتل سنة 403هـ/1012م، وقيل غير ذلك في خبر طويل، ينظر الحميدي- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس- تح روحية عبد الرحمن السويفي- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1997م- ص21. وابن بسام- المصدر السابق- ج1- ص25، و-ج2- ص 19.

4- ابن الفرضي- تأريخ علماء الأندلس- تحقيق بشار عواد معروف- دار الغرب الإسلامي- تونس- ط1- 2008م- ج1- ص33.

5- ينظر مثلا ما تعرض له فقهاء قرطبة في حادثة الربض الشهيرة على عهد الحكم الربضي سنة202هـ/817م، وامتحان علماء من القرن 4هـ/10م، وتكريم آخرين، ابن الفرضي- المصدر السابق-ج1- ص149- 216- 220. و-ج2- ص 62 وما بعدها.

المقتبس في ذكر ولاة الأندلس" للحميدي المتوفى سنة (488هـ/1095م)[1] ، وإما الاقتصار على ذكر أسماء من عاصر منهم إذا اقتضى ذلك وصف حال المترجم به، إلا أنه أعرض عن ذلك وتجاوزه مكتفياً بعبارة "متصلا إلى وقتنا"، أي إلى النصف الثاني من القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي بدليل أن آخر سنة وفاة أوردها هي (564هـ/1169م)[2] ، دون أن يشير إلى أحد من حكام الموحدين، ولا حتى مجرد الإشارة إلى دولتهم أو تواجدهم بالأندلس، أو علاقة العلماء بهم، فلم أغفل ابن بشكوال ذلك وتجاوز؟ وهل ثمة من المغاربة أهل التراجم من تنبّه لهذا العزوف منه؟ أم أنّ الأمر لا يعودو أن يكون مجرد التزام بمنهج الكتاب وشرطه، وقلة تراجم الأعلام الذين تتزامن وفياتهم مع المرحلة.

يحتاج الأمر إلى استقراء نصوص كتابه التي تتوافق مع العصر المؤرخ له قصد الوقوف على بعض النقاط التي يمكن أن ترفع الغموض الذي انتاب تراجم هذه المرحلة من تاريخ العدوتين المغربية والأندلسية.

الظاهر أن الكشف عن هذا الغموض وتقريب الإجابة عن هذا التساؤل تكمن في تتبع الأعلام الذين ترجمهم في صلته، و كانوا ممن عاصر دولة الموحدين التي لم يحبذ الحديث عن حكامها صراحة، ولا عن دورهم في الحياة العلمية بالأندلس- وهو المؤرخ الذي لا تخفى عنه أهمية ذلك والتنبيه إليه- ودون أن نتتبع ترجمة جميع أعلام العلماء الذين ربطتهم بالموحدين أحداث وعلاقات تقرر في غير شطط أنه لا يسع لمن يترجمهم تجاهلها؛ وبخاصة من بذكرهم يذكر أهل السلطة والحكم كالقضاة والكتاب والشعراء، ثم سائر من انتسب لأهل العلم، لأنه لا توجد أي إشارة ذات صلة بوضع العلماء والحياة العلمية على

1- الضبي- المصدر السابق- ص43.

2- وهذا عند ترجمته عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن قزمان المتوفى سنة564هـ/1168م، ابن بشكوال، المصدر السابق، ص288، و لقد أخطأ متوهما إبراهيم الأبياري عندما اعتبر أن سنة 534هـ/1139م المدونة في آخر الجزء الأول من الصلة هي التي انتهى إليها ابن بشكوال في حصر من جاءوا بعد ابن الفرضي ومفسرا كلام ابن دحية الكلبي في كتابه"المغرب" من أنه قرأ كتاب الصلة على مؤلفه سنة 574هـ/1178م، أي بعد مرور 40 سنة من تأليفه له ومستنتجا من هذه العبارة أن ابن بشكوال لم يمض في كتابه تأليفا إلى آخر عمره، والصواب أنه كان ينقح كتابه بما يضيف إليه من زيادات واستدراكات إلى آخر حياته، ودليله سنوات وفيات الأعلام الواردة ضمن الكتاب، والتي آخرها سنة 564هـ/1168م، علما أن الأجزاء العشرة الأخرى لا ترد فيها سنوات الفراغ من النسخ عدا الجزء 10 الذي ورد في إحدى نسخه المخطوطة أن الفراغ منه كان سنة 555هـ/1160م، بينما ترد فيه ترجمة توفي صاحبها سنة 560هـ/1164م، ولذلك نجد السيوطي في بغيته يعتمد على استدراكات ابن بشكوال في بعض تراجم الأندلسيين بقوله:

عهدهم تؤرخ لذلك إيجابا أو سلبا، وإن كان ولا بد فلن نجد دليلا واضحا من إغفاله – متعمدا– محنة شيخه وصاحبه القاضي عياض اليحصبي[1] على أيدي الموحدين، وكل ما قاله عنه - بعد ما عرض مراحل حياته العلمية - : " توفي - رحمه الله- بمراكش مغربا عن وطنه وسط سنة 544هـ"[2]، و هو ما يقال عن أبي بكر بن العربي[3] و تجاوزه خبر دخوله على عبد المؤمن بن علي ومحنته آخر حياته[4].

وبالجملة فإن كتابة ابن بشكوال على منهج ابن الفرضي في التأريخ لعلماء الأندلس إنما يتوقف قبل نهاية القرن5هـ/11م، ثم يظهر بعد ذلك بمنهجية مختلفة تماما عما سبقها من القرون، وهذا إلى غاية النصف الثاني من القرن 6هـ/12م، وهي الفترة التي تولى فيها المغاربة حكم الأندلس وأضحت مراكش حاضرة العدوتين ومركز القرار والسلطة بهما، فتجده يتحاشى ذكر أمرائهم وخلفائهم وولاتهم سواء كانوا من المرابطين أو الموحدين، ويتغافل عن الكثير من الأحداث ذات الصلة بمسيرة الحياة العلمية، كحركة جلاء العلماء عن مدنهم بسبب الاضطرابات السياسية التي عرفتها الأندلس نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، فجاءت تراجم هذه الفترة خالية من أي حدث تاريخي له صلة بالعصر، ولم تظهر بوضوح صورة تواجد عناصر القبائل التي اجتازت إلى الأندلس خلال هذه المرحلة سواء من الذين استوطنوها وتناسل أعقابهم بها أو الوافدين عليها، مشكلين بذلك فئتي

1- هوعياض بن موسى بن عياض اليحصبي، من أهل سبتة يكنى أبا الفضل استقضي ببلده مدة طويلة، ثم ولي قضاء غرناطة، له عدة مؤلفات، توفي سنة 544هـ/1149م.ابن بشكوال- المصدر السابق- ص 359-360.

2- ابن بشكوال- المصدر السابق- ص360. ويتضح من المصادر التي ترجمت حياة القاضي عياض أن سبب امتحانه هو ولاؤه لدولة المرابطين، ورغم عفو عبد المؤمن بن علي عنه إلا أنه أبعد عن بلده حين عين قاضيا في إحدى المناطق النائية، وتختلف الروايات حول سبب وفاته بين قائل أنه مرض خارج مراكش أو أنه مات مسموما أو مات فجأة في الحمام أو أنه قتل. ينظر تفصيل محنته، ابن خلدون- المصدر السابق-ج6- ص307، والمقري- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض- تح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي- مطبعة فضالة-المغرب(د ت) -ج-3- ص11 وما بعدها، والنباهي- تاريخ قضاة الأندلس- تح لجنة إحياء الترات العربي- دار الأفاق الجديدة – بيروت- 1980م- ص95- وابن أبي زرع- المصدر السابق- ص247.

3- هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي المعافري من أهل إشبيلية، يكنى أبا بكر، رحل إلى المشرق وأخذ عن علمائها توفي بالعدوة ودفن بفاس سنة 543هـ/1148م.ابن بشكوال- نفسه- ص459-460.

4- حسب رواية ابن أبي زرع فإن عبد المؤمن سأله عن لقائه لابن تومرت عند الغزالي و ما كان يقول فيه ، فنفى ابن العربي لقاءه ونسب للغزالي قوله " إن هذا البربري لا بد سيظهر"، ويتحدث غيره من أنه تعرض للسجن مدة عام، وعند انصرافه توفي في طريقه إلى فاس. ينظر المقري- المصدر السابق-ج3- ص63 وما بعدها، وابن أبي زرع، المصدر نفسه- ص 246 .

البلديين والغرباء توافقا مع ما درج عليه كتاب التراجم في الأندلس حيث قسموا أعلامها على أساس المولد والنشأة[1].

إن البحث عن الدافع وراء لجوء ابن بشكوال إلى تجنب ذكر حكام الأندلس المغاربة، وعدم فسح مجال الترجمة بشكل أوسع لأعلام بلاد المغرب متعمدا تغييب صورة الحياة العلمية على عهدهم، ليس ببعيد عما كان يجيش في نفوس الأندلسيين تجاه أهل العدوة المغربية منهم من نفرة وعداوة وبغضاء، شكل عامة قرطبة وثلة من خاصتهم الأنموذج الأكثر تكرارًا ووضوحًا عبر الحقبة التي تلت فتنة القرن (5هـ/11م)، حين اجتاح الخراب مدينة قرطبة، وجعل أهلها يحّملون البربر والمغاربة وزر غيرهم فألحقوا التهمة بهم[2]، وغذّت تلك الأحداث عصبيتهم المفرطة في حبهم لبلدهم، ونفرتهم ممن كان غريبًا عنها، ودون حصر لهم نذكر من علمائها وكتابها ابن مفرج[3]، وابن حزم[4]، وابن أبي الخصال، وابن بشكوال، والقاضي ابن رشد الحفيد.

لا خفاء ما للإجراءات التي بادر الموحدون إلى اتخاذها ولم تلق رضى العامة في قرطبة؛ ومنها تلك الترتيبات الإدارية والخيارات السياسية؛ كتقديم مدينة إشبيلية عن قرطبة من حيث الأولوية الإدارية والحضارية - سيرد الحديث عنها بشيء من التفصيل- من دور في حنق عامتها على الوافدين الجدد، وأنّ فقدها للمكانة التي اشتهرت بها كحاضرة للأندلس، ومنافستها لكبرى المدن في العالم الإسلامي، ونهاية حكم من منحهم أهلها فرائض الطاعة والولاء من بني أمية حزّ في نفوس أهلها تسلط غيرهم عليها لا سيما ممن استوطنها

1- ظهر هذا التقسيم مع ابن الفرضي حيث اعتبر أن كل من لم يولد في الأندلس فهو غريب عنها وليس من أهلها وإن نشأ ومات بها، وعكسه أن يترجم للعلم في البلديين أهل الأندلس وإن انتقل إلى غيرها ونشأ وتوفي بها، وقد تبعه على هذا التقسيم كل من سار على نهجه فيما عرف بكتب الصلات.

2- تبرز بشكل واضح هذه النفرة والعصبية في تراجم النصف الأول من القرن (5هـ/11م)، ومن ذلك وصفهم لمن قتل في هذه الأحداث على أيدي البربر بالشهداء وعلى هذه الصفة يدفنون، ابن بشكوال،المصدر السابق ص214-389.

3- هو محمد بن مفرج بن حماد بن الحسين المعافري يعرف بالقبشي ويكنى أبا بكر من أهل قرطبة توفي سنة 430هـ/1038م، له كتاب سماه " الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال" أتمه سنة 420هـ، ونقل فيه الكثير من الأحداث ذات الصلة بفتنة القرن (5هـ/11م)، ونقل عنه ابن بشكوال كثيرا، وفيه يظهر مدى حنقه على البربر ووصفه لهذه الفتنة بالبربرية، ينظرابن بشكوال- المصدر نفسه- ص 126 و156.

4- تظهر عصبيته وكرهه للبربر من ذوي الأصول المغاربية عندما اعتبر أن " كفار البربر كانوا أشر كفار فإنهم ليسوا أهل كتاب ولا ارتباط بشرع وكذلك مسلموهم شرار المسلمين وأكثرهم غائلة" مؤلف مجهول، فتح الأندلس- تح لويس مولينا- المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- مدريد-(د ت)- ص 55.

المغاربة الداخلين إلى الأندلس " حتى إنّ السّيد أبا يحي بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن[1] لما انفصل عن ولايتها قيل له: كيف وجدت أهل قرطبة؟ قال مثل الجمل إن خففت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته به صاح، ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنتجنبه، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرًا من عامة العراق ، وإنّ العزل عنها لما

قاسيت من أهلها عندي ولاية، وإني إن كلفت العود إليها لقائل لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين"[2] وأردف ابن سعيد الغرناطي الذي أورد هذا الخبر أن أبا يحي لم يخرج عن قرطبة حتى بنى بها قصرًا من أبدع القصور على نهرها الكبير[3]، وعندما سئل "كيف تأنّقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة؟ فقال: "علمت أنهم لا يذكرون واليا بعد عزله ولا له عندهم قدر لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المروانية، فأحببت أن يبقى لي في بلادهم أثر أذكر به على رغمهم"[4].

ورد أنّ في إحدى زيارات المنصور الموحدي لهذه المدينة رغب في الوقوف على أطلال مدينة الزهراء[5] بنية الاعتبار، وعندما اقترب منها "أمر بقلع الصورة التي كانت على بابها"[6]، وأورد راوي هذا الخبر ما اتّفق من هبوب لريح عاصفة - بعد تصرفه هذا- غيّرت أثر المكان الذي زاره المنصور" فأرجف جهال من عوام قرطبة أنّ ذلك بسبب صورة الزهراء، وأنها كانت طلسماً لما ارتدعها من الأشياء"[7]، وعندما بلغ المنصور خبر

1- لم أقف له على ترجمة منفردة، وما ما يمكن استخلاصه من كتب التاريخ أن اسمه زكرياء بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الزناتي يكنى أبا يحي، عينه والده واليا على قرطبة برغبة من ابن رشد في سنة 579هـ/1183م، وأنه كان محبا للعلوم مقربا للعلماء والشعراء، وفي دعم ابن رشد له ما يؤكد ذلك، وأن أخاه المنصور أقدم على قتله مع أخيه عمر وعمه سليمان سنة 582هـ/1186م، ينظر عن ذلك ابن عذاري- المصدر السابق- قسم الموحدين- ص156 و205، وابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 286.

2- المقري- نفح الطيب- ج1- ص 462.

3- وصف هذا القصر الشاعر ناهض بن إدريس شاعر وادي آش بقوله : [الطويل]

آلاَ حَبَّذَا القَصْرُ الَّذِي اِرْتَفَعَتْ بِهِ   عَلَى المَاءِ مِنْ تَحْتِ الحِجَارَةِ أَقْوَاسُ

وقد نزله المنصور الموحدي عند جوازه سنة 586هـ/1190م. المقري- المصدر السابق- ج1- ص470، وابن عذاري المصدر السابق - ص205.

4- المقري- نفس المصدر والجزء- ص462.

5- مدينة في غربي قرطبة بناها الناصر عبد الرحمن بن محمد على سفح جبل العروس بداية سنة325هـ/936م، وكانت قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها، وكانت في ذاتها عظيمة يعجز الواصفون عن وصفها، ثمّ خرب ذلك كله، وبقيت أطلالها ماثلة إلى اليوم. ينظر عن وصفها ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 265، والمقري- المصدر نفسه- ج1- ص ص 524- 527.

6- ابن عذاري- المصدر السابق- ص 205.

7- المصدر نفسه- ص 205.

ما راج بينهم قلّل من شأنه واعتبره من "علوم أهل قرطبة القديم، ومن غبايتهم وتقليدهم الذميم"[1].

لقد أكد ابن خلدون هذه النظرة عن أهل الأندلس إجمالا بقوله: "وذلك أنّ أهل الأندلس لما انقرضت الدولة العربية منهم وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا ملكهم وثقلت وطأتهم عليهم فأشربت القلوب بغضاءهم"[2].

لاغرابة أن يكون السبب وراء تجنب ابن بشكوال وتجاوزه عن ذكر دولة الموحدين هو تجنبه خطر البوح بما كان يكنّه اتجاه ما قام به خلفاء الدولة وولاتها في الأندلس بما لا يروقه، وفي حادثة نقل المصحف العثماني- سيرد الحديث عنه لاحقاً- من قرطبة إلى مراكش في عهد عبد المؤمن بن علي أبرز مثال على عدم رضى ابن بشكوال عن تصرفه هذا، وقد نقل عنه ابن عبد الملك المراكشي من حاشية له وبخطه ما نصّه: " اخرج هذا المصحف عن قرطبة وغرب عنها ليلة السبت 11 من شوال سنة 552هـ، وحمل صبيحة يوم السبت وجوّز إلى العدوة، أخذ الله من سعى في تغريبه وخروجه عن الحضرة أخذ آسف، ولا أمهله بالذي لا إله إلاّ هو، وعجّل بصرفه إلى مكانه"[3]، ولغة الرفض لكل ما قد ينسب للموحدين واضحة في سياق كلامه من تجاهل ذكر اسم عبد المؤمن وتمسكه بتسمية قرطبة بالحضرة- حسب الإصطلاح الأموي- وتجنب ذكر اسم مراكش، كما أن مخاطبتهم وذكر أسمائهم يصاحبه الإقرار بألقابهم في الخلافة وإمارة المؤمنيين[4]، وهذا ما حدا به إلى عدم إظهار ما كان يضمر بنفسه في كتابه "الصلة".

ب. منافحة ابن عبد الملك المراكشي عن أعلام المغاربة:

1- هناك بتر واضح من كلام المنصور بعبارة (كذا) و (كذا) في وصف أهل قرطبة. ابن عذاري- المصدر السابق- ص 205.

2- ابن خلدون- المصدر السابق-ج1- ص 207.

3- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص 159.

4- أغلب الظن أن ابن بشكوال تجنب ذكر أسماء حكام الموحدين وأمرائهم صونا لنفسه من إيراد ألقاب وتعابير ذات دلالات شرعية وسياسية وعقدية، كالخليفة والمهدي والسيّد وما يترتب على ذلك من دعوات لهم وتقديم فرائض الطاعة والولاء مثلما كان الأمر سائدا زمن الموحدين.

لقد تنبه ابن عبد الملك المراكشي إلى هذا الإجحاف والتجافي الذي تعرض له المغاربة من طرف كتاب التراجم في الأندلس، وهو ما أهله لأن يكون حامل لواء الدفاع والمنافحة عن أهل بلده من خلال تذييله وتكملته لصلة ابن بشكوال على تاريخ ابن الفرضي، فسمى كتابه "الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة"[1] مواصلاً الترجمة لعلماء "أهل الأندلس والطارئين عليها من غيرهم بذكر من أتى بعده منهم وتكميلها بمن كان من حقه أن يذكراه فأغفلاه"[2]، ورغم اقتصاره على هذين العنوانين إلا أنه اتخذ من كتابه مرجعاً لتوجيه نقده لأشهر من وصل أو ذيل عليهما من أهل الأندلس[3]، أو من سار على نهجهم من المغاربة[4] ويمكن التماس رغبته بالوقوف في وجه ما اعتبره "إفراطًا في التعصب واحتقارًا لأهل العدوة "[5] في ثلاث نقاط :

- إهتمامه بالغرباء الوافدين على الأندلس:

لقد أظهر ابن عبد الملك المراكشي في تقديم منهج كتابه عن نقد لاذع لكتاب التراجم الأندلسيين، معترضًا على طريقتهم في ترتيب أسماء الاعلام بحيث انفردوا بتقديم الأندلسيين وتأخير الطارئين عليهم من الغرباء، معتبرًا أن هذا "خارج عن عرف المحدثين والمؤرخين"[6] الذين اهتموا في المترجم به "موضع استقراره فهم إنما ينسبونه إلى البلد الذي صار مستقره"[7] وضاربًا المثال بأصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) الساكنين بالمدينة أنهم مدنيون مع أن أصلهم من مكة[8] "وكذلك يقولون فيمن استوطن بلدًا غير بلده الذي ولد به"[9].

1- يتألف من تسعة أسفار عكف عليه مؤلفه عمره كله، وقد وصلت إلينا منها الأول من قسمين وقطعة من الرابع، والخامس من قسمين، والسادس، والثامن من قسمين، في حين بقي الثاني والثالث وقطعة من الرابع والسابع والتاسع في حكم المفقود، ينظر محمد بن شريفة- المرجع السابق- ص 42-43.

2- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج1 ص6.

3- كابن الأبار في التكملة، وابن الزبير في صلة الصلة.

4- هو أبو العباس أحمد بن يوسف بن فرتون الفاسي في كتابه "الذيل على الصلة" ينظر نقد ابن عبد الملك له، المصدر السابق، ج1 ص10.

5- ابن عبد الملك المراكشي- المصدرالسابق- ص11.

6- المصدر نفسه- ج1- ص 10.

7- نفس المصدر والجزء والصفحة.

8- نفسه - ص 11.

9- نفسه- ص11.

على الرغم من ابن عبد الملك لا يستثني أحدًا من أهل التراجم بداية بابن الفرضي ثم ما جاء بعده، إلا أن ابن الأبار نال النصيب الأوفر من هذا النقد لأجل أنه تعمد صراحة تبرير ذكره لبعض المغاربة في قسم الأندلسيين بسبب شهرتهم ومكانتهم العلمية، وهو ما اعتبره ابن عبد الملك " إفراطًا في التعصب الذي كان الغالب عليه حتى غلا فيه"[1] ومستشهدًا بابن المناصف[2]، حيث إن ابن الأبار أكد مصححًا مولده ببلاد المغرب إلا أنه عمد إلى الإخلال بشرطه قائلاً عنه :" وذكره في الغرباء لا يصلح ضنانة بعلمه على العدوة"[3] فعطف ابن عبد الملك معلقا: "وحسبك ما اشتمل عليه هذا القول من الشهادة على قائله بما لا يليق بأهل الإنصاف من العلماء واستحكام الحسد المذموم، واحتقاره طائفة كبيرة من الجلة العدويين"[4].

تجدر الإشارة إلى أنه لم يرد أي اعتراض على هذا التصنيف عند من سبق ابن عبد الملك من المغاربة، ولا من أتى بعده بل هناك من اتبعهم على سبيل الموافقة والتأييد، وهو ما نلمحه من كلام ابن بشكوال في المراسلات التي تمت بينه وبين القاضي عياض في عدة مواضع من كتابه الصلة[5].

لقد كان بالإمكان أن نقف على صورة أكثر وضوحًا في دفاعه عن أهل بلاد المغرب من العلماء على اختلاف مشاربهم وإنصافه لهم لو وصلنا هذا القسم كاملاً من مصنفه الشهير "الذيل والتكملة"[6] وبخاصة المغاربة منهم لأنهم أصحاب الحظ الأوفر من الترجمة في الجزء الواقع بين أيدينا – حيث يبدو القرب الجغرافي للعدوتين أهم محفز لانتقالهم – على الرغم من أن مصطلح الغرباء يراد به كل من طرأ على الأندلس من غير أهلها[7]، سواء كانوا من المشارقة أو المغاربة، ولعل هذا ما يفسر سبب اهتمامه بهم خاصة وأن

1- ابن عبد الملك المراكشي نفسه- ص 10.

2- هو محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ بن محمد الأزدي، مهدوي نشأ بتونس وهو قرطبي الأصل، يكنى أبا عبد الله تولى قضاء بلنسية ومرسية وله الكثير من المصنفات، توفي سنة 620هـ/1223م. ابن عبد الملك المراكشي- نفسه- ج8- ص 345-349 .

3- ابن الأبار - المصدر السابق-ج2- ص203.

4- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج1 ص11.

5- منها على سبيل المثال قوله عن إسماعيل بن حمزة بن زكرياء الأزدي المالقي بعد ما أورد اسمه ضمن البلديين "وهو من أهل سبتة بها ولد ... نبهني على ذلك القاضي أبو الفضل، وكتب به إلي صحيفة أن يذكر في الغرباء، ابن بشكوال- المصدر السابق- ص99.

6- يرى المحقق محمد بن شريفة أن السفرين السابع والثامن من الذيل والتكملة أكثر أسفار هذا الكتاب صلة بتاريخ المغرب ورجاله، وذلك لاختصاصهما بتراجم الأعلام المغاربة، واشتمالهما على فوائد جليلة ومواد نافعة لدارسي عصر الموحدين، ينظر مقدمة المحقق- الذيل والتكملة- ج8- ص 133-134.

7- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص11.

تراجمهم عند أهل الأندلس توحي بقلتهم ويغلب عليها الاقتضاب بينما هم يشكلون في نظره "طائفة كبيرة"[1]، قام بفصلهم عن الأندلسيين في آخر كتابه، معللاً ذلك بأن " إفرادهم بالذكر بعد الفراغ من ذكر أهل الأندلس يكون أرفع لهم، وأدل للناظر على ملتمسهم وأوضح لتمييزهم عن سواهم"[2].

ومن شدّة اهتمامه أنه كان يستطرد في أخبارهم ويطيل فيمن له شهرة منهم، إطالة لا عهد لتراجم الأندلسيين بها[3].

- ذكره لإسهام المغاربة ومنافستهم للأندلسيين في مجال العلم والمعرفة:

بالرغم الانتقائية التي انتهجها ابن عبد الملك عند ترجمة المغاربة بسبب تقيده والتزامه بشرط الأندلسيين في ذكر الداخلين إلى الأندلس فقط، إلا أن هذا لم يمنعه من إبراز افتخاره وإشادته بمن ذكرهم، منافسة للأندلسيين ووقوفًا في وجه تعصبهم واحتقارهم لأهل المغرب، فنذكر من ذلك إشادته بعلم أبي موسى الجزولي[4] المغربي الداخل إلى الأندلس ودفاعه عن صحة نسبة كراسته القزولية[5] إليه، ردًا منه على الأندلسيين الذين شككوا في نسبتها إليه وأن "كل ذلك مما ينبغي التعريج عليه، وإنما هي نقولات حسدته النافسين عليه"[6] ومعتمدًا على تأكيد صحة نسبتها إليه بوقوفه على خط صاحبها، زيادة على رسوخ قدمه في علم النحو[7]، ومن الشواهد التي ذكرها ودلّت على المنافسة العلمية بين المغاربة وأهل الأندلس هي

1- المصدر نفسه- ص13.

2- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص13.

3- ينظر مثلا ترجمته لميمون بن علي بن عبد الخالق الصنهاجي، وعلي بن محمد بن عبد الملك أبو الحسن بن القطان الكتامي، ابن عبد الملك المراكشي – المصدر نفسه- ج8- ص388-404، و-ج8- ص165-195.

4- هو عيسى بن عبد العزيز بن يللبخت بن عيسى بن يوماريلي البربري اليزد كتني العلامة أبو موسى الجزولي المراكشي، وجزولة بطن من البربر واليزدكتني فخذ منها، رحل إلى المشرق فزار مصر وتجول بها فأخذ العربية والنحو عن علمائها، ثم قفل إلى بلاد المغرب فأقام بجزائر بني مزغنا، فأخذ أصول الفقه وبها درّس العربية، ثم أجاز إلى الأندلس، وفي المرية أخذ عنه جماعة من أهلها، ثم استوطن مراكش حيث قربه المنصور الموحدي، واحتفى به، ثم لقي حظوة عند ابنه الناصر إلى أن توفي سنة 607هـ/1210م، ينظر السيوطي- المصدر السابق- ج2 - ص197. وابن عبد الملك المراكشي- نفسه-ج8- ص246 وما بعدها.

5- هي كراسة في النحو وعنها يقول السيوطي : "هي حواشي على الجمل للزجاجي، وقال بعضهم، ليس فيها نحو، وإنما هي منطق بحدودها وصناعتها العقلية" السيوطي، المصدر السابق، ج2 ص197.

6- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ص 248.

7- هو عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي، الإشبيلي أبو عمر الشلوبين، كان ذا معرفة بالقراءات، متقدما في العربية، قدم مراكش أيام المنصور من بني عبد المؤمن، وتوفي بإشبيلية سنة645هـ/1247م. ابن عبد الملك المراكشي، نفسه- ج5- ص460 وما بعدها.

القصة الطريفة لأبي علي الشلوبين الأندلسي[1] عند قدومه مراكش، وكيف أنه بهت لما شاهد مجلس الجزولي واطلع على قدرته في علم النحو واستبحاره فيه، فأقر على نفسه بأنه لن يسود بعلمه في هذا البلد[2] "وعاد إلى إشبيلية مقضيًا العجب مما شاهده"[3].

سلك ابن عبد الملك المراكشي هو ذاته طريق المنافسة والتفاخر بتتبع سقطات الأندلسيين والرد عليهم، والتعليق على كتبهم وأخبارهم، واتبّع في أحيان كثيرة الشدة في الـرّد والطعن والقصوة في استعمال الألفاظ، والطعن في منتحلي الأنساب العربية، وقد تنبّه

إلى ذلك لسان الدين الخطيب واعترض عليه، ومنه ما نسبه لنفسه حينما شكك في عبارة كان قد أثبتها ابن بشكوال في صدر كتابه الصلة[4] حيث يتوهم الواقف عليها أنها من كلامه بينما أصل العبارة حسب ما أكد ابن عبد الملك هي لأحد أشياخ بلاد المغرب[5]، وهذا التشكيك في أسلوب ابن بشكوال إنما يفهم منه مدى قدرة ابن عبد الملك على معرفة أساليب كتاب التراجم والتفريق بينها.

اعترض في موضع آخر من قسم الغرباء على ابن الأبار ذكره لأحد الخرسانيين[6] منكرًا عليه ذلك على اعتبار أنه لم يدخل الأندلس أصلاً، وأن تونس هي أقصى ما وصل إليه من بلاد المغرب[7]، إلا أنه استأنس بترجمته حيث ناسب ذلك أن يورد لأبي زيد الفازازي

1- هو عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي، الإشبيلي أبو عمر الشلوبين، كان ذا معرفة بالقراءات، متقدما في العربية، قدم مراكش أيام المنصور من بني عبد المؤمن، وتوفي بإشبيلية سنة 645هـ/1247م. ابن عبد الملك المراكشي- نفسه-ج5- ص460 وما بعدها.

2- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج8- ص249.

3- المصدر نفسه-ص250.

4- وردت هذه العبارة في قوله : " سألني صاحبنا الفقيه الزكي المحدث الكامل أبو محمد عبد الله بن إسماعيل بن فرج، تولى الله تعالى كرامته وضاعف جلالته، مناولة كتاب الصلّة، فأجبته إلى ما سأل على وجه الطاعة له بعد أن أشفقت مما رسم أن يتعاطى مثلي مع مثله منزلة الأشياخ، لكن بعض الشيوخ كان يقول: موافقة الإخوان خير من الإبقاء على النفس"، وأن العبارة المنتحلة هي بداية من قوله : " فأجبته (...) إلى النفس "، كتبها أبو عمر السفاقسي إلى القاضي أبي عمر أحمد بن محمد بن الحذاء الأندلسي المتوفى سنة 335هـ/965م، وقد عبر ابن عبد الملك عن سروره بصدق حدسه في ذلك، ينظر، ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج4- ص 182-

5- هو أبو عمر السفاقسي، لم أقف على ترجمته وتبدو مغربيته ظاهرة من نسبته إلى سفاقس إحدى المدن بإفريقية.

6- هو محمود بن أبي القاسم الفارسي يكنى أبا المعالي، زار المغرب على عهد الناصر من بني عبد المؤمن، كان فقيهًا شافعي المذهب، ذا حظ صالح من الأدب ناظمًا ناثرًا، توفي بالعراق ولا تعرف سنة ذلك. ابن عبد الملك المراكشي- نفسه-ج8- ص ص 368-372.

7- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر نفسه- ج8- ص368.

المغربي قصيدة في مدح هذا الخرساني، معللاً إثباتها – مع طولها – بأن في ذكرها " تنبيهًا على ما لأهل المغرب في الفضل من الحسن والزيادة"[1].

تحظى " بلاد المغرب" عنده بمكانة بارزة في الحياة العلمية لا تقل أهمية عن الأندلس، لاسيما عند ذكر الأندلسيين الذين تجولوا بها طلبا للعلم، فتراه لا يغفل عن ذكرها تنويهًا بمدنها ومجالسها العلمية، وأعلامها الذين أسهموا في التواصل العلمي بين العدوتين، ومن المؤكد أن لأصوله ومعرفته بالمدن التي زارها كفاس وسبتة وتلمسان دورًا في هذا الإلمام الذي مكنه من إتمام ما أغفله غيره[2]، ومن باب الإنصاف والموضوعية التأكيد على أن المنهج الذي سلكه ابن عبد الملك المراكشي في "الذيل والتكملة" جعله يمثل الطرف المغاربي الأكثر مبالغة في منافرة الأندلسيين ومنافستهم، فلم يسلم هو ذاته من الدخول في معتركها، وهذا لكثرة ما يمكن أن نرصده له من متابعة ونقد لهم أوصله إلى حد التشكيك والهجاء والتعريض بهم[3].

- ذكره لإسهامات الموحدين العلمية في الأندلس والتأريخ لدولتهم:

يعتبر كتاب "الذيل والتكملة" من الوثائق المصدرية المهمة في التأريخ لدولة الموحدين عامة والحياة العلمية على عهدهم خاصة، وإن أفرده للصُقع الأندلسي إجمالاً، فإن ما أورده ابن عبد الملك المراكشي يعد بحق تتبعا لما تم إغفاله وعرضًا للمسكوت عنه؛ ولذلك وصفه محمد من شريفة بإمام المؤرخين بالمغرب بعد أن عرض منهجيته في الكتابة التاريخية، وأن ما ورد في كتابه يعد "أوثق ما يعتمد عليه في تاريخ الموحدين وأصح نصوص هذا التاريخ؛ ذلك لما عرف به محررها من اطلاع واسع وإكباب طويل على المدونات التاريخية والوثائق الرسمية، ولما يلتزم به من منهجية صارمة وموضوعية عادلة"[4]، وعن

1- نفسه- ص 368.

2- يظهر تفاوت بين ابن عبد الملك المراكشي وغيره من كتاب التراجم الأندلسيين عند تتبعنا لذكر عبارة "بلاد العدوة" أو ما أدل عليها، ينظر عن ذلك للمقارنة ابن عبد الملك المراكشي- نفسه- ج6- ص ص 24- 191و ص 252-255، 289، 429.

3- شكك في نسبة كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" لابن رشد، وتتبع نسب ابن عميرة المخزومي ورده إلى الأصول اليهودية، وعرّض بأبي علي الشلوبين الإشبيلي النحوي عندما اعتبر أن كثيرا من أهل بلده كانوا يرغبون بأبنائهم عنه ولا يسمحون للتتلمذ له لقبيح لا يليق بأهل العلم نسبوه إليه، ناهيك عن حدته في الرد على الأندلسيين فيما له علاقة بالشعر والنثر، وقد تنبّه إلى ذلك التجيبي وهو أحد تلامذته حيث دافع عن أستاذه ابن الزبير في تعليقاته التي وردت في السفر الرابع من الذيل والتكملة. ابن الخطيب- الإحاطة-ج1- 62.

4- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج8- ص 16.

قيمة الكتاب العلمية فيرى محققه " أنها أوسع من قيمته الأدبية لأن الحياة العلمية من حيث حركة التعليم والتأليف هي محور الكتاب ومداره"[1] وأن الواقف على عدد المصادر والموارد التي اعتمد عليها في تأليفه يجد أنها "تؤلف القاعدة العريضة لمن يدرس الحركة العلمية والفكرية في عصر الموحدين دراسة منهجية ومتقصية"[2]، وهو يقدم بذلك عرضًا غاية في الإلمام والوضوح مما يتيح للباحث رصد علاقة السلطة الموحدية بطبقة العلماء المغيبة عند صاحب الصلة، حيث جاء حافلاً بأسماء خلفاء الموحدين وأمرائهم وولاتهم الداخلين إلى الأندلس، ذاكرًا لإسهاماتهم العلمية في عرض لمناقبهم ونوادر أخبارهم؛ وهو ما سيتم الوقوف عنده في مباحث العلوم النقلية والعقلية.

ومن مظاهر المنافسة العلمية بين الأندلسيين والمغاربة ما كان يثار من مسائل علمية في المجالس السلطانية بين العلماء في شكل مناظرات الغاية منها إثراء العلم بما كان يصدح به المتناظرون، وسواء كانوا من أهل العلوم النقلية أو العقلية، وأحياناً تأخذ طابع المفاخرة والمفاضلة بين الأصقاع والمدن، وقد جمعت هذه المناظرات في شكل رسائل أدبية غير أنه لم يصل إلينا منها إلاّ القليل.

كثيرا ما يستفاد من المناظرات العلمية عندما تعقد بين العلماء، وتزداد شهرتها حينما تكون في حضرة الحكام ، وتطلعنا المصادر الأولية على ما كان شائداً منها زمن الموحدين،

ومن أشهر هذه المناظرات ذات النبرات التنافسية ما جرى في مجلس والي سبتة على عهد الموحدين أبي يحي بن أبي زكريا[3] بين الأديب والشاعر أبي الوليد الشقندي الأندلسي[4] (ت629هـ/1231م) و يحي بن المعلم الطنجي[5]، ومن الغريب أن كُتاب الأندلس تناقلوا رسالة الشقندي وتم الحفاظ على نصوصها، بينما رسالة ابن المعلم فهي في حكم المفقود

1- مقدمة المحقق - المصدر نفسه- ج8- ص16.
2- نفسه- ص17.
3- لم أقف على ترجمته، وكل ما ورد عرضاً في التاريخ عنه أنه أبو يحي بن أبي زكريا صهر ناصر بن عبد المؤمن، ولي على مدينة سبتة في عهد محمد الناصر. ابن عذاري- المصدر السابق- ص 248.
4- هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد من شقندة قرية مطلة على نهر قرطبة، أديب وشاعرمشهور، وكانت وفاته سنة 629هـ/1231م. المقري- المصدر السابق- ج3- ص ص 222-223.
5- لم أقف على ترجمته.

بسبب الإعراض عن نقلها أو الاقتباس عنها، وقد نبّه محمد بن شريفة إلى أن معظم رسائل المغاربة فقدت؛ ومنها "رسالة المكناسي في المفاخرة بين بلاد الأندلس وبلاد العدوة"[1].

يعود سبب هذه المناظرة بينهما إلى نشوب الخلاف بداية بالمفاضلة بين الموطنين، بحيث بدأ الشقندي مفاخرته بقوله: " لولا الأندلس لم يذكر بر العدوة، ولا سارت عنه فضيلة، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم، فقال الأمير أبو يحي: أتريد أن تقول كون أهل برنا عرباً وأهل بركم بربر؟ فقال: حاش لله ! فقال الأمير: والله ما أردت غير هذا، فظهر في وجهه أنه أراد ذلك، فقال ابن المعلم: أتقول هذا وما الملك والفضل إلاّ من برّ العدوة"[2].

اقترح الأمير الموحدي أن يدّون كل واحد منهما رسالة في تفضيل موطنه، ومما جاء فيها تعقيباً على ابن المعلم "إن كان الآن كرسي جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بني عبد المؤمن- أدامها الله تعالى- فقد كان عندنا بخلافة القرشيين"[3].

وبعد ما عرّج على ذكر خلفاء الأندلس وملوكها، انتقل إلى تفضيل علماء الأندلس- على اختلاف علومهم ومراتبهم- وهي طويلة أتى على ذكرها كاملة المقري في نفحه.

ومن الأندلسيين من أبان عن منافسته بالذود في كتاباته عن تفضيل الأندلس على برّ العدوة بحيث صرّح ابن سعيد الأندلسي قائلاً: " منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت في برّ العدوة، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا[4] وسبتة، ثمّ طفت في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس(...) لم أرى ما يشبه الأندلس"[5].

وأخذ حكام الموحدين وولاتهم على أنفسهم الظهور بمظهر يفاخرون به الأندلس وأهلها؛ ولذلك كانوا يتأنقون في البنيان، ويتنافسون في جلب العلماء ويشجعون علماء بلاد المغرب على مقارعة نظرائهم الأندلسيين، فقد روي عن عبد المؤمن بن علي مفاخرته بشاعره أبي

1- محمد بن شريفة- ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره- تح محمد بن شريفة- مطبعة النجاح الجديدة- المغرب- ط1- 1994م- ص ص 95-96.
2- المقري- المصدر السابق- ج3- ص 186.
3- المصدر نفسه- ص 188.
4- مدينة ببلاد المغرب على ساحل البحر، ولها أسواق نافقة وتجارات، ولأهلها سعة أموال، وكان يوسف بن عبد المؤمن أمر ببناء مدينة كبيرة متصلة بالقصبة. الحميري- المصدر السابق- ص319.
5- المقري- المصدر نفسه-ج4- ص 201.

العباس الجراوي[1] الذي روى ما أسرّ به إليه عبد المؤمن بن علي عند جوازه معه إلى الأندلس قائلاً: "يا أبا العباس إنّا نباهي بك أهل الأندلس"[2]، وقد عرف عن أبي العباس الجراوي بأنه شاعر الخلافة الموحدية.

3. الرحلة العلمية بين بلاد المغرب والأندلس :

إن انتشار العلوم والمعارف في مختلف الأوضاع التي امتد إليها الإسلام تطلب من الساعين إليها تنويع الأساليب والطرق التي تمكنهم من التحصيل والأخذ عمن اشتهر من الشيوخ والرواة، وإن تباعدت المسافات وطال الزمن، لذلك ظهرت الحاجة إلى الرحلة في طلب العلم وتحمل مشقتها وتبعاتها، ولأهميتها صنف بعض الأعلام في فضلها والأمر بها مؤلفات خاصة[3] ويرى ابن خلدون أن "الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم"[4] وغدت الرحلات العلمية إحدى الطرق التي أسهمت في انتقال العلوم والفنون وقاربت بين الشعوب والحضارات .

المتتبع لمسالك أصحاب الرحلات يقف على نوعين مختلفين تبدو فيهما معالم الحدود السياسية للمناطق والدول عاملا مهما في التعريف بينهما، فالأولى داخلية بين مدن الصقع الواحد، والثانية خارجية باتجاه الدول المجاورة، ولأن المغرب والأندلس شكلا وحدة سياسية وعلمية في عهد الموحدين فلا اعتبار هنا للتفريق بين القطرين إلا ما كان على سبيل طبيعة الحدود الجغرافية بين الضفتين، ومن النماذج المختارة لهذه الفترة رحلة ابن تومرت بين حواضر بلاد المغرب والأندلس قبل شده الرحال إلى المشرق، ومنها تنقل من المغرب الأقصى إلى قرطبة فقرأ على يد القاضي ابن حمدين ثم سافر إلى بجاية ومنها إلى

1- هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي الغفجومي الفاسي، أصله من قبيلة "جراوة" البربرية، درس الجراوي في بلده ثمّ تنقل بين فاس و مراكش، وقد جمعت أشعاره في ديوان خاص. ابن الأبار- المصدر السابق- ج1- ص 128.

2- ابن سعيد- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة- تح إبراهيم الأبياري- دار المعارف-القاهرة- ط2-(دت)- ص 100.

3- الخطيب البغدادي- الرحلة في طلب الحديث- تح نور الدين عتر- دار الكتب العلمية- ط1- بيروت- 1975م. ص ص38-91.

4- ابن خلدون- المصدر السابق- ج1-ص 624.

المهدية للأخذ عن الإمام المازري[1] ولا تعرف على وجه التحديد المدة الزمنية التي مكثها في الأندلس والمهدية، والمعلوم من المصادر أنه استغرق في رحلته غربا وشرقا أربع عشرة سنة.

أدى اهتمام كتاب التراجم الذين تتبعو حركة العلماء، وتنقلاتهم بين المدن والأصقاع، ورصد أماكن استقرارهم ومواضع انتصابهم للتعليم إلى ذكرعدد كبير من المساجد على اعتبار أنها دور للعبادة ومنارات لنشر العلم والمعرقة فحددوا مناطق وجودها، وأسمائها وأشهر من درس فيها وعلى الرغم من إشارتهم إلى من اشتهر من العلماء والخطباء الذين كان يتم استدعائهم من طرف الخلفاء وولاة الأقاليم وبخاصة في كبرى حواضر بلاد المغرب كمراكش وفاس وسبتة وتلمسان وبجاية والإشراف إداريا على تعيينهم في المساجد والمدارس وقصور الحكام إلا أن المصادر لا تطلعنا على كيفية التحاق غيرهم ببقية المدن والقرى وتصدرهم للتعليم، وما يمكن استخلاصه من مظاهر النصوص أن اختيار العديد من علماء الأندلس لمدن بلاد المغرب تكمن وراءه عدة أسباب تختلف باختلاف الأزمان والأحوال، ومنها :

- الانتقال بسبب الفتن والإضطرابات التي عرفتها المدن الأندلسية وبخاصة في نهاية حكم المرابطين، وفترات تكالب النصارى على أراضي المسلمين .

- فحوى المراسلات التي كانت تتم بين طلبة العلم المغاربة – أو من ناب عنهم – وعلماء الأندلس وفيها ورد التصريح برغبتهم في وفود العلماء عليهم تشريفا لمدنهم من جهة وكفاية أبنائهم أعضاء الرحلة إليهم.

- امتهان بعض علماء الأندلس للتجارة مكنتهم من التواصل مع أهل العدوة المغربية، وناسب مكرتهم في المدن التي وصلوها أن أسهموا في نشر المعرفة لمن رغب فيها.

ليس هناك ما يشير إلى تدخل سلطة الموحدين في شؤون الحياة العلمية الخاصة بشيوخ المساجد وطلبتهم من خلال ترتيبات تنظيمية شبيهة بتلك التي عرفتها المدارس المشرقية، حيث تمتع العلماء بحرية في اختيار موادهم وتنظيم حلقاتهم حسب ما هو متعارف عليه

1- هو أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد التميمي المازري، محدث وفقيه، من أهل إفريقية، ومن أشهر مؤلفاته" المعلم بفوائد مسلم" وكتاب" الفتاوى"، توفي سنة 536هـ/1141م. ابن فرحون- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب-تح مأمون بن محي الدين الجنان- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1999م- ص 374.

حتى اكتفت السلطة الحاكمة بفرض رقابة سياسية على المساجد تمكنها من رصد حالات الخروج عن طاعة الموحدين أو التحريض ضدهم.

وتتباين المعلومات المستقاة حول طرق التدريس وأنماطه، واختيارات هؤلاء الأعلام لما يدرسونه حسب رغباتهم المرتبطة بالعلوم والفنون التي يتقنونها، وهي بذلك تخضع لمعايير إجازاتهم العلمية وما اشتهروا به بين أقوالهم وليس بالضرورة أن يتم إجبارهم على تتبع توزيع منطقي للعلوم المنتشرة في حلق المساجد، على أن تكون الحرية للطلبة في الإختبار والمعاملة بين الشيوخ .

4. إسهام العلماء في حملات الجهاد بالأندلس:

منذ أن رفع المسلمون راية الفتوحات في الأندلس بداية من سنة 92هـ/711م بقادة طارق بن زياد فإن وتيرته لم تنقطع على مدار القرون التي تلت افتتاح الأندلس، وعلى الرغم من أنّ بعض الفترات شهدت تراجعاً بسبب الفتن والصراعات الداخلية بين المسلمين؛ وبخاصة في عهدي الولاة وملوك الطوائف، إلاّ أنّ جذوته اشتعاله أعيد إيقادها مع دخول المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين، وتواصلت مع مجيء الموحدين وإسهامهم في صدّ هجمات النصارى وحماية الثغور في ذروة قوتهم، وقد شارك العلماء كغيرهم من عناصر المجتمع الإسلامي في جميع المعارك والحروب الناشبة بين المسلمين والنصارى.

وتطلعنا المصادر وبخاصة كتب التراجم على دور فعال قامت به فئة العلماء في المعارك الدائرة في الأندلس إلى جانب الجيوش الموحدية، وتكمن إسهاماتهم في منحيين اثنيين:

الأول: حث الناس على الجهاد وتحريضهم على التضحية في سبيل الله دفاعاً عن النفس والعرض والأرض، وقد اتبعوا في ذلك عدة أساليب تمكنهم من إيصال رسائلهم، ومن أشهرها الوعظ والخطب في المساجد والأماكن العامة التي يتجمع الناس فيها عادة.

ويعتبر المحدث والفقيه: أبو القاسم بن حبيش[1] (ت584هـ/1188م) من أشهر العلماء الذين كانوا يحرّضون الناس على ملاقاة أعدائهم، ويعود السبب في شهرته بذلك إلى إقامته في المدن المحاذية للممالك النصرانية إذ كان يتنقل بين بلنسية ومرسية وشاطبة، ومن فرط اهتمامه بأمر الجهاد ألف كتاباً يذكّر الناس فيه بما كان عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) سماه كتاب "المغازي"[2].

ومن صور المشاركات في الجهاد ضد النصارى جمع الأموال لتجهيز الحملات العسكرية أو المساهمة في افتكاك أسرى المسلمين، كالعمل الذي قام به في جامع إشبيلية الأعظم عندما عمد إلى دعوة المسلمين جمع المال لأجل افتكاك أسرى المسلمين، فذكر مترجموه أنه جمع ما لم يتوقعه أحد ممن حضر، حتى أنّ من لم يملك المال أعطاه من فاخر ثيابه التي كان يلبسها.

أما الثاني: فهو المشاركة الفعلية في المعارك ضد النصارى لمن قدر عليه جسدياً ومالياً، وقد أحصى أهل التراجم من مات في المعارك أو فقد أثناءها، ومنهم من لزم الرباط في الثغور، ومنهم المحدث والفقيه محمد بن أحمد الأنصاري الأندلسي[3] (ت574هـ/1178م) الشهير بابن المجاهد الذي كان يهرع إلى جواده كلما دعا الداعي إلى الجهاد، ومنهم محمد بن علي بن المرابط[4] (ت589هـ/1193م) الذي لقب بذلك لكثرة مرابطته في الثغور.

وقد أشار ابن الأبار إلى ثلة من العلماء الذين استشهدوا في وقيعة العِقاب سنة (609هـ/1212م) أو فقدوا أثناءها، ومنهم القاضي محمد بن حسين بن صاحب الصلاة الذي كان يحظ الناس على مواجهة النصارى في هذه المعركة، وكان هو من بين من فقدوا

1- هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف الأنصاري، من أهل المرية، عالم باللغة والفقه والحديث، اشتهر بكثرة طلبته. ابن الأبار- المصدر السابق-ج3- ص ص34-36.

2- المصدر نفسه- ص35.

3- هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري، من أهل إشبيلية، عالم بالفقه والحديث واللغة، وكان كثير الجهاد والغزو. ابن الأبار- المصدر السابق-ج2- ص ص48-49.

4- هو محمد بن علي بن محمد التجيبي من أهل مرسية، من علماء القراءات، عرف بالوعظ والزهد. ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج6- ص 493.

فيها، وأبو عبد الله محمد بن حماد العجلاني من أهل فاس، كان عالما بالحديث والرواية، وكان يحضر مجالس الموحدين لقراءة الحديث، واستشهد في هذه الوقيعة الشهيرة[1].

ومن ذكر أيضاً من شهداء هذه المعركة أبو عمر أحمد بن محمد بن عات (ت609هـ/1212م)؛ بحيث أشار تلميذه أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي (ت658هـ/1259م) إلى أن شيخه " لما رأى المسلمين ولو الأدبار، وأباحوا أكتافهم للنصارى استقبل ابن عات العدو بوجهه، ومضى قدماً حتى استشهد"[2].

وعندما حاصر النصارى قصر أبي دانس[3] سنة (ت614هـ/1217م) كان من بين المدافعين عنه المحدث والفقيه أبو بكر محمد بن عبد النور الإشبيلي[4] الذي اشتهر بكثرة غزواته إلى أن استشهد وهو يدافع عن أهله في قصر أبي دانس.

ومنهم أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الحميري، محدث وفقيه وشاعر بليغ، كان خطيب مسجد بلنسية وقاضيها، وكانت الرحلة إليه للأخذ عنه، وله في الحيث عدة مصنفات أتى على ذكرها من ترجم به، منها كتاب "الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء"[5]، وفي مقدمته يظهر مدى الحاجة إلى تذكير الناس بالمغازي في الوقت الذي تكالب النصارى على أراضي المسلمين، وخرج أبو الربيع على رأس كتيبة من علمائها في جيش بلنسية لمواجهة النصارى في "موقعة أنيشة"[6]، وفيها قتل صبرا سنة (ت634هـ/1236م) مع

1- المصدرنفسه- ج8- ص 298.

2- ابن عميرة المخزومي- رسائل بن عميرة المخزومي- تح محمد بن معمر- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1-2012م- ص 187.

3- موضع بغربي الأندلس، وهو حصن كبير، وفيه كانت الوقيعة على المسلمين سنة 614هـ/1217م. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 475.

4- هو محمد بن عبد النور بن أحمد بن محمد السبائي، روى عن خلق كثير، عالم بالقراءات والحديث. ابن عبد الملك المراكشي- المصدر نفسه- ج6- ص ص 411-413.

5- أبو الربيع موسى الكلاعي- الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء- تح مصطفى عبد الواحد- مكتبة الخانجي- القاهرة- ط1- 1968م-ج1- ص 6.

6- موضع بالقرب من بلنسية من أرض الاندلس؛ وهي على جبل معترض عالٍ على البحر بمسالك صعبة. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 41.

جماعة من علماء بلنسية وصلحائها، وكان وقع هذه الهزيمة عظيما على الأندلسيين، وقد رثى إبن الأبار من مات فيها بقصيدة طويلة أتى على ذكرها ابن عبد الملك المراكشي[1].

5. المراسلات العلمية بين أعلام بلاد المغرب والأندلس:

من بين وسائل التواصل الاجتماعي والمعرفي التي ربطت بين العدوتين المغربية والأندلسية هي ظهور المكاتبات والمراسلات العلمية التي كانت تتم بين علماء الأندلس ونظرائهم المغاربة، وتشير مجمل كتب التراجم إلى هذا النوع من الرسائل والمكاتبات على اعتبار أنها إحدى طرق التقارب العلمي، وتختلف طبيعة هذه المكاتبات حسب الموضوع و المضمون، وما تم الوقوف عليه منها يمكن تقسيمه إلى:

- رسائل طلب إجازات علمية من الشيوخ.

- رسائل تتضمن أسئلة عن وتوضيحات عن الأعلام قصد تقييد المعلومات عنهم.

- رسائل لطلب فتوى في نوازل معينة.

- رسائل توصية للمتعلمين وأهل المعرفة.

أثبتت مختلف النصوص التي وصلتنا أهمية المكاتبات العلمية التي كانت تتم بين أعلام بلاد المغرب والأندلس، وقد أشار ابن بشكوال (ت578هـ/1182م) إلى ما المراسلات التي كان بعث بها من قرطبة إلى شيخه بسبتة القاضي عياض (544هـ/1149م) فكثيراً ما أورد في صلته "وقد سألت عنه القاضي عياض مكاتبة"[2] في معرض التحري عن سنة وفاة أحد الأعلام المغاربة الغراباء، و" كاتبني القاضي عياض"[3]، و"أبلغني القاضي عياض مكاتبة"[4].

1- المصدر السابق- ج4- ص ص 89- 95.
2- ابن بشكوال- المصدر السابق- ص126.
3- ابن بشكوال- المصدر السابق - ص 245.
4- المصدر نفسه- ص 288.

الظاهر من هذه المراسلات أنّ ابن بشكوال وهو يدوّن معلوماته عن تراجم الأعلام أثناء تصنيفه لكتاب" الصلة"، كانت تقف مجموعة من الإشكالات حول أنساب بعض الأعلام أو تحديد وضبط سنوات وفاتهم، وجميع من كان هذا حالهم كانوا من المغاربة، ولذلك اتجه إلى شيخه حسب تعبيره ليسأل عنهم لمعرفة القاضي عياض بالأنساب وتراجم الرجال.

من بين المراسلات التي حفظت لنا المصادر بعض نصوصها الرسائل والمكاتبات الخاصة بالاستجازة أي طلب الإجازة من الشيوخ؛ وهي التي تعرف بالإجازة العامة، ومنها رسالة أبي زكريا يحي بن علي بن حبوس (ق7هـ/13م) إلى علاّمة تلمسان أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني (ت625هـ/1227م) ومن مقتطف ما جاء فيها قوله: "يرغب إلى الشيخ الفقيه (...) في الإنعام عليه بإجازة ما اشتمل عليه برنامج رواياته"، فأجاب الشيخ بقوله: "أجزت لكم أكرمكم الله جميع ما سألتموه، وأبحت لكم من ذلك ما طلبتموه إجازة عامة على شروطها المعمول بها"[1].

تظهر أهمية الكتب والمراسلات بين الشيوخ وتلامذتهم عند أبي العباس بن العريف[2] (ت536هـ/1141م) في كتابه "مفتاح السعادة"؛ بحيث ضم عددا كبيراً من المراسلات والمكاتبات بينه وبين مريديه الذين عاصروا الفترة الموحدية، ومعظمها ذات استدلالات علمية، والتي كانت تصله بمختلف المعلومات عن مريديه وتلامذته؛ ومنها ما أشار إليه في معرض حديثه عن سفر أحدهم إلى مراكش وإعلامه عن حاله[3].

وحسب ما تم الوقوف عليه فإن هذه المكاتابات كانت تنقل إما عن طريق الرقاص الخاص بنقل الرسائل بين المدن أو نقلها عن طريق المسافرين بين المدن كالتجار، وفي

1- الغبريني- المصدر السابق- ص ص 254- 255، وينظر نص هذه المراسلة بالملحق رقم:06 ص 355.
2- هو أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي الشهير بابن العريف، ةلد بالمرية، وتعلم في مدن وحواضر الأندلس في القترة المرابطية، واشتهر بالتصوق والزهد في الدنيا، واتبعه في ذلك رهط من المريدين، وهو ما أحنق الفقهاء عليه، وذكر أنه مات مسموماً. ابن الأبار- المصدر السابق- ج1- ص62. وابن الزيات التادلي- المصدر السابق- ص 118.
3- ابن العريف- مفتاح السعادة وتحقيق السعادة- تح عصمت عبد اللطيف دندش- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1- 1993م- ص147.

نص منه يشير إلى كتاب بلغ ابن العريف "ورد إلي كتابك، وعرفت محبتك من حسن الله لديك"[1]، وفيه إشارة إلى من اسم من اوصل له الكتاب.

وفي أخرى"وصل يا أخي كتابك أكرم بكما مع الإجازات والفهارس وسائر ما تضمنه كتابك على أكمل وجوه المرغوب"[2].

وتختلف مدة هذه المراسلات حسب المسافات بين المدن، غير أن مسالك الطرق البحرية مدتها أقل من الطرق البرية، ومثاله فيما كتبه أيضاً ابن العريف قائلاً "كتبته ليلة الخميس عشر من ذي القعدة، وقبله بخمسة أيام ورد كتابك الكريم صحبة أبي بكر بن البنّاء"[3]، وهذا المكتوب كان بين سبتة والمرية حسب السياق الذي ورد فيه.

ومن الرسائل والمكاتبات التي تعود إلى العصر الموحدي المكاتبة بالإجازة، وقد أورد كتاب التراجم منها الكثير من النماذج.

ومن رسائل التوصية ما ورد عن أبي زيد الفازازاي القرطبي من مراسلات بينه وبين أسرة بني عذرة، تدل بعض الرسائل التي تبادلها أبو زيد الفازازي مع أعلام الأندلس على صلة التواصل التي كانت تربطهم، وموضوعها يدور حول وصايا علماء بني عذرة[4] لأبي زيد بأن يهتم بأبنائهم الوافدين على قرطبة ورعايتهم قصد طلب العلم، وفيها إشادة بما كان يقوم به أبو زيد من خدمة للطلبة الوافدين على قرطبة[5].

ومن أشهر المكاتبات العلمية التي عبرت عن جانب مهم من العلاقات بين الأعلام ما يلي:

1- ابن العريف- المصدر السابق- ص192.
2- المصدر نفسه- ص222.
3- ابن العريف- المصدر السابق- ص143.
4- هذه الأسرة من البيوتات العلمية، سكنوا الجزيرة الخضراء- ومن أعلامهم عمر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز الأنصاري- كان فقيها حافظا- راوية للحديث ذا حظ من الشعر- استقضي ببلده و بسبتة- توفي سنة 576هـ/1180م- وابنه عبد الرحمن شاعر وأديب، اشتهر بوضع وصية لأبنائه يحضهم فيها على طلب العلم، توفي في حدود سنة 600هـ/1203م- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق - ج5- ص448. وابن الزبير- المصدر السابق- ج3- ص202
5- ينظر أدب الوصية من الآباء للأبناء- ويليه مكاتبات علماء بني عذرة لعبد الرحمن بن يخليفتن القرطبي يوصونه بأبنائهم في طلب العلم- تحقيق محمد بن عزوز- دار ابن حزم – بيروت- ط1- 2003 م- بداية من ص 38.

المرسل	المناطق الجغرافية	المرسل إليه	زمنها	نوع الرسالة
ابن بشكوال(ت578هـ)	من قرطبة إلى سبتة	القاضي عياض	القرن 6هـ	طلب معلومات عن انساب الاعلام وتاريخ وفاتهم
علي بن أبي نصر فاتح(ق7هـ)	من بجاية إلى الأندلس	ابن عميرة المخزومي	القرن 7هـ	طلب إجازة علمية
مغيث بن يونس بن محمد(ت552هـ)	من قرطبة إلى المغرب	عدد من العلماء	القرن 6هـ	طلب إجازة علمية
أبو عبد الله محمد بن عبد الحق (ت625هـ)	من تلمسان إلى الأندلس	ابن حبوس	القرن 7هـ	طلب إجازة علمية
ابن فرتون الفاسي (ت666هـ)	من فاس إلى سبتة وقرطبة	ابن الزبير في صلة الصلة	القرن 7هـ	إعلام بسنوات وفات بعض الأعلام
ابن عصفور العبدري(ت669هـ)	من إشبيلية إلى تلمسان	عدد من العلماء	القرن 6هـ	اسئلة نحوية واخرى علمية

6. انتشار بيوتات العلم في بلاد المغرب والأندلس:

كثيراً ما اهتم كتاب التراجم في الأندلس بالتنبيه إلى صلات القرابة التي كانت تربط الأعلام المترجم بهم، وهو ما سهّل على الدارسين عملية تجميع شجرة البيوتات الأندلسية، وأوضح أهمية مشاركتها في الجوانب السياسية والفكرية، وأهل التراجم كانوا يردفون– في الغالب- عمن كان هذا حالهم من الأعلام عبارة "إنه من ذوي البيوت العلمية"، وما قارب هذا المعنى في إشارة منهم إلى دور الأسرة العلمية في حياة المتعلم، ولم يقتصر إسهام البيوتات العلمية على بلاد الأندلس فحسب وإنما امتدّ إلى بلاد المغرب بعد انتقال من تعاقب من أفرادها إليها، وكانت لصفة الحسب وعراقته مكانتها لدى أهل السياسة والسلطان؛ وهو ما تظهره نماذج البيوتات المتنقلة بين العدوتين، ويتم الاقتصار في ذكر من يتوافق تاريخ وفاتهم مع العصر الموحدي دون ذكر من سبق الفترة من أصولهم أو من تعاقب بعدها من فروعهم.

- مصطلحا "بلاد المغرب" و"الأندلس" ومعاني دلالاتهما الجغرافية والسياسية:

تكمن أهمية ضبط المصطلح الجغرافي وتحديد معالمه في معرفة مدى تطابق نصوص الأمكنّة والمواطن الجغرافية مع الفترة المؤرخة من جهة، وتفادي المصطلحات المستحدثة في الإستريوغرافية العربية بعد العصر الموحدي من جهة أخرى؛ ولذلك نجد أنّ من أشهر المصطلحات التي عاصر ظهورها تاريخ المنطقة هي: "بلاد العدوة"، و"بلاد المغرب"، ولا خلاف حول لفظ "الأندلس" إلاّ ما تناقص منها بسقوطه في أيدي النصارى، و وقع النزاع حوله بين الموحدين وخصومهم- وهو ما سيرد لاحقاً- أو تحديد مواقع المدن بدون ضابط جغرافي آخر مثلما هو الحال في كتابات البيدق الصنهاجي (من أهل القرن 6هـ/12م)، و"المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة (كان بقيد الحياة سنة595هـ/1198م).

استمرت هذه العبارات عند من تأخر عنهم من المؤرخين والجغرافيين الذين أوردوا مصطلح "المغرب" وأشاروا به إلى تلك المنطقة الممتدة من الحدود المصرية شرقاً إلى المحيط غرباً؛ وهو المقصود في اختيار ابن عذاري "البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، بينما استعمل اللفظ ذاته ليشمل منطقة "الأندلس والمغرب" معاً عند المعاصرين للدولة الموحدية، أو من كان قريب عهد بها كابن جبير(ت614هـ/1217م) في جغرافيته الوصفية، وعبد الواحد المراكشي (كان بقيد الحياة سنة621هـ/1224م) في "المُعجب في تلخيص أخبار المغرب"، وابن عسكر (ت636هـ/1238م) في "أعلام مالقة"، وابن سعيد الغرناطي (ت685هـ/1286م) في "المُغرب فى حلى المغرب" وغيرها من مؤلفاته.

إنّ تقسيم منطقة بلاد المغرب إلى أقاليم جغرافية مختلفة (أدنى وأوسط وأقصى)، وإخضاعها للبحث والدراسة السياسية والاقتصادية و الاجتماعية والحضارية ضمن النطاق الضيق لمفهوم الدولة القطرية الحديثة في ظل سيادة الدول الموحدة للضفتين الأندلسية والمغربية قد لا يتوافق مع طبيعة التوجهات الوحدوية، ومعالم الاختيارات السياسية التي

أرستها مدينة "مراكش" كحاضرة للعدوتين بـداية من ظهور المرابطين ثمّ شمول دلالاتها الجغرافية والسياسية في العصر الموحدي[1]؛ وبخاصة أنّ اتباع منهجية كرونولوجية في ترتيب النصوص وتفريغها على مدار السنوات المتعاقبة لهذه المرحلة لا تبرز بينها مصطلحات وتعابير تنم عن تباين للأقاليم الثلاثة؛ بينما تظهر أسماء الحواضر في الفترة الموحدية من دون ربطها بالحدود السياسية لهذه المناطق التي تخلّف ظهورها إلى ما بعد القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي[2].

ولنا في السياقات الجغرافية التي أفرد لها عبد الواحد المراكشي- المعاصر للموحدين - حيزاً بآخر كتابه "المُعجِب" ما يؤكد ذلك ويدلل عليه؛ بحيث أورد ذكر المدن من دون إضافتها إلى كيان جغرافي آخر، ويتوافق هذا تماماً مع النصوص التي رصدها ابن عذاري في البيان المغرب- قسم الموحدين- وفصل أهل التراجم في أحيان كثيرة بين إفريقية وبلاد المغرب زيادة منهم في التوضيح ورفع الالتباس عن الأعلام المترجم بهم[3]، والظاهر أنّ العديد من الدراسات -لا سيما العربية منها- لم تأخذ هذه المعطيات بعين الاعتبار وإنّما اتبعت نفس النسق الذي ظهر مبرزاً ضمن عناوين المدونات التاريخية العامة التي بدأ ظهورها الأول في القرن التاسع عشر على يد أبي العباس أحمد الناصري السلاوي في كتابه "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"؛ بحيث اتخذ من الدولة القطرية الحديثة معلما أرّخ من خلاله لأخبار الدول التي ظهرت فيها بقوله: " ذكرت فيه دول هذا القطر المغربي من لدن الفتح الإسلامي إلى وقتنا هذا"[4] بينما تجده يتحدث في عصري المرابطين

1- بقيت بعض المناطق في بلاد المغرب خارجة عن سيطرة المرابطين؛ ومنها مدن إفريقية بحيث وقع الصراع عليها بين أمراء صنهاجة والقبائل العربية الهلالية، وسيطر الحماديون على بجاية وما جاورها، بينما امتدت سلطة الموحدين إلى الحدود المصرية شرقا. ينظر الهادي روجي إدريس- الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن10 إلى 12م- تر حمادي السّاحلي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1- 1992م- ج1- ص ص 245- 359.

2- يلاحظ هذا بوضوح عند ابن عبد المنعم الحميري(ت727هـ/1326م) الذي عاصر هذه التقسيمات؛ فتجده يربط بين المدينة والإقليم الذي تعود إليه فمثلا: تلمسان وبجاية يضيفها للمغرب الأوسط، ومراكش وفاس للمغرب الأقصى، وتونس وما جاورها لإفريقية. ينظر الروض المعطار في خبر الأقطار- تح إحسان عباس- مكتبة لبنان- بيروت- ط2- 1984م- ص 80-143-135-434-540، وكذلك ابن خلدون- ابن خلدون، عبد الرحمن- مقدمة ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر- ضبط ومراجعة خليل شحاتة وسهيل زكار- دار الفكر- بيروت- (د ط)- 2001م-ج6- ص29.

3- ابن عبد الملك المراكشي- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة- تح محمد بن شريفة- مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية- المغرب- (دط)- 1984م- ج8- ص 237.

4- السلاوي، أبو العباس أحمد الناصري- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- تح جعفري الناصري و محمد الناصري- دار الكتاب- الدار البيضاء- المغرب- ط1- 1997م-ج1- ص58.

والموحدين عن مجال جغرافي أبعد من عنوانه المسمى، مما اضطره في مواضع كثيرة إلى اعتماد مصطلح "بلاد المغرب"[1].

مثّل هذا الاتجاه - بعد السلاوي- محمد المنوني في مختلف أبحاثه و دراساته، محاولاً الربط بين النصوص التاريخية للمرحلة الوسيطية والمعنى المحدود للدولة القطرية، وغلب عليه الجانب الحضاري بشقيه التعريف بالتراث المصدري المطبوع منه والمخطوط، وإبراز الجانب العلمي والمعماري الموصوف، وقد تجسد الأول في كتابه "المصادر العربية لتاريخ المغرب"، والهدف منه هو مضامين "المؤلفات التي تتصل بتاريخ المغرب الأقصى"[2]، وعلى الرغم من وقوفه على النصوص التي تفيد الفترة التي ارتسمت فيها المعالم السياسية للصُقع المغربي بعد العصر المريني إلاّ أنه لم يحدد مضامين الاستفادة من المصادر الحولية والشاملة التي أرخت لبلاد المغرب والأندلس، ولم يرد فيها ما يشير إلى هذا التحديد؛ ومنها على سبيل المثال لا الحصر كتاب "المُعجب" لعبد الواحد المراكشي فاكتفى بالتعريف العام بها[3]، وتجسد الثاني في مصنفه "حضارة الموحدين"؛ والذي يتبادر للمطلع على عنوانه شمولية المعنى الحضاري الذي بلغته مدن و حواضر بلاد المغرب والأندلس خلال العهد الموحدي - بغض النظر عن مواقعها الجغرافية - إلاّ أنه اقتصر في محتواه على ما يدور في فلك المفهوم الضيق للدولة القطرية الحديثة.

وفي موضوع الدراسة تم الوقوف على نماذج عديدة - أبحاث مستقلة وأخرى أكاديمية- اتبعت الاتجاه نفسه؛ بحيث اتخذت من الحقبة الموحدية مورداً لطرق مختلف الموضوعات السياسية والحضارية، غير أنها لم تلتزم بالبعد الجغرافي والحضاري للدولة الموحدية، إما بدراسة إقليم مجتزئ من عموم الدولة، أو الربط بين عموم ما عرف من حضارتها وإلحاقه بجزء جغرافي منها، وحكموا بذلك على الكل بمصير الجزء، وبناءً عليه تمّت التفرقة بين

1- السلاوي- المرجع السابق- ج2- ص ص 29- 143.

2- محمد المنوني- المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط - جامعة محمد الخامس- المغرب- (د ط) - 1983م- ج1- ص 14.

3- المرجع السابق- ص50. وقف ابن سودة عند هذا المفهوم فاشترط في كتابه: دليل مؤرخ المغرب الأقصى ذكر "التآليف التي ألفت في تاريخ المغرب فقط لا من ذكر المغرب على التبع لغيره" غير أنّه خرج عن هذا الشرط فذكر مؤلفات عامة ذكرت المغرب بالتبع لغيره. ينظر مؤلفه دليل مؤرخ المغرب الأقصى دليل ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، ويليه ذيل دليل مؤرخ المغرب الأقصى- دار الفكر- بيروت- ط1- 1997م- ص 5.

النصوص ذات النسق التاريخي الواحد، الأمر الذي انجرّ عنه إغفال الكثير من الأعلام والمدن؛ لأنها ليست ضمن مجالها المحدد سلفاً، والحقيقة أنه نوع من القصور الذي لا يتحمله المنهج التاريخي الذي يربط بين الأبعاد الثلاثة: الجغرافي والسياسي والزمني في العملية التأريخية، ولذلك وقف المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال مطولا للفصل بين المفهومين الزمني والجغرافي فيم اتّصل بالمصطلح الحديث للمغرب ومجاله الحضاري تحديدا[1].

إنّ السعي وراء تتبع معالم الخريطة الجغرافية للدولة الموحدية في أقصى اتساعها يحتم على الدارس عرض مقاربة حضارية ترتكز على انتقاء نصوص ومواد علمية تتوافق مع هذا الطرح، والتمثيل لها بما يتمّ إحصاؤه من عينات تسهم في رصد صورة مقربة لما كانت عليه الحياة العلمية في مختلف المدن وإن تباعدت جغرافياً، وللخروج من معترك الاصطلاحات المعتمدة حديثاً وقع الاختيار على مصطلح "بلاد المغرب" الذي يتناسب مع الفترة المؤرخة، وتمّ انتقاؤه من مؤرخ عاصر الحقبة الموحدية وعبر بقلمه عمّا كان سائداً أو متعارفاً عليه في وقته؛ وهو عبد الواحد المراكشي الذي ختم ما بسطه جغرافياً بقوله: "فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ومسافات الأبعاد التي بين كل بلد وبلد؛ ومنها ما سافرت فيه بنفسي، ومنها ما نقلته مستفيضاً عن السفار المترددين"[2]، والأمر ذاته عند الزهري (كان بقيد الحياة منصف القرن6هـ/12م) في جعرافيته[3]؛ وهو من معاصري الموحدين.

وأما المعالم الجغرافية لمصطلح "الأندلس" في العصر الموحدي فليست هي ذاتها الموصوفة في المصادر التاريخية والجغرافية التي بلغت أقصى اتساعها إلى نهاية عصر الولاة سنة 138هـ/755م بسبب توقف الفتوحات الإسلامية في المناطق الشمالية منها، وبداية استيلاء الممالك النصرانية على مناطق واسعة منها؛ وبخاصة في عصر ملوك

1- ليفي بروفنسال- مؤرخو الشرفاء- تعريب عبد القادر الخلادي- مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر- الرباط - (د ط)-1977م- ص ص 24- 27.
2- عبد الواحد المراكشي- المُعجب في تلخيص أخبار المغرب- اعتنى به صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- بيروت- ط1- 2006م- ص 268.
3- الزهري، أبو عبد الله محمد- الجعرافية- تح محمد حاج صادق- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- (دط)-(دت)- 106.

الطوائف[1]، و بالرغم من القوة الرادعة التي شكلتها الجيوش المرابطية والموحدية ضد هجمات الممالك النصرانية والحدّ من تقدمها جنوبا إلاّ أنّها لم تتمكن من استرداد جميع ما فقد في العهود السابقة.

وفي الفترة التي تولى فيها عبد المؤمن بن علي الكومي[2] (524-558هـ/1129-1162م) تمكن من إلحاق معظم المدن الأندلسية تحت رايته بداية من سنة 541هـ/1146م، وأحكم قبضته على مدنها الكبرى غير أنّ المنطقة الشرقية للأندلس بقيت خارجة عن سيطرته، بالرغم من محاولاته المتكررة، وتوفي قبل إخضاعها لحوزته بسبب ظهور إمارة ناصبت العداء للموحدين فيها رسمت لنفسها حدوداً سياسية، ومعالم حضارية شملت معظم الحواضر الكبرى لهذه الجهة، وعرفت بإمارة ابن مردنيش[3] (ت567هـ/1178م) واستمر وجودها لأزيد من عقدين، ولازال الغموض يراوح تاريخ ظهورها وقدرتها على مقارعة الموحدين بسبب ندرة المادة التاريخية عن هذه الحقبة إجمالاً، ويضاف إليها منطقة الجزائر الشرقية؛ وهي تضم ثلاث جزر بحرية[4] في البحر المتوسط بقيت ردحا من الزمن بيد بني غانية[5]، ويفهم من هذا أنّ عبارة "الأندلس" عندما تطلق يجب أن تحدد خريطتها على ضوء معرفة الأوضاع السياسية المراد الحديث عنها.

1- من أشهر المدن الشمالية الكبرى التي سقطت في يد النصارى مدينة بنبلونة سنة 131هـ/748م، وبرشلونة سنة 375هـ/985م، وشلمنقة سنة 447هـ/1055م، ومجريط سنة 477هـ/1084م، وطليطلة سنة 478هـ/1085م، وشنترين سنة541هـ/1146م، ينظر المقري- المصدر السابق -ج1- ص 234، و حسين مؤنس- موسوعة تاريخ الأندلس- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- ط1-1996م-ج1- ص36 وج2- ص ص 381.

2- هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلا الكومي الزناتي، نسبه مؤرخوا دولته إلى قيس عيلان، أصله من تاجرة (تلمسان)، وقد لزم المساجد منط صغره، وبويع بالخلافة بعد وفاة المهدي سنة524هـ/1129م إلى غاية وفاته سنة 558هـ/1162م. ابن أبي زرع – المصدر السابق- ص ص 183-202.

3- هو أبو عبد الله محمد بن سعد الجذامي الشهير بابن مردنيش، استطاع إحكام السيطرة على مدن شرق الأندلس، وتمكن أبو يعقوب بن عبد المؤمن من إخضاعه ومصاهرته بزواجه من ابنته، وقد رجح حسين مؤنس أنّ أصل اسم مردنيش يرجع إلى اللغة اللاتينية (Martinez)، ونقل عن المراجع الإسبانية أنه كان يتشبه في هيئته ولباسه بالنصارى إلى جانب الحديث بلغتهم، ينظر هامش تحقيقه لكتاب الحلة السيراء لابن الأبار- دار المعارف- القاهرة- ط2- 1985م-ج2- ص ص 232-233، وموجز أخبار هذه الإمارة أوردها ابن الخطيب لسان الدين- تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام- تحقيق ليفي بروفنسال- دار المكشوف- بيروت- ط2- 1956م - ص ص 270- 275.

4- وهي ميورقة ومنورقة ويابسة، من جزر البحر المتوسط، وتكبرهم ميورقة من حيث المساحة. ينظر عنها ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص567.

5- أصلهم من قبيلة مسوفة البربرية إحدى قبائل صنهاجة، ينتسبون إلى علي بن يوسف المسوفي أحد رجال يوسف بن تاشفين الذي زوجه من قريبة له تدعى غانية؛ فأنجبت ولدين هما محمد ويحي وعرفا باسم أمهم على عادة هذه القبائل، استطاع بنو غانية التفرد بحكم الجزائر الشرقية بعد سقوط دولة المرابطين، ولم يعترفوا بسلطة الموحدين بحيث؛ أقاموا

وتكمن أهمية العلاقة بين الواقع الميداني للأراضي الأندلسية وجوانب الحياة العلمية وتواصلها بين العدوتين فيما يلي:

- اختفاء النسبة البلدانية للأعلام الذين سقطت مدنهم في أيدي النصارى خلال العهود المذكورة كالطليطلي والمجريطي والشنتريني والشلمنقي وما شابه إلاّ ما كان على سبيل التذكير بأصولهم.

- عدم إضافة أسماء الأعلام الذين انتسبوا لمدن شرق الأندلس والجزر الشرقية إلى الدولة الموحدية؛ كالقضاة والفقهاء والكتاب ومن انتسب للعلم وأهله، وورد التنبيه من أهل التراجم والطبقات بانتسابهم لإمارة ابن مردنيش إلى غاية سقوطها في أيدي الموحدين، والأمر ذاته بالنسبة لبني غانية إلى نهاية حكمهم سنة 599هـ/1203م إلاّ من ثبت تجوالهم بين مدن بلاد المغرب والأندلس، أو تبيّن اتصالهم بالموحدين والالتحاق بمراكزهم التعليمية، ولا خفاء ما لذلك من ارتباط بمسألة الولاءات السياسية والعقدية؛ وهو ما سيتم الوقوف عليه في فصل الحياة العلمية.

التحقيب الزمني لسلطة الموحدين على العدوتين المغربية والأندلسية:

لا يستقيم التأريخ للحياة السياسية والحضارية من دون مجال زمني ومكاني يتعين فيه معرفة بداية الظهور الفعلي للدول ونهايته، وإن اتجهت بعض الآراء إلى حصره فقط في الجوانب السياسية وما تعلق بها للفصل بين الأحداث والوقائع المرتبطة بالسلط الحاكمة للمقارنة بين سياسات الدول في التفاعل معها وإظهار أدوارها، وما تميز به كل عصر، وأما الحياة الاجتماعية والمعرفية وما اتصل بها فليس ثمة ما تدعوا الحاجة إليه لضبط التحقيب الزمني من بداية الظهور إلى الأفول لتداخلها في أحايين كثيرة، والاكتفاء بإلحاقها بالعصر المؤرخ باسم الدولة وموطنها، غير أنّ طبيعة بعض الموضوعات التي تتضارب فيها

الدعوة للخلافة العباسية، واستمر صراعهم مع الموحدين إلى غاية سنة 599هـ/1203م تاريخ سقوط الجزائر الشرقية في أيدي محمد الناصر الموحدي. عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص ص195-231. ابن عذاري- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- قسم الموحدين- تح محمد إبراهيم الكتاني وآخرون- دار الغرب الإسلامي- بيروت- دار الثقافة- المغرب- ط1- 1985م - ص ص183-240. وينظر تفصيل تسميتهم عند حسين مؤنس- المرجع السابق-ج2- ص117.

روايات أخذ البيعة والإقرار بفروض الطاعة والولاء تفرض نوعاً من التحري في تزمين المراحل الانتقالية للخروج من دائرة التعميم في التوصيف التاريخي المطلق؛ وهو ما ظهر جليا في تاريخ العلاقات بين العدوتين المغربية والأندلسية، وبروز الحاجز الجغرافي بينهما في خضم الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة منذ العهد الأموي.

تكمن أهمية هذه الحيثيات في تتبع مصائر التدرج بين القوة والضعف عند تأسيس الدول وانهيارها؛ ولذلك خصّها ابن خلدون بنظريته الشهيرة حول نشوء الدول المستجدة على أنقاد تلك المستقرة، وساق من أمثلته ما حدث للموحدين مع من سبقهم من الأمم "وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقّصوه من أطرافها"[1]، ومصير نهاية عهدها حين "أدركها الهرم والضعف فإنّما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف"[2].

تظهر إشكالية تحديد الفترة الزمنية وتحقيبها بالنسبة للدولة الموحدية في فترات ضعفها وبداية انّفصال أقاليمها، علماً أنّه لا خلاف في تحديد تاريخ البداية الرسمية لكيان الدولة من خلال معرفة سنة دخول الموحدين إلى حاضرة المرابطين "مراكش" وسقوطها بأيديهم سنة 541هـ/1146م، وإن سبقت مبادرة اتصالهم بالعدوة الأندلسية لهذه السنة[3]، غير أنّ تاريخ فك الارتباط عنها ينتابه الغموض، وتتضارب حوله الروايات بسبب نشوب الفتن بداية من سنة621هـ/1224م، وتواصلها لعقد من الزمن حسب ما رصده المؤرخون وأهل التراجم، وتقديم ما يبرر ترجيح اختيار سنة 626هـ/ 1228م تاريخ خروجها عن سلطتهم وانبعاث الصراع داخل البيت الموحدي على ما بقي تحت لوائهم من حواضر بلاد المغرب إلى غاية السقوط النهائي لدولتهم على يد المرينيين سنة 668هـ/1269م؛ فما السبب وراء التنبيه على هذا التاريخ بالذات للفصل السياسي بين العدوتين المغربية والأندلسية في الوقت الذي

1- ابن خلدون- المصدر السابق- ج1- ص 373.
2- المصدر نفسه- ص 203.
3- أشار ابن أبي زرع إلى أن سنة 539هـ/1144م ملك فيها الموحدون مدينة شريش الأندلسية وخطب لهم بها، بينما أورد ابن عذاري أنّ أول خطبة خطبت لعبد المؤمن بن علي في الأندلس كانت سنة 540هـ/1145م. ينظر على التوالي الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط - (د ط)- 1972م- ص 262، والبيان المغرب- المصدر السابق- ص 34.

تتضارب فيه السنوات المقترحة في عناوين أبحاث الباحثين المحدثين[1]- سيرد ذكرها في مضامين هذه الدراسة – أو يتم التخلي عن التحقيب الزمني خروجاً من الخلاف مما يصعب على الباحث تعيين تاريخ محدد يعتمد عليه؟

حصر الروايات التاريخية ونقدها:

إنّ الهدف من جمع الروايات وإعادة تفريغ نصوصها وترتيب سنواتها هو معرفة مواطن الاختلاف بين المؤرخين والرواة حول بداية فك الارتباط بين العدوتين المغربية والأندلسية، والوقوف على دواعي تحديدها بسنة 626هـ؛ وهو ما يفتح المجال لأجل رصد تداعيات هذا الاختيار على المستويين السياسي والعلمي.

ذكر ابن عذاري أنّ في سنة 626هـ بدأ ظهور أبي عبد الله محمد بن هود[2] في الأندلس، وطاعت له "أكثر بلادها ورؤسائها وأنجادها وخعلوا طاعة الموحدين عنها وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلاّ من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم"[3]، وانفرد ابن أبي زرع بتحديد شهر ذي القعدة الذي بايع فيه أهل الأندلس ابن هود، وقاموا بإخراج الموحدين من السنة ذاتها[4].

من جهة أخرى أثبت لسان الدين بن الخطيب خروج أبي العلاء إدريس المأمون بن المنصور الموحدي[5] (624-629هـ/1226-1231م) من الأندلس سنة 626هـ قاصدا

1- يظهر ذلك بشكل واضح في عناوين الكتب والرسائل الجامعية المقيدة بقسم البيبليوغرافيا، ويذكر منها كأنموذج دراسة الباحث مصطفى أبو ضيف أحمد عمر- القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين والمرينيين، وعنوانها لا يتطابق مع شرحه للمصطلح في بابها الأول- ينظر بحثه من طبعة ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-(دط)-1982م- ص27.

2- هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي، وقد شكك ابن سعيد في انتسابه إلى بني هود ملوك سرقسطة، وخصّه ابن الخطيب بالترجمة، وأنه ملك بعد الموحدين مرسية و قرطبة وإشبيلية وغيرها، وكان يدعى بأمير المسلمين ويلقب بالمتوكل على الله، وساء حاله في آخر حياته وتوفي مغرباً عن وطنه في مدينة آسفي. ينظر ابن سعيد – المغرب في حلى المغرب- تح شوقي ضيف- دار المعارف- القاهرة- ط4- 1995م- ج2- ص251، وابن الخطيب- المصدر السابق- ص 279.

3- ابن عذاري- المصدر السابق- ص 288.

4- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 275.

5- هو أبو العلاء إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، بويع بالخلافة في إشبيلية سنة 624هـ/1226م، وهو أديب وشاعر بليغ، أشاد بذكره ابن الخطيب وأفرد له ترجمة خاصة في الإحاطة، وقد اختلف في سنة وفاته فقيل 629هـ/1231م، وقيل 630هـ/1232م. ابن عذاري- المصدر السابق- ص 274. الإحاطة في أخبار غرناطة- ضبط وتقديم- يوسف علي الطويل- دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 2003م- ج1- ص 222.

مراكش، ودخوله في أتون الفتنة التي حدثت بين أبناء عمومته، والتي انتهت بوفاته[1]، والرواية ذاتها عند صاحب "تاريخ الأندلس"، ونص حديثه عن ابن هود "واستجابت له أقطار الأندلس فبايعه جميعها ودخلت في طاعته، وخطبت له جميع منابرها؛ وذلك في أول سنة 626هـ"[2]، وتتفق معها رواية ابن خلدون؛ بحيث أورد هو أيضاً السنة نفسها التي استولى عليها ابن هود على الأندلس" وأخرج منها سائر الموحدين، وقاتلتهم العامة في كل مكان"[3].

الظاهر من بين هذه الروايات أن مؤرخي القرن الثامن كانوا مجرد ناقلين للأحداث عن من سبقهم؛ ووقع الخلاف بينهم في ثورة أهل الأندلس بين سنتي 625 و 626هـ، والسنة التي توفي فيها أبو العلاء المأمون، وإن لم يختلفوا في سنة خروجه من الأندلس، ولذلك فالرواية الأرجح بين هذه الروايات هي تلك التي عاصر أصاحبها تلك الأخبار، وكانوا شهود عيان لتفاصيل وقائعها؛ ومنهم: المؤرخ والكاتب ابن عسكر المالقي (ت636هـ/1238م) صاحب كتاب "أعلام مالقة" الذي قدم لنا ترجمة وافية عن ابن هود ووقف على تاريخ مبايعته باليوم والشهر و السنة، حين وصفه قائلاً: "انتظمت له البلاد واتّفقت الأقطار على مبايعته والدخول في دعوته؛ فبايعه الناس في بلاد الأندلس، وخلعت دعوة الموحدين منها، وذلك في عام 626هـ"[4]، وظهرت نصوص روايات الكتاب أكثر ترتيباً؛ بحيث رتّبت الخطوة التي أقدم عليها ابن هود قبل بيعته في مدينة مالقة[5] عندما عيّن أحد أعيانها قاضيا عليها في العام ذاته[6]، وما يؤكد ضبطه للحقبة الزمنية لهذه الأحداث هو تفصيله للبيعة العامة من أهل مالقة لابن هود التي تأخرت إلى "يوم الإثنين 29 من شعبان من العام بعده، فأول جمعة أقيمت لدعوته ودعوة العباسيين كانت في 4 من رمضان من

1- ابن الخطيب- الإحاطة في أخبار غرناطة- ضبط وتقديم- يوسف علي الطويل- دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 2003م- ج1- ج1- ص 223.

2- مؤلف مجهول- تاريخ الأندلس - تحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 2007م- ص 265.

3- ابن خلدون- المصدر السابق- ج6- ص 341.

4- ابن عسكر، أبو عبد الله محمد الغساني وابن خميس، أبو بكر محمد - أعلام مالقة - تح عبد الله المرابط الترغي- دار الغرب الإسلامي ودار الأمان- الرباط - ط1- 1999م- ص 174.

5- مدينة بالأندلس على شاطئ البحر عليها سور من صخر، وهي حسنة عامرة في غاية الحصانة والمنعة، وبها مبانٍ فخمة وحمامات حسنة وأسواق جامعة. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص ص 517- 518.

6- هو القاضي محمد بن الحسن بن محمد الجذامي المالقي يكنى أبا عبد الله، من حسباء مالقة وأعيانها، عرف بنظمه للشعر، وتولى قضاء مالقة أيام بن هود إلى غاية وفاته بغرناطة سنة 631هـ/1233م. المصدر السابق- ص 165.

العام المذكور"[1]، ويمكن أن يفسر ذلك بالبعد الجغرافي لمدينة مالقة في أقصى جنوب الأندلس، وقربها من بلاد المغرب.

وأما من تأتي روايته في المرتبة الثانية من حيث الترتيب الزمني؛ فهو المؤرخ ابن سعيد الغرناطي (ت685هـ/1286م) الذي عاصر هذه الأحداث وأثبت في كتاباته ما يدل على ذلك؛ حين صرّح برؤيته لشخص ابن هود ومعاصرته له بقوله: "وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة"[2]، وحدد بداية الاضطرابات "ولما كانت سنة 625هـ وثارت الأندلس على مأمون بني عبد المؤمن بسبب قيام ابن هود"[3]، ثمّ أثبت ظهور الثورة على الموحدين وخروج أبي العلاء المأمون عن الأندلس بقوله: "وصفا الأمر لأبي العلاء بالمغرب دون الأندلس، ثمّ مات سنة 630هـ"[4]، مما يجعل تقديم روايته أولى من رواية من تأخر عنه.

أما الروايات التي اعتمد عليها بعض الدارسين المحدثين في حصر تاريخ خروج الأندلس عن سلطة الموحدين عسكريا وسياسيا، وتأثر علاقتهم بالمجتمع في العدوتين الأندلسية والمغربية؛ فهي تختلف باختلاف مغزى ما تشير إليه أحداث كل سنة؛ فمنهم من توقف عند سنة 609هـ/1212م تاريخ انهزام الموحدين في معركة العِقاب[5]، وبالرغم من أنّ هذه المعركة أحدثت خللاً في ميزان القوى بين المسلمين والنصارى، وكانت لها انعكاسات سلبية على الحياة السياسية والاجتماعية في المغرب الإسلامي إلاّ أنّها لم تقطع صلة الدولة بأقاليمها، ولم تؤثر على الوجود العسكري للموحدين في الأندلس ممثلاً في الجيوش التي بقيت مرابطة في المناطق الغربية منها، وصمدت في الدفاع عن المدن

1-ابن عسكر وابن خميس- المصدر السابق- ص 174.
2- المقري- أبو العباس أحمد- نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب- تحقيق إحسان عباس- دار صادر- بيروت- (د ط)- 1988م -ج1- ص 222.
3- المصدر السابق-ج4- ص 464.
4- المصدر نفسه - ص 384 وص 464.
5- اعتبر الباحث محمد العمراني أنّ موقعة العِقاب في الأندلس سنة 609هـ/1212م - انهزم فيها المسلمون بقيادة محمد الناصر وكانت الغلبة للنصارى- هي تاريخ نهاية القوة العسكرية للمسلمين في الأندلس في الفترة الموحدية، غير أن ذلك لا يقوم دليلا على هذا التحقيب؛ وبخاصة أنه ربط موضوعه بعلاقة الدولة بالمجتمع، بينما تتحدث الروايات عن استمرار الرابطين معا لأزيد من عقد من الزمن. تنظر دراسته: الموحدون في الأندلس، الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع (541-609هـ/1147-1212م)- أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ غير منشورة - جامعة محمد الخامس أكدال- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط -2002-2003م- ص ص 17-36.

الأندلسية بعد هذه المعركة؛ وهي بذلك محطة من محطات سجال الحروب بين المسلمين والنصارى في الأندلس بدليل ما أكد عليه صاحب الروض المعطار عن "وقعة الحمار" نسبة إلى "موضع من عمل إشبيلية كانت فيه وقعة للمسلمين على النصارى، وذلك سنة 610هـ"[1]، وفيها واجه المسلمون جيوش ممالك الشمال النصرانية التي زحفت نحو المناطق الغربية للأندلس "فخرج السيّد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن صاحب إشبيلية بعسكر الأندلس الوافر الذي لم تلحقهم معرة العِقاب في السنة الماضية"[2] ثمّ أورد مجرياتها وآلاف من قتل فيها، وختم بالقول: "وكانت وقيعة تُحُدّثَ بها زمانًا، وما زال أهل إشبيلية يعتزون بما اتفق فيها"[3].

هناك من اتخذ من سنة 630هـ/1232م تاريخاً لنهاية الوجود الموحدي لأنها السنة التي توفي فيها المأمون بن المنصور- حسب إحدى الروايات- وبداية نشوب الصراع الداخلي في بلاد المغرب والذي مهد بدوره إلى ظهور النزاعات الإنفصالية بين أمراء البيت الموحدي، وهذه السنة - مع ورود الاختلاف حولها- لم ترد أصلاً ضمن الروايات السابقة، ولا تقوم مقامها.

أما من أوصلها إلى سنة 635هـ/1237م فمن أجل التأكيد على عودة الأندلس إلى سلطة الموحدين[4]؛ ومن نصوصها ما ذكره ابن سعيد من أنّه بعد وفاة المأمون عُقدت البيعة لابنه عبد الواحد الرشيد[5] "وبايعه بعض أهل الأندلس"[1]، غير أنّ صيغة التبعيض التي أوردها

1- ربط ابن عبد المنعم الحميري بين روايات هذه المعارك، ورتبها ترتيبا كرونولوجيا بداية بانتصار محمد الناصر على النصارى في معركة شلبطرة سنة 608هـ/1211م، ثم انهزامه في العِقاب سنة 609هـ/1212م، والعودة إلى الانتصار في وقعة الحمار سنة 610هـ/1213م. المصدر السابق- ص ص344- 611، ومن الغريب أنّ ابن عذاري تجاوز هذا الحدث ولم يشر إليه. المصدر السابق- ص 265.

2- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 612.

3- نفس المصدر والصفحة.

4- ذكرت سنة (635هـ) عند ابن الخطيب في أعمال الأعمال على أنها السنة التي دخل فيها المأمون إلى الأندلس عند مواجهته لابن هود، وابن الخطيب هو ذاته من أورد أنّ وفاة المأمون كانت سنة 630هـ مما يعني أنه خطأ من النساخ دون أن يشير إلى ذلك المحقق ليفي بروفنسال، و لم يتنبه أيضا سيد كسروي حسن لهذا الخطأ عندما أعاد تحقيق الكتاب. تنظر نشرة ليفي بروفنسال - المصدر السابق- ص 279. وطبعة دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2003م- ج2- ص 248.

5- هو أبو محمد عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس المأمون بن أبي يوسف يعقوب المنصور، بويع له بعد وفاة أبيه المأمون، وعرفت فترة توليه اضطرابات سياسية عديدة إلى غاية وفاته سنة 640هـ/1242م. ابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 299-359.

تتضح أكثر عند ابن أبي زرع وابن عذاري وابن خلدون الذين تتفق روايتهم على أنّ وفداً من أهل إشبيلية بزعامة أبي عمرو بن الجد[2] اتجه إلى العدوة لمبايعة الرشيد بعد نشوب الثورة فيها ضد ابن هود، وهناك رواية تعود للعصر الموحدي تثبت أنه بويع بعد وفاة أبيه بيعة خاصة لا عامة، وحسب سياق هذه الروايات فإنّ ولاء فئة من المتنفذين للموحدين هي التي كانت وراء محاولة إعادة الدعوة الموحدية وإحيائها؛ وبخاصة أنّ والده المأمون عمل منذ سنة 626هـ/1228م على تغيير رسوم الدعوة؛ ولا يستبعد معها إرباكه للطلبة وأنصار سلطته بإعلانه زوال العقيدة التومرتية التي خط معالمها ابن تومرت[3](ت524هـ/1129م) داعية الموحدين وإنكار عصمته ومهديته، وإسقاط اسمه من الخطبة، بينما خالفه ابنه عبد الواحد الرشيد فأعاد الأمر على ما كان عليه في محاولة لإعادة إحياء تلك الرابطة الشرعية غير أنها باءت بالفشل[4].

تزامنت هذه الظروف مع ظهور أمير أندلسي طموح عمل على جمع كلمة الأندلسيين تحت رايته في ظل غياب سلطة توحد صفوفهم عرف باسم ابن الأحمر[5] غير أنّ الأحداث العصيبة والمضطربة التي مرت بها الأندلس خلال ثلاثينيات القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي فرضت عليه عدم قطع صلته بحكام بلاد المغرب؛ فكان يدعوا لأمرائهم على المنابر طلباً للعون والمدد سواء من ممثلي سلطة الموحدين في مراكش ثمّ من الحفصيين في

1- المقري- المصدر السابق- ج4- ص 384.

2- لم أقف على ترجمته، وكل ما ورد عنه أنه كان أحد موظفي الدولة الموحدية في إشبيلية، وذكر بعد ذلك في أحداث سقوط مدينة إشبيلية.

3- هو محمد بن عبد الله المعروف بان تومرت، وقد رفع مؤرخوا الدولة الموحدية نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونقل ابن أبي زرع عن غيرهم أنّه دعي في هذا النسب، وأنّه رجل من هرغة إحدى قبائل المصامدة، بينما تمسك ابن خلدون بصحة نسبه الشريف، رحل ابن تومرت في طلب العلم إلى بلاد المشرق، وعند عودته أعلن الثورة على المرابطين وتسمى بالمهدي وادعى العصمة سنة 518هـ/1123م، ووضع لأتباعه مناهج فقهية وعقدية مستنبطة من الكتاب والسنة، وبعد وفاته سنة 524هـ/1129م استمر خلفاؤه بالدعاء له في المنابر والمحافل بالمهدي المعصوم، ونشروا كتبه وآراءه. ينظر عن حياته ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 172، وابن عذاري- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب- تح بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد- دار الغرب الإسلامي- تونس- ط1- 2013م- ج3 - ص ص 55-70، وابن خلدون- المصدر السابق- ج6- ص 371.

4- ابن خلدون- المصدر السابق- ص 381.

5- هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي الأنصاري، ملك مدينة غرناطة عام 635هـ/1237م، مؤسس الدولة النصرية، وقد استمر في ولايته إلى غاية وفاته سنة 671هـ/1272م،ابن الخطيب- اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية- نشره محب الدين بن الخطيب- المطبعة السلفية- القاهرة- (دط)-1347هـ/1928م- ص ص21-22، و- أعمال الأعمال- ص278.

إفريقية[1] بحكم الخطر النصراني الذي كان يهددهم، وتوالي سقوط المدن الأندلسية الكبرى في أيديهم[2].

نخلص من هذا العرض للروايات أنّ خروج إدريس المأمون الموحدي من الأندلس في سنة 626هـ/1228م وقيام الثورة في مدنها كان بمثابة إعلان نهاية الوجود العسكري والسياسي للموحدين في الأندلس، ولم يثبت بعد هذا التاريخ أن وطأها خلفاء الدولة وولاتها بما في ذلك مدينتهم المفضلة إشبيلية.

تكمن أهمية إعادة ترتيب هذه المعطيات في تتبع الأحداث السياسية بين الأندلس وبلاد المغرب في التحديات التالية:

- إمكانية استمرار الدعوة الموحدية والإقرار بالولاء لها، وعلاقة السلطة على اختلاف توجهاتها السياسية والعقدية بالمجتمع الأندلسي في خضم التغيرات التي عرفتها الدولة في الثلث الأول للقرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وتأثيرها في الحياة العلمية على وجه التحديد.

- القدرة العسكرية للموحدين على مواجهة التمردات، وأهمية الربط بين البعدين السياسي والعلمي في مقاربة التواصل التاريخي بين العدوتين.

- معرفة مصير العصبية القبلية ممثلة في قبيلة المصامدة ومن انضوى تحت لوائها من القبائل البربرية والعربية التي تم توطينها بداية من النصف الثاني للقرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي[3]؛ واستمرار ظاهرة استيطان هذه القبائل لمختلف المدن والحواضر الأندلسية على مدار فترة قاربت القرن من الزمن، وخلالها أنشأت بعض المدن والقصبات

1- ابن الخطيب- اللمحة البدرية- ص34. ابن خلدون- المصدر السابق- ج6- ص396.
2- منها سقوط جزيرة ميورقة سنة 627هـ ومدينة قرطبة سنة 633هـ/1235م، و بلنسية سنة 636هـ/1238م.
3- أشار البيدق إلى عمليات التوطين المتعمدة التي لجأ إليها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في المدن الأندلسية لتأمين استقرار المناطق الثائرة، تنظر أسماء هذه القبائل في كتابه أخبار المهدي بن تومرت- تح عبد الحميد حاجيات- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر- ط1- 1975م- ص 136.

لتأمين استقرارها[1] "فظهرت شريحة اجتماعية جديدة مسيطرة حلت مكان تلك الشرائح القديمة"[2]؛ وهو ما أسهم إجمالاً في تعدد ذكر أسماء أعلام المغاربة في الأندلس، وفي المقابل سجل ارتفاع في أعداد من دخل من الأندلسيين إلى بلاد المغرب عند تتبع سير حياتهم في مصنفات طبقات العلماء والأعيان؛ وهو ما سيتم الوقوف عليه في ثنايا هذه الدراسة.

أهمية الإحصاء الكمي في بنية التراكم المعرفي:

إنّ اختيار مصطلح "الروابط العلمية" ضمن فواصل الحدود التعريفية المقترحة بعنوان الدراسة إنّما فرضته طبيعة الموضوع الذي يرتكز بالأساس على مفهوم التواصل العلمي بين صقعين مختلفين جغرافياً وحضارياً، وفيه ما يشير إلى معنى الرابطة والوحدة التي كانت إحدى الأهداف التي بُنيت عليها الدعوة الموحدية في بعديها السياسي والحضاري، وأنّ نهجها الديني الذي سلكته ضاعف من قوة عصبيتها[3] التي رسخت منذ بداية الظهور الفعلي للدولة المحتظنة من وفور قبائلها، والمتميزة برسومها وتنظيماتها، واستفادتها من الزخم العلمي والحضاري الموروث عن العهود السابقة والبناء عليه ضمن مسار التراكمية المعرفية.

وأبلغ ما يستشف من المركب اللفظي "الروابط العلمية": هو معرفة مدى انسياب حركة تداول المعارف والفنون بين حواضر بلاد المغرب والأندلس في العصر الموحدي، هذه الحركية الفعّالة التي اختار لها ابن خلدون في رصده لتاريخ العلوم تعبير يتناسب مع هذا الوصف ويؤكده؛ وهو اتصال سند التعليم أو انقطاعه[4]، وأفرد لها غيره من أهل التراجم

1- من أشهرها بناء قصبة إشبيلية سنة 543هـ/1148م، ومدينة جبل الفتح التي أنشأها عبد المؤمن بن علي بجبل طارق سنة 555هـ/1160م، وعميات التوسعة التي عرفتها المدن الأندلسية في فترات أبنائه وأحفاده. ينظر عنها ابن عذاري- المصدر السابق- ص 39، و ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة و جعلهم الوارثين- تح عبد الهادي التازي- دارالأندلس للطباعة والنشر- بيروت- ط1- 1964م- ص137.
2- عز الدين موسى- الموحدون في الغرب الإسلامي- تنظيماتهم ونظمهم- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1-1991م ص213.
3- ابن خلدون- المقدمة -ج1- ص 198.
4- المصدر السابق- ص544.

مصطلح "التجول"[1] للتعبير عن كثرة ارتحال العلماء وتنقلهم بين المدن، وأنّ اختيار مصطلح "العلمية" إنّما ورد لتوافقه مع التعابير المتفق عليها في المضامين النصية للأندلسيين والمغاربة في العصر الوسيط؛ بحيث قد يعتري غيرها القصور حين إطلاقها كمفاهيم للتعبير عن العلوم على اختلاف أنواعها، وهي عندهم أشمل لفظ استعمل للتعبير عن "الأفانين التي يطلق عليها في قديم الدهر وحديثه اسم العلم والعلوم"[2].

توالى هذا اللفظ وتكرر في تضاعيف مدوناتهم فظهرت مصطلحات "المجالس العلمية" و"المادة العلمية"[3]، و"الحلق العلمية" وما يناقش فيها من "المسائل العلمية"[4]، وغيرها من "فنون المقاصد العلمية التي يحرص الأفاضل على نيل بعضها من أكابر شيوخهم"[5]، وظهر هذا الإجماع الإصطلاحي وعمّم استعماله بين أهل العلم من دون أن يعوزهم القصور إلى ألفاظ أخرى تأكدت وفرتها المعجمية، ولذلك ألحق بها ابن خلدون جميع ما ارتبط بموضوعاتها من مظاهر المعرفة، لاستجلاء مقاربة توضح المجال والغاية من الملكة العلمية[6]، وأضحى بذلك "شعار العلمية"[7] يطلق ويراد به عموم العلوم النقلية والعقلية.

أفضل طريقة يمكن الاعتماد عليها في تقريب صور التواصل العلمي بين بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الموحدي؛ هو اتباع مسلك البيانات الإحصائية الوصفية لتاريخ العلوم والمعارف وما دوّن حولها، والإحاطة بتداعياتها وأبرز مظاهرها في الحياة العلمية، ومعرفة أعلام العصر بحسب علومهم ومراتبهم وإنتاجاتهم، وما اتصل بسّيرهم ومكانتهم في المجتمع، والوقوف على مختلف المناهج المطبقة في المراكز التعليمية، وأنواع الطرائق المتعارف عليها بين الشيوخ في عمليات التلقين المعرفي وما خبروه على مدار السنين المتعاقبة في الأندلس وبلاد المغرب.

1- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص 48.
2- ابن حزم، أبو محمد علي- رسائل ابن حزم الأندلسي- تحقيق إحسان عباس- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت-ط2- 1983م- ص81.
3- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد- التكملة لكتاب الصّلة- تح عبد السلام الهراس- دار الفكر- بيروت- (د ط)- 1995م- ج2- ص 65. ابن خلدون- المصدر نفسه- ص 546.
4- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ص 171
5- المصدر نفسه- ص 172.
6- ابن خلدون- المصدر السابق- ص 545.
7- المصدر نفسه- ج5- ص 346.

ومن أبرز السمات التطبيقية لهذا المنهج في دراسة الظواهر العلمية في العهد الموحدي:

- توثيق أسماء الأعلام حسب تخصصاتهم (عناصر تتوافق سنوات وفاتهم مع العصر المؤرخ).

- توثيق المدوّنات وتصنيفها (نماذج لعيّنات من الكتب على اختلاف موضوعاتها).

- ترتيب المراكز التعليمية ومعرفة مواضعها الجغرافية فيما يتناسب مع معالم الحدود السياسية للدولة الموحدية.

- القدرة عل الربط بين البعدين الحضاري والسياسي.

ولا مناص من العودة إلى النصوص والوثائق المصدرية للوقوف على ما يمكّن الباحث من استخلاص آراء تدعم أصل مذهبه في البحث، ومنه يتم توثيق نصوص الموارد الأصلية المرتبطة بالفترة الموحدية والمقارنة بينها في العملية الاستدلالية.

تأتي كتب التراجم على قمة سلم الوثائق المصدرية التي سيتم الاعتماد عليها بشكل كبير لسبر غور محاور هذه الدراسة؛ وذلك لارتباطها الوثيق بالنشاط المعرفي للأعلام المترجم بهم سواء تعلق الأمر بإسهاماتهم في الميادين التعليمية أو إنتاجاتهم المجسدة في مختلف المصنفات والرسائل العلمية.

والواقع أنّ هذا النوع من الأساليب المنهجية يتوافق إلى حد كبير مع مصادر التراجم التي تعتمد على الإيجاز في توفير المعلومات الإحصائية عن أعلام العلماء بداية بأصل التسمية والنشأة العلمية، وربطها بالانتماء الجغرافي ثمّ الإسهام العلمي والحضاري، وتختم بذكر سنة الوفاة؛ وهي المعيار الذي يضبط على أساسه عصر الشخص المترجم به.

على الرغم من أنّ هذه المعطيات إيجابية بالنسبة للباحث عن الحياة العلمية في مجمل حواضر بلاد المغرب والأندلس إلاّ أنّ لها جوانب سلبية أخرى تعود بالأساس إلى شروط التأليف المنصوص عليها في ثنايا كتب السواد الأعظم من أهل التراجم - أكثرهم من أهل الأندلس- الذين أفردوا الترجمة لأهلهم دوناً عن غيرهم، واعتبروا من وفد إليهم وإن

استوطن أرضهم من الغرباء وعلى هذا الأساس تم تصنيفهم، في حين أخملوا ذكر غيرهم من المغاربة وإن كانوا من ذوي العلم والنباهة لمجرد أنهم لم يدخلو الأندلس، في حين أثبتت التراجم انتقال طلبة الأندلس إليهم للرواية عنهم؛ ولهم بذلك يد في الروافد المكونة للحياة العلمية بالعدوة الأندلسية.

من بين الدراسات التي اهتمت بالعطاء المعرفي للعلماء سواء تعلق الأمر بالحركة التأليفية، أو القيام بمهنة التدريس ونشر العلوم على مدار الحقبة الزمنية الممتدة بين القرنيين الخامس والسابع الهجريين الحادي عشر والثالث عشر ميلاديين (5-7هـ/11-13م)؛ هي الدراسة الأكاديمية للباحث الفرنسي دومنيك إرفوي الموسومة بـ"عالم علماء الأندلس"، والتي اتّبع فيها منهج الإحصاء الرقمي والبياني لإعطاء صورة عن حال الحياة العلمية، وإسهام العلماء فيها من حيث أعدادهم وتوزيعهم الجغرافي، غير أنّ نتائج هذا النوع من الأبحاث تبقى محدودة في ظل اعتمادها على الأرقام والبيانات -على اختلاف أنواعها- وتجريدها الكلي من الوثائق والقرائن النصية، إضافة إلى عدم وضوح صورة التواصل الحضاري مع بلاد المغرب في الحقبة التي تحولت فيها الأندلس إلى مجرد إقليم تابع إداريا لمدينة مراكش، وتغيرت على إثر ذلك جملة من المعطيات الحضارية والبشرية مع تولي المرابطين ثمّ الموحدين[1].

توالت بعد هذه المرحلة العديد من الدراسات ضمن ذات التحقيب الزمني واستندت إلى العمليات الإحصائية لمختلف العلوم الشرعية واللسانية وما اتصل بها أو تفرع عنها من فنون علمية كالفهرسة والتوثيق أو ظواهر اجتماعية كظاهرتي التصوف وهجرة العلماء - وسيتم الوقوف على العديد منها في فصول هذا البحث- غير أنّ الأندلس حازت النصيب الأوفر من مجمل هذه الموضوعات، ولم يظهر معها دور أهل بلاد المغرب بالقدر الذي نالته الأندلس وأهلها؛ ولذلك ارتكزت مقاربة هذه الدراسة على محاولة التوفيق بين المحاور المنهجية والموضوعاتية الثلاثة:

1- Dominique Urvoy : Le Monde des Ulémas Andalous du V/XI^{e} au VII/ XIII^{e} siècle, librairie droz, Genève- 1978 , PP 139-181.

- الاستعانة بالعمليات الإحصائية والوصفية للظاهرة العلمية في العصر الموحدي.
- الربط بين العدوتين المغربية والأندلسية فيما اتصل بالمعارف والعلوم دون إغفال لبعدها السياسي.
- التنويع في نصوص ووثائق المصادر المطبوعة والمخطوطة التي تعود إلى الحقبة الموحدية أو قريبة عهد بها.

يكاد يجمع السواد الأعظم من الباحثين- على اختلاف أجناسهم ومدارسهم الفكرية- عن دور الحضارة الإسلامية الغنية بقيمها الروحية ومظاهرها المادية في تطوير مناهج البحث والرفع من مستويات التفكير لقرون من الزمن خدمة للحضارة الإنسانية، وبعيداً تماماً عن ضروب التهويل والتخويف التي تتخندق خلفها بعض الأبواق المشككة في الإنتاجات المعرفية للمسلمين؛ بل وفي الإسلام ذاته، هذه الحضارة التي ارتكزت في انطلاقها على المعاني السامية لوجوب نفاذ أمر الظاهرة العلمية المختزلة في الفعل "إقرأ"، ومن الملاحظ أنّها لازالت تثير اهتمام من تعلّق بموروثها المصدري المخطوط من حيث التنقيب عنه والكشف عن قيمته العلمية في إعلان عن استمرارية عطائها المتجدد، وقد وقع الاختيار على حلقة من تاريخها الطويل تبحث في تاريخ العلوم واتصالها بين الشعوب بمعالم زمنية ومجالية محددة سميتها **"الروابط العلمية بين بلاد المغرب والأندلس على عهد الموحدين (541-626هـ/1146-1228م)"** ضمن مقاربة تاريخية الهدف منها الكشف عن سبل ومظاهر التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، وفي اعتماد المؤرخين والجغرافيين لمصطلح "العدوتين" أكثر من دلالة تعبيرية على القرب وسهولة الرحلة بالرغم من التباين التاريخي والجغرافي والاجتماعي بين الصُقعين.

ومن دواعي اختياري لهذا الموضوع:

- اهتمامي بتاريخ المغرب الإسلامي وحضارته عامة، وتعلقي بتتبع مختلف العلوم والفنون و حركيتها عبر التاريخ.

- محاولة الوقوف على أبرز جوانب الإسهامات الحضارية والعلمية للمغاربة والأندلسيين ضمن مقاربة الروابط العلمية ومعرفة مدى نجاعتها، وإعادة ترتيب مختلف المعطيات والنصوص التاريخية لاستنباط آراء ومفاهيم أقرب لفحوى هذه الوثائق المصدرية بعيداً عن التأويل وتحميل النص ما ليس فيه.

- محاولة رصد آراء المؤرخين والباحثين عن الوتيرة التنافسية الحاصلة بين العدوتين، وتدافعها الحضاري، ومدى تأثرها بالتحولات السياسية والاجتماعية في ظل الهيمنة الموحدية على مشاهدها التنظيمية ذات الأبعاد العقدية والمذهبية.

تفرض طبيعة الموضوعات ذات المسالك المتداخلة الاستفهام عن التأثيرات السياسية للسلطة الموحدية في مشهد الحياة العلمية، وكيفية تفاعل المصادر والموارد المرافقة لهذه الحقبة الزمنية أو القريبة منها مع ما اشتهر من العلوم في المرحلة الوسيطية والطبائع المصاحبة لمنتحلها من حيث الإثبات والنفي أو الإقبال والنّفور ومبرراتهما ؟ ويتفرع عن محورها محاولة الإجابة عن مدى تأثر هذه المعارف بتداعيات الأنماط الاجتماعية والتاريخية التي عرفتها المنطقة؟ وما أبرز تأثيراتها في ذهنية العالم والمتعلم وفرص تواصلهما من عدمه بين بلاد المغرب والأندلس سواء لمن اهتم بالنقليات أو العقليات منها ؟ وهل ثمة ما يفيد في معرفة دوافع ظهورها وانتشارها أو معوقات انحسارها وأفولها؟

ومن هنا تتضح أهداف الموضوع في إمكانية التعرف على تأثير الأبعاد السياسية والاجتماعية بظهور الحكام المغاربة في إدارة الدولة المشرفة على الشؤون العامة للسكان، وربطه بالأبعاد و الاعتبارات المعرفية للعناصر المعنية بالدراسة ممثلة في نخبة المجتمع وأعيانه، وتتبع ذكر أعلام العلماء في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتب التراجم ومحاولة تحديد فوارق المجال الجغرافي بين الأندلسيين والمغاربة، ثم مقارنتها بعهودهم السابقة عن الفترة المدروسة.

نظراً إلى طبيعة الموضوع المركبة وتعدد مسالك أبعادها السياسية والعلمية آثرت الاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي في تتبع الأطوار التاريخية التي مرّت بها حركة التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، ودعمه بالمنهج الإحصائي الكمي لأجل سبر غور إسهام الأعلام ومعرفة أسمائهم ومراتبهم العلمية ومواطن استقرارهم؛ وهو ما حتم إدراجهم ضمن جداول إحصائية جمعت بين التحقيب الزمني والمجال الجغرافي للأعلام المترجم بهم، مع الوقوف على إنتاجهم العلمي وإسهامهم الحضاري، والغاية من ذلك هو الاطلاع على مدى فعالية مبادراتهم الفردية والجماعية في انتقال العلوم ونشرها بين ضفتي المتوسط، ورصد دور السلطة الموحدية في الأحداث التي رافقت الظاهرة العلمية ذات الشهرة الواسعة بالمجتمعات الإسلامية في الحقبة الوسيطية على اختلاف تجلياتها ومشارب روادها.

تعددت الأبحاث التي رصدت مختلف مناحي الحياة السياسية والعلمية في بلاد المغرب والأندلس في عصر الدولة الموحدية؛ غير أنّ ما وقع بين أيدينا منها لا يكاد يظهر بالشكل والمضمون اللذين ظهر بهما الصُقع الأندلسي وأهله لاسيما حركة تنقل العلماء- في شمول استغراق هذا الجمع لأهل العلم ومن انتسب إليهم- من أهل العدوتين ضمن هذا المجال الجغرافي، وما من تفسير واقعي ومقنع لاهتمام جمهرة من الباحثين المحدثين بالأندلس إلى درجة الانبهار ومنذ ثلاثينيات القرن الماضي إلاّ لأنهم أحيطوا بزخم تراثي مشبع ومتنوع بعطائه العلمي والحضاري المستفاد من رسوخ أقدام المسلمين فيها زهاء الثمانية قرون.

الظاهر من هذا التفوق الأندلسي - منذ العهد الأموي- وما قابله من تأخر في بلوغ بلاد المغرب وأهلها للمستوى المادي والحضاري الذي عرفته الأندلس بالرغم من ظهور بوادر المنافسة والمجاراة إلاّ أنّ هذا انعكس على معظم الدراسات التي انساقت وراء الموضوعات ذات المواد المصدرية الوافرة، وابتعدت عن نظيرتها التي تشهد شحا في المعلومات وندرتها في أحايين كثيرة، غير أنّ هذا لم يمنع من ظهور بعض الأبحاث العلمية والأطروحات الأكاديمية التي رصد أصحابها أوضاع الحياة العلمية بمختلف تجلياتها بين العدوتين الأندلسية والمغربية في العصر الموحدي؛ ومنها: ما قدمه محمد المنوني في كتابه "حضارة الموحدين" بحيث عدّد أنواع العلوم والفنون التي انتشرت في عهد الدولة الموحدية، وبيّن دور خلفائها في تشجيع عامة الناس على تعاطيها والاشتغال بها إلاّ أنه أولى اهتماما واضحاً لقطر المغرب الأقصى فلم تنل بقية المدن والحواضر في بلاد المغرب إلاّ النزر القليل، وسار على هذا النهج مواطنه علي عبد الله علام في بحثه "الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي".

وفي عمل أكاديمي قدم الباحث يوسف العريني دراسة عن "الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين"، وفيها إحاطة بالموضوع من خلال ما رصده من مصادر تاريخية وتراجمية أثرت دراسته؛ بيد أنه أفرغ جهده في تتبع إسهامات الأندلسيين وأخبارهم، ولم يحظ غيرهم من المغاربة؛ وبخاصة من دخل منهم إلى الأندلس بنصيب وافر من الترجمة

والتنويه، وأكثر من ذلك أنه تجنب الخوض في الجوانب السياسية والعقدية لدى الموحدين فلم تظهر صورة علاقتهم بالحركة العلمية التي عرفتها المنطقة في عهدهم.

من بين الدراسات التي فتحت المجال للنقاش حول أبعاد تأثير الاختلافات المذهبية والعقدية للموحدين في حياة أهل المعارف بين بلاد المغرب والأندلس ظهرت دراسة الباحث محمد المغراوي في رسالته للدكتوراه والموسومة بـ"العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين"، ولكن اقتصاره على طبقة المتصوفة ينسجم مع ما تمّ إقراره آنفاً من شح المادة العلمية المتعلقة ببلاد المغرب خلافاً للمتصوفة الذين تعددت مصادر تراجمهم لا سميا في القرنيين السادس والسابع الهجريين، وذاك كان مسعى الباحث وغايته من خلال وقوفه على معلومات أثرى بها دراسته، ولكن ما يلاحظ على هذه الدراسة أنّ صاحبها غلّب الجانب التصوفي على غيره حتى عند الأعلام الذين ورد التصوف في حياتهم عرضاً وليسوا متصوفة بالأساس، إضافة إلى أنّ مصطلح "المغرب" الوارد في عنوان الأطروحة محدود المعالم الجغرافية بما لا يتوافق مع الحدود السياسية للدولة الموحدية في أقصى اتساعها.

ولهذا الغرض حاولت الاطلاع قدر الاستطاعة على ما وقع بين يدي من مصادر ومراجع لإثراء موضوع البحث وتنويع موارده المطبوع منها والمخطوط، واقتناء العديد منها، والاستفادة من آراء من سبقني من الباحثين الذين اهتموا بالأبحاث ذات الصلة بموضوع الأطروحة؛ ولأجل ذلك لم أكتف بما حصلت عليه في جامعة وهران فقمت بزيارة جامعة الجزائر العاصمة وكبرى مكتباتها، وجامعتي منتوري والأمير عبد القادر بقسنطينة، كما سافرت إلى جامعة تونس واطلعت على أبرز الأطروحات العلمية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وما احتوت عليه مكتبتها، وتجولت بين بعض جامعات المملكة المغربية وعدد من مراكز البحث وخزائن المخطوطات بها.

قسّمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول وقسم خاص بالملاحق، وقدمت لها بمقدمة استهلالية وفصل تمهيدي ورد فيه عرض توضيحي للمعالم الاختيارية المركبة في عنوان الأطروحة بغرض استجلاء أبعاده الزمنية والمجالية، وبسط القول في إشكالية الاختلافات

المنهجية الظاهرة عند المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين، وتقديم مبررات التوصيف الإصطلاحي لعبارة "الروابط العلمية" عند مؤرخي العلوم، وأهمية المرافقة الإحصائية للنصوص التاريخية في استنباط الآراء واستخلاص النتائج.

وأما الفصل الأول فكان عن الأوضاع السياسية وتأثيرها في الحياة العلمية بالعصر الموحدي بداية بالمرحلة التي أعقبت سقوط مدينة مراكش، وإعلان نهاية الدولة المرابطية، وكيفية تعامل الموحدين مع ما شهدته الأندلس من اضطرابات، ومعرفة تأثيرها في حياة الأندلسيين؛ وبخاصة طبقة العلماء، ثمّ تتبع أبرز الأعمال التي قام بها الموحدون بعد جوازهم إلى الأندلس سواء تعلق الأمر بالجوانب السياسية والأمنية أو الحياة العلمية لتكاملهما في تحقيق غاية التواصل والاستقرار مع عرض لأهم نتائج إسهاماتهم في المجال العلمي.

وأما الفصل الثاني فتم فيه رصد أبرز الأعلام الذين أسهموا في تولي الخطط الدينية والإدارية في الدولة الموحدية سواء كانوا من الأندلسيين أو المغاربة، وتقديم ما يبرر كثرة تواجدهم في بلاد المغرب مقارنة بالعهود السابقة، وتتبع أهمية ظهورهم على رأس الهياكل التنظيمية للدولة، و مدى تأثير مكانتهم في المجتمع، ومبلغ استفادة الموحدين من هذا الدور في ترسيخ سلطتهم بالعدوتين المغربية والأندلسية، والتعرض للخصائص التي ميّزت الإدارة الموحدية خلال الفترة التي أدار فيها خلفاء الدولة وولاتها جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والحضارية.

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن أشهر العلوم النقلية التي تم تداولها في المراكز التعليمية، ومعرفة عوامل انتشارها وتحليلها عند مقارنتها ورصد أبرز أعلامها، والهدف من ذلك هو الاطلاع على مدى تأثير الظروف المحيطة بحياة العلماء في دعم أواصر التواصل المعرفي بين المغرب والأندلس، والتطرق إلى مظاهره والعوامل المحفزة على انتشار العلوم، ودوافع طبقة العلماء في اختيار مناطق استيطانهم، والتعرف على علاقتهم بالسلطة الحاكمة، وما تخلل ذلك من مناقشات لآراء الباحثين حول جملة من الأطروحات والنظريات التي ظهرت في أبحاثهم عن تاريخ العلوم في العصر الموحدي.

أما الفصل الرابع فورد فيه التأريخ للعلوم العقلية ومحاولة تقصي أبرز معالمها، والترجمة لأشهر المشتغلين بها مع التطرق إلى إشكالية النفور من بعض فنونها؛ وهي الظاهرة التي عرفتها العصور الإسلامية في مرحلتها الوسيطية، ومناقشة آراء الباحثين حول بعض موضوعاتها ذات الصلة بالانتشار والانحسار، وتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف، والغاية من ذلك هو محاولة الكشف عن موقف السلطة والمجتمع ممن جاهر بالخوض في فنونها، ومدى انتشارها بين الأندلس وبلاد المغرب في ظل ما اشتهر تاريخياً عن من انتحلها علماً، وتتبع مواطن استقرار روادها وأهم تنقلاتهم بين الضفتين.

وأما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التي خلص إليها البحث.

وعن مصادر البحث فقد جاءت متنوعة بين كتب التراجم والتاريخ والأدب، والعلوم العقلية والجغرافية، وتأتي كتب التراجم على رأس القائمة نظراً لأهميتها للباحث عن الحياة العلمية قصد تتبع سيّر العلماء ومراتبهم المعرفية و أماكن تواجدهم، وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة.

- المصادر والمراجع: (عرض ونقد)

آثرت ترتيب المصادر بحسب مبلغ إفادتها لموضوع الدراسة لا على اعتبارات زمنية أو موضوعية يتم الاستناد فيها إلى سنوات الوفاة وطبيعة الموضوع ونوعه كمعايير في التصنيف، واقتصرت منها على المصنفات الأولية التي اعتمدت عليها في عرض فصول الدراسة ومباحثها، ونقدها وإظهار مدى أهمية كل منها.

ت- كتب التراجم :

تأتي كتب التراجم والفهارس على قمة هرم الاستفادة المصدرية لارتباطها الوثيق بتاريخ العلوم واتصال أسانيد نشرها من عدمه، وتتبعها لحياة أعلام العلماء ومراتبهم؛ وهو ما يتيح فرص الاطلاع على إسهاماتهم في الحياة العلمية.

1.التّكملة لكتاب الصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المتوفى سنة 659هـ/1261م، جمع ابن الأبار بين عدة فنون فأجاد فيها، فهو المؤرخ والشاعر والأديب والكاتب، له مصنفات عديدة تنم عن ما وصف به، ويعتبر كتابه التكملة من المصادر الأولية في التأريخ لسيرة علماء الأندلس ومن دخلها من المغاربة، وقد تولى الكتابة عن بعض ولاة

الموحدين في آخر دولتهم في الأندلس؛ وهو بذلك شاهد عيان للكثير من الأحداث التي عرفتها المنطقة، وأفادته تنقلاته بين الأندلس وبجاية وإفريقية من رصد أوضاع جالية الأندلس ومعرفة مدى إسهاماتهم في الحياة العلمية، غير أنّ مكمن القصور في مؤلفه هذا هو تعصبه لأهل بلده، وعدم تتبع أخبار المراكز العلمية التي بدأت بالظهور في بلاد المغرب ومن وفد إليها من طلبة الأندلس إلاّ من بعض الحالات التي أشار إليها.

2.الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى سنة 703هـ/1303م، نوّع ابن عبد الملك من موارده فبلغنا كتابه متحفاً بالمصنفات التي ملك أصولها أو اطلع عليها - وهي تعود إلى العصر الموحدي ومعظمها في حكم المفقود- وبالرغم من أنّ كتابه لم يصل إلينا كاملاً؛ وبخاصة القطع المتمّمة لقسم الغرباء وتحديداً من كان منهم من أعلام المغاربة إلاّ أنّه قدم معلومات في غاية الأهمية عن أوضاع الحياة العلمية في الحقبة المؤرخة – نقلاً عن شيوخه وعن المصادر المعاصرة لهذه الفترة- وحمله لشعار المنافحة عن المغاربة لإحاطته بسيرة حياتهم ومعارفهم، وتتبع تاريخ خلفاء الدولة الموحدية وولاتها في مجال خدمة العلم وأهله، ومن بين الأمور التي تؤخذ عليه هو انسياقه وراء شروط الأندلسيين في التأليف؛ ولذلك لم يلتفت لمن لم يسعفه الحظ بالدخول إلى الأندلس من المغاربة، ويضاف إلى ذلك قلة تنقلاته بين مدن بلاد المغرب والأندلس الأمر الذي جعله يغلّب ذكر أعلام المنطقة الغربية لبلاد المغرب على حساب المنطقة الشرقية كبجاية ومدن بلاد إفريقية.

3.أعلام مالقة:

لأبي عبد الله محمد بن عسكر المتوفى سنة 636هـ/1238م، والذي أكمله أبو بكر بن خميس (كان على قيد الحياة سنة 638هـ/1240م) ، ويعتبر هذا الكتاب من أبرز المصادر التي اهتمت بالترجمة لأعلام المغاربة الداخلين إلى الأندلس على الرغم من أن صاحبه اقتصر في شرطه على من دخل مالقة، وما وصلنا منه لا تتجاوز تراجمه 174 ترجمة بحكمما أصاب آخر الكتاب من بتر، ومع ذلك أفاد البحث في توضيح صورة تواجد خلفاء الدولة وولاتها في الأندلس ومدينة مالقة تحديدا، ونبرة ولائه للدولة واضحة من سياق أسلوبه، ولم يفرد كتابه للعلماء فحسب وإنما انفرد بالترجمة لغيرهم من قادة الموحدين و

أحفاد بني عبد المؤمن، وأسهم المؤلفان في رصد حركة تنقل العلماء بين العدوتين وتأثير ذلك في التواصل العلمي بينهما.

4.عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية:

لأبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني البجائي (ت714هـ/1314م)، وفيه ترجم صاحبه لعلماء مدينة بجاية سواء كانوا من أهلها أو ممن استوطنها أو وفد عليها خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وقد رصد صاحبه هجرات العلماء بين العدوتين الأندلسية والمغربية؛ وما وقف عليه من وثائق نصية لإجازات الشيوخ ومراسلاتهم العلمية؛ وهو مصدر مهم في تتبع حياة المتصوفة من الصلحاء والعباد بحكم تركيزه على هذه الشريحة المؤثرة في المجتمع حينئذٍ، وما يلاحظ عليه أنّه أغفل الكثير من علماء بجاية من غير المتصوفة ممن اشتغلوا بالعلوم النقلية والعقلية، وأسهموا في الحياة العلمية بالمدينة على غرار الكُتاب والقضاة والشعراء والأطباء والفلاسفة وغيرهم.

5.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:

لأبي العباس أحمد بن محمد الشهير بالمقري التلمساني المتوفى سنة1041هـ/1631م، جمع فيه صاحبه بين عدّة فنون كالتاريخ والتراجم والشعر والأدب؛ ونقل عن عدد كبير من المصادر المتنوعة فعدّ بحق موسوعة تاريخية وأدبية، ومورد مهم للحياة العلمية والاجتماعية، وبالرغم من أنّ المقري من المتأخرين عن الفترة المدروسة إلاّ أنّه حافظ على جملة من المصادر والروايات التي فقدت أصولها، ولعل هذا ما أهل كتابه لأنّ يحظى بمكانة بين المصادر المتقدمة والمعاصرة لأحداث الدولة الموحدية وغيرها، وقد أفاد البحث في تتبعه لأخبار أعلام العلماء في مجال العلوم النقلية والعقلية، وكشف لمواطن تجوالهم واسقرارهم بين المدن والحواضر؛ وبخاصة عوامل هجراتهم ونتائجها، غير أنّ الإشكال الذي يقف أمام الباحث في موضوعات كتابه هو عدم اتباعه لمنهج واضح في تدوين معلوماته فتراه ينتقل بين الأخبار والأحداث من دون ترتيب ولا مبرر تاريخي، وإكثاره من الاستطرادات، ويشفع له ذلك بُعده عن مكتبته، واكتفائه بما كان بين يديه وما رواه من ذاكرته.

6.عيون الأنباء في طبقات الأطباء:

لابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجى موفق الدين المتوفى سنة 668هـ/1269م، عاصر صاحب هذا الكتاب فترات مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وقريب عهد بالكثير من الأحداث التي مرّت بها، وتكمن أهميته في إفراد الترجمة لأشهر أطباء المغرب الإسلامي؛ وبخاصة من عاشوا في القرن السادس والسابع الهجريين، وقد أفاد البحث في التعرف على أسمائهم وأشهر مؤلفاتهم وعلاقتهم بالسلطة الموحدية، كما بيّن فيه إسهامات خلفاء الدولة في العلوم الطبية؛ وهو بذلك يعد من أهم المصادر التي أرّخت لتاريخ الطب في المنطقة، غير أنّ ما يلاحظ على هذا المصنف أنّ صاحبه أولى اهتماماً بالتوسع في الترجمة لأشهر الأطباء بينما وردت معلوماته مقتضبة عن غيرهم؛ وبخاصة أهل بلاد المغرب.

ت- كتب التاريخ:

ارتبط التحقيب الزمني بمختلف مجالات حياة الفرد والمجتمع، وشكّلت كتب التاريخ موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول والسلالات الحاكمة موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول وحكامها ضمن المسار التفاعلي لحركة التاريخ، ومن أهمها:

1.المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب:

لأبي محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي كان بقيد الحياة سنة 621هـ/1224م، ألف كتابه هذا في مدينة بغداد، وقد عاصر عبد الواحد فترة مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وبحكم قربه من حكام الموحدين حرص على تدوين ما شاهده من أحداث، أو سأل عنه من يثق به، وفي كتابه أخبار عن بعض ملامح الحياة العلمية في بلاد المغرب والأندلس، و وصف لأحوال العلماء وعلاقة السلطة الموحدية بهم، غير أن شمولية المنهج الذي اتبعه في التأليف بين الطريقة الحولية والموضوعية جعله يغفل الكثير من التفاصيل ذات الصلة بالحياة العلمية بحسب ما اشترطه في كتابه، وأنّ بعده عن مجريات الأحداث؛ وبخاصة في المراحل الأخيرة من تاريخ الدولة جعلته يلتزم الاختصار.

2.البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب (قسم الموحدين):

لأبي عبد الله محمد، الشهير بابن عذاري المراكشي (كان بقيد الحياة سنة 712هـ/1312م) خصص هذا الجزء من كتابه للدولة الموحدية وفيه أورد أخبار حولية مفصلة عن الدولة الموحدية، وإسهامات خلفائها وولاتها في المجالات السياسية والعلمية والحضارية، وتكمن أهميته في الاعتماد على روايات عاصر أصحابها دولة الموحدين، ومنهم من خدم في بلاطهم كالكُتّاب والمؤرخين، ومعظمها في حكم المفقود، غير أنّ ما يؤخذ على صاحب هذا الكتاب هو عدم تنويعه في المصادر التاريخية غير تلك التي كانت تدين بالولاء للموحدين، فظهر مؤلفه بنسق تاريخي واحد لا يحيد فيه عن نظرة مؤرخي البلاط.

3.تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين:

لأبي مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى سنة 594هـ/1198م، دوّن ابن صاحب الصلاة الكثير من الأحداث التي عاشها بحكم خدمته في دواوين الموحدين وولائه لهم، فاعتمد على رواية الأخبار التي عاصرها، والسؤال عن تلك التي لم يشهدها بنفسه أو بسبب بعده عنها، والكتاب لم يصل إلينا كاملا والموجود بين أيدينا ما هو إلا قطعة منه أرخ فيها للحوادث الواقعة بين سنتي 544 و568هـ، وأهميته تكمن في وصفه للأحداث التي أعقبت دخول الموحدين إلى الأندلس، وأبرز إسهاماتهم العلمية والحضارية، كما انفرد بذكر ما له صلة بالتواصل العلمي بين الأندلس وبلاد المغرب من خلال ذكر بعض أعلام المنطقة، ولا يختلف ابن صاحب الصلاة عن مؤرخي البلاط؛ بحيث تظهر عليه النزعة الذاتية المفاخرة بالدولة وأعلامها.

4.ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر

لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى سنة 808هـ/1406م، وابن خلدون من أبرز المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ المغرب الإسلامي، ومعرفة شعوبه وقبائله وتاريخ دوله، وجمعه بين مختلف الروايات مع إبداء رأيه في الكثير من أخبارها، وقد خصص الجزء السادس من كتابه للتأريخ لبلاد المغرب والأندلس؛ ولأنّ البحث وطيد الصلة بتاريخ العلوم والفنون فلا خفاء ما لمقدمته الشهيرة من إفادة في تعريفها وتتبع نبذ عن تاريخها، وما عرضه من آراء ونظريات عن انتشارها وأبرز روادها بين العدوتين الأندلسية والمغربية.

5.المُغرب في حلى المَغرب:

لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي المتوفى سنة 685هـ/1286م، هذا الكتاب تعاقب على تأليفه ستة من عائلة ابن سعيد، وعلى مدار مائة وخمسة عشر عاماً، وهو يقوم على ترتيب مواده على البلاد وما فيها من خصائص جغرافية وسياسية، ثم يعرف بطبقات كل بلد بداية بالأمراء والعلماء والشعراء ثم من ليس له نظم ولا يحسن إغفاله، والكتاب يحتوي على معلومات تاريخية مهمة عن دولة الموحدين، وبه تراجم لكثير من أعلام المغاربة، وقد عاصر ابن سعيد السنوات الأخيرة من تاريخ الموحدين في بلاد المغرب والأندلس؛ وهو قريب عهد بالأعلام الذين خدموا في دواوين الدولة؛ فوثّق معلوماته عنهم، وكتابه هذا يضاف إلى تصانيفه الأخرى ذات الفائدة البالغة في معرفة تاريخ العلوم ومصنفاتها، وإن بدا اهتمامه بالأدب وأهله أكثر من غيره .

6.الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس:

لأبي الحسن علي بن أبي زرع الفاسي الشهير بابن أبي زرع (كان حيا سنة726هـ/1326م)، أرّخ ابن أبي زرع لأخبار ملوك بلاد المغرب ودولهم من لدن الفتح الإسلامي إلى سنة 726هـ التي توقف فيها كتابه، وفيه عرض لتاريخ الموحدين وإسهاماتهم الحضارية في العدوتين الأندلسية والمغربية، ومن الملفت أنّ ابن أبي زرع كان يكتب متحرراً من رواية مؤرخي الدولة الموحدية فكثيراً ما كان يخالفهم في الرأي أو ينبه إلى ما ورد عند غيرهم، غير أنّ اختصاره لبعض المحطات التاريخية المهمة في حياة أعلام الأندلس وبلاد المغرب وخلفاء الدولة وأمرائها- بالرغم من انفراده بذكرها- قلل من فائدة إيرادها؛ بحيث لم تتضح صورتها عند غيره.

ج. الكتب الجغرافية:

1.الروض المعطار في خبر الأقطار:

لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري الصنهاجي (ت727هـ /1326م)، تكمن أهمية هذا الكتاب في الربط بين الوصف الجغرافي والخبر التاريخي، مع ذكره لأخبار ذات صلة بالجوانب المعمارية والعلمية لمدن الأندلس والمغرب، وقد وقف الحميري عند العديد من

الأخبار الخاصة بتاريخ الموحدين من خلال ذكر أسماء أعلامهم ومنجزاتهم، وما عرفته المدن من عمارة وتشييد أو خراب ومعارك أثرت في تركيبة سكانها؛ وهو ما يتيح للباحث معرفة مواطن هجرة العلماء وأسبابها، كما أفاد البحث في رفع الجهالة عن الكثير من المدن حين التعريف بها، واكتفى الحميري من كل ذلك بمجرد النقل عن غيره، من دون التصريح بأصحاب الروايات الأصليين مع عدم إبدائه لرأيه.

2.نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق:

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف الإدريسي المتوفى حوالي سنة 560هـ/1066م، عاش الإدريسي فترة نهاية تواجد المرابطين على الأراضي الأندلسية، وقد أفاد البحث في وصفه لأوضاع الأندلس خلال هذه الفترة الانتقالية من تاريخ المنطقة، كما عرّف بأماكن استقرار المغاربة، وأعطى صورة عن أحوال المدن و القرى.

ولأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون، سبق التعريف بكتابه في التاريخ، وأهمية مقدمته في تاريخ العلوم إجمالاً، إلاّ أنّ ثمة جانباً مهماً انفرد به ابن خلدون في مقدمته؛ وهو التعريف برواد العلوم العقلية في تاريخ الإسلام إلى غاية العصر الذي عاش فيه مع ذكر أهم مصنفاتهم العلمية وإسهاماتهم الحضارية كالأطباء والمهندسين والفلاسفة وأهل الحساب وغيرهم، ولأنّه من أهل بلاد المغرب فلا غرابة أنّ تقدّم آراؤه على غيره في الكثير من الموضوعات التي تتضارب فيها الروايات أو يحوم حولها الغموض، ويعود ذلك إلى سعة اطلاعه ومعرفته بالأطوار التي مرّت بها العلوم العقلية والنظرية، وإحاطته بعلاقات حكام الدول بأهلها وموقفهم منها، ومناهج تعليمها وأسباب تطورها أو انحسارها.

هذه جملة من المصادر الأولية التي اقتصرت على ذكر بعضها، وفي ثنايا هذه الدراسة عرض لغيرها من الدواوين والمصنفات المطبوعة والمخطوطة، ومختلف الأبحاث العربية والأجنبية الخاصة بالباحثين المحدثين وفي مختلف التخصصات النقلية والعقلية، والهدف منها إحاطة الموضوع - قدر الإمكان- من جميع جوانبه بما يكفي لسبر غور مباحثه واقتفاء آثار رجالات العلوم وإسهاماتهم في مختلف المعارف والفنون في مقاربة تاريخية ضمن الحدود الزمنية والمجالية للدولة الموحدية.

ومن الصعوبات التي واجهت مراحل إعداد البحث وتقصي موضوعاته هو عدم التمكن من الاطلاع على العديد من المخطوطات النادرة التي تعود إلى الحقبة المدروسة؛ وبخاصة في مجال العلوم العقلية مع إمكانية الوصول إلى أرقامها وتصنيفاتها في دور المخطوطات وخزائنها، وأخص بالذكر مكتبة الإسكوريال بإسبانيا ومكتبة لشبونة الوطنية بالبرتغال ومكتبة جامعة غوتينغن بألمانيا، مع استفراغ الجهد في اتباع جميع الإجراءات القانونية والإدارية، والتواصل مع الباحثين العرب والأجانب للظفر ببعض نسخها المهمة؛ غير أنّ ما يؤسف له أنّني اكتفيت بمجرد المحاولة حتى لا أقول الفشل، وحق لها بذلك أن تصنّف ضمن تراثنا المخبوء.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت في الإلمام بأهم مباحث هذه الدراسة وما اخترته لها من مصادر ومراجع، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم

- مصطلحا "بلاد المغرب" و"الأندلس" ومعاني دلالاتهما الجغرافية والسياسية:

تكمن أهمية ضبط المصطلح الجغرافي وتحديد معالمه في معرفة مدى تطابق نصوص الأمكنّة والمواطن الجغرافية مع الفترة المؤرخة من جهة، وتفادي المصطلحات المستحدثة في الإستريوغرافية العربية بعد العصر الموحدي من جهة أخرى؛ ولذلك نجد أنّ من أشهر المصطلحات التي عاصر ظهورها تاريخ المنطقة هي: "بلاد العدوة"، و"بلاد المغرب"، ولا خلاف حول لفظ "الأندلس" إلاّ ما تناقص منها بسقوطه في أيدي النصارى، و وقع النزاع حوله بين الموحدين وخصومهم- وهو ما سيرد لاحقاً- أو تحديد مواقع المدن بدون ضابط جغرافي آخر مثلما هو الحال في كتابات البيدق الصنهاجي (من أهل القرن 6هـ/12م)، و"المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة (كان بقيد الحياة سنة595هـ/1198م).

استمرت هذه العبارات عند من تأخر عنهم من المؤرخين والجغرافيين الذين أوردوا مصطلح "المغرب" وأشاروا به إلى تلك المنطقة الممتدة من الحدود المصرية شرقاً إلى المحيط غرباً؛ وهو المقصود في اختيار ابن عذاري "البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، بينما استعمل اللفظ ذاته ليشمل منطقة "الأندلس والمغرب" معاً عند المعاصرين للدولة الموحدية، أو من كان قريب عهد بها كابن جبير(ت614هـ/1217م) في جغرافيته الوصفية، وعبد الواحد المراكشي (كان بقيد الحياة سنة621هـ/1224م) في "المُعجب في تلخيص أخبار المغرب"، وابن عسكر (ت636هـ/1238م) في "أعلام مالقة"، وابن سعيد الغرناطي (ت685هـ/1286م) في "المُغرب فى حلى المغرب" وغيرها من مؤلفاته.

إنّ تقسيم منطقة بلاد المغرب إلى أقاليم جغرافية مختلفة (أدنى وأوسط وأقصى)، وإخضاعها للبحث والدراسة السياسية والاقتصادية و الاجتماعية والحضارية ضمن النطاق الضيق لمفهوم الدولة القطرية الحديثة في ظل سيادة الدول الموحدة للضفتين الأندلسية والمغربية قد لا يتوافق مع طبيعة التوجهات الوحدوية، ومعالم الاختيارات السياسية التي أرستها مدينة "مراكش" كحاضرة للعدوتين بداية من ظهور المرابطين ثمّ شمول دلالاتها

الجغرافية والسياسية في العصر الموحدي[1]؛ وبخاصة أنّ اتباع منهجية كرونولوجية في ترتيب النصوص وتفريغها على مدار السنوات المتعاقبة لهذه المرحلة لا تبرز بينها مصطلحات وتعابير تنم عن تباين للأقاليم الثلاثة؛ بينما تظهر أسماء الحواضر في الفترة الموحدية من دون ربطها بالحدود السياسية لهذه المناطق التي تخلّف ظهورها إلى ما بعد القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي[2].

ولنا في السياقات الجغرافية التي أفرد لها عبد الواحد المراكشي- المعاصر للموحدين - حيزاً بآخر كتابه "المُعجِب" ما يؤكد ذلك ويدلل عليه؛ بحيث أورد ذكر المدن من دون إضافتها إلى كيان جغرافي آخر، ويتوافق هذا تماماً مع النصوص التي رصدها ابن عذاري في البيان المغرب- قسم الموحدين- وفصل أهل التراجم في أحيان كثيرة بين إفريقية وبلاد المغرب زيادة منهم في التوضيح ورفع الالتباس عن الأعلام المترجم بهم[3]، والظاهر أنّ العديد من الدراسات -لا سيما العربية منها- لم تأخذ هذه المعطيات بعين الاعتبار وإنّما اتبعت نفس النسق الذي ظهر مبرزاً ضمن عناوين المدونات التاريخية العامة التي بدأ ظهورها الأول في القرن التاسع عشر على يد أبي العباس أحمد الناصري السلاوي في كتابه "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"؛ بحيث اتخذ من الدولة القطرية الحديثة معلما أرّخ من خلاله لأخبار الدول التي ظهرت فيها بقوله: " ذكرت فيه دول هذا القطر المغربي من لدن الفتح الإسلامي إلى وقتنا هذا"[4] بينما تجده يتحدث في عصري المرابطين

1- بقيت بعض المناطق في بلاد المغرب خارجة عن سيطرة المرابطين؛ ومنها مدن إفريقية بحيث وقع الصراع عليها بين أمراء صنهاجة والقبائل العربية الهلالية، وسيطر الحماديون على بجاية وما جاورها، بينما امتدت سلطة الموحدين إلى الحدود المصرية شرقا. ينظر الهادي روجي إدريس- الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن10 إلى 12م- تر حمادي السّاحلي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1- 1992م- ج1- ص ص 245- 359.

2- يلاحظ هذا بوضوح عند ابن عبد المنعم الحميري(ت727هـ/1326م) الذي عاصر هذه التقسيمات؛ فتجده يربط بين المدينة والإقليم الذي تعود إليه فمثلا: تلمسان وبجاية يضيفها للمغرب الأوسط، ومراكش وفاس للمغرب الأقصى، وتونس وما جاورها لإفريقية. ينظر الروض المعطار في خبر الأقطار- تح إحسان عباس- مكتبة لبنان- بيروت- ط2- 1984م- ص 80-143-135-434-540، وكذلك ابن خلدون- ابن خلدون، عبد الرحمن- مقدمة ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر- ضبط ومراجعة خليل شحاتة وسهيل زكار- دار الفكر- بيروت- (د ط)- 2001م-ج6- ص29.

3- ابن عبد الملك المراكشي- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة- تح محمد بن شريفة- مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية- المغرب- (دط)- 1984م- ج8- ص 237.

4- السلاوي، أبو العباس أحمد الناصري- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- تح جعفري الناصري و محمد الناصري- دار الكتاب- الدار البيضاء- المغرب- ط1- 1997م-ج1- ص58.

والموحدين عن مجال جغرافي أبعد من عنوانه المسمى، مما اضطره في مواضع كثيرة إلى اعتماد مصطلح "بلاد المغرب"[1].

مثّل هذا الاتجاه - بعد السلاوي- محمد المنوني في مختلف أبحاثه و دراساته، محاولاً الربط بين النصوص التاريخية للمرحلة الوسيطية والمعنى المحدود للدولة القطرية، وغلب عليه الجانب الحضاري بشقيه التعريف بالتراث المصدري المطبوع منه والمخطوط، وإبراز الجانب العلمي والمعماري الموصوف، وقد تجسد الأول في كتابه "المصادر العربية لتاريخ المغرب"، والهدف منه هو مضامين "المؤلفات التي تتصل بتاريخ المغرب الأقصى"[2]، وعلى الرغم من وقوفه على النصوص التي تفيد الفترة التي ارتسمت فيها المعالم السياسية للصُقع المغربي بعد العصر المريني إلاّ أنه لم يحدد مضامين الاستفادة من المصادر الحولية والشاملة التي أرخت لبلاد المغرب والأندلس، ولم يرد فيها ما يشير إلى هذا التحديد؛ ومنها على سبيل المثال لا الحصر كتاب "المُعجب" لعبد الواحد المراكشي فاكتفى بالتعريف العام بها[3]، وتجسد الثاني في مصنفه "حضارة الموحدين"؛ والذي يتبادر للمطلع على عنوانه شمولية المعنى الحضاري الذي بلغته مدن و حواضر بلاد المغرب والأندلس خلال العهد الموحدي - بغض النظر عن مواقعها الجغرافية - إلاّ أنه اقتصر في محتواه على ما يدور في فلك المفهوم الضيق للدولة القطرية الحديثة.

وفي موضوع الدراسة تم الوقوف على نماذج عديدة - أبحاث مستقلة وأخرى أكاديمية- اتبعت الاتجاه نفسه؛ بحيث اتخذت من الحقبة الموحدية مورداً لطرق مختلف الموضوعات السياسية والحضارية، غير أنها لم تلتزم بالبعد الجغرافي والحضاري للدولة الموحدية، إما بدراسة إقليم مجتزئ من عموم الدولة، أو الربط بين عموم ما عرف من حضارتها وإلحاقه بجزء جغرافي منها، وحكموا بذلك على الكل بمصير الجزء، وبناءً عليه تمّت التفرقة بين

1- السلاوي- المرجع السابق- ج2- ص ص 29- 143.

2- محمد المنوني- المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط - جامعة محمد الخامس- المغرب- (د ط) - 1983م- ج1- ص 14.

3- المرجع السابق- ص50. وقف ابن سودة عند هذا المفهوم فاشترط في كتابه: دليل مؤرخ المغرب الأقصى ذكر "التآليف التي ألفت في تاريخ المغرب فقط لا من ذكر المغرب على التبع لغيره" غير أنّه خرج عن هذا الشرط فذكر مؤلفات عامة ذكرت المغرب بالتبع لغيره. ينظر مؤلفه دليل مؤرخ المغرب الأقصى دليل ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، ويليه ذيل دليل مؤرخ المغرب الأقصى- دار الفكر- بيروت- ط1- 1997م- ص 5.

النصوص ذات النسق التاريخي الواحد، الأمر الذي انجرّ عنه إغفال الكثير من الأعلام والمدن؛ لأنها ليست ضمن مجالها المحدد سلفاً، والحقيقة أنه نوع من القصور الذي لا يتحمله المنهج التاريخي الذي يربط بين الأبعاد الثلاثة: الجغرافي والسياسي والزمني في العملية التأريخية، ولذلك وقف المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال مطولا للفصل بين المفهومين الزمني والجغرافي فيم اتّصل بالمصطلح الحديث للمغرب ومجاله الحضاري تحديدا[1].

إنّ السعي وراء تتبع معالم الخريطة الجغرافية للدولة الموحدية في أقصى اتساعها يحتم على الدارس عرض مقاربة حضارية ترتكز على انتقاء نصوص ومواد علمية تتوافق مع هذا الطرح، والتمثيل لها بما يتمّ إحصاؤه من عينات تسهم في رصد صورة مقربة لما كانت عليه الحياة العلمية في مختلف المدن وإن تباعدت جغرافياً، وللخروج من معترك الاصطلاحات المعتمدة حديثاً وقع الاختيار على مصطلح "بلاد المغرب" الذي يتناسب مع الفترة المؤرخة، وتمّ انتقاؤه من مؤرخ عاصر الحقبة الموحدية وعبر بقلمه عمّا كان سائداً أو متعارفاً عليه في وقته؛ وهو عبد الواحد المراكشي الذي ختم ما بسطه جغرافياً بقوله: "فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ومسافات الأبعاد التي بين كل بلد وبلد؛ ومنها ما سافرت فيه بنفسي، ومنها ما نقلته مستفيضاً عن السفار المترددين"[2]، والأمر ذاته عند الزهري (كان بقيد الحياة منصف القرن6هـ/12م) في جعرافيته[3]؛ وهو من معاصري الموحدين.

وأما المعالم الجغرافية لمصطلح "الأندلس" في العصر الموحدي فليست هي ذاتها الموصوفة في المصادر التاريخية والجغرافية التي بلغت أقصى اتساعها إلى نهاية عصر الولاة سنة 138هـ/755م بسبب توقف الفتوحات الإسلامية في المناطق الشمالية منها، وبداية استيلاء الممالك النصرانية على مناطق واسعة منها؛ وبخاصة في عصر ملوك

1- ليفي بروفنسال- مؤرخو الشرفاء- تعريب عبد القادر الخلادي- مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر- الرباط - (د ط)-1977م- ص ص 24- 27.

2- عبد الواحد المراكشي- المُعجب في تلخيص أخبار المغرب- اعتنى به صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- بيروت- ط1- 2006م- ص 268.

3- الزهري، أبو عبد الله محمد- الجعرافية- تح محمد حاج صادق- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- (دط)-(دت)- 106.

الطوائف[1]، و بالرغم من القوة الرادعة التي شكلتها الجيوش المرابطية والموحدية ضد هجمات الممالك النصرانية والحدّ من تقدمها جنوبا إلاّ أنّها لم تتمكن من استرداد جميع ما فقد في العهود السابقة.

وفي الفترة التي تولى فيها عبد المؤمن بن علي الكومي[2] (524-558هـ/1129-1162م) تمكن من إلحاق معظم المدن الأندلسية تحت رايته بداية من سنة 541هـ/1146م، وأحكم قبضته على مدنها الكبرى غير أنّ المنطقة الشرقية للأندلس بقيت خارجة عن سيطرته، بالرغم من محاولاته المتكررة، وتوفي قبل إخضاعها لحوزته بسبب ظهور إمارة ناصبت العداء للموحدين فيها رسمت لنفسها حدوداً سياسية، ومعالم حضارية شملت معظم الحواضر الكبرى لهذه الجهة، وعرفت بإمارة ابن مردنيش[3] (ت567هـ/1178م) واستمر وجودها لأزيد من عقدين، ولازال الغموض يراوح تاريخ ظهورها وقدرتها على مقارعة الموحدين بسبب ندرة المادة التاريخية عن هذه الحقبة إجمالاً، ويضاف إليها منطقة الجزائر الشرقية؛ وهي تضم ثلاث جزر بحرية[4] في البحر المتوسط بقيت ردحا من الزمن بيد بني غانية[5]، ويفهم من هذا أنّ عبارة "الأندلس" عندما تطلق يجب أن تحدد خريطتها على ضوء معرفة الأوضاع السياسية المراد الحديث عنها.

1- من أشهر المدن الشمالية الكبرى التي سقطت في يد النصارى مدينة بنبلونة سنة 131هـ/748م، وبرشلونة سنة 375هـ/985م، وشلمنقة سنة 447هـ/1055م، ومجريط سنة 477هـ/1084م، وطليطلة سنة 478هـ/1085م، وشنترين سنة541هـ/1146م، ينظر المقري- المصدر السابق -ج1- ص 234، و حسين مؤنس- موسوعة تاريخ الأندلس- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- ط1-1996م-ج1- ص36 وج2- ص ص 381.

2- هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلا الكومي الزناتي، نسبه مؤرخوا دولته إلى قيس عيلان، أصله من تاجرة (تلمسان)، وقد لزم المساجد منط صغره، وبويع بالخلافة بعد وفاة المهدي سنة524هـ/1129م إلى غاية وفاته سنة 558هـ/1162م. ابن أبي زرع – المصدر السابق- ص ص 183-202.

3- هو أبو عبد الله محمد بن سعد الجذامي الشهير بابن مردنيش، استطاع إحكام السيطرة على مدن شرق الأندلس، وتمكن أبو يعقوب بن عبد المؤمن من إخضاعه ومصاهرته بزواجه من ابنته، وقد رجح حسين مؤنس أنّ أصل اسم مردنيش يرجع إلى اللغة اللاتينية (Martinez)، ونقل عن المراجع الإسبانية أنه كان يتشبه في هيئته ولباسه بالنصارى إلى جانب الحديث بلغتهم، ينظر هامش تحقيقه لكتاب الحلة السيراء لابن الأبار- دار المعارف- القاهرة- ط2- 1985م-ج2- ص ص 232-233، وموجز أخبار هذه الإمارة أوردها ابن الخطيب لسان الدين- تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام- تحقيق ليفي بروفنسال- دار المكشوف- بيروت- ط2- 1956م - ص ص 270- 275.

4- وهي ميورقة ومنورقة ويابسة، من جزر البحر المتوسط، وتكبرهم ميورقة من حيث المساحة. ينظر عنها ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص567.

5- أصلهم من قبيلة مسوفة البربرية إحدى قبائل صنهاجة، ينتسبون إلى علي بن يوسف المسوفي أحد رجال يوسف بن تاشفين الذي زوجه من قريبة له تدعى غانية؛ فأنجبت ولدين هما محمد ويحي وعرفا باسم أمهم على عادة هذه القبائل، استطاع بنو غانية التفرد بحكم الجزائر الشرقية بعد سقوط دولة المرابطين، ولم يعترفوا بسلطة الموحدين بحيث؛ أقاموا

وتكمن أهمية العلاقة بين الواقع الميداني للأراضي الأندلسية وجوانب الحياة العلمية وتواصلها بين العدوتين فيما يلي:

- اختفاء النسبة البلدانية للأعلام الذين سقطت مدنهم في أيدي النصارى خلال العهود المذكورة كالطليطلي والمجريطي والشنتريني والشلمنقي وما شابه إلاّ ما كان على سبيل التذكير بأصولهم.

- عدم إضافة أسماء الأعلام الذين انتسبوا لمدن شرق الأندلس والجزر الشرقية إلى الدولة الموحدية؛ كالقضاة والفقهاء والكتاب ومن انتسب للعلم وأهله، وورد التنبيه من أهل التراجم والطبقات بانتسابهم لإمارة ابن مردنيش إلى غاية سقوطها في أيدي الموحدين، والأمر ذاته بالنسبة لبني غانية إلى نهاية حكمهم سنة 599هـ/1203م إلاّ من ثبت تجوالهم بين مدن بلاد المغرب والأندلس، أو تبيّن اتصالهم بالموحدين والالتحاق بمراكزهم التعليمية، ولا خفاء ما لذلك من ارتباط بمسألة الولاءات السياسية والعقدية؛ وهو ما سيتم الوقوف عليه في فصل الحياة العلمية.

التحقيب الزمني لسلطة الموحدين على العدوتين المغربية والأندلسية:

لا يستقيم التأريخ للحياة السياسية والحضارية من دون مجال زمني ومكاني يتعين فيه معرفة بداية الظهور الفعلي للدول ونهايته، وإن اتجهت بعض الآراء إلى حصره فقط في الجوانب السياسية وما تعلق بها للفصل بين الأحداث والوقائع المرتبطة بالسلط الحاكمة للمقارنة بين سياسات الدول في التفاعل معها وإظهار أدوارها، وما تميز به كل عصر، وأما الحياة الاجتماعية والمعرفية وما اتصل بها فليس ثمة ما تدعوا الحاجة إليه لضبط التحقيب الزمني من بداية الظهور إلى الأفول لتداخلها في أحايين كثيرة، والاكتفاء بإلحاقها بالعصر المؤرخ باسم الدولة وموطنها، غير أنّ طبيعة بعض الموضوعات التي تتضارب فيها

الدعوة للخلافة العباسية، واستمر صراعهم مع الموحدين إلى غاية سنة 599هـ/1203م تاريخ سقوط الجزائر الشرقية في أيدي محمد الناصر الموحدي. عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص ص195-231. ابن عذاري- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- قسم الموحدين- تح محمد إبراهيم الكتاني وآخرون- دار الغرب الإسلامي- بيروت- دار الثقافة- المغرب- ط1- 1985م - ص ص183-240. وينظر تفصيل تسميتهم عند حسين مؤنس- المرجع السابق-ج2- ص117.

روايات أخذ البيعة والإقرار بفروض الطاعة والولاء تفرض نوعاً من التحري في تزمين المراحل الانتقالية للخروج من دائرة التعميم في التوصيف التاريخي المطلق؛ وهو ما ظهر جليا في تاريخ العلاقات بين العدوتين المغربية والأندلسية، وبروز الحاجز الجغرافي بينهما في خضم الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة منذ العهد الأموي.

تكمن أهمية هذه الحيثيات في تتبع مصائر التدرج بين القوة والضعف عند تأسيس الدول وانهيارها؛ ولذلك خصّها ابن خلدون بنظريته الشهيرة حول نشوء الدول المستجدة على أنقاد تلك المستقرة، وساق من أمثلته ما حدث للموحدين مع من سبقهم من الأمم "وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقّصوه من أطرافها"[1]، ومصير نهاية عهدها حين "أدركها الهرم والضعف فإنّما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف"[2].

تظهر إشكالية تحديد الفترة الزمنية وتحقيبها بالنسبة للدولة الموحدية في فترات ضعفها وبداية انّفصال أقاليمها، علماً أنّه لا خلاف في تحديد تاريخ البداية الرسمية لكيان الدولة من خلال معرفة سنة دخول الموحدين إلى حاضرة المرابطين "مراكش" وسقوطها بأيديهم سنة 541هـ/1146م، وإن سبقت مبادرة اتصالهم بالعدوة الأندلسية لهذه السنة[3]، غير أنّ تاريخ فك الارتباط عنها ينتابه الغموض، وتتضارب حوله الروايات بسبب نشوب الفتن بداية من سنة621هـ/1224م، وتواصلها لعقد من الزمن حسب ما رصده المؤرخون وأهل التراجم، وتقديم ما يبرر ترجيح اختيار سنة 626هـ/ 1228م تاريخ خروجها عن سلطتهم وانبعاث الصراع داخل البيت الموحدي على ما بقي تحت لوائهم من حواضر بلاد المغرب إلى غاية السقوط النهائي لدولتهم على يد المرينيين سنة 668هـ/1269م؛ فما السبب وراء التنبيه على هذا التاريخ بالذات للفصل السياسي بين العدوتين المغربية والأندلسية في الوقت الذي

1- ابن خلدون- المصدر السابق- ج1- ص 373.
2- المصدر نفسه- ص 203.
3- أشار ابن أبي زرع إلى أن سنة 539هـ/1144م ملك فيها الموحدون مدينة شريش الأندلسية وخطب لهم بها، بينما أورد ابن عذاري أنّ أول خطبة خطبت لعبد المؤمن بن علي في الأندلس كانت سنة 540هـ/1145م. ينظر على التوالي الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط -(د ط)- 1972م- ص 262، والبيان المغرب- المصدر السابق- ص 34.

تتضارب فيه السنوات المقترحة في عناوين أبحاث الباحثين المحدثين[1]- سيرد ذكرها في مضامين هذه الدراسة – أو يتم التخلي عن التحقيب الزمني خروجاً من الخلاف مما يصعب على الباحث تعيين تاريخ محدد يعتمد عليه؟

حصر الروايات التاريخية ونقدها:

إنّ الهدف من جمع الروايات وإعادة تفريغ نصوصها وترتيب سنواتها هو معرفة مواطن الاختلاف بين المؤرخين والرواة حول بداية فك الارتباط بين العدوتين المغربية والأندلسية، والوقوف على دواعي تحديدها بسنة 626هـ؛ وهو ما يفتح المجال لأجل رصد تداعيات هذا الاختيار على المستويين السياسي والعلمي.

ذكر ابن عذاري أنّ في سنة 626هـ بدأ ظهور أبي عبد الله محمد بن هود[2] في الأندلس، وطاعت له "أكثر بلادها ورؤسائها وأنجادها وخعلوا طاعة الموحدين عنها وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلاّ من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم"[3]، وانفرد ابن أبي زرع بتحديد شهر ذي القعدة الذي بايع فيه أهل الأندلس ابن هود، وقاموا بإخراج الموحدين من السنة ذاتها[4].

من جهة أخرى أثبت لسان الدين بن الخطيب خروج أبي العلاء إدريس المأمون بن المنصور الموحدي[5] (624-629هـ/1226-1231م) من الأندلس سنة 626هـ قاصدا

1- يظهر ذلك بشكل واضح في عناوين الكتب والرسائل الجامعية المقيدة بقسم البيبليوغرافيا، ويذكر منها كأنموذج دراسة الباحث مصطفى أبو ضيف أحمد عمر- القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين والمرينيين، وعنوانها لا يتطابق مع شرحه للمصطلح في بابها الأول- ينظر بحثه من طبعة ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-(دط)-1982م- ص27.

2- هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي، وقد شكك ابن سعيد في انتسابه إلى بني هود ملوك سرقسطة، وخصّه ابن الخطيب بالترجمة، وأنه ملك بعد الموحدين مرسية و قرطبة وإشبيلية وغيرها، وكان يدعى بأمير المسلمين ويلقب بالمتوكل على الله، وساء حاله في آخر حياته وتوفي مغرباً عن وطنه في مدينة آسفي. ينظر ابن سعيد – المغرب في حلى المغرب- تح شوقي ضيف- دار المعارف- القاهرة- ط4- 1995م- ج2- ص251، وابن الخطيب- المصدر السابق- ص 279.

3- ابن عذاري- المصدر السابق- ص 288.

4- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 275.

5- هو أبو العلاء إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، بويع بالخلافة في إشبيلية سنة 624هـ/1226م، وهو أديب وشاعر بليغ، أشاد بذكره ابن الخطيب وأفرد له ترجمة خاصة في الإحاطة، وقد اختلف

مراكش، ودخوله في أتون الفتنة التي حدثت بين أبناء عمومته، والتي انتهت بوفاته[1]، والرواية ذاتها عند صاحب "تاريخ الأندلس"، ونص حديثه عن ابن هود "واستجابت له أقطار الأندلس فبايعه جميعها ودخلت في طاعته، وخطبت له جميع منابرها؛ وذلك في أول سنة 626هـ"[2]، وتتفق معها رواية ابن خلدون؛ بحيث أورد هو أيضاً السنة نفسها التي استولى عليها ابن هود على الأندلس" وأخرج منها سائر الموحدين، وقاتلتهم العامة في كل مكان"[3].

الظاهر من بين هذه الروايات أن مؤرخي القرن الثامن كانوا مجرد ناقلين للأحداث عن من سبقهم؛ ووقع الخلاف بينهم في ثورة أهل الأندلس بين سنتي 625 و 626هـ، والسنة التي توفي فيها أبو العلاء المأمون، وإن لم يختلفوا في سنة خروجه من الأندلس، ولذلك فالرواية الأرجح بين هذه الروايات هي تلك التي عاصر أصاحبها تلك الأخبار، وكانوا شهود عيان لتفاصيل وقائعها؛ ومنهم: المؤرخ والكاتب ابن عسكر المالقي (ت636هـ/1238م) صاحب كتاب "أعلام مالقة" الذي قدم لنا ترجمة وافية عن ابن هود ووقف على تاريخ مبايعته باليوم والشهر و السنة، حين وصفه قائلاً: "انتظمت له البلاد واتّفقت الأقطار على مبايعته والدخول في دعوته؛ فبايعه الناس في بلاد الأندلس، وخلعت دعوة الموحدين منها، وذلك في عام 626هـ"[4]، وظهرت نصوص روايات الكتاب أكثر ترتيباً؛ بحيث رتّبت الخطوة التي أقدم عليها ابن هود قبل بيعته في مدينة مالقة[5] عندما عيّن أحد أعيانها قاضيا عليها في العام ذاته[6]، وما يؤكد ضبطه للحقبة الزمنية لهذه الأحدث هو تفصيله للبيعة العامة من أهل مالقة لابن هود التي تأخرت إلى "يوم الإثنين 29 من شعبان

في سنة وفاته فقيل 629هـ/1231م، وقيل 630هـ/1232م. ابن عذاري- المصدر السابق- ص 274. الإحاطة في أخبار غرناطة- ضبط وتقديم- يوسف علي الطويل- دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 2003م- ج1- ص 222.

1- ابن الخطيب- الإحاطة في أخبار غرناطة- ضبط وتقديم- يوسف علي الطويل- دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 2003م- ج1- ج1- ص 223.

2- مؤلف مجهول- تاريخ الأندلس - تحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 2007م- ص 265.

3- ابن خلدون- المصدر السابق- ج6- ص 341.

4- ابن عسكر، أبو عبد الله محمد الغساني وابن خميس، أبو بكر محمد - أعلام مالقة - تح عبد الله المرابط الترغي- دار الغرب الإسلامي ودار الأمان- الرباط - ط1- 1999م- ص 174.

5- مدينة بالأندلس على شاطئ البحر عليها سور من صخر، وهي حسنة عامرة في غاية الحصانة والمنعة، وبها مبانٍ فخمة وحمامات حسنة وأسواق جامعة. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص ص 517- 518.

6- هو القاضي محمد بن الحسن بن محمد الجذامي المالقي يكنى أبا عبد الله، من حسباء مالقة وأعيانها، عرف بنظمه للشعر، وتولى قضاء مالقة أيام بن هود إلى غاية وفاته بغرناطة سنة 631هـ/1233م. المصدر السابق- ص 165.

من العام بعده، فأول جمعة أقيمت لدعوته ودعوة العباسيين كانت في 4 من رمضان من العام المذكور"[1]، ويمكن أن يفسر ذلك بالبعد الجغرافي لمدينة مالقة في أقصى جنوب الأندلس، وقربها من بلاد المغرب.

وأما من تأتي روايته في المرتبة الثانية من حيث الترتيب الزمني؛ فهو المؤرخ ابن سعيد الغرناطي (ت685هـ/1286م) الذي عاصر هذه الأحداث وأثبت في كتاباته ما يدل على ذلك؛ حين صرّح برؤيته لشخص ابن هود ومعاصرته له بقوله: "وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة"[2]، وحدد بداية الاضطرابات "ولما كانت سنة 625هـ وثارت الأندلس على مأمون بني عبد المؤمن بسبب قيام ابن هود"[3]، ثمّ أثبت ظهور الثورة على الموحدين وخروج أبي العلاء المأمون عن الأندلس بقوله: "وصفا الأمر لأبي العلاء بالمغرب دون الأندلس، ثمّ مات سنة 630هـ"[4]، مما يجعل تقديم روايته أولى من رواية من تأخر عنه.

أما الروايات التي اعتمد عليها بعض الدارسين المحدثين في حصر تاريخ خروج الأندلس عن سلطة الموحدين عسكريا وسياسيا، وتأثر علاقتهم بالمجتمع في العدوتين الأندلسية والمغربية؛ فهي تختلف باختلاف مغزى ما تشير إليه أحداث كل سنة؛ فمنهم من توقف عند سنة 609هـ/1212م تاريخ انهزام الموحدين في معركة العِقاب[5]، وبالرغم من أنّ هذه المعركة أحدثت خللاً في ميزان القوى بين المسلمين والنصارى، وكانت لها انعكاسات سلبية على الحياة السياسية والاجتماعية في المغرب الإسلامي إلاّ أنّها لم تقطع صلة الدولة بأقاليمها، ولم تؤثر على الوجود العسكري للموحدين في الأندلس ممثلاً في

1-ابن عسكر وابن خميس- المصدر السابق- ص 174.

2- المقري- أبو العباس أحمد- نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب- تحقيق إحسان عباس- دار صادر- بيروت- (د ط)- 1988م -ج1- ص 222.

3- المصدر السابق-ج4- ص 464.

4- المصدر نفسه - ص 384 وص 464.

5- اعتبر الباحث محمد العمراني أنّ موقعة العِقاب في الأندلس سنة 609هـ/1212م - انهزم فيها المسلمون بقيادة محمد الناصر وكانت الغلبة للنصارى- هي تاريخ نهاية القوة العسكرية للمسلمين في الأندلس في الفترة الموحدية، غير أن ذلك لا يقوم دليلا على هذا التحقيب؛ وبخاصة أنه ربط موضوعه بعلاقة الدولة بالمجتمع، بينما تتحدث الروايات عن استمرار الرابطين معا لأزيد من عقد من الزمن. تنظر دراسته: الموحدون في الأندلس، الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع (541-609هـ/1147-1212م)- أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ غير منشورة - جامعة محمد الخامس أكدال- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط -2002-2003م- ص ص 17-36.

الجيوش التي بقيت مرابطة في المناطق الغربية منها، وصمدت في الدفاع عن المدن الأندلسية بعد هذه المعركة؛ وهي بذلك محطة من محطات سجال الحروب بين المسلمين والنصارى في الأندلس بدليل ما أكد عليه صاحب الروض المعطار عن "وقعة الحمار" نسبة إلى "موضع من عمل إشبيلية كانت فيه وقعة للمسلمين على النصارى، وذلك سنة 610هـ"[1]، وفيها واجه المسلمون جيوش ممالك الشمال النصرانية التي زحفت نحو المناطق الغربية للأندلس "فخرج السيّد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن صاحب إشبيلية بعسكر الأندلس الوافر الذي لم تلحقهم معرة العِقاب في السنة الماضية"[2] ثمّ أورد مجرياتها وآلاف من قتل فيها، وختم بالقول: "وكانت وقيعة تُحُدّثَ بها زمانًا، وما زال أهل إشبيلية يعتزون بما اتفق فيها"[3].

هناك من اتخذ من سنة 630هـ/1232م تاريخاً لنهاية الوجود الموحدي لأنها السنة التي توفي فيها المأمون بن المنصور- حسب إحدى الروايات- وبداية نشوب الصراع الداخلي في بلاد المغرب والذي مهد بدوره إلى ظهور النزاعات الإنفصالية بين أمراء البيت الموحدي، وهذه السنة - مع ورود الاختلاف حولها- لم ترد أصلاً ضمن الروايات السابقة، ولا تقوم مقامها.

أما من أوصلها إلى سنة 635هـ/1237م فمن أجل التأكيد على عودة الأندلس إلى سلطة الموحدين[4]؛ ومن نصوصها ما ذكره ابن سعيد من أنّه بعد وفاة المأمون عُقدت البيعة لابنه

1- ربط ابن عبد المنعم الحميري بين روايات هذه المعارك، ورتبها ترتيبا كرونولوجيا بداية بانتصار محمد الناصر على النصارى في معركة شلبطرة سنة 608هـ/1211م، ثم انهزامه في العِقاب سنة 609هـ/1212م، والعودة إلى الانتصار في وقعة الحمار سنة 610هـ/1213م. المصدر السابق- ص ص344- 611، ومن الغريب أنّ ابن عذاري تجاوز هذا الحدث ولم يشر إليه. المصدر السابق- ص 265.

2- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 612.

3- نفس المصدر والصفحة.

4- ذكرت سنة (635هـ) عند ابن الخطيب في أعمال الأعمال على أنها السنة التي دخل فيها المأمون إلى الأندلس عند مواجهته لابن هود، وابن الخطيب هو ذاته من أورد أنّ وفاة المأمون كانت سنة 630هـ مما يعني أنه خطأ من النساخ دون أن يشير إلى ذلك المحقق ليفي بروفنسال، و لم يتنبه أيضا سيد كسروي حسن لهذا الخطأ عندما أعاد تحقيق الكتاب. تنظر نشرة ليفي بروفنسال - المصدر السابق- ص 279. وطبعة دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2003م- ج2- ص 248.

عبد الواحد الرشيد[1] "وبايعه بعض أهل الأندلس"[2]، غير أنّ صيغة التبعيض التي أوردها تتضح أكثر عند ابن أبي زرع وابن عذاري وابن خلدون الذين تتفق روايتهم على أنّ وفداً من أهل إشبيلية بزعامة أبي عمرو بن الجد[3] اتجه إلى العدوة لمبايعة الرشيد بعد نشوب الثورة فيها ضد ابن هود، وهناك رواية تعود للعصر الموحدي تثبت أنه بويع بعد وفاة أبيه بيعة خاصة لا عامة، وحسب سياق هذه الروايات فإنّ ولاء فئة من المتنفذين للموحدين هي التي كانت وراء محاولة إعادة الدعوة الموحدية وإحيائها؛ وبخاصة أنّ والده المأمون عمل منذ سنة 626هـ/1228م على تغيير رسوم الدعوة؛ ولا يستبعد معها إرباكه للطلبة وأنصار سلطته بإعلانه زوال العقيدة التومرتية التي خط معالمها ابن تومرت[4](ت524هـ/1129م) داعية الموحدين وإنكار عصمته ومهديته، وإسقاط اسمه من الخطبة، بينما خالفه ابنه عبد الواحد الرشيد فأعاد الأمر على ما كان عليه في محاولة لإعادة إحياء تلك الرابطة الشرعية غير أنها باءت بالفشل[5].

تزامنت هذه الظروف مع ظهور أمير أندلسي طموح عمل على جمع كلمة الأندلسيين تحت رايته في ظل غياب سلطة توحد صفوفهم عرف باسم ابن الأحمر[6] غير أنّ الأحداث العصيبة والمضطربة التي مرت بها الأندلس خلال ثلاثينيات القرن السابع الهجري الثالث

1- هو أبو محمد عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس المأمون بن أبي يوسف يعقوب المنصور، بويع له بعد وفاة أبيه المأمون، وعرفت فترة توليه اضطرابات سياسية عديدة إلى غاية وفاته سنة 640هـ/1242م. ابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 299-359.

2- المقري- المصدر السابق- ج4- ص 384.

3- لم أقف على ترجمته، وكل ما ورد عنه أنه كان أحد موظفي الدولة الموحدية في إشبيلية، وذكر بعد ذلك في أحداث سقوط مدينة إشبيلية.

4- هو محمد بن عبد الله المعروف بان تومرت، وقد رفع مؤرخوا الدولة الموحدية نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونقل ابن أبي زرع عن غيرهم أنّه دعي في هذا النسب، وأنّه رجل من هرغة إحدى قبائل المصامدة، بينما تمسك ابن خلدون بصحة نسبه الشريف، رحل ابن تومرت في طلب العلم إلى بلاد المشرق، وعند عودته أعلن الثورة على المرابطين وتسمى بالمهدي وادعى العصمة سنة 518هـ/1123م، ووضع لأتباعه مناهج فقهية وعقدية مستنبطة من الكتاب والسنة، وبعد وفاته سنة 524هـ/1129م استمر خلفاؤه بالدعاء له في المنابر والمحافل بالمهدي المعصوم، ونشروا كتبه وآراءه. ينظر عن حياته ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 172، وابن عذاري- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب- تح بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد- دار الغرب الإسلامي- تونس- ط1-2013م- ج3 - ص ص 55-70، وابن خلدون- المصدر السابق- ج6- ص 371.

5- ابن خلدون- المصدر السابق- ص 381.

6- هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي الأنصاري، ملك مدينة غرناطة عام 635هـ/1237م، مؤسس الدولة النصرية، وقد استمر في ولايته إلى غاية وفاته سنة 671هـ/1272م،ابن الخطيب- اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية- نشره محب الدين بن الخطيب- المطبعة السلفية- القاهرة- (دط)-1347هـ/1928م- ص ص21-22، و- أعمال الأعمال- ص278.

عشر ميلادي فرضت عليه عدم قطع صلته بحكام بلاد المغرب؛ فكان يدعوا لأمرائهم على المنابر طلباً للعون والمدد سواء من ممثلي سلطة الموحدين في مراكش ثمّ من الحفصيين في إفريقية[1] بحكم الخطر النصراني الذي كان يهددهم، وتوالي سقوط المدن الأندلسية الكبرى في أيديهم[2].

نخلص من هذا العرض للروايات أنّ خروج إدريس المأمون الموحدي من الأندلس في سنة 626هـ/1228م وقيام الثورة في مدنها كان بمثابة إعلان نهاية الوجود العسكري والسياسي للموحدين في الأندلس، ولم يثبت بعد هذا التاريخ أن وطأها خلفاء الدولة وولاتها بما في ذلك مدينتهم المفضلة إشبيلية.

تكمن أهمية إعادة ترتيب هذه المعطيات في تتبع الأحداث السياسية بين الأندلس وبلاد المغرب في التحديات التالية:

- إمكانية استمرار الدعوة الموحدية والإقرار بالولاء لها، وعلاقة السلطة على اختلاف توجهاتها السياسية والعقدية بالمجتمع الأندلسي في خضم التغيرات التي عرفتها الدولة في الثلث الأول للقرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وتأثيرها في الحياة العلمية على وجه التحديد.

- القدرة العسكرية للموحدين على مواجهة التمردات، وأهمية الربط بين البعدين السياسي والعلمي في مقاربة التواصل التاريخي بين العدوتين.

- معرفة مصير العصبية القبلية ممثلة في قبيلة المصامدة ومن انضوى تحت لوائها من القبائل البربرية والعربية التي تم توطينها بداية من النصف الثاني للقرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي[3]؛ واستمرار ظاهرة استيطان هذه القبائل لمختلف المدن والحواضر

1- ابن الخطيب- اللمحة البدرية- ص34. ابن خلدون- المصدر السابق- ج6- ص396.

2- منها سقوط جزيرة ميورقة سنة 627هـ ومدينة قرطبة سنة 633هـ/1235م، و بلنسية سنة 636هـ/1238م.

3- أشار البيدق إلى عمليات التوطين المتعمدة التي لجأ إليها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في المدن الأندلسية لتأمين استقرار المناطق الثائرة، تنظر أسماء هذه القبائل في كتابه أخبار المهدي بن تومرت- تح عبد الحميد حاجيات- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر- ط1- 1975م- ص 136.

الأندلسية على مدار فترة قاربت القرن من الزمن، وخلالها أنشأت بعض المدن والقصبات لتأمين استقرارها[1] "فظهرت شريحة اجتماعية جديدة مسيطرة حلت مكان تلك الشرائح القديمة"[2]؛ وهو ما أسهم إجمالاً في تعدد ذكر أسماء أعلام المغاربة في الأندلس، وفي المقابل سجل ارتفاع في أعداد من دخل من الأندلسيين إلى بلاد المغرب عند تتبع سير حياتهم في مصنفات طبقات العلماء والأعيان؛ وهو ما سيتم الوقوف عليه في ثنايا هذه الدراسة.

أهمية الإحصاء الكمي في بنية التراكم المعرفي:

إنّ اختيار مصطلح "الروابط العلمية" ضمن فواصل الحدود التعريفية المقترحة بعنوان الدراسة إنّما فرضته طبيعة الموضوع الذي يرتكز بالأساس على مفهوم التواصل العلمي بين صقعين مختلفين جغرافياً وحضارياً، وفيه ما يشير إلى معنى الرابطة والوحدة التي كانت إحدى الأهداف التي بُنيت عليها الدعوة الموحدية في بعديها السياسي والحضاري، وأنّ نهجها الديني الذي سلكته ضاعف من قوة عصبيتها[3] التي رسخت منذ بداية الظهور الفعلي للدولة المحتظنة من وفور قبائلها، والمتميزة برسومها وتنظيماتها، واستفادتها من الزخم العلمي والحضاري الموروث عن العهود السابقة والبناء عليه ضمن مسار التراكمية المعرفية.

وأبلغ ما يستشف من المركب اللفظي "الروابط العلمية": هو معرفة مدى انسياب حركة تداول المعارف والفنون بين حواضر بلاد المغرب والأندلس في العصر الموحدي، هذه الحركية الفعّالة التي اختار لها ابن خلدون في رصده لتاريخ العلوم تعبير يتناسب مع هذا الوصف ويؤكده؛ وهو اتصال سند التعليم أو انقطاعه[4]، وأفرد لها غيره من أهل التراجم

1- من أشهرها بناء قصبة إشبيلية سنة 543هـ/1148م، ومدينة جبل الفتح التي أنشأها عبد المؤمن بن علي بجبل طارق سنة 555هـ/1160م، وعميات التوسعة التي عرفتها المدن الأندلسية في فترات أبنائه وأحفاده. ينظر عنها ابن عذاري- المصدر السابق- ص 39، و ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة و جعلهم الوارثين- تح عبد الهادي التازي- دارالأندلس للطباعة والنشر- بيروت- ط1- 1964م- ص137.

2- عز الدين موسى- الموحدون في الغرب الإسلامي- تنظيماتهم ونظمهم- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1-1991م ص213.

3- ابن خلدون- المقدمة -ج1- ص 198.

4- المصدر السابق- ص544.

مصطلح "التجول"[1] للتعبير عن كثرة ارتحال العلماء وتنقلهم بين المدن، وأنّ اختيار مصطلح "العلمية" إنّما ورد لتوافقه مع التعابير المتفق عليها في المضامين النصية للأندلسيين والمغاربة في العصر الوسيط؛ بحيث قد يعتري غيرها القصور حين إطلاقها كمفاهيم للتعبير عن العلوم على اختلاف أنواعها، وهي عندهم أشمل لفظ استعمل للتعبير عن "الأفانين التي يطلق عليها في قديم الدهر وحديثه اسم العلم والعلوم"[2].

توالى هذا اللفظ وتكرر في تضاعيف مدوناتهم فظهرت مصطلحات "المجالس العلمية" و"المادة العلمية"[3]، و"الحلق العلمية" وما يناقش فيها من "المسائل العلمية"[4]، وغيرها من "فنون المقاصد العلمية التي يحرص الأفاضل على نيل بعضها من أكابر شيوخهم"[5]، وظهر هذا الإجماع الإصطلاحي وعمّم استعماله بين أهل العلم من دون أن يعوزهم القصور إلى ألفاظ أخرى تأكدت وفرتها المعجمية، ولذلك ألحق بها ابن خلدون جميع ما ارتبط بموضوعاتها من مظاهر المعرفة، لاستجلاء مقاربة توضح المجال والغاية من الملكة العلمية[6]، وأضحى بذلك "شعار العلمية"[7] يطلق ويراد به عموم العلوم النقلية والعقلية.

أفضل طريقة يمكن الاعتماد عليها في تقريب صور التواصل العلمي بين بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الموحدي؛ هو اتباع مسلك البيانات الإحصائية الوصفية لتاريخ العلوم والمعارف وما دوّن حولها، والإحاطة بتداعياتها وأبرز مظاهرها في الحياة العلمية، ومعرفة أعلام العصر بحسب علومهم ومراتبهم وإنتاجاتهم، وما اتصل بسّيرهم ومكانتهم في المجتمع، والوقوف على مختلف المناهج المطبقة في المراكز التعليمية، وأنواع الطرائق المتعارف عليها بين الشيوخ في عمليات التلقين المعرفي وما خبروه على مدار السنين المتعاقبة في الأندلس وبلاد المغرب.

1- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص 48.
2- ابن حزم، أبو محمد علي- رسائل ابن حزم الأندلسي- تحقيق إحسان عباس- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت-ط2- 1983م- ص81.
3- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد- التكملة لكتاب الصّلة- تح عبد السلام الهراس- دار الفكر- بيروت- (د ط)- 1995م- ج2- ص 65. ابن خلدون- المصدر نفسه- ص 546.
4- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ص 171
5- المصدر نفسه- ص 172.
6- ابن خلدون- المصدر السابق- ص 545.
7- المصدر نفسه- ج5- ص 346.

ومن أبرز السمات التطبيقية لهذا المنهج في دراسة الظواهر العلمية في العهد الموحدي:

- توثيق أسماء الأعلام حسب تخصصاتهم (عناصر تتوافق سنوات وفاتهم مع العصر المؤرخ).

- توثيق المدوّنات وتصنيفها (نماذج لعيّنات من الكتب على اختلاف موضوعاتها).

- ترتيب المراكز التعليمية ومعرفة مواضعها الجغرافية فيما يتناسب مع معالم الحدود السياسية للدولة الموحدية.

- القدرة عل الربط بين البعدين الحضاري والسياسي.

ولا مناص من العودة إلى النصوص والوثائق المصدرية للوقوف على ما يمكّن الباحث من استخلاص آراء تدعم أصل مذهبه في البحث، ومنه يتم توثيق نصوص الموارد الأصلية المرتبطة بالفترة الموحدية والمقارنة بينها في العملية الاستدلالية.

تأتي كتب التراجم على قمة سلم الوثائق المصدرية التي سيتم الاعتماد عليها بشكل كبير لسبر غور محاور هذه الدراسة؛ وذلك لارتباطها الوثيق بالنشاط المعرفي للأعلام المترجم بهم سواء تعلق الأمر بإسهاماتهم في الميادين التعليمية أو إنتاجاتهم المجسدة في مختلف المصنفات والرسائل العلمية.

والواقع أنّ هذا النوع من الأساليب المنهجية يتوافق إلى حد كبير مع مصادر التراجم التي تعتمد على الإيجاز في توفير المعلومات الإحصائية عن أعلام العلماء بداية بأصل التسمية والنشأة العلمية، وربطها بالانتماء الجغرافي ثمّ الإسهام العلمي والحضاري، وتختم بذكر سنة الوفاة؛ وهي المعيار الذي يضبط على أساسه عصر الشخص المترجم به.

على الرغم من أنّ هذه المعطيات إيجابية بالنسبة للباحث عن الحياة العلمية في مجمل حواضر بلاد المغرب والأندلس إلاّ أنّ لها جوانب سلبية أخرى تعود بالأساس إلى شروط التأليف المنصوص عليها في ثنايا كتب السواد الأعظم من أهل التراجم - أكثرهم من أهل الأندلس- الذين أفردوا الترجمة لأهلهم دوناً عن غيرهم، واعتبروا من وفد إليهم وإن

استوطن أرضهم من الغرباء وعلى هذا الأساس تم تصنيفهم، في حين أخملوا ذكر غيرهم من المغاربة وإن كانوا من ذوي العلم والنباهة لمجرد أنهم لم يدخلو الأندلس، في حين أثبتت التراجم انتقال طلبة الأندلس إليهم للرواية عنهم؛ ولهم بذلك يد في الروافد المكونة للحياة العلمية بالعدوة الأندلسية.

من بين الدراسات التي اهتمت بالعطاء المعرفي للعلماء سواء تعلق الأمر بالحركة التأليفية، أو القيام بمهنة التدريس ونشر العلوم على مدار الحقبة الزمنية الممتدة بين القرنيين الخامس والسابع الهجريين الحادي عشر والثالث عشر ميلاديين (5-7هـ/11-13م)؛ هي الدراسة الأكاديمية للباحث الفرنسي دومنيك إرفوي الموسومة بـ"عالم علماء الأندلس"، والتي اتّبع فيها منهج الإحصاء الرقمي والبياني لإعطاء صورة عن حال الحياة العلمية، وإسهام العلماء فيها من حيث أعدادهم وتوزيعهم الجغرافي، غير أنّ نتائج هذا النوع من الأبحاث تبقى محدودة في ظل اعتمادها على الأرقام والبيانات -على اختلاف أنواعها- وتجريدها الكلي من الوثائق والقرائن النصية، إضافة إلى عدم وضوح صورة التواصل الحضاري مع بلاد المغرب في الحقبة التي تحولت فيها الأندلس إلى مجرد إقليم تابع إداريا لمدينة مراكش، وتغيرت على إثر ذلك جملة من المعطيات الحضارية والبشرية مع تولي المرابطين ثمّ الموحدين[1].

توالت بعد هذه المرحلة العديد من الدراسات ضمن ذات التحقيب الزمني واستندت إلى العمليات الإحصائية لمختلف العلوم الشرعية واللسانية وما اتصل بها أو تفرع عنها من فنون علمية كالفهرسة والتوثيق أو ظواهر اجتماعية كظاهرتي التصوف وهجرة العلماء - وسيتم الوقوف على العديد منها في فصول هذا البحث- غير أنّ الأندلس حازت النصيب الأوفر من مجمل هذه الموضوعات، ولم يظهر معها دور أهل بلاد المغرب بالقدر الذي نالته الأندلس وأهلها؛ ولذلك ارتكزت مقاربة هذه الدراسة على محاولة التوفيق بين المحاور المنهجية والموضوعاتية الثلاثة:

1- Dominique Urvoy : Le Monde des Ulémas Andalous du V/XI^{e} au VII/ XIII^{e} siècle, librairie droz, Genève- 1978 , PP 139-181.

- الاستعانة بالعمليات الإحصائية والوصفية للظاهرة العلمية في العصر الموحدي.
- الربط بين العدوتين المغربية والأندلسية فيما اتصل بالمعارف والعلوم دون إغفال لبعدها السياسي.
- التنويع في نصوص ووثائق المصادر المطبوعة والمخطوطة التي تعود إلى الحقبة الموحدية أو قريبة عهد بها.

يكاد يجمع السواد الأعظم من الباحثين- على اختلاف أجناسهم ومدارسهم الفكرية- عن دور الحضارة الإسلامية الغنية بقيمها الروحية ومظاهرها المادية في تطوير مناهج البحث والرفع من مستويات التفكير لقرون من الزمن خدمة للحضارة الإنسانية، وبعيداً تماماً عن ضروب التهويل والتخويف التي تتخندق خلفها بعض الأبواق المشككة في الإنتاجات المعرفية للمسلمين؛ بل وفي الإسلام ذاته، هذه الحضارة التي ارتكزت في انطلاقها على المعاني السامية لوجوب نفاذ أمر الظاهرة العلمية المختزلة في الفعل "إقرأ"، ومن الملاحظ أنّها لازالت تثير اهتمام من تعلّق بموروثها المصدري المخطوط من حيث التنقيب عنه والكشف عن قيمته العلمية في إعلان عن استمرارية عطائها المتجدد، وقد وقع الاختيار على حلقة من تاريخها الطويل تبحث في تاريخ العلوم واتصالها بين الشعوب بمعالم زمنية ومجالية محددة سميتها **"الروابط العلمية بين بلاد المغرب والأندلس على عهد الموحدين (541-626هـ/1146-1228م)"** ضمن مقاربة تاريخية الهدف منها الكشف عن سبل ومظاهر التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، وفي اعتماد المؤرخين والجغرافيين لمصطلح "العدوتين" أكثر من دلالة تعبيرية على القرب وسهولة الرحلة بالرغم من التباين التاريخي والجغرافي والاجتماعي بين الصُقعين.

ومن دواعي اختياري لهذا الموضوع:

- اهتمامي بتاريخ المغرب الإسلامي وحضارته عامة، وتعلقي بتتبع مختلف العلوم والفنون و حركيتها عبر التاريخ.

- محاولة الوقوف على أبرز جوانب الإسهامات الحضارية والعلمية للمغاربة والأندلسيين ضمن مقاربة الروابط العلمية ومعرفة مدى نجاعتها، وإعادة ترتيب مختلف المعطيات والنصوص التاريخية لاستنباط آراء ومفاهيم أقرب لفحوى هذه الوثائق المصدرية بعيداً عن التأويل وتحميل النص ما ليس فيه.

- محاولة رصد آراء المؤرخين والباحثين عن الوتيرة التنافسية الحاصلة بين العدوتين، وتدافعها الحضاري، ومدى تأثرها بالتحولات السياسية والاجتماعية في ظل الهيمنة الموحدية على مشاهدها التنظيمية ذات الأبعاد العقدية والمذهبية.

تفرض طبيعة الموضوعات ذات المسالك المتداخلة الاستفهام عن التأثيرات السياسية للسلطة الموحدية في مشهد الحياة العلمية، وكيفية تفاعل المصادر والموارد المرافقة لهذه الحقبة الزمنية أو القريبة منها مع ما اشتهر من العلوم في المرحلة الوسيطية والطبائع المصاحبة لمنتحلها من حيث الإثبات والنفي أو الإقبال والنّفور ومبرراتهما ؟ ويتفرع عن محورها محاولة الإجابة عن مدى تأثر هذه المعارف بتداعيات الأنماط الاجتماعية والتاريخية التي عرفتها المنطقة؟ وما أبرز تأثيراتها في ذهنية العالم والمتعلم وفرص تواصلهما من عدمه بين بلاد المغرب والأندلس سواء لمن اهتم بالنقليات أو العقليات منها ؟ وهل ثمة ما يفيد في معرفة دوافع ظهورها وانتشارها أو معوقات انحسارها وأفولها؟

ومن هنا تتضح أهداف الموضوع في إمكانية التعرف على تأثير الأبعاد السياسية والاجتماعية بظهور الحكام المغاربة في إدارة الدولة المشرفة على الشؤون العامة للسكان، وربطه بالأبعاد و الاعتبارات المعرفية للعناصر المعنية بالدراسة ممثلة في نخبة المجتمع وأعيانه، وتتبع ذكر أعلام العلماء في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتب التراجم ومحاولة تحديد فوارق المجال الجغرافي بين الأندلسيين والمغاربة، ثم مقارنتها بعهودهم السابقة عن الفترة المدروسة.

نظراً إلى طبيعة الموضوع المركبة وتعدد مسالك أبعادها السياسية والعلمية آثرت الاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي في تتبع الأطوار التاريخية التي مرّت بها حركة التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، ودعمه بالمنهج الإحصائي الكمي لأجل سبر غور إسهام الأعلام ومعرفة أسمائهم ومراتبهم العلمية ومواطن استقرارهم؛ وهو ما حتم إدراجهم ضمن جداول إحصائية جمعت بين التحقيب الزمني والمجال الجغرافي للأعلام المترجم بهم، مع الوقوف على إنتاجهم العلمي وإسهامهم الحضاري، والغاية من ذلك هو الاطلاع على مدى فعالية مبادراتهم الفردية والجماعية في انتقال العلوم ونشرها بين ضفتي المتوسط، ورصد دور السلطة الموحدية في الأحداث التي رافقت الظاهرة العلمية ذات الشهرة الواسعة بالمجتمعات الإسلامية في الحقبة الوسيطية على اختلاف تجلياتها ومشارب روادها.

تعددت الأبحاث التي رصدت مختلف مناحي الحياة السياسية والعلمية في بلاد المغرب والأندلس في عصر الدولة الموحدية؛ غير أنّ ما وقع بين أيدينا منها لا يكاد يظهر بالشكل والمضمون اللذين ظهر بهما الصُقع الأندلسي وأهله لاسيما حركة تنقل العلماء- في شمول استغراق هذا الجمع لأهل العلم ومن انتسب إليهم- من أهل العدوتين ضمن هذا المجال الجغرافي، وما من تفسير واقعي ومقنع لاهتمام جمهرة من الباحثين المحدثين بالأندلس إلى درجة الانبهار ومنذ ثلاثينيات القرن الماضي إلاّ لأنهم أحيطوا بزخم تراثي مشبع ومتنوع بعطائه العلمي والحضاري المستفاد من رسوخ أقدام المسلمين فيها زهاء الثمانية قرون.

الظاهر من هذا التفوق الأندلسي - منذ العهد الأموي- وما قابله من تأخر في بلوغ بلاد المغرب وأهلها للمستوى المادي والحضاري الذي عرفته الأندلس بالرغم من ظهور بوادر المنافسة والمجاراة إلاّ أنّ هذا انعكس على معظم الدراسات التي انساقت ورواء الموضوعات ذات المواد المصدرية الوافرة، وابتعدت عن نظيرتها التي تشهد شحا في المعلومات وندرتها في أحايين كثيرة، غير أنّ هذا لم يمنع من ظهور بعض الأبحاث العلمية والأطروحات الأكاديمية التي رصد أصحابها أوضاع الحياة العلمية بمختلف تجلياتها بين العدوتين الأندلسية والمغربية في العصر الموحدي؛ ومنها: ما قدمه محمد المنوني في كتابه "حضارة الموحدين" بحيث عدّد أنواع العلوم والفنون التي انتشرت في عهد الدولة الموحدية، وبيّن دور خلفائها في تشجيع عامة الناس على تعاطيها والاشتغال بها إلاّ أنه أولى اهتماما واضحاً لقطر المغرب الأقصى فلم تنل بقية المدن والحواضر في بلاد المغرب إلاّ النزر القليل، وسار على هذا النهج مواطنه علي عبد الله علام في بحثه "الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي".

وفي عمل أكاديمي قدم الباحث يوسف العريني دراسة عن "الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين"، وفيها إحاطة بالموضوع من خلال ما رصده من مصادر تاريخية وتراجمية أثرت دراسته؛ بيد أنه أفرغ جهده في تتبع إسهامات الأندلسيين وأخبارهم، ولم يحظ غيرهم من المغاربة؛ وبخاصة من دخل منهم إلى الأندلس بنصيب وافر من الترجمة والتنويه، وأكثر من ذلك أنه تجنب الخوض في الجوانب السياسية والعقدية لدى الموحدين فلم تظهر صورة علاقتهم بالحركة العلمية التي عرفتها المنطقة في عهدهم.

من بين الدراسات التي فتحت المجال للنقاش حول أبعاد تأثير الاختلافات المذهبية والعقدية للموحدين في حياة أهل المعارف بين بلاد المغرب والأندلس ظهرت دراسة الباحث محمد المغراوي في رسالته للدكتوراه والموسومة بـ"العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين"، ولكن اقتصاره على طبقة المتصوفة ينسجم مع ما تمّ إقراره آنفاً من شح المادة العلمية المتعلقة ببلاد المغرب خلافاً للمتصوفة الذين تعددت مصادر تراجمهم لا سميا في القرنيين السادس والسابع الهجريين، وذاك كان مسعى الباحث وغايته من خلال وقوفه على معلومات أثرى بها دراسته، ولكن ما يلاحظ على هذه الدراسة أنّ صاحبها غلّب الجانب التصوفي على غيره حتى عند الأعلام الذين ورد التصوف في حياتهم عرضاً وليسوا متصوفة بالأساس، إضافة إلى أنّ مصطلح "المغرب" الوارد في عنوان الأطروحة محدود المعالم الجغرافية بما لا يتوافق مع الحدود السياسية للدولة الموحدية في أقصى اتساعها.

ولهذا الغرض حاولت الاطلاع قدر الاستطاعة على ما وقع بين يدي من مصادر ومراجع لإثراء موضوع البحث وتنويع موارده المطبوع منها والمخطوط، واقتناء العديد منها، والاستفادة من آراء من سبقني من الباحثين الذين اهتموا بالأبحاث ذات الصلة بموضوع الأطروحة؛ ولأجل ذلك لم أكتف بما حصلت عليه في جامعة وهران فقمت بزيارة جامعة الجزائر العاصمة وكبرى مكتباتها، وجامعتي منتوري والأمير عبد القادر بقسنطينة، كما سافرت إلى جامعة تونس واطلعت على أبرز الأطروحات العلمية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وما احتوت عليه مكتبتها، وتجولت بين بعض جامعات المملكة المغربية وعدد من مراكز البحث وخزائن المخطوطات بها.

قسّمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول وقسم خاص بالملاحق، وقدمت لها بمقدمة استهلالية وفصل تمهيدي ورد فيه عرض توضيحي للمعالم الاختيارية المركبة في عنوان الأطروحة بغرض استجلاء أبعاده الزمنية والمجالية، وبسط القول في إشكالية الاختلافات المنهجية الظاهرة عند المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين، وتقديم مبررات التوصيف الإصطلاحي لعبارة "الروابط العلمية" عند مؤرخي العلوم، وأهمية المرافقة الإحصائية للنصوص التاريخية في استنباط الآراء واستخلاص النتائج.

وأما الفصل الأول فكان عن الأوضاع السياسية وتأثيرها في الحياة العلمية بالعصر الموحدي بداية بالمرحلة التي أعقبت سقوط مدينة مراكش، وإعلان نهاية الدولة المرابطية، وكيفية تعامل الموحدين مع ما شهدته الأندلس من اضطرابات، ومعرفة تأثيرها في حياة الأندلسيين؛ وبخاصة طبقة العلماء، ثمّ تتبع أبرز الأعمال التي قام بها الموحدون بعد جوازهم إلى الأندلس سواء تعلق الأمر بالجوانب السياسية والأمنية أو الحياة العلمية لتكاملهما في تحقيق غاية التواصل والاستقرار مع عرض لأهم نتائج إسهاماتهم في المجال العلمي.

وأما الفصل الثاني فتم فيه رصد أبرز الأعلام الذين أسهموا في تولي الخطط الدينية والإدارية في الدولة الموحدية سواء كانوا من الأندلسيين أو المغاربة، وتقديم ما يبرر كثرة تواجدهم في بلاد المغرب مقارنة بالعهود السابقة، وتتبع أهمية ظهورهم على رأس الهياكل التنظيمية للدولة، و مدى تأثير مكانتهم في المجتمع، ومبلغ استفادة الموحدين من هذا الدور في ترسيخ سلطتهم بالعدوتين المغربية والأندلسية، والتعرض للخصائص التي ميّزت الإدارة الموحدية خلال الفترة التي أدار فيها خلفاء الدولة وولاتها جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والحضارية.

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن أشهر العلوم النقلية التي تم تداولها في المراكز التعليمية، ومعرفة عوامل انتشارها وتحليلها عند مقارنتها ورصد أبرز أعلامها، والهدف من ذلك هو الاطلاع على مدى تأثير الظروف المحيطة بحياة العلماء في دعم أواصر التواصل المعرفي بين المغرب والأندلس، والتطرق إلى مظاهره والعوامل المحفزة على انتشار العلوم، ودوافع طبقة العلماء في اختيار مناطق استيطانهم، والتعرف على علاقتهم بالسلطة الحاكمة، وما تخلل ذلك من مناقشات لآراء الباحثين حول جملة من الأطروحات والنظريات التي ظهرت في أبحاثهم عن تاريخ العلوم في العصر الموحدي.

أما الفصل الرابع فورد فيه التأريخ للعلوم العقلية ومحاولة تقصي أبرز معالمها، والترجمة لأشهر المشتغلين بها مع التطرق إلى إشكالية النفور من بعض فنونها؛ وهي الظاهرة التي عرفتها العصور الإسلامية في مرحلتها الوسيطية، ومناقشة آراء الباحثين حول بعض موضوعاتها ذات الصلة بالانتشار والانحسار، وتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف،

والغاية من ذلك هو محاولة الكشف عن موقف السلطة والمجتمع ممن جاهر بالخوض في فنونها، ومدى انتشارها بين الأندلس وبلاد المغرب في ظل ما اشتهر تاريخياً عن من انتحلها علماً، وتتبع مواطن استقرار روادها وأهم تنقلاتهم بين الضفتين.

وأما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التي خلص إليها البحث.

وعن مصادر البحث فقد جاءت متنوعة بين كتب التراجم والتاريخ والأدب، والعلوم العقلية والجغرافية، وتأتي كتب التراجم على رأس القائمة نظراً لأهميتها للباحث عن الحياة العلمية قصد تتبع سيّر العلماء ومراتبهم المعرفية و أماكن تواجدهم، وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة.

- المصادر والمراجع: (عرض ونقد)

آثرت ترتيب المصادر بحسب مبلغ إفادتها لموضوع الدراسة لا على اعتبارات زمنية أو موضوعية يتم الاستناد فيها إلى سنوات الوفاة وطبيعة الموضوع ونوعه كمعايير في التصنيف، واقتصرت منها على المصنفات الأولية التي اعتمدت عليها في عرض فصول الدراسة ومباحثها، ونقدها وإظهار مدى أهمية كل منها.

ث- كتب التراجم :

تأتي كتب التراجم والفهارس على قمة هرم الاستفادة المصدرية لارتباطها الوثيق بتاريخ العلوم واتصال أسانيد نشرها من عدمه، وتتبعها لحياة أعلام العلماء ومراتبهم؛ وهو ما يتيح فرص الاطلاع على إسهاماتهم في الحياة العلمية.

1.التّكملة لكتاب الصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المتوفى سنة 659هـ/1261م، جمع ابن الأبار بين عدة فنون فأجاد فيها، فهو المؤرخ والشاعر والأديب والكاتب، له مصنفات عديدة تنم عن ما وصف به، ويعتبر كتابه التكملة من المصادر الأولية في التأريخ لسيرة علماء الأندلس ومن دخلها من المغاربة، وقد تولى الكتابة عن بعض ولاة الموحدين في آخر دولتهم في الأندلس؛ وهو بذلك شاهد عيان للكثير من الأحداث التي عرفتها المنطقة، وأفادته تنقلاته بين الأندلس وبجاية وإفريقية من رصد أوضاع جالية الأندلس ومعرفة مدى إسهاماتهم في الحياة العلمية، غير أنّ مكمن القصور في مؤلفه هذا

هو تعصبه لأهل بلده، وعدم تتبع أخبار المراكز العلمية التي بدأت بالظهور في بلاد المغرب ومن وفد إليها من طلبة الأندلس إلاّ من بعض الحالات التي أشار إليها.

2.الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى سنة 703هـ/1303م، نوّع ابن عبد الملك من موارده فبلغنا كتابه متحفاً بالمصنفات التي ملك أصولها أو اطلع عليها - وهي تعود إلى العصر الموحدي ومعظمها في حكم المفقود- وبالرغم من أنّ كتابه لم يصل إلينا كاملاً؛ وبخاصة القطع المتمّمة لقسم الغرباء وتحديداً من كان منهم من أعلام المغاربة إلاّ أنّه قدم معلومات في غاية الأهمية عن أوضاع الحياة العلمية في الحقبة المؤرخة – نقلاً عن شيوخه وعن المصادر المعاصرة لهذه الفترة- وحمله لشعار المنافحة عن المغاربة لإحاطته بسيرة حياتهم ومعارفهم، وتتبع تاريخ خلفاء الدولة الموحدية وولاتها في مجال خدمة العلم وأهله، ومن بين الأمور التي تؤخذ عليه هو انسياقه وراء شروط الأندلسيين في التأليف؛ ولذلك لم يلتفت لمن لم يسعفه الحظ بالدخول إلى الأندلس من المغاربة، ويضاف إلى ذلك قلة تنقلاته بين مدن بلاد المغرب والأندلس الأمر الذي جعله يغلّب ذكر أعلام المنطقة الغربية لبلاد المغرب على حساب المنطقة الشرقية كبجاية ومدن بلاد إفريقية.

3.أعلام مالقة:

لأبي عبد الله محمد بن عسكر المتوفى سنة 636هـ/1238م، والذي أكمله أبو بكر بن خميس (كان على قيد الحياة سنة 638هـ/1240م) ، ويعتبر هذا الكتاب من أبرز المصادر التي اهتمت بالترجمة لأعلام المغاربة الداخلين إلى الأندلس على الرغم من أن صاحبه اقتصر في شرطه على من دخل مالقة، وما وصلنا منه لا تتجاوز تراجمه 174 ترجمة بحكمما أصاب آخر الكتاب من بتر، ومع ذلك أفاد البحث في توضيح صورة تواجد خلفاء الدولة وولاتها في الأندلس ومدينة مالقة تحديدا، ونبرة ولائه للدولة واضحة من سياق أسلوبه، ولم يفرد كتابه للعلماء فحسب وإنما انفرد بالترجمة لغيرهم من قادة الموحدين و أحفاد بني عبد المؤمن، وأسهم المؤلفان في رصد حركة تنقل العلماء بين العدوتين وتأثير ذلك في التواصل العلمي بينهما.

4.عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية:

لأبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني البجائي (ت714هـ/1314م)، وفيه ترجم صاحبه لعلماء مدينة بجاية سواء كانوا من أهلها أو ممن استوطنها أو وفد عليها خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وقد رصد صاحبه هجرات العلماء بين العدوتين الأندلسية والمغربية؛ وما وقف عليه من وثائق نصية لإجازات الشيوخ ومراسلاتهم العلمية؛ وهو مصدر مهم في تتبع حياة المتصوفة من الصلحاء والعباد بحكم تركيزه على هذه الشريحة المؤثرة في المجتمع حينئذٍ، وما يلاحظ عليه أنّه أغفل الكثير من علماء بجاية من غير المتصوفة ممن اشتغلوا بالعلوم النقلية والعقلية، وأسهموا في الحياة العلمية بالمدينة على غرار الكُتاب والقضاة والشعراء والأطباء والفلاسفة وغيرهم.

5.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:

لأبي العباس أحمد بن محمد الشهير بالمقري التلمساني المتوفى سنة1041هـ/1631م، جمع فيه صاحبه بين عدّة فنون كالتاريخ والتراجم والشعر والأدب؛ ونقل عن عدد كبير من المصادر المتنوعة فعدّ بحق موسوعة تاريخية وأدبية، ومورد مهم للحياة العلمية والاجتماعية، وبالرغم من أنّ المقري من المتأخرين عن الفترة المدروسة إلاّ أنّه حافظ على جملة من المصادر والروايات التي فقدت أصولها، ولعل هذا ما أهل كتابه لأنّ يحظى بمكانة بين المصادر المتقدمة والمعاصرة لأحداث الدولة الموحدية وغيرها، وقد أفاد البحث في تتبعه لأخبار أعلام العلماء في مجال العلوم النقلية والعقلية، وكشف لمواطن تجوالهم واسقرارهم بين المدن والحواضر؛ وبخاصة عوامل هجراتهم ونتائجها، غير أنّ الإشكال الذي يقف أمام الباحث في موضوعات كتابه هو عدم اتباعه لمنهج واضح في تدوين معلوماته فتراه ينتقل بين الأخبار والأحداث من دون ترتيب ولا مبرر تاريخي، وإكثاره من الاستطرادات، ويشفع له ذلك بُعده عن مكتبته، واكتفائه بما كان بين يديه وما رواه من ذاكرته.

6.عيون الأنباء في طبقات الأطباء:

لابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجى موفق الدين المتوفى سنة 668هـ/1269م، عاصر صاحب هذا الكتاب فترات مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وقريب عهد بالكثير من الأحداث التي مرّت بها، وتكمن أهميته في إفراد الترجمة لأشهر أطباء المغرب الإسلامي؛ وبخاصة من عاشوا في القرن السادس والسابع الهجريين، وقد أفاد البحث في التعرف على أسمائهم وأشهر مؤلفاتهم وعلاقتهم بالسلطة الموحدية، كما بيّن فيه إسهامات خلفاء الدولة في العلوم الطبية؛ وهو بذلك يعد من أهم المصادر التي أرّخت لتاريخ الطب في المنطقة، غير أنّ ما يلاحظ على هذا المصنف أنّ صاحبه أولى اهتماماً بالتوسع في الترجمة لأشهر الأطباء بينما وردت معلوماته مقتضبة عن غيرهم؛ وبخاصة أهل بلاد المغرب.

ث- كتب التاريخ:

ارتبط التحقيب الزمني بمختلف مجالات حياة الفرد والمجتمع، وشكّلت كتب التاريخ موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول والسلالات الحاكمة موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول وحكامها ضمن المسار التفاعلي لحركة التاريخ، ومن أهمها:

1.المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب:

لأبي محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي كان بقيد الحياة سنة 621هـ/1224م، ألف كتابه هذا في مدينة بغداد، وقد عاصر عبد الواحد فترة مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وبحكم قربه من حكام الموحدين حرص على تدوين ما شاهده من أحداث، أو سأل عنه من يثق به، وفي كتابه أخبار عن بعض ملامح الحياة العلمية في بلاد المغرب والأندلس، و وصف لأحوال العلماء وعلاقة السلطة الموحدية بهم، غير أن شمولية المنهج الذي اتبعه في التأليف بين الطريقة الحولية والموضوعية جعله يغفل الكثير من التفاصيل ذات الصلة بالحياة العلمية بحسب ما اشترطه في كتابه، وأنّ بعده عن مجريات الأحداث؛ وبخاصة في المراحل الأخيرة من تاريخ الدولة جعلته يلتزم الاختصار.

2.البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب (قسم الموحدين):
لأبي عبد الله محمد، الشهير بابن عذاري المراكشي (كان بقيد الحياة سنة 712هـ/1312م) خصص هذا الجزء من كتابه للدولة الموحدية وفيه أورد أخبار حولية مفصلة عن الدولة الموحدية، وإسهامات خلفائها وولاتها في المجالات السياسية والعلمية والحضارية، وتكمن أهميته في الاعتماد على روايات عاصر أصحابها دولة الموحدين، ومنهم من خدم في بلاطهم كالكُتّاب والمؤرخين، ومعظمها في حكم المفقود، غير أنّ ما يؤخذ على صاحب هذا الكتاب هو عدم تنويعه في المصادر التاريخية غير تلك التي كانت تدين بالولاء للموحدين، فظهر مؤلفه بنسق تاريخي واحد لا يحيد فيه عن نظرة مؤرخي البلاط.

3.تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين:
لأبي مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى سنة 594هـ/1198م، دوّن ابن صاحب الصلاة الكثير من الأحداث التي عاشها بحكم خدمته في دواوين الموحدين وولائه لهم، فاعتمد على رواية الأخبار التي عاصرها، والسؤال عن تلك التي لم يشهدها بنفسه أو بسبب بعده عنها، والكتاب لم يصل إلينا كاملا والموجود بين أيدينا ما هو إلا قطعة منه أرخ فيها للحوادث الواقعة بين سنتي 544 و568هـ، وأهميته تكمن في وصفه للأحداث التي أعقبت دخول الموحدين إلى الأندلس، وأبرز إسهاماتهم العلمية والحضارية، كما انفرد بذكر ما له صلة بالتواصل العلمي بين الأندلس وبلاد المغرب من خلال ذكر بعض أعلام المنطقة، ولا يختلف ابن صاحب الصلاة عن مؤرخي البلاط؛ بحيث تظهر عليه النزعة الذاتية المفاخرة بالدولة وأعلامها.

4.ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر
لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى سنة 808هـ/1406م، وابن خلدون من أبرز المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ المغرب الإسلامي، ومعرفة شعوبه وقبائله وتاريخ دوله، وجمعه بين مختلف الروايات مع إبداء رأيه في الكثير من أخبارها، وقد خصص الجزء السادس من كتابه للتأريخ لبلاد المغرب والأندلس؛ ولأنّ البحث وطيد الصلة بتاريخ العلوم والفنون فلا خفاء ما لمقدمته الشهيرة من إفادة في تعريفها وتتبع نبذ عن تاريخها، وما عرضه من آراء ونظريات عن انتشارها وأبرز روادها بين العدوتين الأندلسية والمغربية.

5.المُغرب في حلى المَغرب:

لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي المتوفى سنة 685هـ/1286م، هذا الكتاب تعاقب على تأليفه ستة من عائلة ابن سعيد، وعلى مدار مائة وخمسة عشر عاماً، وهو يقوم على ترتيب مواده على البلاد وما فيها من خصائص جغرافية وسياسية، ثم يعرف بطبقات كل بلد بداية بالأمراء والعلماء والشعراء ثم من ليس له نظم ولا يحسن إغفاله، والكتاب يحتوي على معلومات تاريخية مهمة عن دولة الموحدين، وبه تراجم لكثير من أعلام المغاربة، وقد عاصر ابن سعيد السنوات الأخيرة من تاريخ الموحدين في بلاد المغرب والأندلس؛ وهو قريب عهد بالأعلام الذين خدموا في دواوين الدولة؛ فوثّق معلوماته عنهم، وكتابه هذا يضاف إلى تصانيفه الأخرى ذات الفائدة البالغة في معرفة تاريخ العلوم ومصنفاتها، وإن بدا اهتمامه بالأدب وأهله أكثر من غيره .

6.الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس:

لأبي الحسن علي بن أبي زرع الفاسي الشهير بابن أبي زرع (كان حيا سنة726هـ/1326م)، أرّخ ابن أبي زرع لأخبار ملوك بلاد المغرب ودولهم من لدن الفتح الإسلامي إلى سنة 726هـ التي توقف فيها كتابه، وفيه عرض لتاريخ الموحدين وإسهاماتهم الحضارية في العدوتين الأندلسية والمغربية، ومن الملفت أنّ ابن أبي زرع كان يكتب متحرراً من رواية مؤرخي الدولة الموحدية فكثيراً ما كان يخالفهم في الرأي أو ينبه إلى ما ورد عند غيرهم، غير أنّ اختصاره لبعض المحطات التاريخية المهمة في حياة أعلام الأندلس وبلاد المغرب وخلفاء الدولة وأمرائها- بالرغم من انفراده بذكرها- قلل من فائدة إيرادها؛ بحيث لم تتضح صورتها عند غيره.

ج. الكتب الجغرافية:

1.الروض المعطار في خبر الأقطار:

لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري الصنهاجي (ت727هـ /1326م)، تكمن أهمية هذا الكتاب في الربط بين الوصف الجغرافي والخبر التاريخي، مع ذكره لأخبار ذات صلة بالجوانب المعمارية والعلمية لمدن الأندلس والمغرب، وقد وقف الحميري عند العديد من

الأخبار الخاصة بتاريخ الموحدين من خلال ذكر أسماء أعلامهم ومنجزاتهم، وما عرفته المدن من عمارة وتشييد أو خراب ومعارك أثرت في تركيبة سكانها؛ وهو ما يتيح للباحث معرفة مواطن هجرة العلماء وأسبابها، كما أفاد البحث في رفع الجهالة عن الكثير من المدن حين التعريف بها، واكتفى الحميري من كل ذلك بمجرد النقل عن غيره، من دون التصريح بأصحاب الروايات الأصليين مع عدم إبدائه لرأيه.

2.نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق:

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف الإدريسي المتوفى حوالي سنة 560هـ/1066م، عاش الإدريسي فترة نهاية تواجد المرابطين على الأراضي الأندلسية، وقد أفاد البحث في وصفه لأوضاع الأندلس خلال هذه الفترة الانتقالية من تاريخ المنطقة، كما عرّف بأماكن استقرار المغاربة، وأعطى صورة عن أحوال المدن و القرى.

ولأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون، سبق التعريف بكتابه في التاريخ، وأهمية مقدمته في تاريخ العلوم إجمالاً، إلاّ أنّ ثمة جانباً مهماً انفرد به ابن خلدون في مقدمته؛ وهو التعريف برواد العلوم العقلية في تاريخ الإسلام إلى غاية العصر الذي عاش فيه مع ذكر أهم مصنفاتهم العلمية وإسهاماتهم الحضارية كالأطباء والمهندسين والفلاسفة وأهل الحساب وغيرهم، ولأنّه من أهل بلاد المغرب فلا غرابة أنّ تقدّم آراؤه على غيره في الكثير من الموضوعات التي تتضارب فيها الروايات أو يحوم حولها الغموض، ويعود ذلك إلى سعة اطلاعه ومعرفته بالأطوار التي مرّت بها العلوم العقلية والنظرية، وإحاطته بعلاقات حكام الدول بأهلها وموقفهم منها، ومناهج تعليمها وأسباب تطورها أو انحسارها.

هذه جملة من المصادر الأولية التي اقتصرت على ذكر بعضها، وفي ثنايا هذه الدراسة عرض لغيرها من الدواوين والمصنفات المطبوعة والمخطوطة، ومختلف الأبحاث العربية والأجنبية الخاصة بالباحثين المحدثين وفي مختلف التخصصات النقلية والعقلية، والهدف منها إحاطة الموضوع - قدر الإمكان- من جميع جوانبه بما يكفي لسبر غور مباحثه واقتفاء آثار رجالات العلوم وإسهاماتهم في مختلف المعارف والفنون في مقاربة تاريخية ضمن الحدود الزمنية والمجالية للدولة الموحدية.

ومن الصعوبات التي واجهت مراحل إعداد البحث وتقصي موضوعاته هو عدم التمكن من الاطلاع على العديد من المخطوطات النادرة التي تعود إلى الحقبة المدروسة؛ وبخاصة في مجال العلوم العقلية مع إمكانية الوصول إلى أرقامها وتصنيفاتها في دور المخطوطات وخزائنها، وأخص بالذكر مكتبة الإسكوريال بإسبانيا ومكتبة لشبونة الوطنية بالبرتغال ومكتبة جامعة غوتينغن بألمانيا، مع استفراغ الجهد في اتباع جميع الإجراءات القانونية والإدارية، والتواصل مع الباحثين العرب والأجانب للظفر ببعض نسخها المهمة؛ غير أنّ ما يؤسف له أنّني اكتفيت بمجرد المحاولة حتى لا أقول الفشل، وحق لها بذلك أن تصنّف ضمن تراثنا المخبوء.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت في الإلمام بأهم مباحث هذه الدراسة وما اخترته لها من مصادر ومراجع، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

يكاد يجمع السواد الأعظم من الباحثين- على اختلاف أجناسهم ومدارسهم الفكرية- عن دور الحضارة الإسلامية الغنية بقيمها الروحية ومظاهرها المادية في تطوير مناهج البحث والرفع من مستويات التفكير لقرون من الزمن خدمة للحضارة الإنسانية، وبعيداً تماماً عن ضروب التهويل والتخويف التي تتخندق خلفها بعض الأبواق المشككة في الإنتاجات المعرفية للمسلمين؛ بل وفي الإسلام ذاته، هذه الحضارة التي ارتكزت في انطلاقها على المعاني السامية لوجوب نفاذ أمر الظاهرة العلمية المختزلة في الفعل "إقرأ"، ومن الملاحظ أنّها لازالت تثير اهتمام من تعلّق بموروثها المصدري المخطوط من حيث التنقيب عنه والكشف عن قيمته العلمية في إعلان عن استمرارية عطائها المتجدد، وقد وقع الاختيار على حلقة من تاريخها الطويل تبحث في تاريخ العلوم واتصالها بين الشعوب بمعالم زمنية ومجالية محددة سميتها **"الروابط العلمية بين بلاد المغرب والأندلس على عهد الموحدين (541-626هـ/1146-1228م)"** ضمن مقاربة تاريخية الهدف منها الكشف عن سبل ومظاهر التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، وفي اعتماد المؤرخين والجغرافيين لمصطلح "العدوتين" أكثر من دلالة تعبيرية على القرب وسهولة الرحلة بالرغم من التباين التاريخي والجغرافي والاجتماعي بين الصُقعين.

ومن دواعي اختياري لهذا الموضوع:

- اهتمامي بتاريخ المغرب الإسلامي وحضارته عامة، وتعلقي بتتبع مختلف العلوم والفنون و حركيتها عبر التاريخ.

- محاولة الوقوف على أبرز جوانب الإسهامات الحضارية والعلمية للمغاربة والأندلسيين ضمن مقاربة الروابط العلمية ومعرفة مدى نجاعتها، وإعادة ترتيب مختلف المعطيات والنصوص التاريخية لاستنباط آراء ومفاهيم أقرب لفحوى هذه الوثائق المصدرية بعيداً عن التأويل وتحميل النص ما ليس فيه.

- محاولة رصد آراء المؤرخين والباحثين عن الوتيرة التنافسية الحاصلة بين العدوتين، وتدافعها الحضاري، ومدى تأثرها بالتحولات السياسية والاجتماعية في ظل الهيمنة الموحدية على مشاهدها التنظيمية ذات الأبعاد العقدية والمذهبية.

تفرض طبيعة الموضوعات ذات المسالك المتداخلة الاستفهام عن التأثيرات السياسية للسلطة الموحدية في مشهد الحياة العلمية، وكيفية تفاعل المصادر والموارد المرافقة لهذه الحقبة الزمنية أو القريبة منها مع ما اشتهر من العلوم في المرحلة الوسيطية والطبائع المصاحبة لمنتحلها من حيث الإثبات والنفي أو الإقبال والنّفور ومبرراتهما ؟ ويتفرع عن محورها محاولة الإجابة عن مدى تأثر هذه المعارف بتداعيات الأنماط الاجتماعية والتاريخية التي عرفتها المنطقة؟ وما أبرز تأثيراتها في ذهنية العالم والمتعلم وفرص تواصلهما من عدمه بين بلاد المغرب والأندلس سواء لمن اهتم بالنقليات أو العقليات منها ؟ وهل ثمة ما يفيد في معرفة دوافع ظهورها وانتشارها أو معوقات انحسارها وأفولها؟

ومن هنا تتضح أهداف الموضوع في إمكانية التعرف على تأثير الأبعاد السياسية والاجتماعية بظهور الحكام المغاربة في إدارة الدولة المشرفة على الشؤون العامة للسكان، وربطه بالأبعاد و الاعتبارات المعرفية للعناصر المعنية بالدراسة ممثلة في نخبة المجتمع وأعيانه، وتتبع ذكر أعلام العلماء في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتب التراجم ومحاولة تحديد فوارق المجال الجغرافي بين الأندلسيين والمغاربة، ثم مقارنتها بعهودهم السابقة عن الفترة المدروسة.

نظراً إلى طبيعة الموضوع المركبة وتعدد مسالك أبعادها السياسية والعلمية آثرت الاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي في تتبع الأطوار التاريخية التي مرّت بها حركة التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، ودعمه بالمنهج الإحصائي الكمي لأجل سبر غور إسهام الأعلام ومعرفة أسمائهم ومراتبهم العلمية ومواطن استقرارهم؛ وهو ما حتم إدراجهم ضمن جداول إحصائية جمعت بين التحقيب الزمني والمجال الجغرافي للأعلام المترجم بهم، مع الوقوف على إنتاجهم العلمي وإسهامهم الحضاري، والغاية من ذلك هو الاطلاع على مدى فعالية مبادراتهم الفردية والجماعية في انتقال العلوم ونشرها بين ضفتي المتوسط، ورصد دور السلطة الموحدية في الأحداث التي رافقت الظاهرة العلمية ذات الشهرة الواسعة بالمجتمعات الإسلامية في الحقبة الوسيطية على اختلاف تجلياتها ومشارب روادها.

تعددت الأبحاث التي رصدت مختلف مناحي الحياة السياسية والعلمية في بلاد المغرب والأندلس في عصر الدولة الموحدية؛ غير أنّ ما وقع بين أيدينا منها لا يكاد يظهر بالشكل والمضمون اللذين ظهر بهما الصُقع الأندلسي وأهله لاسيما حركة تنقل العلماء- في شمول استغراق هذا الجمع لأهل العلم ومن انتسب إليهم- من أهل العدوتين ضمن هذا المجال الجغرافي، وما من تفسير واقعي ومقنع لاهتمام جمهرة من الباحثين المحدثين بالأندلس إلى درجة الانبهار ومنذ ثلاثينيات القرن الماضي إلاّ لأنهم أحيطوا بزخم تراثي مشبع ومتنوع بعطائه العلمي والحضاري المستفاد من رسوخ أقدام المسلمين فيها زهاء الثمانية قرون.

الظاهر من هذا التفوق الأندلسي - منذ العهد الأموي- وما قابله من تأخر في بلوغ بلاد المغرب وأهلها للمستوى المادي والحضاري الذي عرفته الأندلس بالرغم من ظهور بوادر المنافسة والمجاراة إلاّ أنّ هذا انعكس على معظم الدراسات التي انساقت ورواء الموضوعات ذات المواد المصدرية الوافرة، وابتعدت عن نظيرتها التي تشهد شحا في المعلومات وندرتها في أحايين كثيرة، غير أنّ هذا لم يمنع من ظهور بعض الأبحاث العلمية والأطروحات الأكاديمية التي رصد أصحابها أوضاع الحياة العلمية بمختلف تجلياتها بين العدوتين الأندلسية والمغربية في العصر الموحدي؛ ومنها: ما قدمه محمد المنوني في كتابه "حضارة الموحدين" بحيث عدّد أنواع العلوم والفنون التي انتشرت في عهد الدولة الموحدية، وبيّن دور خلفائها في تشجيع عامة الناس على تعاطيها والاشتغال بها إلاّ أنه أولى اهتماما واضحاً لقطر المغرب الأقصى فلم تنل بقية المدن والحواضر في بلاد المغرب إلاّ النزر القليل، وسار على هذا النهج مواطنه علي عبد الله علام في بحثه "الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي".

وفي عمل أكاديمي قدم الباحث يوسف العريني دراسة عن "الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين"، وفيها إحاطة بالموضوع من خلال ما رصده من مصادر تاريخية وتراجمية أثرت دراسته؛ بيد أنه أفرغ جهده في تتبع إسهامات الأندلسيين وأخبارهم، ولم يحظ غيرهم من المغاربة؛ وبخاصة من دخل منهم إلى الأندلس بنصيب وافر من الترجمة والتنويه، وأكثر من ذلك أنه تجنب الخوض في الجوانب السياسية والعقدية لدى الموحدين فلم تظهر صورة علاقتهم بالحركة العلمية التي عرفتها المنطقة في عهدهم.

من بين الدراسات التي فتحت المجال للنقاش حول أبعاد تأثير الاختلافات المذهبية والعقدية للموحدين في حياة أهل المعارف بين بلاد المغرب والأندلس ظهرت دراسة الباحث محمد المغراوي في رسالته للدكتوراه والموسومة بـ"العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين"، ولكن اقتصاره على طبقة المتصوفة ينسجم مع ما تمّ إقراره آنفاً من شح المادة العلمية المتعلقة ببلاد المغرب خلافاً للمتصوفة الذين تعددت مصادر تراجمهم لا سميا في القرنيين السادس والسابع الهجريين، وذاك كان مسعى الباحث وغايته من خلال وقوفه على معلومات أثرى بها دراسته، ولكن ما يلاحظ على هذه الدراسة أنّ صاحبها غلّب الجانب التصوفي على غيره حتى عند الأعلام الذين ورد التصوف في حياتهم عرضاً وليسوا متصوفة بالأساس، إضافة إلى أنّ مصطلح "المغرب" الوارد في عنوان الأطروحة محدود المعالم الجغرافية بما لا يتوافق مع الحدود السياسية للدولة الموحدية في أقصى اتساعها.

ولهذا الغرض حاولت الاطلاع قدر الاستطاعة على ما وقع بين يدي من مصادر ومراجع لإثراء موضوع البحث وتنويع موارده المطبوع منها والمخطوط، واقتناء العديد منها، والاستفادة من آراء من سبقني من الباحثين الذين اهتموا بالأبحاث ذات الصلة بموضوع الأطروحة؛ ولأجل ذلك لم أكتف بما حصلت عليه في جامعة وهران فقمت بزيارة جامعة الجزائر العاصمة وكبرى مكتباتها، وجامعتي منتوري والأمير عبد القادر بقسنطينة، كما سافرت إلى جامعة تونس واطلعت على أبرز الأطروحات العلمية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وما احتوت عليه مكتبتها، وتجولت بين بعض جامعات المملكة المغربية وعدد من مراكز البحث وخزائن المخطوطات بها.

قسّمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول وقسم خاص بالملاحق، وقدمت لها بمقدمة استهلالية وفصل تمهيدي ورد فيه عرض توضيحي للمعالم الاختيارية المركبة في عنوان الأطروحة بغرض استجلاء أبعاده الزمنية والمجالية، وبسط القول في إشكالية الاختلافات المنهجية الظاهرة عند المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين، وتقديم مبررات التوصيف الإصطلاحي لعبارة "الروابط العلمية" عند مؤرخي العلوم، وأهمية المرافقة الإحصائية للنصوص التاريخية في استنباط الآراء واستخلاص النتائج.

وأما الفصل الأول فكان عن الأوضاع السياسية وتأثيرها في الحياة العلمية بالعصر الموحدي بداية بالمرحلة التي أعقبت سقوط مدينة مراكش، وإعلان نهاية الدولة المرابطية، وكيفية تعامل الموحدين مع ما شهدته الأندلس من اضطرابات، ومعرفة تأثيرها في حياة الأندلسيين؛ وبخاصة طبقة العلماء، ثمّ تتبع أبرز الأعمال التي قام بها الموحدون بعد جوازهم إلى الأندلس سواء تعلق الأمر بالجوانب السياسية والأمنية أو الحياة العلمية لتكاملهما في تحقيق غاية التواصل والاستقرار مع عرض لأهم نتائج إسهاماتهم في المجال العلمي.

وأما الفصل الثاني فتم فيه رصد أبرز الأعلام الذين أسهموا في تولي الخطط الدينية والإدارية في الدولة الموحدية سواء كانوا من الأندلسيين أو المغاربة، وتقديم ما يبرر كثرة تواجدهم في بلاد المغرب مقارنة بالعهود السابقة، وتتبع أهمية ظهورهم على رأس الهياكل التنظيمية للدولة، و مدى تأثير مكانتهم في المجتمع، ومبلغ استفادة الموحدين من هذا الدور في ترسيخ سلطتهم بالعدوتين المغربية والأندلسية، والتعرض للخصائص التي ميّزت الإدارة الموحدية خلال الفترة التي أدار فيها خلفاء الدولة وولاتها جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والحضارية.

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن أشهر العلوم النقلية التي تم تداولها في المراكز التعليمية، ومعرفة عوامل انتشارها وتحليلها عند مقارنتها ورصد أبرز أعلامها، والهدف من ذلك هو الاطلاع على مدى تأثير الظروف المحيطة بحياة العلماء في دعم أواصر التواصل المعرفي بين المغرب والأندلس، والتطرق إلى مظاهره والعوامل المحفزة على انتشار العلوم، ودوافع طبقة العلماء في اختيار مناطق استيطانهم، والتعرف على علاقتهم بالسلطة الحاكمة، وما تخلل ذلك من مناقشات لآراء الباحثين حول جملة من الأطروحات والنظريات التي ظهرت في أبحاثهم عن تاريخ العلوم في العصر الموحدي.

أما الفصل الرابع فورد فيه التأريخ للعلوم العقلية ومحاولة تقصي أبرز معالمها، والترجمة لأشهر المشتغلين بها مع التطرق إلى إشكالية النفور من بعض فنونها؛ وهي الظاهرة التي عرفتها العصور الإسلامية في مرحلتها الوسيطية، ومناقشة آراء الباحثين حول بعض موضوعاتها ذات الصلة بالانتشار والانحسار، وتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف،

والغاية من ذلك هو محاولة الكشف عن موقف السلطة والمجتمع ممن جاهر بالخوض في فنونها، ومدى انتشارها بين الأندلس وبلاد المغرب في ظل ما اشتهر تاريخياً عن من انتحلها علماً، وتتبع مواطن استقرار روادها وأهم تنقلاتهم بين الضفتين.

وأما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التي خلص إليها البحث.

وعن مصادر البحث فقد جاءت متنوعة بين كتب التراجم والتاريخ والأدب، والعلوم العقلية والجغرافية، وتأتي كتب التراجم على رأس القائمة نظراً لأهميتها للباحث عن الحياة العلمية قصد تتبع سيّر العلماء ومراتبهم المعرفية و أماكن تواجدهم، وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة.

- المصادر والمراجع: (عرض ونقد)

آثرت ترتيب المصادر بحسب مبلغ إفادتها لموضوع الدراسة لا على اعتبارات زمنية أو موضوعية يتم الاستناد فيها إلى سنوات الوفاة وطبيعة الموضوع ونوعه كمعايير في التصنيف، واقتصرت منها على المصنفات الأولية التي اعتمدت عليها في عرض فصول الدراسة ومباحثها، ونقدها وإظهار مدى أهمية كل منها.

ج- كتب التراجم :

تأتي كتب التراجم والفهارس على قمة هرم الاستفادة المصدرية لارتباطها الوثيق بتاريخ العلوم واتصال أسانيد نشرها من عدمه، وتتبعها لحياة أعلام العلماء ومراتبهم؛ وهو ما يتيح فرص الاطلاع على إسهاماتهم في الحياة العلمية.

1.التّكملة لكتاب الصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المتوفى سنة 659هـ/1261م، جمع ابن الأبار بين عدة فنون فأجاد فيها، فهو المؤرخ والشاعر والأديب والكاتب، له مصنفات عديدة تنم عن ما وصف به، ويعتبر كتابه التكملة من المصادر الأولية في التأريخ لسيرة علماء الأندلس ومن دخلها من المغاربة، وقد تولى الكتابة عن بعض ولاة الموحدين في آخر دولتهم في الأندلس؛ وهو بذلك شاهد عيان للكثير من الأحداث التي عرفتها المنطقة، وأفادته تنقلاته بين الأندلس وبجاية وإفريقية من رصد أوضاع جالية الأندلس ومعرفة مدى إسهاماتهم في الحياة العلمية، غير أنّ مكمن القصور في مؤلفه هذا

هو تعصبه لأهل بلده، وعدم تتبع أخبار المراكز العلمية التي بدأت بالظهور في بلاد المغرب ومن وفد إليها من طلبة الأندلس إلاّ من بعض الحالات التي أشار إليها.

2.الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى سنة 703هـ/1303م، نوّع ابن عبد الملك من موارده فبلغنا كتابه متحفاً بالمصنفات التي ملك أصولها أو اطلع عليها - وهي تعود إلى العصر الموحدي ومعظمها في حكم المفقود- وبالرغم من أنّ كتابه لم يصل إلينا كاملاً؛ وبخاصة القطع المتمّمة لقسم الغرباء وتحديداً من كان منهم من أعلام المغاربة إلاّ أنّه قدم معلومات في غاية الأهمية عن أوضاع الحياة العلمية في الحقبة المؤرخة – نقلاً عن شيوخه وعن المصادر المعاصرة لهذه الفترة- وحمله لشعار المنافحة عن المغاربة لإحاطته بسيرة حياتهم ومعارفهم، وتتبع تاريخ خلفاء الدولة الموحدية وولاتها في مجال خدمة العلم وأهله، ومن بين الأمور التي تؤخذ عليه هو انسياقه وراء شروط الأندلسيين في التأليف؛ ولذلك لم يلتفت لمن لم يسعفه الحظ بالدخول إلى الأندلس من المغاربة، ويضاف إلى ذلك قلة تنقلاته بين مدن بلاد المغرب والأندلس الأمر الذي جعله يغلّب ذكر أعلام المنطقة الغربية لبلاد المغرب على حساب المنطقة الشرقية كبجاية ومدن بلاد إفريقية.

3.أعلام مالقة:

لأبي عبد الله محمد بن عسكر المتوفى سنة 636هـ/1238م، والذي أكمله أبو بكر بن خميس (كان على قيد الحياة سنة 638هـ/1240م) ، ويعتبر هذا الكتاب من أبرز المصادر التي اهتمت بالترجمة لأعلام المغاربة الداخلين إلى الأندلس على الرغم من أن صاحبه اقتصر في شرطه على من دخل مالقة، وما وصلنا منه لا تتجاوز تراجمه 174 ترجمة بحكمما أصاب آخر الكتاب من بتر، ومع ذلك أفاد البحث في توضيح صورة تواجد خلفاء الدولة وولاتها في الأندلس ومدينة مالقة تحديدا، ونبرة ولائه للدولة واضحة من سياق أسلوبه، ولم يفرد كتابه للعلماء فحسب وإنما انفرد بالترجمة لغيرهم من قادة الموحدين و أحفاد بني عبد المؤمن، وأسهم المؤلفان في رصد حركة تنقل العلماء بين العدوتين وتأثير ذلك في التواصل العلمي بينهما.

4.عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية:

لأبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني البجائي (ت714هـ/1314م)، وفيه ترجم صاحبه لعلماء مدينة بجاية سواء كانوا من أهلها أو ممن استوطنها أو وفد عليها خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وقد رصد صاحبه هجرات العلماء بين العدوتين الأندلسية والمغربية؛ وما وقف عليه من وثائق نصية لإجازات الشيوخ ومراسلاتهم العلمية؛ وهو مصدر مهم في تتبع حياة المتصوفة من الصلحاء والعباد بحكم تركيزه على هذه الشريحة المؤثرة في المجتمع حينئذٍ، وما يلاحظ عليه أنّه أغفل الكثير من علماء بجاية من غير المتصوفة ممن اشتغلوا بالعلوم النقلية والعقلية، وأسهموا في الحياة العلمية بالمدينة على غرار الكُتاب والقضاة والشعراء والأطباء والفلاسفة وغيرهم.

5.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:

لأبي العباس أحمد بن محمد الشهير بالمقري التلمساني المتوفى سنة1041هـ/1631م، جمع فيه صاحبه بين عدّة فنون كالتاريخ والتراجم والشعر والأدب؛ ونقل عن عدد كبير من المصادر المتنوعة فعدّ بحق موسوعة تاريخية وأدبية، ومورد مهم للحياة العلمية والاجتماعية، وبالرغم من أنّ المقري من المتأخرين عن الفترة المدروسة إلاّ أنّه حافظ على جملة من المصادر والروايات التي فقدت أصولها، ولعل هذا ما أهل كتابه لأنّ يحظى بمكانة بين المصادر المتقدمة والمعاصرة لأحداث الدولة الموحدية وغيرها، وقد أفاد البحث في تتبعه لأخبار أعلام العلماء في مجال العلوم النقلية والعقلية، وكشف لمواطن تجوالهم واسقرارهم بين المدن والحواضر؛ وبخاصة عوامل هجراتهم ونتائجها، غير أنّ الإشكال الذي يقف أمام الباحث في موضوعات كتابه هو عدم اتباعه لمنهج واضح في تدوين معلوماته فتراه ينتقل بين الأخبار والأحداث من دون ترتيب ولا مبرر تاريخي، وإكثاره من الاستطرادات، ويشفع له ذلك بُعده عن مكتبته، واكتفائه بما كان بين يديه وما رواه من ذاكرته.

6.عيون الأنباء في طبقات الأطباء:

لابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجى موفق الدين المتوفى سنة 668هـ/1269م، عاصر صاحب هذا الكتاب فترات مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وقريب عهد بالكثير من الأحداث التي مرّت بها، وتكمن أهميته في إفراد الترجمة لأشهر أطباء المغرب الإسلامي؛ وبخاصة من عاشوا في القرن السادس والسابع الهجريين، وقد أفاد البحث في التعرف على أسمائهم وأشهر مؤلفاتهم وعلاقتهم بالسلطة الموحدية، كما بيّن فيه إسهامات خلفاء الدولة في العلوم الطبية؛ وهو بذلك يعد من أهم المصادر التي أرّخت لتاريخ الطب في المنطقة، غير أنّ ما يلاحظ على هذا المصنف أنّ صاحبه أولى اهتماماً بالتوسع في الترجمة لأشهر الأطباء بينما وردت معلوماته مقتضبة عن غيرهم؛ وبخاصة أهل بلاد المغرب.

ج- كتب التاريخ:

ارتبط التحقيب الزمني بمختلف مجالات حياة الفرد والمجتمع، وشكّلت كتب التاريخ موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول والسلالات الحاكمة موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول وحكامها ضمن المسار التفاعلي لحركة التاريخ، ومن أهمها:

1.المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب:

لأبي محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي كان بقيد الحياة سنة 621هـ/1224م، ألف كتابه هذا في مدينة بغداد، وقد عاصر عبد الواحد فترة مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وبحكم قربه من حكام الموحدين حرص على تدوين ما شاهده من أحداث، أو سأل عنه من يثق به، وفي كتابه أخبار عن بعض ملامح الحياة العلمية في بلاد المغرب والأندلس، و وصف لأحوال العلماء وعلاقة السلطة الموحدية بهم، غير أن شمولية المنهج الذي اتبعه في التأليف بين الطريقة الحولية والموضوعية جعله يغفل الكثير من التفاصيل ذات الصلة بالحياة العلمية بحسب ما اشترطه في كتابه، وأنّ بعده عن مجريات الأحداث؛ وبخاصة في المراحل الأخيرة من تاريخ الدولة جعلته يلتزم الاختصار.

2.البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب (قسم الموحدين):

لأبي عبد الله محمد، الشهير بابن عذاري المراكشي (كان بقيد الحياة سنة 712هـ/1312م) خصص هذا الجزء من كتابه للدولة الموحدية وفيه أورد أخبار حولية مفصلة عن الدولة الموحدية، وإسهامات خلفائها وولاتها في المجالات السياسية والعلمية والحضارية، وتكمن أهميته في الاعتماد على روايات عاصر أصحابها دولة الموحدين، ومنهم من خدم في بلاطهم كالكُتّاب والمؤرخين، ومعظمها في حكم المفقود، غير أنّ ما يؤخذ على صاحب هذا الكتاب هو عدم تنويعه في المصادر التاريخية غير تلك التي كانت تدين بالولاء للموحدين، فظهر مؤلفه بنسق تاريخي واحد لا يحيد فيه عن نظرة مؤرخي البلاط.

3.تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين:

لأبي مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى سنة 594هـ/1198م، دوّن ابن صاحب الصلاة الكثير من الأحداث التي عاشها بحكم خدمته في دواوين الموحدين وولائه لهم، فاعتمد على رواية الأخبار التي عاصرها، والسؤال عن تلك التي لم يشهدها بنفسه أو بسبب بعده عنها، والكتاب لم يصل إلينا كاملا والموجود بين أيدينا ما هو إلا قطعة منه أرخ فيها للحوادث الواقعة بين سنتي 544 و568هـ، وأهميته تكمن في وصفه للأحداث التي أعقبت دخول الموحدين إلى الأندلس، وأبرز إسهاماتهم العلمية والحضارية، كما انفرد بذكر ما له صلة بالتواصل العلمي بين الأندلس وبلاد المغرب من خلال ذكر بعض أعلام المنطقة، ولا يختلف ابن صاحب الصلاة عن مؤرخي البلاط؛ بحيث تظهر عليه النزعة الذاتية المفاخرة بالدولة وأعلامها.

4.ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر

لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى سنة 808هـ/1406م، وابن خلدون من أبرز المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ المغرب الإسلامي، ومعرفة شعوبه وقبائله وتاريخ دوله، وجمعه بين مختلف الروايات مع إبداء رأيه في الكثير من أخبارها، وقد خصص الجزء السادس من كتابه للتأريخ لبلاد المغرب والأندلس؛ ولأنّ البحث وطيد الصلة بتاريخ العلوم والفنون فلا خفاء ما لمقدمته الشهيرة من إفادة في تعريفها وتتبع نبذ عن تاريخها، وما عرضه من آراء ونظريات عن انتشارها وأبرز روادها بين العدوتين الأندلسية والمغربية.

5.المُغرب في حلى المَغرب:

لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي المتوفى سنة 685هـ/1286م، هذا الكتاب تعاقب على تأليفه ستة من عائلة ابن سعيد، وعلى مدار مائة وخمسة عشر عاماً، وهو يقوم على ترتيب مواده على البلاد وما فيها من خصائص جغرافية وسياسية، ثم يعرف بطبقات كل بلد بداية بالأمراء والعلماء والشعراء ثم من ليس له نظم ولا يحسن إغفاله، والكتاب يحتوي على معلومات تاريخية مهمة عن دولة الموحدين، وبه تراجم لكثير من أعلام المغاربة، وقد عاصر ابن سعيد السنوات الأخيرة من تاريخ الموحدين في بلاد المغرب والأندلس؛ وهو قريب عهد بالأعلام الذين خدموا في دواوين الدولة؛ فوثّق معلوماته عنهم، وكتابه هذا يضاف إلى تصانيفه الأخرى ذات الفائدة البالغة في معرفة تاريخ العلوم ومصنفاتها، وإن بدا اهتمامه بالأدب وأهله أكثر من غيره .

6.الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس:

لأبي الحسن علي بن أبي زرع الفاسي الشهير بابن أبي زرع (كان حيا سنة726هـ/1326م)، أرّخ ابن أبي زرع لأخبار ملوك بلاد المغرب ودولهم من لدن الفتح الإسلامي إلى سنة 726هـ التي توقف فيها كتابه، وفيه عرض لتاريخ الموحدين وإسهاماتهم الحضارية في العدوتين الأندلسية والمغربية، ومن الملفت أنّ ابن أبي زرع كان يكتب متحرراً من رواية مؤرخي الدولة الموحدية فكثيراً ما كان يخالفهم في الرأي أو ينبه إلى ما ورد عند غيرهم، غير أنّ اختصاره لبعض المحطات التاريخية المهمة في حياة أعلام الأندلس وبلاد المغرب وخلفاء الدولة وأمرائها- بالرغم من انفراده بذكرها- قلل من فائدة إيرادها؛ بحيث لم تتضح صورتها عند غيره.

ج. الكتب الجغرافية:

1.الروض المعطار في خبر الأقطار:

لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري الصنهاجي (ت727هـ /1326م)، تكمن أهمية هذا الكتاب في الربط بين الوصف الجغرافي والخبر التاريخي، مع ذكره لأخبار ذات صلة بالجوانب المعمارية والعلمية لمدن الأندلس والمغرب، وقد وقف الحميري عند العديد من الأخبار الخاصة بتاريخ الموحدين من خلال ذكر أسماء أعلامهم ومنجزاتهم، وما عرفته

المدن من عمارة وتشييد أو خراب ومعارك أثرت في تركيبة سكانها؛ وهو ما يتيح للباحث معرفة مواطن هجرة العلماء وأسبابها، كما أفاد البحث في رفع الجهالة عن الكثير من المدن حين التعريف بها، واكتفى الحميري من كل ذلك بمجرد النقل عن غيره، من دون التصريح بأصحاب الروايات الأصليين مع عدم إبدائه لرأيه.

2.نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق:

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف الإدريسي المتوفى حوالي سنة 560هـ/1066م، عاش الإدريسي فترة نهاية تواجد المرابطين على الأراضي الأندلسية، وقد أفاد البحث في وصفه لأوضاع الأندلس خلال هذه الفترة الانتقالية من تاريخ المنطقة، كما عرّف بأماكن استقرار المغاربة، وأعطى صورة عن أحوال المدن و القرى.

ولأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون، سبق التعريف بكتابه في التاريخ، وأهمية مقدمته في تاريخ العلوم إجمالاً، إلاّ أنّ ثمة جانباً مهماً انفرد به ابن خلدون في مقدمته؛ وهو التعريف برواد العلوم العقلية في تاريخ الإسلام إلى غاية العصر الذي عاش فيه مع ذكر أهم مصنفاتهم العلمية وإسهاماتهم الحضارية كالأطباء والمهندسين والفلاسفة وأهل الحساب وغيرهم، ولأنّه من أهل بلاد المغرب فلا غرابة أنّ تقدّم آراؤه على غيره في الكثير من الموضوعات التي تتضارب فيها الروايات أو يحوم حولها الغموض، ويعود ذلك إلى سعة اطلاعه ومعرفته بالأطوار التي مرّت بها العلوم العقلية والنظرية، وإحاطته بعلاقات حكام الدول بأهلها وموقفهم منها، ومناهج تعليمها وأسباب تطورها أو انحسارها.

هذه جملة من المصادر الأولية التي اقتصرت على ذكر بعضها، وفي ثنايا هذه الدراسة عرض لغيرها من الدواوين والمصنفات المطبوعة والمخطوطة، ومختلف الأبحاث العربية والأجنبية الخاصة بالباحثين المحدثين وفي مختلف التخصصات النقلية والعقلية، والهدف منها إحاطة الموضوع - قدر الإمكان- من جميع جوانبه بما يكفي لسبر غور مباحثه واقتفاء آثار رجالات العلوم وإسهاماتهم في مختلف المعارف والفنون في مقاربة تاريخية ضمن الحدود الزمنية والمجالية للدولة الموحدية.

ومن الصعوبات التي واجهت مراحل إعداد البحث وتقصي موضوعاته هو عدم التمكن من الاطلاع على العديد من المخطوطات النادرة التي تعود إلى الحقبة المدروسة؛ وبخاصة في مجال العلوم العقلية مع إمكانية الوصول إلى أرقامها وتصنيفاتها في دور المخطوطات وخزائنها، وأخص بالذكر مكتبة الإسكوريال بإسبانيا ومكتبة لشبونة الوطنية بالبرتغال ومكتبة جامعة غوتينغن بألمانيا، مع استفراغ الجهد في اتباع جميع الإجراءات القانونية والإدارية، والتواصل مع الباحثين العرب والأجانب للظفر ببعض نسخها المهمة؛ غير أنّ ما يؤسف له أنّني اكتفيت بمجرد المحاولة حتى لا أقول الفشل، وحق لها بذلك أن تصنّف ضمن تراثنا المخبوء.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت في الإلمام بأهم مباحث هذه الدراسة وما اخترته لها من مصادر ومراجع، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

الفصل الثالث: العلوم النقلية وعوامل انتشارها بين العدوتين.

المبحث الأول: العناية بالقرآن الكريم وعلومه.

1.علم القراءات والتفسير.

2. تلقين القراءات بطريقة العرض والسماع.

3. أشهر أعلام القراء والمفسرين.

4. التأليف حول نقط المصحف وضبط رسمه.

المبحث الثاني :علم الحديث وفروعه.

1. المدرسة الحديثية في العصر الموحدي:(بين رغبة السلطة وواقع الحال).

2. تواصل مدرسة الحديث وتفاعلها بين الأندلس والمغرب.

المبحث الثالث: الفقه وأصوله.

1. معنى الظاهرية في مذهبية الدولة الموحدية

2. أشهر أعلام الفقهاء بين بلاد المغرب والأندلس.

المبحث الرابع: أصول الدين (أثر العقيدة في التأليف).

المبحث الخامس: علوم اللسان العربي.

1- علم اللسان العربي بين الأندلسيين والمغاربة: (ق6-7هـ/ ق 12- 13م).

1-1 - مدرسة النحو العربي.

2-1- الأدب وفنونه(الشعر والشعراء و الفنون النثرية)

المبحث الخامس: علم الكلام.

المبحث السادس: التصوف والمتصوفة.

1- التصوف والمتصوفة من منظور السلطة الموحدية.

2. طرق التلقين الصوفي وتأثيرها في انتقال مسالك المتصوفة بين العدوتين.

المبحث السابع: التاريخ والجغرافيا.

1- الكتابة التاريخية.

1-1- كتب التراجم والفهارس والأنساب.

2- الكتابة الجغرافية.

يكاد يجمع السواد الأعظم من الباحثين- على اختلاف أجناسهم ومدارسهم الفكرية- عن دور الحضارة الإسلامية الغنية بقيمها الروحية ومظاهرها المادية في تطوير مناهج البحث والرفع من مستويات التفكير لقرون من الزمن خدمة للحضارة الإنسانية، وبعيداً تماماً عن ضروب التهويل والتخويف التي تتخندق خلفها بعض الأبواق المشككة في الإنتاجات المعرفية للمسلمين؛ بل وفي الإسلام ذاته، هذه الحضارة التي ارتكزت في انطلاقها على المعاني السامية لوجوب نفاذ أمر الظاهرة العلمية المختزلة في الفعل "إقرأ"، ومن الملاحظ أنّها لازالت تثير اهتمام من تعلّق بموروثها المصدري المخطوط من حيث التنقيب عنه والكشف عن قيمته العلمية في إعلان عن استمرارية عطائها المتجدد، وقد وقع الاختيار على حلقة من تاريخها الطويل تبحث في تاريخ العلوم واتصالها بين الشعوب بمعالم زمنية ومجالية محددة سميتها **"الروابط العلمية بين بلاد المغرب والأندلس على عهد الموحدين (541-626هـ/1146-1228م)"** ضمن مقاربة تاريخية الهدف منها الكشف عن سبل ومظاهر التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، وفي اعتماد المؤرخين والجغرافيين لمصطلح "العدوتين" أكثر من دلالة تعبيرية على القرب وسهولة الرحلة بالرغم من التباين التاريخي والجغرافي والاجتماعي بين الصُقعين.

ومن دواعي اختياري لهذا الموضوع:

- اهتمامي بتاريخ المغرب الإسلامي وحضارته عامة، وتعلقي بتتبع مختلف العلوم والفنون و حركيتها عبر التاريخ.

- محاولة الوقوف على أبرز جوانب الإسهامات الحضارية والعلمية للمغاربة والأندلسيين ضمن مقاربة الروابط العلمية ومعرفة مدى نجاعتها، وإعادة ترتيب مختلف المعطيات والنصوص التاريخية لاستنباط آراء ومفاهيم أقرب لفحوى هذه الوثائق المصدرية بعيداً عن التأويل وتحميل النص ما ليس فيه.

- محاولة رصد آراء المؤرخين والباحثين عن الوتيرة التنافسية الحاصلة بين العدوتين، وتدافعها الحضاري، ومدى تأثرها بالتحولات السياسية والاجتماعية في ظل الهيمنة الموحدية على مشاهدها التنظيمية ذات الأبعاد العقدية والمذهبية.

تفرض طبيعة الموضوعات ذات المسالك المتداخلة الاستفهام عن التأثيرات السياسية للسلطة الموحدية في مشهد الحياة العلمية، وكيفية تفاعل المصادر والموارد المرافقة لهذه الحقبة الزمنية أو القريبة منها مع ما اشتهر من العلوم في المرحلة الوسيطية والطبائع المصاحبة لمنتحلها من حيث الإثبات والنفي أو الإقبال والنّفور ومبرراتهما ؟ ويتفرع عن محورها محاولة الإجابة عن مدى تأثر هذه المعارف بتداعيات الأنماط الاجتماعية والتاريخية التي عرفتها المنطقة؟ وما أبرز تأثيراتها في ذهنية العالم والمتعلم وفرص تواصلهما من عدمه بين بلاد المغرب والأندلس سواء لمن اهتم بالنقليات أو العقليات منها ؟ وهل ثمة ما يفيد في معرفة دوافع ظهورها وانتشارها أو معوقات انحسارها وأفولها؟

ومن هنا تتضح أهداف الموضوع في إمكانية التعرف على تأثير الأبعاد السياسية والاجتماعية بظهور الحكام المغاربة في إدارة الدولة المشرفة على الشؤون العامة للسكان، وربطه بالأبعاد و الاعتبارات المعرفية للعناصر المعنية بالدراسة ممثلة في نخبة المجتمع وأعيانه، وتتبع ذكر أعلام العلماء في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتب التراجم ومحاولة تحديد فوارق المجال الجغرافي بين الأندلسيين والمغاربة، ثم مقارنتها بعهودهم السابقة عن الفترة المدروسة.

نظراً إلى طبيعة الموضوع المركبة وتعدد مسالك أبعادها السياسية والعلمية آثرت الاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي في تتبع الأطوار التاريخية التي مرّت بها حركة التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، ودعمه بالمنهج الإحصائي الكمي لأجل سبر غور إسهام الأعلام ومعرفة أسمائهم ومراتبهم العلمية ومواطن استقرارهم؛ وهو ما حتم إدراجهم ضمن جداول إحصائية جمعت بين التحقيب الزمني والمجال الجغرافي للأعلام المترجم بهم، مع الوقوف على إنتاجهم العلمي وإسهامهم الحضاري، والغاية من ذلك هو الاطلاع على مدى فعالية مبادراتهم الفردية والجماعية في انتقال العلوم ونشرها بين ضفتي المتوسط، ورصد دور السلطة الموحدية في الأحداث التي رافقت الظاهرة العلمية ذات الشهرة الواسعة بالمجتمعات الإسلامية في الحقبة الوسيطية على اختلاف تجلياتها ومشارب روادها.

تعددت الأبحاث التي رصدت مختلف مناحي الحياة السياسية والعلمية في بلاد المغرب والأندلس في عصر الدولة الموحدية؛ غير أنّ ما وقع بين أيدينا منها لا يكاد يظهر بالشكل والمضمون اللذين ظهر بهما الصُقع الأندلسي وأهله لاسيما حركة تنقل العلماء- في شمول استغراق هذا الجمع لأهل العلم ومن انتسب إليهم- من أهل العدوتين ضمن هذا المجال الجغرافي، وما من تفسير واقعي ومقنع لاهتمام جمهرة من الباحثين المحدثين بالأندلس إلى درجة الانبهار ومنذ ثلاثينيات القرن الماضي إلاّ لأنهم أحيطوا بزخم تراثي مشبع ومتنوع بعطائه العلمي والحضاري المستفاد من رسوخ أقدام المسلمين فيها زهاء الثمانية قرون.

الظاهر من هذا التفوق الأندلسي - منذ العهد الأموي- وما قابله من تأخر في بلوغ بلاد المغرب وأهلها للمستوى المادي والحضاري الذي عرفته الأندلس بالرغم من ظهور بوادر المنافسة والمجاراة إلاّ أنّ هذا انعكس على معظم الدراسات التي انساقت ورواء الموضوعات ذات المواد المصدرية الوافرة، وابتعدت عن نظيرتها التي تشهد شحا في المعلومات وندرتها في أحايين كثيرة، غير أنّ هذا لم يمنع من ظهور بعض الأبحاث العلمية والأطروحات الأكاديمية التي رصد أصحابها أوضاع الحياة العلمية بمختلف تجلياتها بين العدوتين الأندلسية والمغربية في العصر الموحدي؛ ومنها: ما قدمه محمد المنوني في كتابه "حضارة الموحدين" بحيث عدّد أنواع العلوم والفنون التي انتشرت في عهد الدولة الموحدية، وبيّن دور خلفائها في تشجيع عامة الناس على تعاطيها والاشتغال بها إلاّ أنه أولى اهتماما واضحاً لقطر المغرب الأقصى فلم تنل بقية المدن والحواضر في بلاد المغرب إلاّ النزر القليل، وسار على هذا النهج مواطنه علي عبد الله علام في بحثه "الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي".

وفي عمل أكاديمي قدم الباحث يوسف العريني دراسة عن "الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين"، وفيها إحاطة بالموضوع من خلال ما رصده من مصادر تاريخية وتراجمية أثرت دراسته؛ بيد أنه أفرغ جهده في تتبع إسهامات الأندلسيين وأخبارهم، ولم يحظ غيرهم من المغاربة؛ وبخاصة من دخل منهم إلى الأندلس بنصيب وافر من الترجمة والتنويه، وأكثر من ذلك أنه تجنب الخوض في الجوانب السياسية والعقدية لدى الموحدين فلم تظهر صورة علاقتهم بالحركة العلمية التي عرفتها المنطقة في عهدهم.

من بين الدراسات التي فتحت المجال للنقاش حول أبعاد تأثير الاختلافات المذهبية والعقدية للموحدين في حياة أهل المعارف بين بلاد المغرب والأندلس ظهرت دراسة الباحث محمد المغراوي في رسالته للدكتوراه والموسومة بـ"العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين"، ولكن اقتصاره على طبقة المتصوفة ينسجم مع ما تمّ إقراره آنفاً من شح المادة العلمية المتعلقة ببلاد المغرب خلافاً للمتصوفة الذين تعددت مصادر تراجمهم لا سميا في القرنيين السادس والسابع الهجريين، وذاك كان مسعى الباحث وغايته من خلال وقوفه على معلومات أثرى بها دراسته، ولكن ما يلاحظ على هذه الدراسة أنّ صاحبها غلّب الجانب التصوفي على غيره حتى عند الأعلام الذين ورد التصوف في حياتهم عرضاً وليسوا متصوفة بالأساس، إضافة إلى أنّ مصطلح "المغرب" الوارد في عنوان الأطروحة محدود المعالم الجغرافية بما لا يتوافق مع الحدود السياسية للدولة الموحدية في أقصى اتساعها.

ولهذا الغرض حاولت الاطلاع قدر الاستطاعة على ما وقع بين يدي من مصادر ومراجع لإثراء موضوع البحث وتنويع موارده المطبوع منها والمخطوط، واقتناء العديد منها، والاستفادة من آراء من سبقني من الباحثين الذين اهتموا بالأبحاث ذات الصلة بموضوع الأطروحة؛ ولأجل ذلك لم أكتف بما حصلت عليه في جامعة وهران فقمت بزيارة جامعة الجزائر العاصمة وكبرى مكتباتها، وجامعتي منتوري والأمير عبد القادر بقسنطينة، كما سافرت إلى جامعة تونس واطلعت على أبرز الأطروحات العلمية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وما احتوت عليه مكتبتها، وتجولت بين بعض جامعات المملكة المغربية وعدد من مراكز البحث وخزائن المخطوطات بها.

قسّمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول وقسم خاص بالملاحق، وقدمت لها بمقدمة استهلالية وفصل تمهيدي ورد فيه عرض توضيحي للمعالم الاختيارية المركبة في عنوان الأطروحة بغرض استجلاء أبعاده الزمنية والمجالية، وبسط القول في إشكالية الاختلافات المنهجية الظاهرة عند المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين، وتقديم مبررات التوصيف الإصطلاحي لعبارة "الروابط العلمية" عند مؤرخي العلوم، وأهمية المرافقة الإحصائية للنصوص التاريخية في استنباط الآراء واستخلاص النتائج.

وأما الفصل الأول فكان عن الأوضاع السياسية وتأثيرها في الحياة العلمية بالعصر الموحدي بداية بالمرحلة التي أعقبت سقوط مدينة مراكش، وإعلان نهاية الدولة المرابطية، وكيفية تعامل الموحدين مع ما شهدته الأندلس من اضطرابات، ومعرفة تأثيرها في حياة الأندلسيين؛ وبخاصة طبقة العلماء، ثمّ تتبع أبرز الأعمال التي قام بها الموحدون بعد جوازهم إلى الأندلس سواء تعلق الأمر بالجوانب السياسية والأمنية أو الحياة العلمية لتكاملهما في تحقيق غاية التواصل والاستقرار مع عرض لأهم نتائج إسهاماتهم في المجال العلمي.

وأما الفصل الثاني فتم فيه رصد أبرز الأعلام الذين أسهموا في تولي الخطط الدينية والإدارية في الدولة الموحدية سواء كانوا من الأندلسيين أو المغاربة، وتقديم ما يبرر كثرة تواجدهم في بلاد المغرب مقارنة بالعهود السابقة، وتتبع أهمية ظهورهم على رأس الهياكل التنظيمية للدولة، و مدى تأثير مكانتهم في المجتمع، ومبلغ استفادة الموحدين من هذا الدور في ترسيخ سلطتهم بالعدوتين المغربية والأندلسية، والتعرض للخصائص التي ميّزت الإدارة الموحدية خلال الفترة التي أدار فيها خلفاء الدولة وولاتها جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والحضارية.

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن أشهر العلوم النقلية التي تم تداولها في المراكز التعليمية، ومعرفة عوامل انتشارها وتحليلها عند مقارنتها ورصد أبرز أعلامها، والهدف من ذلك هو الاطلاع على مدى تأثير الظروف المحيطة بحياة العلماء في دعم أواصر التواصل المعرفي بين المغرب والأندلس، والتطرق إلى مظاهره والعوامل المحفزة على انتشار العلوم، ودوافع طبقة العلماء في اختيار مناطق استيطانهم، والتعرف على علاقتهم بالسلطة الحاكمة، وما تخلل ذلك من مناقشات لآراء الباحثين حول جملة من الأطروحات والنظريات التي ظهرت في أبحاثهم عن تاريخ العلوم في العصر الموحدي.

أما الفصل الرابع فورد فيه التأريخ للعلوم العقلية ومحاولة تقصي أبرز معالمها، والترجمة لأشهر المشتغلين بها مع التطرق إلى إشكالية النفور من بعض فنونها؛ وهي الظاهرة التي عرفتها العصور الإسلامية في مرحلتها الوسيطية، ومناقشة آراء الباحثين حول بعض موضوعاتها ذات الصلة بالانتشار والانحسار، وتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف،

والغاية من ذلك هو محاولة الكشف عن موقف السلطة والمجتمع ممن جاهر بالخوض في فنونها، ومدى انتشارها بين الأندلس وبلاد المغرب في ظل ما اشتهر تاريخياً عن من انتحلها علماً، وتتبع مواطن استقرار روادها وأهم تنقلاتهم بين الضفتين.

وأما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التي خلص إليها البحث.

وعن مصادر البحث فقد جاءت متنوعة بين كتب التراجم والتاريخ والأدب، والعلوم العقلية والجغرافية، وتأتي كتب التراجم على رأس القائمة نظراً لأهميتها للباحث عن الحياة العلمية قصد تتبع سيّر العلماء ومراتبهم المعرفية و أماكن تواجدهم، وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة.

- المصادر والمراجع: (عرض ونقد)

آثرت ترتيب المصادر بحسب مبلغ إفادتها لموضوع الدراسة لا على اعتبارات زمنية أو موضوعية يتم الاستناد فيها إلى سنوات الوفاة وطبيعة الموضوع ونوعه كمعايير في التصنيف، واقتصرت منها على المصنفات الأولية التي اعتمدت عليها في عرض فصول الدراسة ومباحثها، ونقدها وإظهار مدى أهمية كل منها.

ح- كتب التراجم :

تأتي كتب التراجم والفهارس على قمة هرم الاستفادة المصدرية لارتباطها الوثيق بتاريخ العلوم واتصال أسانيد نشرها من عدمه، وتتبعها لحياة أعلام العلماء ومراتبهم؛ وهو ما يتيح فرص الاطلاع على إسهاماتهم في الحياة العلمية.

1.التّكملة لكتاب الصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المتوفى سنة 659هـ/1261م، جمع ابن الأبار بين عدة فنون فأجاد فيها، فهو المؤرخ والشاعر والأديب والكاتب، له مصنفات عديدة تنم عن ما وصف به، ويعتبر كتابه التكملة من المصادر الأولية في التأريخ لسيرة علماء الأندلس ومن دخلها من المغاربة، وقد تولى الكتابة عن بعض ولاة الموحدين في آخر دولتهم في الأندلس؛ وهو بذلك شاهد عيان للكثير من الأحداث التي عرفتها المنطقة، وأفادته تنقلاته بين الأندلس وبجاية وإفريقية من رصد أوضاع جالية الأندلس ومعرفة مدى إسهاماتهم في الحياة العلمية، غير أنّ مكمن القصور في مؤلفه هذا

هو تعصبه لأهل بلده، وعدم تتبع أخبار المراكز العلمية التي بدأت بالظهور في بلاد المغرب ومن وفد إليها من طلبة الأندلس إلاّ من بعض الحالات التي أشار إليها.

2.الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة:

لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى سنة 703هـ/1303م، نوّع ابن عبد الملك من موارده فبلغنا كتابه متحفاً بالمصنفات التي ملك أصولها أو اطلع عليها - وهي تعود إلى العصر الموحدي ومعظمها في حكم المفقود- وبالرغم من أنّ كتابه لم يصل إلينا كاملاً؛ وبخاصة القطع المتمّمة لقسم الغرباء وتحديداً من كان منهم من أعلام المغاربة إلاّ أنّه قدم معلومات في غاية الأهمية عن أوضاع الحياة العلمية في الحقبة المؤرخة – نقلاً عن شيوخه وعن المصادر المعاصرة لهذه الفترة- وحمله لشعار المنافحة عن المغاربة لإحاطته بسيرة حياتهم ومعارفهم، وتتبع تاريخ خلفاء الدولة الموحدية وولاتها في مجال خدمة العلم وأهله، ومن بين الأمور التي تؤخذ عليه هو انسياقه وراء شروط الأندلسيين في التأليف؛ ولذلك لم يلتفت لمن لم يسعفه الحظ بالدخول إلى الأندلس من المغاربة، ويضاف إلى ذلك قلة تنقلاته بين مدن بلاد المغرب والأندلس الأمر الذي جعله يغلّب ذكر أعلام المنطقة الغربية لبلاد المغرب على حساب المنطقة الشرقية كبجاية ومدن بلاد إفريقية.

3.أعلام مالقة:

لأبي عبد الله محمد بن عسكر المتوفى سنة 636هـ/1238م، والذي أكمله أبو بكر بن خميس (كان على قيد الحياة سنة 638هـ/1240م) ، ويعتبر هذا الكتاب من أبرز المصادر التي اهتمت بالترجمة لأعلام المغاربة الداخلين إلى الأندلس على الرغم من أن صاحبه اقتصر في شرطه على من دخل مالقة، وما وصلنا منه لا تتجاوز تراجمه 174 ترجمة بحكمما أصاب آخر الكتاب من بتر، ومع ذلك أفاد البحث في توضيح صورة تواجد خلفاء الدولة وولاتها في الأندلس ومدينة مالقة تحديدا، ونبرة ولائه للدولة واضحة من سياق أسلوبه، ولم يفرد كتابه للعلماء فحسب وإنما انفرد بالترجمة لغيرهم من قادة الموحدين و أحفاد بني عبد المؤمن، وأسهم المؤلفان في رصد حركة تنقل العلماء بين العدوتين وتأثير ذلك في التواصل العلمي بينهما.

4.عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية:

لأبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني البجائي (ت714هـ/1314م)، وفيه ترجم صاحبه لعلماء مدينة بجاية سواء كانوا من أهلها أو ممن استوطنها أو وفد عليها خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وقد رصد صاحبه هجرات العلماء بين العدوتين الأندلسية والمغربية؛ وما وقف عليه من وثائق نصية لإجازات الشيوخ ومراسلاتهم العلمية؛ وهو مصدر مهم في تتبع حياة المتصوفة من الصلحاء والعباد بحكم تركيزه على هذه الشريحة المؤثرة في المجتمع حينئذٍ، وما يلاحظ عليه أنّه أغفل الكثير من علماء بجاية من غير المتصوفة ممن اشتغلوا بالعلوم النقلية والعقلية، وأسهموا في الحياة العلمية بالمدينة على غرار الكُتاب والقضاة والشعراء والأطباء والفلاسفة وغيرهم.

5.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:

لأبي العباس أحمد بن محمد الشهير بالمقري التلمساني المتوفى سنة1041هـ/1631م، جمع فيه صاحبه بين عدّة فنون كالتاريخ والتراجم والشعر والأدب؛ ونقل عن عدد كبير من المصادر المتنوعة فعدّ بحق موسوعة تاريخية وأدبية، ومورد مهم للحياة العلمية والاجتماعية، وبالرغم من أنّ المقري من المتأخرين عن الفترة المدروسة إلاّ أنّه حافظ على جملة من المصادر والروايات التي فقدت أصولها، ولعل هذا ما أهل كتابه لأنّ يحظى بمكانة بين المصادر المتقدمة والمعاصرة لأحداث الدولة الموحدية وغيرها، وقد أفاد البحث في تتبعه لأخبار أعلام العلماء في مجال العلوم النقلية والعقلية، وكشف لمواطن تجوالهم واستقرارهم بين المدن والحواضر؛ وبخاصة عوامل هجراتهم ونتائجها، غير أنّ الإشكال الذي يقف أمام الباحث في موضوعات كتابه هو عدم اتباعه لمنهج واضح في تدوين معلوماته فتراه ينتقل بين الأخبار والأحداث من دون ترتيب ولا مبرر تاريخي، وإكثاره من الاستطرادات، ويشفع له ذلك بُعده عن مكتبته، واكتفائه بما كان بين يديه وما رواه من ذاكرته.

6.عيون الأنباء في طبقات الأطباء:

لابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجى موفق الدين المتوفى سنة 668هـ/1269م، عاصر صاحب هذا الكتاب فترات مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وقريب عهد بالكثير من الأحداث التي مرّت بها، وتكمن أهميته في إفراد الترجمة لأشهر أطباء المغرب الإسلامي؛ وبخاصة من عاشوا في القرن السادس والسابع الهجريين، وقد أفاد البحث في التعرف على أسمائهم وأشهر مؤلفاتهم وعلاقتهم بالسلطة الموحدية، كما بيّن فيه إسهامات خلفاء الدولة في العلوم الطبية؛ وهو بذلك يعد من أهم المصادر التي أرّخت لتاريخ الطب في المنطقة، غير أنّ ما يلاحظ على هذا المصنف أنّ صاحبه أولى اهتماماً بالتوسع في الترجمة لأشهر الأطباء بينما وردت معلوماته مقتضبة عن غيرهم؛ وبخاصة أهل بلاد المغرب.

ح- كتب التاريخ:

ارتبط التحقيب الزمني بمختلف مجالات حياة الفرد والمجتمع، وشكّلت كتب التاريخ موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول والسلالات الحاكمة موارد مهمة في توضيح علاقة العلوم والفنون بالأحداث التاريخية، وأخبار الدول وحكامها ضمن المسار التفاعلي لحركة التاريخ، ومن أهمها:

1.المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب:

لأبي محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي كان بقيد الحياة سنة 621هـ/1224م، ألف كتابه هذا في مدينة بغداد، وقد عاصر عبد الواحد فترة مهمة من تاريخ الدولة الموحدية، وبحكم قربه من حكام الموحدين حرص على تدوين ما شاهده من أحداث، أو سأل عنه من يثق به، وفي كتابه أخبار عن بعض ملامح الحياة العلمية في بلاد المغرب والأندلس، و وصف لأحوال العلماء وعلاقة السلطة الموحدية بهم، غير أن شمولية المنهج الذي اتبعه في التأليف بين الطريقة الحولية والموضوعية جعله يغفل الكثير من التفاصيل ذات الصلة بالحياة العلمية بحسب ما اشترطه في كتابه، وأنّ بعده عن مجريات الأحداث؛ وبخاصة في المراحل الأخيرة من تاريخ الدولة جعلته يلتزم الاختصار.

هذا الجزء من كتابه للدولة الموحدية وفيه أورد أخبار حولية مفصلة عن الدولة الموحدية، وإسهامات خلفائها وولاتها في المجالات السياسية والعلمية والحضارية، وتكمن أهميته في الاعتماد على روايات عاصر أصحابها دولة الموحدين، ومنهم من خدم في بلاطهم كالكُتّاب والمؤرخين، ومعظمها في حكم المفقود، غير أنّ ما يؤخذ على صاحب هذا الكتاب هو عدم تنويعه في المصادر التاريخية غير تلك التي كانت تدين بالولاء للموحدين، فظهر مؤلفه بنسق تاريخي واحد لا يحيد فيه عن نظرة مؤرخي البلاط.

دوّن ابن صاحب الصلاة الكثير من الأحداث التي عاشها بحكم خدمته في دواوين الموحدين وولائه لهم، فاعتمد على رواية الأخبار التي عاصرها، والسؤال عن تلك التي لم يشهدها بنفسه أو بسبب بعده عنها، والكتاب لم يصل إلينا كاملا والموجود بين أيدينا ما هو إلا قطعة منه أرخ فيها للحوادث الواقعة بين سنتي 544 و568هـ، وأهميته تكمن في وصفه للأحداث التي أعقبت دخول الموحدين إلى الأندلس، وأبرز إسهاماتهم العلمية والحضارية، كما انفرد بذكر ما له صلة بالتواصل العلمي بين الأندلس وبلاد المغرب من خلال ذكر بعض أعلام المنطقة، ولا يختلف ابن صاحب الصلاة عن مؤرخي البلاط؛ بحيث تظهر عليه النزعة الذاتية المفاخرة بالدولة وأعلامها.

لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى سنة 808هـ/1406م، وابن خلدون من أبرز المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ المغرب الإسلامي، ومعرفة شعوبه وقبائله وتاريخ دوله، وجمعه بين مختلف الروايات مع إبداء رأيه في الكثير من أخبارها، وقد خصص الجزء السادس من كتابه للتأريخ لبلاد المغرب والأندلس؛ ولأنّ البحث وطيد الصلة بتاريخ العلوم والفنون فلا خفاء ما لمقدمته الشهيرة من إفادة في تعريفها وتتبع نبذ عن تاريخها، وما عرضه من آراء ونظريات عن انتشارها وأبرز روادها بين العدوتين الأندلسية والمغربية.

لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي المتوفى سنة 685هـ/1286م، هذا الكتاب تعاقب على تأليفه ستة من عائلة ابن سعيد، وعلى مدار مائة وخمسة عشر عاماً، وهو يقوم على ترتيب مواده على البلاد وما فيها من خصائص جغرافية وسياسية، ثم يعرف بطبقات كل بلد بداية بالأمراء والعلماء والشعراء ثم من ليس له نظم ولا يحسن إغفاله، والكتاب يحتوي على معلومات تاريخية مهمة عن دولة الموحدين، وبه تراجم لكثير من أعلام

المغاربة، وقد عاصر ابن سعيد السنوات الأخيرة من تاريخ الموحدين في بلاد المغرب والأندلس؛ وهو قريب عهد بالأعلام الذين خدموا في دواوين الدولة؛ فوثّق معلوماته عنهم، وكتابه هذا يضاف إلى تصانيفه الأخرى ذات الفائدة البالغة في معرفة تاريخ العلوم ومصنفاتها، وإن بدا اهتمامه بالأدب وأهله أكثر من غيره .

أرّخ ابن أبي زرع لأخبار ملوك بلاد المغرب ودولهم من لدن الفتح الإسلامي إلى سنة التي توقف فيها كتابه، وفيه عرض لتاريخ الموحدين وإسهاماتهم الحضارية في العدوتين الأندلسية والمغربية، ومن الملفت أنّ ابن أبي زرع كان يكتب متحرراً من رواية مؤرخي الدولة الموحدية فكثيراً ما كان يخالفهم في الرأي أو ينبه إلى ما ورد عند غيرهم، غير أنّ اختصاره لبعض المحطات التاريخية المهمة في حياة أعلام الأندلس وبلاد المغرب وخلفاء الدولة وأمرائها- بالرغم من انفراده بذكرها- قلل من فائدة إيرادها؛ بحيث لم تتضح صورتها عند غيره.

تكمن أهمية هذا الكتاب في الربط بين الوصف الجغرافي والخبر التاريخي، مع ذكره لأخبار ذات صلة بالجوانب المعمارية والعلمية لمدن الأندلس والمغرب، وقد وقف الحميري عند العديد من الأخبار الخاصة بتاريخ الموحدين من خلال ذكر أسماء أعلامهم ومنجزاتهم، وما عرفته المدن من عمارة وتشييد أو خراب ومعارك أثرت في تركيبة سكانها؛ وهو ما يتيح للباحث معرفة مواطن هجرة العلماء وأسبابها، كما أفاد البحث في رفع الجهالة عن الكثير من المدن حين التعريف بها، واكتفى الحميري من كل ذلك بمجرد النقل عن غيره، من دون التصريح بأصحاب الروايات الأصليين مع عدم إبدائه لرأيه.

عاش الإدريسي فترة نهاية تواجد المرابطين على الأراضي الأندلسية، وقد أفاد البحث في وصفه لأوضاع الأندلس خلال هذه الفترة الانتقالية من تاريخ المنطقة، كما عرّف بأماكن استقرار المغاربة، وأعطى صورة عن أحوال المدن و القرى.

ولأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون، سبق التعريف بكتابه في التاريخ، وأهمية مقدمته في تاريخ العلوم إجمالاً، إلاّ أنّ ثمة جانباً مهماً انفرد به ابن خلدون في مقدمته؛ وهو التعريف برواد العلوم العقلية في تاريخ الإسلام إلى غاية العصر الذي عاش فيه مع ذكر أهم مصنفاتهم العلمية وإسهاماتهم الحضارية كالأطباء والمهندسين والفلاسفة وأهل الحساب

وغيرهم، ولأنّه من أهل بلاد المغرب فلا غرابة أنّ تقدّم آراؤه على غيره في الكثير من الموضوعات التي تتضارب فيها الروايات أو يحوم حولها الغموض، ويعود ذلك إلى سعة اطلاعه ومعرفته بالأطوار التي مرّت بها العلوم العقلية والنظرية، وإحاطته بعلاقات حكام الدول بأهلها وموقفهم منها، ومناهج تعليمها وأسباب تطورها أو انحسارها.

هذه جملة من المصادر الأولية التي اقتصرت على ذكر بعضها، وفي ثنايا هذه الدراسة عرض لغيرها من الدواوين والمصنفات المطبوعة والمخطوطة، ومختلف الأبحاث العربية والأجنبية الخاصة بالباحثين المحدثين وفي مختلف التخصصات النقلية والعقلية، والهدف منها إحاطة الموضوع - قدر الإمكان- من جميع جوانبه بما يكفي لسبر غور مباحثه واقتفاء آثار رجالات العلوم وإسهاماتهم في مختلف المعارف والفنون في مقاربة تاريخية ضمن الحدود الزمنية والمجالية للدولة الموحدية.

ومن الصعوبات التي واجهت مراحل إعداد البحث وتقصي موضوعاته هو عدم التمكن من الاطلاع على العديد من المخطوطات النادرة التي تعود إلى الحقبة المدروسة؛ وبخاصة في مجال العلوم العقلية مع إمكانية الوصول إلى أرقامها وتصنيفاتها في دور المخطوطات وخزائنها، وأخص بالذكر مكتبة الإسكوريال بإسبانيا ومكتبة لشبونة الوطنية بالبرتغال ومكتبة جامعة غوتينغن بألمانيا، مع استفراغ الجهد في اتباع جميع الإجراءات القانونية والإدارية، والتواصل مع الباحثين العرب والأجانب للظفر ببعض نسخها المهمة؛ غير أنّ ما يؤسف له أنّني اكتفيت بمجرد المحاولة حتى لا أقول الفشل، وحق لها بذلك أن تصنّف ضمن تراثنا المخبوء.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت في الإلمام بأهم مباحث هذه الدراسة وما اخترته لها من مصادر ومراجع، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

توالت الهجرات بعد هذه الفترة وتلازم ظهورها مع تجدد الفتن والحروب في الأندلس؛ وبخاصة إلى مدن بلاد المغرب بحيث تطلعنا كتب التراجم على من غير موطنه عقب هزيمة العِقاب سنة 609هـ/1212م بحثاً عن الأمن والاسقرار، وسنة 621هـ/1224م، وسنة 626هـ/1228م، ونبّه ابن الأبار البلنسي إلى كثرة ما شاهد من الأندلسيين عند زيارته لإفريقية[1]، لاسيما من أهل شرق الأندلس، والظاهر أنّ هذا تمّ بعد عمليات الحصار والتضييق التي تعرض لها السكان من طرف الممالك النصرانية، والأمر ذاته أشار إليه ابن غالب الأندلسي، وأجمل في شهادته الهجرة إلى جميع مناطق العدوة المغربية الساحلية منها والداخلية، وعدّد عناصر مختلفة من المجتمع الأندلسي من أهل العلم والحرفيين والصنّاع[2].

الملاحظ أنّ وقع فتنة المرحلة الإنتقالية بين سنتي 539 و 542هـ وصدى تأثيرها كان أكبر على أهل الأندلس من غيرها، وتوالى خبرها إلى أهل التاريخ والتراجم فدونوا ما بلغ مسامعهم عن سببها في هجرة العلماء، وتغيير أوطانهم، والظاهر من تتبع كتاب تراجم الأعلام لأصول العلماء وبيوتاتهم بين بلاد المغرب والأندلس ما يفيد بتعدد ظاهرة الهجرة والارتحال بداية من هذه الفترة؛ إذ أنّ معظم طبقات التراجم التي ظهر أصحابها في القرنين السادس والسابع الهجريين ورد التنبيه إلى أصل الموطن بالرغم من اختلافه عن موطن المولد والنشأة؛ كأن يكون المترجم به من أهل تلمسان مثلاً بينما أصله من إشبيلية، وكثيراً ما تعقب ابن الأبار في تكملته سبب الاختلاف في ذلك بهجرة الأصول[3].

وفي الإحصاءات الآتية توضيح لذلك.

1- ابن الأبار- المصدر السابق- ج3- ص 154.
2- المقري- المصدر السابق- ج3- ص 152.
3- ينظر على سبيل المثال- المصدر السابق- ج2- ص ص 159-163.

انتقال العلماء بين العدوتين المغربية والأندلسية في المرحلة الانتقالية

أسماء الأعلام	مكانتهم العلمية	أصل مواطنهم	زمن الجلاء	مكان انتقالهم	سنة الوفاة
أحمد بن محمد بن حزم	أستاذ بالعربية	إشبيلية	سنة 539هـ	عدوة المغرب	/
- محمد بن عبد الله بن محمد الخشني	قاضي	مرسية	سنة 539هـ	غرناطة	540هـ
- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الصقلي	لغوي	إشبيلية	خرج زمن الفتنة	سبتة	541هـ
- محمد بن أحمد بن إبراهيم البغدادي	فقيه	جيّان	سنة 539هـ	فاس	546هـ
- علي بن أحمد بن محمد الكلبي	فقيه	قرطبة	539هـ	مرتلة ثم مراكش	565هـ
- عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف السكوني	من أهل العلم	لبلة	540هـ	بلاد المشرق	/
-محمد بن خليل بن مفرج بن عبد العزيز	فقيه وقاضي	المرية	أزعجته الفتنة عن موطنه	بلنسية	/
- محمد بن محمد بن أحمد التجيبي	قاضي	قرطبة	خرج زمن الفتنة	مرسية	567هـ
- محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأنصاري	قاضي	غرناطة	سنة 539هـ	بلنسية	567هـ
- محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري	فقيه ومشاور	قرطبة	خرج من بلاده في الفتنة	مراكش	567هـ
- إبراهيم بن الحاج أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري	قاضي	غرناطة	أزعجته الفتنة عند انقراض الملثمين	ميورقة	579هـ
-عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي.	فقيه ومحدث	إشبيلية	خرج من موطنه في الفتنة	لبلة ثم بجاية	582هـ
- أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري	فقيه وتاجر	قرطبة	خرج زمن الفتنة	لبلة ثم فاس	610هـ

ليس الهدف من هذا الإحصاء حصر جميع الأعلام الذين غادروا مدنهم كرهاً، وإنما هي مجرد نماذج لشريحة واسعة من المجتمع الأندلسي وقع اختيارها من بين العشرات الذين أورد ذكرهم أهل التراجم على مراتبهم العلمية، وأصل مواطنهم مع تقييد زمن جلائهم، ومكان انتقالهم وسنوات وفاتهم.

ومن العبارات التي ترددت عند ابن خلدون وابن الأبار على وجه التحديد عنهم عبارة "جالية الأندلس"[1]، وإلاّ فإن حصر من ذكر انتقالهم بسبب الفتنة دون إيراد لهذه المعطيات قد يطول، وما يستفاد عن هؤلاء الأعلام أن منهم من اختار اللجوء إلى المدن الأندلسية الآمنة ولم يبغ عنها بديلاً رغم أن هذا بدا مؤقتاً وأكثر ارتباطاً بمدى تحسن الأوضاع فيها مع قصر المدة، بدليل أننا نجد في السنة الواحدة (539هـ/1144م) من انتقل من مرسية إلى غرناطة والعكس، بينما اختار آخرون الانتقال إلى مدن بلاد المغرب، وهو ما أهلها لأن تكون أماكن استيطان دائم للعديد منهم على غرار مراكش وفاس وبجاية وسبتة والجزائر وتلمسان، رغم ما عرف عن الأندلسيين من حب لمدنهم وشدة تعلقهم بها.

و يلاحظ أن القضاة والفقهاء والأدباء يأتون على رأس من مستهم الأوضاع المضطربة، وكانوا في هذه الفترة أكثر عرضة للخطر من غيرهم، فاضطروا إلى المغادرة طلباً للنجاة، في حين استغل آخرون منهم مكانتهم في المجتمع وهموا بالدعاء لأنفسهم سعياً وراء تولي الإمارة فانغمسوا في أتون الفتنة، ولأن التراجم خصصت لأهل العلم والأدب دون غيرهم، فلا يستبعد هجرة غيرهم من أهل الصنائع والحرف.

حاول أهل التراجم الإحاطة بأهم محطات حياة الأعلام المترجم بهم؛ فذكروا أنسابهم وأصول مواطنهم وأبرز شيوخهم وتلامذتهم، وتواريخ وفاتهم، وكانوا ينبّهون إلى من تغيرت أحوالهم بسبب الحروب والفتن، وامتحنوا بتغير أماكن نشوئهم فاستوطنوا بلداناً غير بلدانهم، ويمكن استخلاص أبرز المتغيرات التي ترتبت عن انتقال أعلام العلماء فيما يلي:

- انتقال سند التعليم رواية ودراية، وبذلك أسهم تغيير العلماء لمواطنهم ظهور مراكز تعليمية جديدة، وهو الأمر الذي استفادت منه الدولة الموحدية كثيرا.

1- ابن الأبار- المصدر السابق- ج3- ص 154، وابن خلدون- المصدر السابق- ج1- ص 514.

- انتقال خزائن الكتب؛ وهو ما سهل عملية نسخها، وبخاصة ما ندر منها إضافة إلى حركة التصنيف التي ستعرفها بلاد المغرب خلال هذه الحقبة في مختلف العلوم والفنون؛ وهو ما سيتم التطرق إليه في روابط الحياة العلمية بين العدوتين المغربية والأندلسية.

- لطالما تفاخرت المدن بأعلامها، وتنافست بذكر فضائل علمائها وصلحائها، وفي انتقالهم يعلو ذكر بعضها ويخبو ذكر أخرى.

- عادة ما يكون تغيير العلماء لمواطنهم سبباً في تغيير طلبة العلم لمسار رحلاتهم العلمية؛ فلا تكون الرحلة إلى المدينة بعينها، وإنما إلى من سكنها من العلماء.

- بدا اختلاف البيئة واضحاً في كتابات بعض العلماء بحيث دونوا مشاهداتهم عن طبائع من هجروا إليهم، ومختلف ما بلغ مسامعهم من غريب ألسنتهم وعاتداتهم.

- أسهمت المراتب العلمية في تقلد بعض الأعلام للمناصب العليا في الدولة الموحدية، والوجاهة بين الناس، ولم تقف غربتهم حائلاً أمام بلوغهم لهذه المناصب؛ وهو ما سيتم الحديث عنه بالتفصيل في الفصول اللاحقة.

المبحث الثالث: دور الموحدين في إعادة الاستقرار وتوحيد العدوتين.

1- توحيد بلاد المغرب:

ما إن تمكن الموحدون من دخول مراكش في شهر شوال من سنة 541هـ/1146م حتى هموا بتأمين المدن والأقاليم[1]، وملاحقة من بقي من أمراء المرابطين، وتأديب القبائل الموالية لهم؛ وبخاصة تلك التي انحازت للمناطق الساحلية، وإخماد ثورة الماسي[2] في بلاد السوس.

كان من نتائج إحكام سيطرتهم على بلاد المغرب قدوم الوفود للمبايعة والإقرار بحكمهم؛ ومن أشهرهم وفد من علماء الأندلس قدم من مدينة إشبيلية على عبد المؤمن بن علي في

1- ابن عذاري- المصدر السابق- ص 27.
2- هو محمد بن عبد الله بن هود، كان أبوه دلالاً بالسوق فادعى الهداية وسمى نفسه بالهادي، غير أن الموحدين وجهوا له جيشاً فقتل أثناء المعركة. المصدر نفسه- ص ص 30- 31.

في أواخر سنة 541هـ/1146م، وكان على رأسهم القاضي أبو بكر بن العربي المالكي[1].

تمكن الموحدون من الدخول إلى أشهر حواضر بلاد المغرب، ولم يتركوا مدينة أو صقعاً إلاّ وفرضوا سيطرتهم عليه؛ وبخاصة في الفترة التي حكم فيها عبد المؤمن بن علي، ومنها حركته إلى مدينة بجاية سنة 547هـ/1152م واستيلائه على ملك الحماديين[2]، وفي آخر سنة 553هـ/1160م أخذ في الحركة إلى إفريقية ودخل مدينة تونس عنوة، وامتدت سيطرة الموحدين على المهدية وطرابلس وما والاها من البلاد، ولخص عبد الواحد المراكشي المناطق التي سيطر عليها عبد المؤمن في حياته بأنها تمتد من "طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة وأكثر جزيرة الأندلس"[3].

2- جواز الموحدين إلى الأندلس وتوحيد العدوتين:

تتفق معظم المصادر عن دواعي انتقال الموحدين إلى الأندلس حول رواية من وفد إلى حاضرتهم مراكش من أهل إشبيلية الذين بادروا إلى الاستنجاد بهم ومبايعتهم[4] ؛ لأنّ كفة ميزان القوة لديهم أضحى هو الغالب على الرغم من أنّ الأمر لم يكن لهم في بلاد المغرب بحكم انشغالهم بمحاصرة من بقي من المرابطين، وكان أطراف الصراع الداخلي بالأندلس هي من بادرت بالاتصال بالخليفة عبد المؤمن بن علي، حيث تلقى مبايعة أبي الغمر السائب بن عزون الثائر بمدينة شريش، وطاع له علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول البحري للمرابطين والمنتزي عليهم بقادس[5] التي خطب بجامعها أول خطبة لعبد المؤمن سنة 540هـ/1146م[6].

1- ابن سماك العاملي- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية- تح عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1-2010م- ص 223.
2- ابن عذاري- المصدر السابق- ص 64.
3 - عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 169.
4- خالف البيدق هذه الرواية فتحدث عن ارتداد أهل المرية قبل جواز الموحدين في إشارة قد يفهم منها بلوغ دعوة الموحدين في وقت مبكر إلى الأندلس. ينظر البيدق- أخبار المهدي ابن تومرت- تح عبد الحميد حاجيات- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1975م، ص 69.
5- جزيرة جنوب الأندلس، طولها من القبلة إلى مدينة الجوف أثنا عشرة ميلاً، بها مزارع كثيرة ومن أعجب آثارها الصنم الذي في وسطها. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص287.
6- ابن عذاري- المصدر نفسه- ص27.

واجتاز إليه ابن قسَي صاحب ثورة المريدين، فكان أن " تحفى عبد المؤمن به وأكرم وفادته، ثم انصرف إلى الأندلس"[1]، ولم يقتصر الأمر على القادة العسكريين فقد قصده القاضي ابن حمدين -الثائر بقرطبة- بعدما انفرط أمره" فأقبل عليه وأحسن وعده"[2].

يفهم من مجمل الروايات التاريخية أن هذه المبايعة إنما وقعت تحت ظرف المصالح السياسية وتبادل الأدوار، فقد نزع كل من ابن قسي وابن حمدين يديهما منها[3]، وأما الموحدون فإنهم "بقدر ما اجتهدوا في تحطيم الدولة المرابطية، حاولوا بصلابة حماية إرثها الوحدوي الذي اعتبر تجربة مغربية رائدة، ولم يقبلوا بأن يرتبط تفتيته باسمهم"[4] حيث شكلت مبايعة وفد إشبيلية المكون من أبرز أعيانها وفقهائها[5] الدعم السياسي والشرعي الذي حفزهم للانطلاق نحو مختلف المدن الأندلسية، وتحقيق رغبة أهلها في توحيد ما تفرق، والوقوف في وجه تكالب النصارى وبخاصة بعد أخذهم لإشبيلية إحدى كبرى قواعد الأندلس من يد المرابطين في 12شعبان541هـ/1146م، ودخول عبد المؤمن مراكش منتصراً في شوال من السنة ذاتها[6].

اعتمد الموحدون عند جوازهم على توطين القبائل البربرية والعربية داخل المدن وقصباتها قصد إحكام سيطرتهم عليها بضمان ولاء جيوشهم مقارنة بجند الأندلس وقادتهم، وما يؤكد هذه السياسة في تدبير حكمهم لقواعدها اقتصارهم على آل عبد المؤمن وقرابته عند تعيين الولاة عليها[7]، والتي "امتدت إلى الأجهزة الاستشارية والإدارية خاصة العسكرية، فظهرت شريحة اجتماعية جديدة مسيطرة حلت مكان تلك الشرائح القديمة"[8]، ورغم أن ما تم جمعه من معطيات لا يفصح عن تفاصيل الحياة الاجتماعية لأفراد هذه

1- ابن الخطيب- المصدر السابق- ص 251.
2- المصدر نفسه- ص 254.
3- نفسه- ص ص251- 254.
4- محمد المغراوي، المرجع السابق – ص 30.
5- ترأس هذا الوفد أبو بكر بن العربي الفقيه المالكي إلى جانب عدد من الفقهاء والأعيان، وقد أورد أسماءهم صاحب الحلل الموشية- ص147.
6- ابن عذاري- المصدر السابق- ص33، و الحلل الموشية- ص 138.
- ابن الخطيب- المصدر نفسه- ص 268. 7
8- عز الدين موسى- المرجع السابق- ص213. عبد الوهاب بن منصور- قبائل المغرب- المطبعة الملكية- الرباط-(دط)- 1998م- ص ص 67-82.

القبائل في بيئة تختلف عما تعودوا عليه في بلاد المغرب، فإن الأمر لا يخلو من إشارات توضح ما تميز به المغاربة الوافدون على الأندلس، كظهور لغة تخاطبهم باللسان البربري[1] في مجتمع متعدد الأجناس والقوميات، وشيوع أسماء المصامدة في الوسط الأندلسي نسبة إلى كبرى قبائل الموحدين، وهو ما تعداه إلى التسمية القبلية للدولة عند ابن سعيد وعبد الواحد المراكشي بوصفهما لها بـ"دولة الصامدة"[2] خلافاً لما درج عليه كتاب الدولة أو من أرخها.

من الواضح أن الأندلس أضحت مقبلة على مرحلة جديدة من حكم قبائل بلاد المغرب بعد تلك التي شهدتها زمن المرابطين غير أنها ذات توجهات فكرية وعقدية مختلفة تماماً، جسدت بعض ملامحها أقدم رسالة[3] ـ بين أيدينا من حيث تاريخ صدورها ـ وجهها عبد المؤمن بن علي إلى عيّنهم على إدارة المدن الأندلسية وتولي أمرها، وفيها حثّهم على العدل بين الناس، وحذّهم من مغبة قتل المسلمين واستباحة أموالهم وأعراضهم، وإبطال ما كان يؤخذ عنهم من مغارم بمختلف أنواعها[4] مهدداً ومتوعدًا من يأمر بشيء من ذلك؛ فقد كان يهدف إلى إسكان العامة، لخطورة المرحلة التي كانت تمر بها المنطقة؛ لاسيما وأنها كانت منقسمة على نفسها تتجاذبها عدة زعامات أندلسية بالإضافة إلى خطر الممالك النصرانية المتربصة بالثغور، ويرى بذلك "ضرورة قطع تلك المفاسد وإشعار السكان بالاطمئنان إلى الحكم الجديد وتشريعاته"[5].

1- ودليله تلك الخطب التي كانت تلقى على جيوش الموحدين باللسان البربري، منها الخطبة التي ألقاها الشيخ الزاهد أبو محمد عبد الواحد بن عمر ـ أحد أعلام البربر ـ عند حصار رندة سنة 567هـ/1171م. ينظر مقتطف منها بالملحق رقم01 ص353، وأخرى ألقاها في حضرة أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي سنة 568هـ/1172م عند محاصرة آبلة، ابن صاحب الصلاة- المصدر السابق- ص 524.

2- ينظر عبد الواحد المراكشي-المصدر السابق- ص12-179 و223، وابن سعيد- المصدر السابق- ج1- ص ص 193-340، وج2- ص ص 250-257.

3- وجه عبد المؤمن بن علي هذه الرسالة عندما وصل إلى تينملل في 16 ربيع الأول سنة 543هـ/1148م- رسائل موحدية- جمع وتحقيق أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- المغرب 1995م- ج1- ص61.

4- ومنها:المكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها- أحمد عزاوي- رسائل موحدية- المصدر السابق-ج1- ص 64.

5- أحمد عزاوي- المصدر السابق- ج2- ص 14.

4- سياسة الموحدين اتجاه الأندلس وأهلها:

عملت الدولة الموحدية – حديثة النشأة- على توطيد صلتها بسكان الأندلس عن طريق نشر العدل والمساواة، ومن ذلك قيام الموحدين بمعالجة أخطاء قادتهم في حق الأندلسيين بصرامة وحزم؛ خشية أن ينسب للدولة ما يتعارض مع ما روجت له من أفكار وشعارات، ومن بين الأعمال المصاحبة لذلك ما جرى لأخوي المهدي بن تومرت بإشبيلية بعد "استطالة أيديهما على أهلها وعلى الأندلسيين المجاورين لها"[1] وقد ظهر منهما "مذهب في قتل الناس وإباحة الدماء وأخذ الأموال واتصال الاعتداء"[2] فكان أن أخرجهما عبد المؤمن من الأندلس وقطع صلتهما بها، وتعقب من تعسف في سلطته من عماله وموظفيه بالمحاكمة والعزل من الأندلس، ومن ذلك على سبيل المثال مواجهته لما قام به أبو زكرياء يحيى بن يمور[3] باعتدائه على أهل لبلة[4] حيث أقدم على "إنفاذ السيف في برهم وخبيثهم، ولم يصغ إلى صوت مستغيثهم"[5] ، فلما بلغ خبره عبد المؤمن أمر باعتقاله في الحديد وإعادته إلى عدوة المغرب، ولم تخل عهود أبناء عبد المؤمن من أحداث مشابهة سببها جور الولاة والعمال والتي تم مجابهتها بإنزال العقوبة على المتسببين فيها[6]، مع ما يمكن أن نستشفه من استمرار التذكير بإتباع منهج الكتاب والسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي نصّت عليهما بعض رسائلهم الرسمية الموجهة إلى القائمين على شؤون الدولة في الأندلس.

1- ابن عذاري- المصدر السابق- ص39.

2- المصدر نفسه- ص98.

3- لم أقف على ترجمته، وحسب ابن عذاري فإنه كان متردداً بالنظر والحماية بما أمر به من الولاية بقرطبة وإشبيلية- نفسه- ص 52 .

4- مدينة في غرب الأندلس قديمة، وهي حسنة متوسطة القدر، ولها سور منيع، وبها أسواق وتجارات. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص ص 507-508.

5- ابن عذاري- المصدر نفسه- ص39.

6- في سنة 568هـ/ 1172م أقدم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بقتل عامله عمر بن سحنون والي باجة لاستبداده وظلمه للرعية، و في سنة 573هـ/1177م كانت السطوة على الوزراء والعمال ومنهم أبو عبد الله محمد بن معلم مشرف إشبيلية، وفي سنة 571هـ/1175م نكب محمد بن عيسى مشرف إشبيلية بعد أن أخذ ماله، وفي عهد المنصور الموحدي كانت نكبة والي مرسية أبي حفص الملقب بالرشيد سنة 584هـ/1188م لأخذه أموال التجار وإذايته للناس، وعزل محمد الناصر بن المنصور عمه أبا إسحاق بن أبي يعقوب والي إشبيلية سنة601هـ/1204م بسبب مظالم الخاصة والعامة. ينظر ابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 128- 243، و غيرها من الأحداث الشبيهة.

من قرائن اهتمام الموحدين بأمرها ما نقل عن عبد المؤمن بن علي قوله: " إن أرض الأندلس تستحق منا كل غال ونفيس"[1]، وفي وصية أبي يوسف يعقوب المنصور[2] (580-595هـ/1184-1198م) ما يدل على سمو المكانة التي احتلتها الأندلس وأهلها في نفسه، وهذا عندما عبّر بلسانه عن حالها، ورغبته من انتشالها من الضياع بقوله: "أوصيكم بالأيتام واليتيمة"[3] وعندما سئل عن معنى ذلك قال: " الأيتام أهل جزيرة الأندلس، والأندلس هي اليتيمة"[4] ثم ذكرهم بما يجب عليهم فعله تحصيناً لها من ضربات النصارى حماية لها ولأهلها، كما أمرهم بإجراء الشرائع على منهاجها[5].

المبحث الرابع: دور الموحدين في تفعيل الحياة العلمية في بلاد المغرب والأندلس:

سلك الموحدون منذ ظهور دعوتهم طريق العلم والمعرفة، واتباع نهج الإصلاح والتغيير، وبدا ذلك واضحاً في الحياة الدعوية للمهدي بن تومرت منذ عودته من بلاد المشرق فقد عاد "بحراً متفجراً من العلم وشهاباً وارياً من الدين"[6]، وبادر إلى التأليف في شتى المعارف والفنون السياسية والشرعية؛ إذ هي الوسيلة الأنجع بين يديه لتبليغ دعوته وترشيدها، وقصد مواجهة عجمة اللسان التي كانت عليها معظم قبائل المصامدة، اضطر للاستعانة بلغتهم" فعلمهم التوحيد باللسان البربري"[7]، وبعد وفاته سنة 524هـ/1129م سار على نهجه عبد المؤمن بن علي خليفته في الإمامة والدعوة.

بعد أنّ تمكن خليفة ابن تومرت من تأسيس أركان الدولة ووضع تنظيماتها بادر إلى الاهتمام بالجانب العلمي للأجيال فأسس بحاضرته مراكش أول مجمع لطلبة بلاد المغرب والأندلس يتعلمون فيها علوم الشريعة ويتدارسون مؤلفات ابن تومرت، وأقام لهم بحيرة

1- ابن القطان- المصدر السابق- ص139.

2- هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالمنصور ولد سنة 554هـ/1159م، بويع له بالخلافة سنة 580هـ/1184م، وكانت وفاته سنة 595هـ/1198م، وفي عهده بلغت الدولة الموحدية أوج ازدهارها. ابن عذاري- نفسه- ص ص 171-225.

3- ابن سماك العاملي الأندلسي- رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير- تح سليمان القرشي- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2004م، ص157. وينظر مقتطف من هذه الوصية بالملحق رقم02 ص354.

4- المصدر السابق- ص 175.

5- نفس المصدر والصفحة.

6- ابن خلدون- المصدر السابق- ج6- ص 302.

7 - ابن سماك العاملي- الحلل الموشية- ص 179.

خاصة يتدربون فيها على السباحة وفنون الحرب، وقد عرفت هذه الفئة منذ ذلك الوقت باسم طلبة الحضر، "ولما كمل له المراد فيهم عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة"[1]، وقد ذهب أحد الباحثين إلى اعتبارها خطوة علمية مدروسة واستشرافية لمستقبل الدولة بحكم تواصل ظهورهم في تاريخ الموحدين[2]، متشبهاً بذلك بحال الأمراء في بلاد المشرق الذين قاموا بتربية المماليك ذخراً للدولة.

تواصل تفعيل الحياة العلمية مع عمليات التوسع الجغرافي في العدوتين المغربية والأندلسية، ولا تطلعنا المصادرعلى صور التعنيف أو الإكراه في عملية تبليغ تعاليم ابن تومرت وما خلّفه من تراث؛ وبخاصة "أن التومرتية تحولت إلى مجرد رسوم وطقوس رسمية، أصبح الهدف منها هو تقوية تماسك الصف الداخلي للعصبية المتحولة إلى دولة"[3].

وعلى الجملة فإنّ البحث عن جوانب الحياة العلمية و مدى إسهام الموحدين فيها بقي متبايناً بين مختلف حواضر بلاد المغرب والأندلس؛ بحيث ظلّ التفوق الأندلسي هو السائد بحكم رسوخ حضارتهم مما فتح المجال أمام الموحدين للاستفادة منه، وهو الأمر الذي حمل ابن خلدون للتأكيد على أنّ الحظ الوافر من حضارة الموحدين إنما يعود بالأساس إلى الأندلس وأهلها؛ والشواهد على ذلك كثيرة، غير أنه أقحم أسلوب الإكراه في انتقال العلماء إليهم بعد استيلائهم على الأندلس[4]، وهو ما لم تشر إليه كتب التراجم والتاريخ، ولا وجود لنماذج تدعم رأيه هذا، في حين أنها تتفق على اتباع الموحدين لنهجي الاندماج والاحتواء للموروث الأندلسي وتداعياته على حياتهم الاجتماعية، وفي القرينة التي ذكرها ابن عبد الملك المراكشي أبلغ شاهد على بعدهم عن هذا الأسلوب عندما عرّف بالفقيه المتحقق بعلم الكلام واللّسان محمد بن علي الفندلاوي[5](ت597هـ/1200م)، ثمّ عقّب على علو كعبه أنّ

1- المصدر السابق- ص 150، وعبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 172.

2- Allen j.Fromherz, the Almohads the rise of an islamic empire, edition new paperback, published by I.B.tauris e co ltd, 2013, p p 126 – 127.

3- محمد المغراوي- المرجع السابق- ص 52.

4- ابن خلدون- المصدر السابق- ج1- ص 464.

5- هو ابو عبد الله محمد بن علي بن عبد الكريم من أهل فاس، دخل الأندلس وروى عن شيوخها، وتفرغ للتعليم والاجتهاد في الأعمال صالحة. ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج8- ص ص 331-332.

"المنصور من بني عبد المؤمن قد رغب في أن يكون من طلبة مجلسه فما قدر عليه البتة"[1].

لا خفاء ما للجانب العلمي في بلاد المغرب والأندلس من أهمية بالغة في التاريخ الحضاري للدولة الموحدية، وتتطلب طبيعة الموضوع عرض ما اتصل بركن مهم في نسيج الدولة ونظامها ؛ ويتعلق الأمر بالنظام التعليمي ، ومحاولة معرفة مدى إسهام الموحدين في تنشيطه، وعلاقة توجهاتهم المذهبية والعقدية على منحاه العام في بلاد المغرب و الأندلس حيث تعدد ذكر أعلام العلماء.

1- المراكز التعليمية في بلاد المغرب والأندلس:

يعود ظهور المدارس التعليمية على اختلاف طرائقها في المغرب الإسلامي إلى بداية الفتوحات الإسلامية، بحيث فتحت الكتاتيب في القيروان - أولى المدائن ظهوراً- لتعليم القرآن واللغة العربية، ثمّ انتشر هذا النوع من المدارس في المدن التي بلغتها رسالة الإسلام، كما أنّ البعثات المشرقية تواصلت إلى بلاد المغرب حتى بعد نهاية عملية الفتح، ومن أشهرها بعثة عمر بن عبد العزيز الأموي (99-101هـ/717- 719م)، المكونة من عشرة فقهاء[2].

وفي العصر الموحدي نشطت الحياة التعليمية وأسهم خلفاء الدولة في حركيتها، ولتكن البداية بأولى مراحلها في حياة المتعلم لاعتبارات عدة، ومن أهمها أنها اللبنة الأساسية في حياته، وعليها يتوقف تحصيله ومعرفة مدى نباهته وقدرته على التعلم، والقصد من ذلك الاطلاع على أسمائها ومناهجها، ومناقشة آراء الباحثين حول دورها في فترة الدولة الموحدية.

أ. مكاتب تلقين الصبيان وتأديبهم:

1- نفس المصدر والجزء والصفحة.
2- الدباغ، أبو زيد الأنصاري- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان- تح عبد المجيد خيالي- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2005م- ج1- ص ص 150- 160.

أولى المسلمون ومنذ فجر الإسلام اهمية لتعليم الأولاد في المراحل الأولة من حياتهم، واتّضح بما عهدوه وجرى به العمل مبلغ رسوخ ما يتعلمه الصبي في صغره فحرصوا على مزاولة ذلك والأخذ به، وقبل الخوض في دور مراكز تعليم الصبيان وتربيتهم لابد بداية من تحديد أصل التسمية للتفرقة بينها؛ وتبرير سبب اختيار مصطلح "المكاتب" بدل غيره؛ ذلك أنّ تسمية دور تعليم الصبية في بلاد المغرب والأندلس تختلف عن بلاد المشرق؛ بحيث ظهرت عدة مصطلحات عبر الحقب الزمنية المتعاقبة فيما دوّنه أهل العدوتين؛ إذ من النادر أن نعثر على المصطلح المتداول لدى المشارقة؛ وهو "الكُتاب" وتجمع "كتاتيب"، وأما المدوّن في كتب التراجم والطبقات والفهارس - وبخاصة في الأندلس - هو اسم "المَكتب" وجمعها "مَكاتب" ومنه اشتقوا اسم القائم على تعليم الصبية وتأديبهم بـ "المُكتب"[1]، إضافة إلى اسم "المؤدب"، ثمّ الأقل تداولاً منهما وهو "المعلم"، ومنها أيضاً "المحضرة" و"المحاضر"[2]، وتختلف أماكن وجود هذه المكاتب والمحاضر في المساجد أو بالقرب منها، كما أنّ بعضها ظهر بالحارات تبعاً لدور المؤدبين، ولا تكاد تخلو مدينة أو قرية منها، إنما تتفاوت في شهرة المؤدبين في الحواضر الكبرى كقرطبة ومراكش وفاس وبجاية وتلمسان وغيرها.

وأما عن طرق تنظيمها، والمناهج التعليمية المعتمدة في تلقين الصبيان وتأديبهم فلا خلاف أنّ القائمين عليها في العصر الموحدي استفادوا مما دوّنه علماء المغرب والأندلس حولها- حسب إشارات ابن خلدون- ولعل من أقدمها ظهوراً رسالة عبد الملك بن حبيب[3]

1- لازال مصطلح "المَكتب" يطلق على دور تعليم الصبية في تونس، وقد وقفت على ذلك وسألت عنه، ومن المسميات ظهوراً أيضاً في العدوتين المغربية والأندلسية مصطلح "المسيد"، والظاهر أنها متأخرة عن العهد الموحدي، ينظر عن هذه المصطلحات واختلافاتها، الزجّالي- تاريخ الأمثال والأزجال- تح محمد بن شريفة- منشورات وزارة الثقافة- المغرب- ط1- ج1- ص 286، وابن عبدون ثلاثة رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب- تح ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية- القاهرة- 1955م ص25-26، بينما يؤكد الرّصاع أن المغاربة يطلقون على المكتب اسم المسيد، فهرست الرصاع- تح محمد العنابي-المكتبة العتيقة- تونس 1967م ص14 .

2- رسائل موحدية- ج2- ص210.

3- هو أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي، نشأ في قرطبة وتعلم على يد علمائها، رحل إلى المشرق لطلب العلم، وعند عودته ضمه الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي إلى طبقة المفتين وأهل الشورى إلى أن توفي سنة 238هـ/852م، ولابن حبيب عدة مؤلفات في الفقه والحديث والتاريخ. ابن الفرضي- المصدر السابق- ج1- ص 359.

(ت238هـ/852م) إلى معلم ولده[1]، وبعده ظهرت عدة كتب منها: كتاب " آداب المعلمين" في خمسة أجزاء لأبي عمر أحمد بن عفيف القرطبي[2] (ت 347هـ/958م)، وأما المؤلفات التي عاصر أصحابها دولة الموحدين فنجد منها ما عرضه أبو بكر بن العربي والرعيني(ت666هـ/1267م) من آراء حول تعليم الصبيان[3]، وتحدثت كذلك كتب الحسبة عن الموضوع ذاته[4].

وفيه ألف أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي[5] (ت582هـ/ 1186م) رسالة سماها "تلقين الوليد الصغير"[6]، وقد ناقش بعض الباحثين بإسهاب تاريخ المكاتب وما يتصل بها في الأندلس، وعرضت منقاشات عديدة حول حركة التعليم لدى ثلة من الباحثين اتفقت معظمها حول نهج التطور الذي عرفته مدراس تعليم الصبيان في العهد الموحدي وتم ربط ذلك بالمجهودات التي بذلها خلفاء الدولة للدفع بها[7]، وأظهرت المصادر مدى حرص الموحدين على العناية بالصبيان وتحفيزهم على التعلم في المراحل الأولى من حياتهم في بلاد المغرب والأندلس[8]، وأظهرت أكثر من وثيقة نصية في شكل عقود عمليات استئجار مؤدبي الصبيان، وفيها من الشروط ما ينم عن الاهتمام بالصبية والحرص على تعليمهم[9].

1- ابن حبيب، عبد الملك الأندلسي- رسالة إلى معلم ولده- تح سعيد أعراب- مجلة الثقافة المغربية- العدد 7- 1972م- ص ص 57-59.
2- هو أحمد بن عفيف بن عبد الله بن مريوال بن جراح بن حاتم الأموي من أهل قرطبة، كان يعظ الناس بمسجده بحوانيت الريحاني، ويعلم القرآن فيه، ابن بشكوال- المصدر السابق- ص 47.
3- عمار طالبي- آراء أبي بكر بن العربي الكلامية- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر (د ت)- ج1- ص 233-234، والرعيني- برنامج شيوخ الرعيني- تح إبراهيم شبوح- مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم- دمشق 1962م- ص 270.
4- السقطي- المصدر السابق- ص 68، وابن عبدون- المصدر السابق- ص 25.
5- هو عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي، ولد سنة 510هـ/1116م، كان ذا حظ من الفقه والحديث واللغة، رحل إلى بجاية وتخيرها وطناً، وفيها تولى الخطبة وصلاة الجماعة بجامعها الأعظم، وولاية القضاء، رحل إليه الطلبة من كل صوب، وقد خلف عدة تآليف، توفي في بجاية سنة 582هـ/1188م. الغبريني- المصدر السابق- ص 18.
6 - حققه أبو الفضل بدر العمراني الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.
7- منهم محمد عبد الحميد عيسى- المرجع السابق- ص217، ويوسف العريني- المرجع السابق- ص79، وصفية الديب، التربية والتعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحدين- رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة- قدمت بكلية العلوم الإنسانية- قسم التاريخ- الجزائر- 2000- 2001م- ص 138.
8- ابن القطان- المصدر السابق- ص 178.
9- ينظر نصها بالملحق رقم 03ص 355 و الملحق رقم04 ص 356.

- إسهام الموحدين في إنشاء مكاتب تعليم الصبيان:

أظهرت إحدى الرسائل الموجهة من عبد المؤمن بن علي إلى عماله في حواضر بلاد المغرب والأندلس شدة حرصه على تعليم القرآن والاهتمام به، وذلك باختبار المهرة من القراء والحفاظ لأجل ذلك[1]، وكان خلفاء الدولة من بعده وولاتها يختارون أحذق المؤدبين والقراء لتعليم أبنائهم وتأديبهم، ومن لطائف ما أوردته المصادر التاريخية أنّ أبا يوسف يعقوب المنصور أراد اختبار مؤدبين ذكر عن أحدهما أنه برّ في دينه، والآخر بحر في علمه فأجاب من وصفهما له بقوله: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ظهر الفساد في البر والبحر"[2] في إشارة منه لعدم مطابقة ما وصفا به.

لا نقف على نصوص وروايات صريحة تبين علاقة الدولة بهذه المكاتب من حيث تنظيمها والإشراف عليها مما يشير إلى أن أمرها كان بيد العامة من الناس يديرونها حسب أعرافهم، وأن علاقتهم بالمؤدبين تكون طبقاً لشروط العقود المبرمة معهم سواء اتصل الأمر بمرتباتهم وأيام تعليهم وعطلهم، ومحتوى مناهجهم وفقاً لرغباتهم؛ وقد يتشارك لأجل ذلك عدة معلمين في هذه المهنة مثلما تظهره عدة وثائق تعود إلى القرنيين السادس والسابع الهجريين[3]، وفي ذلك حرية واضحة تختلف عن المدارس المشرقية التي كانت تدار بإشراف الدولة ورعايتها[4].

ولا يخفى ما كانت تغدقه خزينة الدولة الموحدية على الطلبة خدمة للعلم وأهله، وإكرام العلماء لاسيما من كانوا من الوافدين على حاضرة الدولة مراكش أو دخلوا قصورهم وتقربوا منهم[5].

1- رسائل موحدية عن كتاب الدولة المؤمنية- تحقيق ليفي بروفنسال-الرباط-1941م- ص133.

2- الزّركشي أبوعبد الله- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية- تح حسين اليعقوبي- المكتبة العتيقة- تونس- ط1- 1998م- ص32. وكلام المنصور من آية قرآنية؛ وهي الآية 41 من سورة الروم.

3- ينظر منها الملاحق رقم: 05 ص 357.

4 - Allen j.Fromherz, op cit, p128.

5- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 204.

وأشارت إحدى الرسائل التي ردّ بها أهل إشبيلية على المنصور الموحدي بعد وصول مصنف خاص كان قد أرسله إليهم – دون ذكر لاسمه- بأنهم "أخذوا بتحصيله كافة نسائهم وصبيانهم وإمائهم (...) وعمرت بدراسته المساجد والمحاضر"[1].

ت. دور المساجد وبيوت العلماء في نشر العلم والمعرفة:

قامت المساجد منذ تأسيسها في التاريخ الإسلامي بدور كبير في نشر العلم وإصلاح ذات البين، إضافة إلى أدوار اقتصادية واجتماعية، وفي الجانب العلمي قامت مكان المدارس النظامية التي شاع ذكرها في البلاد المشرقية؛ إذ ليس "لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة"[2] ولعل الفارق الوحيد في اتخاذ المساجد منارات لتدريس العلوم أن أمرها اقتصر فقط على العلوم النقلية ومنها الشرعية واللسانية دون العقلية كالطب والهندسة والحساب، وما اصطلح على تسميته بعلوم الأوائل، ولم يرد في النصوص المصدرية الإشارة إلى إثارة مسائل في العلوم العقلية ضمن حلق العلم إلاّ ما كان له ارتباط وطيد بعلوم الشريعة كالمسائل الحسابية ذات الصلة بعلم الفرائض وتقسيم التركة بين الورثة، وقد اشتهر أمرها بين العلماء في مدينة قرطبة بالذات، وسيرد الحديث عنها بشيء من التفصيل في مباحث علوم العدد والحساب.

قام الموحدون ببناء العديد من المساجد في بلاد المغرب والأندلس، وتفننوا في تعميرها، ووسعوا تلك التي ضاقت بأهلها، وكانت استعانتهم بأشهر المهندسين والبنائين، فبناء مسجد إشبيلية والجامع الأعظم بمراكش استغرق إتمامهما عدة سنوات حتى تعاقب الخلفاء على إتمامهما[3]، وفي الجدول التالي بيان لأشهرها في العدوتين المغربية والأندلسية.

1- رسائل موحدية- ج2- ص210.
2- المقري- المصدر السابق-ج1- ص 220.
3- ابن سماك العاملي- المصدر السابق- ص 157.

سنة إنشائه	بانيه	مكان إنشائه	اسم المسجد
بعد سنة553هـ	عبد المؤمن بن علي	تاجرة (تلمسان)	مسجد تاجرة
بداية من سنة553هـ	اشترك في بنائه وتوسعته عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب	مراكش	جامع الكتبيين
بدأ بإنشائه سنة 575هـ وأُتم سنة 581هـ	أنشأه يوسف بن عبد المؤمن وأتمه ابنه يعقوب	إشبيلية	جامع إشبيلية
سنة 572هـ	وسعه يوسف بن عبد المؤمن	إشبيلية	جامع العدبس
بدأ سنة 581هـ ولم يتمه	يعقوب المنصور	الرباط	جامع حسان

لا تختلف دور العلماء وبيوتهم عن المساجد في الإسهام بنشر العلم والتوسعة على طلبته؛ بحيث تطلعنا المصادر على اتخاذ البعض بيوتهم مدارس خاصة، ومنهم على سبيل المثال: أبو عمر أحمد بن سعيد الأندلسي[1] الذي كان يقصده الطلبة بإحدى قرى الأندلس وهم" نيف على أربعين تلميذاً"[2]، وقد جهز لهم ما يعينهم على الطلب لمدة ثلاثة أشهر كالطعام والتدفئة.

هناك من العلماء من كان يتعاهد طلبته في بيته بقرطبة[3]، فيما اختار آخرون دكاكين الموثقين والوراقين لتلقين معارفهم.

1- هو أحمد بن سعيد بن علي الأنصاري القرطبي، اشتهر بتعليم الطلبة وإكرامهم- ابن بشكوال- المصدر السابق- ص 245.
2- المصدر نفسه- ص 249.
3- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج6- ص 216.

2- الموحدون وإسهاماتهم في الحياة العلمية بالعدوتين:

أ. أهمية العلم في حياة الموحدين:

عندما أحكم الموحدون وضع اليد على المنطقة الشاسعة لبلاد المغرب والأندلس، وقاموا بتأمين السبل وتحقيق الاستقرار، تفرغوا للإسهام في الحياة العلمية، وقد أعانهم على ذلك حبهم للعلم ووتشبعهم بمختلف العلوم والآداب منذ نعومة أظفارهم، وكان لهذا دور في رعاية العلوم وتشجيع الناس على طلبها، ففتحوا المدارس وأقاموا المجالس السلطانية.

وصف ابن أبي زرع حال عبد المؤمن بن علي ومرتبته العلمية بقوله: " كان عبد المؤمن فصيح اللسان، نبيها عالما بالجدل فقيها في علم الأصول، حافظا لحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متقن الرواية، مشاركا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية إماما في النحو واللغة والأدب والقراءات، ذاكرا للتاريخ وأيام الناس"[1]، وأن شغفه بالعلم وأهله جعله يقربهم، "ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم"[2].

وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية ذكرت بعض الشواهد على امتحانه للعلماء، وتعرضهم للتضييق في عهده إلاّ أنّ لهذا ما يبرره، وليست بالسمة الغالبة في حياته، وكان يختار لأبنائه أشهر المؤدبين والعلماء، وكان خليفته أبو يعقوب يوسف[3](585-580هـ/1161-1148م) " أحسن الناس ألفاظا بالقرآن، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية "[4]، وأن والده عينه واليا على إشبيلية وهو لم يتجاوز 18 من عمره، وفيها قضى 8 أعوام مكنته من الإطلاع على الحياة العلمية والفكرية المزدهرة بها[5]، وعند توليه الخلافة بعد وفاة أبيه اهتم برعاية العلماء واستجلابهم وإغداق

1- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 267.

2- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 172.

3- هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي، كان محباً للعلم والعلماء، وفي عهده تمكن من ضم ما كان بيد ابن مردنيش في شرق الأندلس، وكانت وفاته بعد وعكة أصابته حين غزوته في غرب الأندلس. ابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 83- 167.

4- المصدر نفسه- ص 135.

5- عبد الله عنان- دولة الإسلام في الأندلس- العصر الثالث، عصر المرابطين والموحدين والأندلس- مكتبة الخانجي القاهرة - ط2-1990م- ص135.

العطايا والأرزاق عليهم، وكان شغوفا بجمع الكتب حتى شبه بالحكم المستنصر بالله الأموي[1]، وقد أعجب ابن رشد بحب أبي يعقوب وشدة تعلقه بعلم الفلسفة بقوله: "رأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن "[2].

وكان ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور "عالما بالحديث والفقه واللغة مشاركا في كثير من العلوم النافعة للدين والدنيا، محبا في العلماء معظما لهم صادرا عن رأيهم"[3]، وأسهم في " بناء المساجد والمدارس في بلاد المغرب والأندلس وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم"[4]، وقد نبّه أبو فارس الملزوزي (ت697هـ/1297م) في نظمه إلى هذه السّمة التي اشتهر بها المنصور الموحدي بقوله: [الطويل]

وَكَـانَ ذَا عِلْمٍ يُحِبُ الْعُلَمَـا مُـلاَزِمَاً لِلْفُقَـهَـا وَ الحُـكَمَـا

أَوّلُ مَـنْ قَدْ صَنَعَ الْمَدَارِسَـا وَمُكْرِماً مَنْ ظَلَّ فِيهَا دَارِسَا

وَكَمْ بَنَا مِنْ مَسْجِدٍ وَصَوْمَعَة وَمِـنْ قِبَـابٍ كُلُـهَا مُـنَوَعَــة[5]

اتفق لسان الدين بن الخطيب مع هؤلاء المؤرخين عندما أثبت علو كعب المنصور الموحدي في تعاطي العلوم، واهتمامه ببناء المراكز التعليمية والدينية كالمدارس والمساجد في منظومته الشهيرة بالحلل قائلاً: [الرجز]

وَكَانَ ذَا عِلْمٍ شَهِيرْ وَعَمَلْ وَنَالَ مِنْ فِعْلِ التُّقَى كَلَّ أَمَلْ

وَشَيّـدَ الآثَـارَ وَالمَدَارِسَـا وَنَـوَهَ القُصُـورَ وَالمَجَالِسَا[6]

1- عبد الواحد المراكشي- المصدرالسابق- ص 175.
2- المصدر نفسه- ص 175.
3- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 284.
4- المصدر نفسه- ص 284.
5- الملزوزي عبد العزيز- نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء و الملوك- تح عبد الوهاب بن منصور- المطبعة الملكية- الرباط- ط1- 1963م- ص 58.
6- ابن الخطيب- رقم الحلل في نظم الدول- طبع بالمطبعة العمومية- تونس- (دط)- 1316هـ/1898م- ص 55.

إنّ ذكر الملزوزي وابن الخطيب للمدارس هنا لايفهم منه في الظاهر ما كان معمولاً به في بلاد المشرق والتي نتشرت في مختلف المدن وبرعاية الدولة وتنظيمها.

تابع محمد الناصر لدين الله والده المنصور على ذات النّهج (595-610هـ/1198-1213م) فاحتفى بالعلماء وأكرم وفادتهم عليه وأجزل لهم العطاء على ما كان يرفع إليه من كتب ومصنفات[1].

على الرغم من تأثير الأوضاع السياسية المضطربة بعد موقعة العِقاب سنة (609هـ/1212م) على يد النصارى في الأندلس، وانعكاساتها السلبية على بلاد المغرب، وبداية مرحلة الضعف وكثرة الفتن إلا أن الحركة العلمية الأندلسية استمرت في الاحتفاظ بنشاطها[2]، واستمرار خلفاء الدولة في تشجيع العلماء والحياة العلمية على الجملة، ولذلك وصف ابن أبي زرع إدريس المأمون بن يعقوب المنصور (624هـ- 629هـ/1226م-1231م) بحب العلم والمشاركة في العلوم والآداب[3]، وكان يرسل رجاله للبحث عن نفائس الكتب التي لا يجد لها أصولاً في خزانته الخاصة، ولمجالسه العلمية في مراكش وإشبيلية شهرة لا تخفى[4]، وقد نوّه ابن الخطيب بعلمه في مصدرين مختلفين ففي الإحاطة أفرد له ترجمة خاصة أشاد فيها بما كان يتقنه من علوم وفنون؛ ومنها البراعة في اللغة والشعر والبلاغة، واقتطع فصولاً من رسائله دلت على ما وصف به[5]، ثم كرر هذا المعنى في ما سلف من منظومته : [الرجز]

وَكَانَ كَاتِباً فَصِيحَ الْقَلَمْ يَجْلُو بِنُورِ العِلْمِ جُنْحَ الظُّلَمْ[6]

تعاقب بنو عبد المؤمن على ولاية الحواضر الكبرى لبلاد المغرب والأندلس، واشتهروا بعقد مجالس العلم واتخاذ خزائن الكتب في معظم الولايات التي تولوا أمرها، وبحثوا عن

1- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج5- ص 321.
2- عبد الله عنان- المرجع السابق- ص 645.
3- المصدر السابق- ص 249.
4- ابن سعيد الغرناطي- إختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى- تح إبراهيم الأبياري- دار الكتاب المصري- القاهرة - ط2- 1980م- ص ص 149- 153.
5- ابن الخطيب- الإحاطة- ج1- ص ص 222- 228.
6- ابن الخطيب- الحلل- ص 56.

الأعلاق النفيسة منها[1]، ومن مناقبهم ما ذكره ابن عبد الملك المراكشي عند ترجمته لأبي زكرياء مجد الدين الأصفهاني الوافد إلى غرناطة، وقد أقدم واليها أبو إبراهيم إسحاق بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن على إرسال من يوصله إليه، وعندما أبى ذلك هم الوالي بالاتفاق معه والالتقاء بمكان لا يراهما فيه أحد للأخذ عنه، وفي هذا إشارة إلى حرص الوالي على العلم والتقرب من العلماء[2] .

ومنهم عثمان بن عبد المؤمن، ويكنى أبا سعيد، ولاه والده على غرناطة فكان "محباً للآداب مؤثرا لأهلها، يهتز للشعر ويثيب عليه، وقد اجتمع عنده من الشعراء وأعيان الكتاب ما لم يجتمع عند غيرهم[3]، وكان أبو عمران بن أبي عبد الله بن يوسف بن عبد المؤمن والي إشبيلية يتخير أمهر الكتاب والنساخ في الأندلس، ويشير عبد الواحد المراكشي عند نزوله بهذه المدينة أن أحد أصدقائه قدمه "من واليها إبراهيم بن أبي يعقوب يوسف أخي الخليفة الموحدي الناصر فحظي عنده وأصبح من أصحابه وجلاسه "[4].

ومنهم سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن (ت604هـ/1207م)، يكنى أبا الربيع، شاعر وأديب مشهور، واشتهر بمجالسه العلمية والأدبية عندما كان والياً على بجاية ثمّ تلمسان "وحيثما كانت ولايته اجتمع إليه أهل الأدب واشتهر مكانه، فقد كان متميزاً في قومه عالماً فيهم بهذا الشأن، وقد اشتهر اختصاره للأغاني، وديوان شعره مجموع بأيدي الناس"[5]، وساق له ابن سعيد الغرناطي حكاية مع ابن عمه المنصور الموحدي- وكانت بينهما جفوة- حينما وفد عليه أهل الشام في مراكش، فأنشده: [الكامل]

يَا كَعْبَةَ الْجُـودِ الَّتِي حَجـَّتْ لَهَـا   عـرَبُ الشَّـامِ وَغِـزُّهَا وَالدَّيْلَـمُ

طُوبَى لِمَنْ أَمْسَى يَلُوذُ بِهَا غَداً   وَيَطُوفُ بِالبَيْتِ العَتِيقِ وَيُحْرِمُ

1- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج5- ج5 ص 297-299.
2- نفسه ج8- ص411.
3- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 165.
4- المصدر نفسه - ص 173.
5- ابن سعيد- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تح إبراهيم الأبياري- دار المعارف- القاهرة- ط2-(دت). وينظر ديوانه- تح محمد بن تاويت وآخرون- منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس- الرباط-(دط)-(دت)-ص8.

ولما بلغت المنصور استحسنها، وأمر أن يكون في صحبتهم عند الدخول عليه[1]، وهو من الأمراء المغاربة القلائل الذين اهتم أهل الأندلس بترجمتهم، والاهتمام بإنتاجهم الفكري، ولعل هذا يعود إلى براعتهم في الأدب والشعر ولم يكن من بد أن لا يشار إليهم، ومنهم: أبو العلاء إدريس المأمون بن المنصور صاحب المعارف والأديب الشاعر الذي اشتهرعند أهل العلم بمجالسه العلمية التي كان يعقدها في جميع الولايات التي أشرف عليها كقرطبة ومالقة وإشبيلية قبل توليه الخلافة؛ إذ كان معظما للعلماء عارفا بحقهم[2]، وعلى الجملة فقد أثبت أبناء عبد المؤمن بن علي وأحفاده وولاة الدولة على امتداد ظهورهم التاريخي لا سيما عند دخولهم الأندلس أنهم ليسوا أقل شأنا من الأندلسيين أهل الحضارة والعلم رغم قدومهم من بيئة بربرية يغلب عليها طابع البداوة[3]، وإسهامهم في التحولات الحضارية والسياسية بالعدوتين المغربية والأندلسية.

ب. الكتب وخزائنها:

من الجدير بالذكر أن يتم الوقوف على أهمية التأريخ للكتاب كوسيلة لنقل المعارف على اختلاف فنونها وأغراضها؛ ولذلك اجتهد حكام الدول ممن تعلقوا بالعلم وأهله بتوفير جميع ما يحقق رغباتهم من بذل للمال في اقتنائه، وتخيّر لأحذق الرجال في سبيل الحصول على النفيس منه، والاعتناء به نسخاً وجمعاً وحسن مظهر، وتظهر مختلف المصادر التي تمحور موضوعها حول تاريخ الموحدين في العدوتين المغربية والأندلسية مدى الاهتمام الكبير الذي أظهروه خدمة للعلم وطلبته، وأنجع طريقة اعتمد عليها للإلمام بمختلف المصنفات العلمية هي إنشاء خزائن خاصة بها، ولا سبيل لتوضيح صورة هذا المشهد الحضاري في العهد الموحدي من اتباع طرق إحصائية لما عرضته العديد من الموارد التاريخية والأدبية

1- ابن سعيد- المصدر السابق- ص 132.

2- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص261.

3 - Dominique Urvoy, pensé d'Al-Andalous, la vie intellectuelle a cordoue et seville au temps des empires berbères, (fin XI^{e} siècle- début XIII^{e} siècle)- édition du centre national de la recherches scientifique, Toulouse,1990.P 63.

حولها؛ في مقاربة الهدف منها تفريغ معطيات النصوص لمعرفة مدى تغطية الموحدين للمرحلة التي أرخت لظهورهم، ورسمت معالم إسهاماتهم في التواصل المعرفي البنّاء بين مدن وحواضر بلاد المغرب والأندلس.

لم يقتصر الأمر على خلفاء الدولة وإنّما ظهر الإحتفاء بالكتاب وحسن الإعتناء به عند أهل العلم، ورتّبت خزائن كتبهم ضمن قسم الخزائن الخاصة عند جل الباحثين[1]، وقد رافقت كتب التراجم ذكرها لدى جمهرة من الأعلام عاصروا الحقبة الموحدية، وتنافسوا في اقتنائها، ومما سّهل ظهورها بأي طلبة العلم هو مباشرتهم عمليات النسخ في حلق العلم، وهنا تتفاوت نسخهم من حيث إجادة الخط وضبطه[2]، وأشار ابن الأبار إلى الفوارق في الخطوط بين طلبة العلم لما كان يقع بين أيديه منها[3]، ولا يستبعد مع ذلك نقلها معهم في فترات تجوالهم لاسيما من كانوا من أهل الأندلس.

وفي الجدول التالي ذكر لبعض الخزائن التي ظهرت في العصر الموحدي، وأسهم حكام الدولة في إنشائها.

خزائن الكتب	اسم من ظهرت في عهده	سنة ظهورها	ملحوظة عامة	المصدر
خزانة قصرالخلافة(مراكش)	عبد المؤمن بن علي وأبناؤه	بعد541هـ	//	التكملة ووصف افريقيا
خزانة قصرقرطبة	ولاة بني عبد المؤمن	بعد541هـ	/	نفح الطيب
خزانة قصرإشبيلية	أبويعقوب يوسف وابنه المنصور	بداية 558هـ	وسعها المأمون	المعجب
خزانة قصرغرناطة	ولاة بني عبد المؤمن	ق6هـ	القراءة	الذيل والتكملة
خزانة مدينة جيّان	من إنشاء الموحدين	ق6هـ	//	كنز الكتاب
خزانة والي بلنسية	ولاة بني عبد المؤمن	بعد 580هـ	//	التكملة

1- أحمد شوقي بنبين- تاريخ خزائن الكتب بالمغرب- تر مصطفى طوبي- المطبعة والوراقة الوطنية- مراكش- ط1- 2003م - ص ص 124-125.
2- ابن الأبار- المصدر السابق-ج2-ص36.
3- المصدر نفسه- ج2- ص 26.

خزانة والي مالقة	محمد بن يحي بن تلكعت المسوفي	580-608هـ	القراءة والنسخ والمقابلة	أعلام مالقة
خزانة تلمسان	ظهرت في الفترة الموحدية	ق6هـ	//	الذيل والتكملة
خزانة والي بجاية	ظهرت في الفترة الموحدية	ق6هـ	//	الذيل والتكملة
خزانة القصر بفاس	ظهرت في الفترة الموحدية	ق6هـ	//	جذوة الاقتباس وجنى زهرة الآس

اقتصر الإحصاء هنا على ما كان للدولة من يد في ظهورها في مختلف مدن وحواضر بلاد المغرب والأندلس، وأما ما كان بأيدي العامة فلا يكاد يحصى عداً؛ بل لاتخلو ترجمة من ذكر ما لصاحبها من علاقة بالكتب ونسخها، وتميز خطوطها وترتيب خزائنها.

3- أشهر الحواضر العلمية في بلاد المغرب والأندلس:

لقد أولى الباحثون اهتماماً كبيراً بالحياة العلمية في الأندلس وبلاد المغرب عبر مختلف الفترات الزمنية التي مرت بها، والأكيد أن للزخم المعرفي المتنوع الذي اشتهرت به سواء العقلي والنقلي، المنشور منه والمخطوط، دوراً في فسح مجال اختيارات الباحثين لرصدها، فجاءت أبحاثهم متنوعة بتنوع الفنون والعلوم، وشملت عدة حقب سياسية متباينة، وشملت معظم حواضر بلاد المغرب والأندلس، وإنما امتدت إلى أقاليم جغرافية محددة منها، كما انحصرت في مدن خاصة وأفراد بعينهم من أهل السلطة والحكم، وأن الواقف على هذه الأبحاث مجتمعة يدرك أهمية الإشعاع الحضاري الذي قدمته الأندلس ليس للمسلمين وحسب وإنما للإنسانية جمعاء، وفي العصر الموحدي اعتبرت مراكش جذوة بدايته، وفيها استمر رسوخ التعليم والحضارة.

إن سبب التركيز على ما قدمه الموحدون خدمة للعلم والعلماء في المغرب الإسلامي فيه رد على التغييب المتعمد الذي سلكه بعض الأندلسيين في حقهم؛ من خلال تخصيص كتب التراجم والصلات لمن انتمى للأندلس فحسب بينما اعتبروا من وفد إليهم من الغرباء

الطارئين عليهم، ومحاولة إظهار مدى انسجام أعلام بلاد المغرب مع وتيرة التقدم العلمي والحضاري الذي عرفت به العدوة الأندلسية، وإسهامهم في الدفع به من جهة والاستفادة منه من جهة أخرى، وهذا بسبب استمرار ظاهرة المنافرة بين العدوتين والتي غذتها النظرة العنصرية المتفشية داخل المجتمع الأندلسي، وأما عن أطوار الحياة العلمية في العهد الموحدي، والهدف منها هو معرفة العلوم وأنواعها وانتشار مراكز تحصيلها بالقدر الذي يمكننا من توضيح علاقة الموحدين بذلك.

يظهر التأثير الموحدي بالقدر الذي يعكس ظروف انتقالهم كمغاربة إلى الأندلس، وتوحيدهم للعدوتين، ورفع شعارات التومرتية بما تحمله من توجه عقدي وفكري وإصلاحي جديد يختلف عما كان الحال عليه في البيئة الأندلسية، ولذلك فإن عملية حصر أعلام الفترة المدروسة قياساً على سنوات وفاتهم دون التطرق إلى علاقتهم بالموحدين- في حدود ما تطلعنا به تراجمهم ومؤلفاتهم- استدرج الباحث محمد المنوني إلى عرض نظرة شمولية وإيجابية، بالنظر إلى العدد المعتبر من الأعلام والمصنفات وخزائن الكتب ودور العلم التي قام برصدها، بينما تطلعنا المصادر على طبقة من القضاة والفقهاء والكتاب والشعراء وغيرهم وقد انقسمت على نفسها بين فئة معارضة لكل ما له صلة بالموحدين، وأخرى موالية ومدافعة عنهم وعن توجهاتهم السياسية والمذهبية، وثالثة محايدة أو أن المصادر لم توضح بما يكفي لإثبات نظرتها لهم.

حاول خلفاء الدولة الموحدية الاستفادة من الموروث العلمي الذي خلّفه ابن تومرت، وتشجيع الناس على الأخذ به فأوعزوا لطلبتهم إدخال ما جاد به إلى كبرى الحواضر كإشبيلية وقرطبة، إلاّ أن تأثيرها بقي محدوداً بحكم تشبث أعلام بلاد المغرب والأندلس بالمذهب المالكي، وتردد خلفاء الدولة في إلزام الناس بعقيدة ابن تومرت ومذهبه، وسار العلماء في نشر العلم في مختلف المراكز التعليمية على عادة أسلافهم، ومن أشهر الحواضر التي ذاع صيتها في هذا الجانب نجد :

أ- أشهر الحواضر العلمية في بلاد المغرب:

لا تكاد تخلوا مدينة أو قرية في بلاد المغرب خلال الحقبة الموحدية من مسجد تعقد فيه حلق العلم أو مدرسة أو مكتب لتعليم الصبيان، ومن الصعوبة بما كان تتبعها جميعاً؛ ولذلك سيتم الاقتصار على أشهر الحواضر وإظهار أهميتها ضمن النسق العام لحركة العلوم خلال العصر الموحدي، وقد أسهم العلماء والأدباء والكتاب في تنشيط الحياة العلمية بمختلف مراكزها التعليمية، وبخاصة أهل الأندلس الذين سيتردد الحديث عنهم كثيراً في هذا البحث، ومنهم من استوطن هذه المدن بينما اكتفى غيرهم بزيارتها؛ وهو ما سيتم الحديث عنه بشيء من التفصيل في الفصول القادمة.

- مدينة مراكش: تعتبر سنة 541هـ/1146م بالنسبة للدولة الموحدية البداية الفعلية للمدينة كحاضرة سياسية لبلاد المغرب والأندلس، وقد أولى الموحدون لها مكانة رفيعة للمباهاة بها بين بقية المدن والحواضر فبنيت فيها المساجد والقصور والمدراس وخزائن الكتب، ووفد إليها العلماء من جميع الأصقاع، وكتب عنها الرحالة والجغرافيون، وكان لعلماء الأندلس- على اختلاف مشاربهم- الحظ الأوفر في دخولها؛ فمنهم من اتخذ منها موطناً، ومنهم من انتصب للتعليم فيها لمدة معينة ثمّ غادرها، بينما انتقل أهل مراكش إلى الأندلس لطلب العلم والاشتغال بالوظائف الدينية والإدارية، وشكلوا جزءا من أقسام الغرباء الداخلين إلى الأندلس في التراجم الأندلسية، ومن أهم مرافق مدينة مراكش العلمية:

المساجد التي كانت تلقى فيها علوم اللسان والشريعة إضافة إلى دروها الديني والدعوي، ومن أشهر مساجدها تداولاً في كتب التراجم "الجامع الأعظم" ويعرف بالكُتُبيين، واختلف في سبب هذه التسمية، والراجح لأنه بني بالقرب من دكاكين بائعي الكتب والوراقين[1]، ومن اهتمام الموحدين به أنهم كانوا يتخيرون له أبرز الخطباء من ذوي الفصاحة والبلاغة،

1- مشتاق كاظم المياح- مراكش خلال عصر الموحدين دراسة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية- دار عدنان للطباعة والنشر والتوزيع- بغداد- ومطبعة صفحات للتشر والتوزيع- الإمارات العربية المتحدة- 2014م-ط1- ص 186. محمد رابطة الدين- مراكش زمن الموحدين، جوانب من تاريخ الإنسان والمجال- المطبعة والوراقة الوطنية- مراكش- 2008م- ط1- ج1- ص 243.

إضافة إلى الإحاطة بعلوم الشريعة، وينصّبون أشهر العلماء للتدريس فيه، و إليهم رحل الطلبة من عدة بقاع[1].

وانتشرت المدارس القرآنية ومكاتب تأديب الصبيان منذ عهد عبد المؤمن بن علي، وفي عهد حفيده المنصور ذاع صيتها، وبنى داراً خاصة للطلبة بها سكنهم وتعليمهم "وهي مكان جليل به خزائن الكتب، وفيه كان خلفاء بني عبد المؤمن يجالسون العلماء"[2]، وانتشرت الخزائن الخاصة بالكتب، ومنها ما كان بإشراف الدولة ورعايتها وعرفت بالخزانة السلطانية، وخزانة القصر العامة، ولها ناظر يقوم على خدمتها وترتيب محتوياتها، والظاهر من النصوص أنها كانت تفتح للعامة في أيام مخصصة لذلك[3]، وتشير كتب التراجم إلى خزائن خاصة بالعلماء عمرت بها بيوتهم، وتنافسوا في جمع الأعلاق النفيسة من المصنفات والرسائل العلمية[4].

شجع هذا الحراك سوق الوراقين والنساخ، ويضاف إلى هذا النشاط شهرة خلفاء الدولة بإقامة المجالس العلمية التي كانت تعرض فيها المسائل الفقهية والعقدية، ولها ترتيبات سلطانية خاصة كأن يتصدر الخليفة مجلسها ويفتتح الكلام حول مسألة بعينها ويختمها بالدعاء، ويقابله على التوالي خطيب الجامع ثم قاضي الجماعة، ورئيس الأطباء، ثمّ أكابر العلماء والطلبة على اختلاف مراتبهم، ويكرم العلماء ويوسع عليهم[5]، وقد عرفت مراكش أزهى فتراتها في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي؛ بحيث وفد إليها الأطباء والفلاسفة و الفقهاء والشعراء والأدباء ووجد الكل ضآلته، و"استدعى العلماء ورواة الحديث، وأهل الفنون المختلفة؛ فجلبوا إليها من الأقطار فكثر فيها العلماء وامتلأت بوجوه أهل البلاد من كل صقع، وقصدها التجار من كل جهة (...) وتناهت ضخامتها، وانقادت

1- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج5- ص 140. أحمد شوقي بنين- تاريخ خزائن الكتب بالمغرب- تر مصطفى طوبي- المطبعة والوراقة الوطنية- مراكش- 2003م- ط1- ص ص 52- 53.
2- ابن فضل الله العمري- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار- تح محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى هزايمة ويوسف أحمد بني ياسين- مركز زايد للتراث والتاريخ- الإمارات العربية المتحدة- 2001م- ط1- ج4- ص 123.
3- أحمد شوقي بنبين- المرجع السابق- ص 53.
4- ابن الأبار- المصدر السابق- ج3- ص 141.
5- ابن أبي أصيبعة- عيون الأنباء في طبقات الأطباء- تح عامر النجار- دار المعارف- القاهرة- 1996م- ط1- ج2- ص 188، وعبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 209.

إلى طاعتها أقاليم المغرب وبلاد الأندلس"[1]، ووفد إليها علماء الفلك والنجوم للقيام بأرصادهم؛ وبخاصة بالقبة المنصورية- سيتم الحديث عنها في فصل العلوم العقلية- وبنى داراً خاصة بالمرضى عرفت بـ"دار الفرج"، وجعل عليها أمهر الأطباء[2].

- مدينة فاس: ثاني المدائن شهرة بعد مراكش من حيث اتصال تاريخها بالأندلس منذ العهد الأموي حين نزلها جماعة من الأندلسيين واستوطنوها فعرفت أحياؤهم بعدوة الأندلسيين؛ ولذلك ورد تعريفها عند الجغرافين على أساس أنها مدينتان في الأصل يشق بينهما وادي فاس الكبير، وعرفت إحداهما بعدوة القرويين نسبة لمن هجر إليها من أهل القيروان، والثانية بعدوة الأندلسيين، واستمرت علاقاتها السياسية والعلمية بالأندلس إلى عهود متأخرة من تاريخ مملكة المسلمين في غرناطة[3].

دخل الموحدون مدينة فاس سنة 540هـ/ 1145م، وفي عهدهم ازدهرت فبنيت فيها المساجد والقصور والمدارس والحدائق والمتنزهات، "وانتهى عدد مساجدها في أيام المنصور وولده الناصر سبعمائة واثنتين وثمانين مسجداً"[4]، ووفد إليها العلماء من مختلف الأصقاع مشرقاً ومغرباً فكانت بحق مدينة العلم والعلماء، و"أهلها ظرفاء أدباء أكثرهم فقهاء، وذلك أنّ فيهم أناساً تناسلوا من أهل القيروان"[5]، ووصفها الحميري بقوله: "وكملت بهجتها في أيام بني عبد المؤمن"[6]، وسيتم الوقوف- في فصول تاريخ العلوم- على جمهرة من علماء الأندلس الذين درّسوا بها مختلف العلوم والفنون، والتعرف على أشهر شعرائها وأدبائها، وما يؤكد التواصل العلمي لأهلها بالأندلس هو انتقال أعداد كبيرة منهم إليها إما طلباً للعلم أو لأجل الاشتغال بالوظائف الإدارية؛ بل ومنهم من انتصب للتدريس في كبرى الحواضر الأندلسية.

1- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 541.
2- نفس المصدر والصفحة.
3- إيمان بنت دخيل الله العصيمي- العلاقات العلمية بين الأندلس ومدينة فاس من بداية القرن الثالث الهجري وحتى سقوط غرناطة (201-897هـ/817-1492م)- رسالة ماجستير غير مطبوعة - جامعة أم القرى- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- قسم التاريخ والحضارة الإسلامية- المملكة العربية السعودية-2009م- ص ص 140-152.
4- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص47.
5- الزهري- المصدر السابق- ص114.
6- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 435.

ومن أشهر مساجدها التي اتخذت منارات للعبادة ونشر العلم نذكر: "جامع القرويين" الذي أسس في القرن الثالث الهجري التاسع ميلادي، وإليه كانت تشد الرحلة لطلب العلم والأخذ عن جهابذة العلماء الذين انتصبوا للتدريس فيه[1]، مع تشجيع الموحدين لهم بإكرام وفادتهم وجزالة أعطياتهم، ومنها "جامع ابن حنين" الذي اشتهرت حلقاته بتدريس علوم القرآن والحديث، إضافة إلى "جامع الأندلس" المشهور بتخريج طلبة الفقه وفروعه، وهو ما يقال عن "مسجد الحوراء"[2].

- مدينة سبتة: هي مدينة على ساحل البحر لا يفصلها عن الأندلس سوى مضيق جبل طارق، وقد اشتهرت في تاريخها الإسلامي بحركة علمية نشطة، وإليها انتسب ثلة من العلماء والأدباء، وغدت في العصر الموحدي واحدة من أهم الحواضر جلباً للعلماء والطلبة على حد سواء، وفد إليها عدد كبير من علماء الأندلس في هذه الفترة، كما انتقل أهلها إلى الأندلس طلباً للعلم، وقد أسهم قربهما الجغرافي في مد أواصر التواصل العلمي والتجاري[3].

ومن أشهر صروحها العلمية والدينية تعدد الربط والزوايا، وكثرة المساجد ومن أبرزها في الجانب العلمي : "مسجد القفال" ومسجد "الجامع العتيق"، و"مسجد سويقة سرذينة"، و"مسجد ابن خبازة"، و"مسجد زقاق الخشابين"؛ بحيث كانت تعقد فيهما حلق العلم[4]، ومن أشهر مدارسها مدرسة الشيخ الشاري الغافقي[5] (ت641هـ/1243م)، وإلى جانب ذلك ظهرت بالمدينة خزائن علمية خاصة وأخرى عامة[6]، ونافس أعلامها نظراءهم من الأندلسيين والمغاربة.

- مدينة تلمسان: نالت مدينة تلمسان شهرة واسعة في العصر الموحدي؛ وهو ما أتثبته مختلف النصوص التاريخية والجغرافية في شقيها السياسي والحضاري، وكانت محطة

1- المصدر نفسه - ص ص52-62.
2- ابن الأبار- الصدر السابق-ج2- ص 21. ابن أبي زرع- المصدر نفسه- ص 76.
3- محمد الشريف- سبتة الإسلامية، دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي، عصر الموحدين والمرابطين- منشورات جمعية تطاون- المغرب- 1995م- ط1- ص 26.
4- ابن القاسم محمد الأنصاري- اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار- تح عبد الوهاب بن منصور- (د ن)- الرباط- 1983م- ط1- ص 27.
5- المصدر نفسه- ص 29.
6- محمد بن القاسم الأنصاري- المصدر السابق- ص ص 29-30.

عبور خلفاء الدولة إلى بلاد إفريقية، ولمدينة تلمسان قرى كثيرة وعمائر متصلة، دخلها الموحدون سنة 539هـ/1144م، وعيّن عبد الؤمن بن علي ابنه عمر ويكنى أبا حفص والياً عليها، وبقيت خاضعة لسلطتهم إلى سنة 633هـ/1235م[1]، ونشطت الحياة العلمية في عهدهم، وإليها انتسب الكثير من العلماء وبخاصة من أهل الأندلس للتدريس بها، وطلب العلم عن أشهر أعلامها.

تأتي المساجد في مقدمة مرافقها التعليمية إلى جانب دورها الديني، ومن أشهرها الجامع الكبير الذي بني في العهد المرابطي سنة 530هـ/1135م، وزاد عبد المؤمن بن علي في توسعته وعمارته، وبنى جامعاً بمنطقة تاجرة[2] مسقط رأسه، وحصنها بالأسوار، وكان هذا بعد سنة 553هـ/1158م، ومن مساجدها أيضاً الجامع الكبير بمدينة ندرومة الذي يعود أيضاً إلى الحقبة المرابطية[3].

عقدت في هذه المساجد وغيرها حلق العلم في مختلف الفنون والمعارف، كما انتشرت دور تعليم القرآن والحديث النبوي[4]، وتطلعنا كتب التراجم الأندلسية عن جمهرة من الطلبة الذين رحلوا إلى تلمسان للأخذ عن أشهر قرائها وحفاظها سواء من مدن بلاد المغرب أوالأندلس، ومن أشهرها مدرسة المحدث والفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني(ت603هـ/1206م)[5]، أو ألئك الأئمة والأعلام الذين وفدوا عليها، وهو ما سيتم الوقوف عليه في فصل تاريخ العلوم النقلية والعقلية.

1- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 135.
2- قرية بجبل تاجرا بالقرب من ندرومة، وبها ولد عبد المؤمن بن علي. عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 171.
3- ابن عذاري- المصدر السابق- ص 314.
4- المصدر نفسه- ص 23. وخالد بلعربي- تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الزيانية (55-633هـ/675-1235م)- الألمعية للنشر والتوزيع- قسنطينة- ط1- 2011م- ص 169.
5- هو أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان اليفرني الندرومي من أهل تلمسان، أخذ العلوم عن علماء بلده، وتجول في طلب العلم بين مراكش وفاس وسبتة وإشبيلية، وبرع في علوم جمة، وكان مولعاً بجمع الكتب، انتصب للتدريس بمدينة تلمسان، ورحل الطلبة إليه للأخذ عنه لشهرته وعلو سنده، ذكر له مترجموه عدة مؤلفات في الفقه والحديث واللغة، واشتهر بعلو إسناده، وكانت وفاته بمسقط رأسه سنة 625هـ/1227م. ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج8- ص ص 317-322.

- مدينة الجزائر: وصفت في العصر الوسيط بأنها مدينة على ضفة البحر، وهي عامرة وآهلة، ويقصدها أصحاب السفن من إفريقية والأندلس[1]، ولموقعها أهمية جغرافية يسمح لأهلها الاتصال بالدول المجاروة وربط علاقات تجارية وعلمية معها؛ وبخاصة الأندلس.

دخل الموحدون مدينة الجزائر سنة 548هـ/1153م بعدما أخرجوا عامل الحماديين منها[2]، وفي عهدهم نشطت الحياة العلمية، ووفد عليها العلماء من مختلف الأقطار، وتعتبر المساجد من أشهر مراكزها التعليمية والدينية، وأبرزها الجامع الكبير الذي شيّد في عهد الأمير يوسف بن تاشفين سنة490هـ/1096م، وعلى الرغم من أنها كانت قصبة صغيرة تابعة إدارياً لمدينة بجاية[3]، والمادة العلمية حول مراكزها قليلة فإن كتب التراجم تطلعنا على على عدد كبير من الأعلام الذين تصدروا للتدريس بها، كما تنقل أهلها إلى مدن بلاد المغرب والأندلس طلباً للعلم، وسعياً وراء تولي مناصب دينية وإدارية، وهو ما سنتعرف عليه لاحقاً، وتبعاً لذلك أشارت كتب التراجم إلى استيطان العديد من الأندلسيين مدينة الجزائر في فترات زمنية مختلفة.

- مدينة بجاية: كانت بجاية قاعدة مهمة في عهد الحماديين؛ وهي مدينة كبيرة على ضفة البحر، ويسافر إليها براً وبحراً[4]، وهي في طريق حجاج الأندلس، دخلها عبد المؤمن بن علي سنة 547هـ/1152م، وأنهى بذلك حكم الحماديين عليها[5]، وعلى الرغم من الاضطرابات السياسية التي حدثت بسبب هجمات أمراء جزيرة ميورقة[6] الموالين للمرابطين إلاّ أنّ الموحدين تمكنوا من استرجاعها وإخضاعها لسيطرتهم[7]، وقد ازدهرت الحياة العلمية بالمدينة خلال الحقبة الموحدية، ووفد إليها العلماء من بلاد المشرق والمغرب،

1- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 163. أثبتت كتب التراجم والفهارس المعتمدة ذكر مدينة الجزائر في هذه الفترة – في كثير من الأحيان- من دون إضافة اسم بني مزغنة إحدى بطون قبيلة صنهاجة التي نسبت إليها، وهو ما سيتم الوقوف عليه عند ذكر أسمائهم في الفصول اللاحقة.
2- ابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 45-46.
3- ابن الأبار- المصدر السابق- ج3 ص 248.
4- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 80.
5- ابن عذاري- المصدر نفسه- ص 45.
6- جزيرة في البحر الزقاقي، تتوسط جزيرتي منرقة ويابسة، تقابلها بجاية في بر العدوة، فتحها المسلمون سنة 290هـ/902م، وسقطت بيد النصارى سنة 627هـ/1229م. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 567.
7- محمد الشريف سيدي موسى- مدينة بجاية الناصرية، دراسة في الحياة الاجتماعية والفكرية- دار كرم الله للنشر والتوزيع-2010م- ط1- ص 20.

وكانت مقصد طلبة العلم، ومحطة مهمة في طريق الحج إلى بيت الله بالنسبة للأندلسيين والمناطق الواقعة غربها من مدن بلاد المغرب[1]، وقد استوطنتها الجالية الأندلسية في أوقات الفتن والحروب التي عرفتها مدنهم نظراً لقربها الجغرافي وتشابه طبيعتها ومناظرها بالمدن الساحلية للأندلس.

وتعتبر المساجد من أشهر مراكزها التعليمية، وقد أفادنا الغبريني (ت714هـ/1314م) - وهو قريب عهد بالعصر الموحدي- بذكر مجموعة من المساجد التي كان يؤمها العلماء والخطباء لأداء الفريضة ونشر العلم ومنها:

جامع بجاية الأعظم، و مسجد الفقيه أبي زكريا الزواوي، و مسجد الإمام المهدي، و مسجد سيدي المرجانين و مسجد النطاعين، ومسجد الريحانة[2].

ويرد في كتب التراجم اسم "جامع بجاية الأعظم"، ويبدو أنه الأكبر و الأشهر بينها، إضافة إلى الزوايا و الربط التي تكرر ذكرها في مؤلف الغبريني، واهتمت بتعليم القرآن و الحديث والتصوف[3]، ولا يستبعد وجود خزائن بها خاصة بالكتب والمدونات العلمية.

- إفريقية: وتشمل العديد من المدن والحواضر الكبرى كتونس والمهدية والقيروان وطرابلس، وقد تضم إليها أحيانا مدينة بجاية، وكانت بعض مناطقها الساحلية بيد النصارى إلى منتصف القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي؛ ومنها مدينة المهدية التي حاصرها الموحدون لمدة سبعة أشهر حتى تم لهم فتحها سنة 553هـ/1158م، وكانت الحروب حولها سجال بين الموحدين والميورقيين أحياناً، ومع القبائل الهلالية المعززة

1- المقري- المصدر السابق- ج5- ص 486.
2- الغبريني- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية- تح عادل نويهض- منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروت- 1979م- ط2- ص ص 27- 199. وابن الأبار- المصدر السابق- ج3- ص 231.
3- الغبريني- المصدر السابق- ص ص 140- 179.

بالحملات الأيوبية أحياناً أخرى[1]، ولم تقف هذه الاضطرابات أمام الحركة التعليمية التي عرفتها هذه الحواضر.

وقد قامت المساجد فيها بدور فعال في نشر العلوم، ودخول العلماء والفقهاء إليها وتصدرهم للتدريس بها، ومن أبرز مساجدها شهرة في هذا الجانب: مساجد أسست منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب؛ ومنها مسجد القيروان، والجامع الأعظم بتونس الشهير بجامع الزيتونة المعروف بكبره؛ إذ كانت به (500) سارية[2]، ثمّ ظهرت مساجد مع ظهور الدول المتعاقبة؛ ومنها جامع سوسة[3] في عهد الأغالبة، والجامع الكبير بالمهدية الذي بناه الفاطميون، وعقدت بهذه المساجد وغيرها حلق العلم في مختلف العلوم والفنون، وكانت منارات للعلم والعبادة، ونشطت بها مكاتب تعليم الصغار، ووفد إليها العلماء والفقهاء وتصدروا للتدريس بها[4]، وانتشرت خزائن الكتب وتنافس الناس في إنشائها واقتناء نفائس المصنفات لها[5].

وتطلعنا كتب التراجم والفهارس - خلال العصر الموحدي- على عدد كبير من أعلام حواضر بلاد إفريقية ممن تجولوا في بلاد المغرب والأندلس طلباً للعلم، ومنهم من ارتحل للتدريس.

ب- أشهر الحواضر العلمية في بلاد الأندلس:

عرفت المدن والحواضر الأندلسية حركة علمية نشطة منذ القرن الثالث الهجري التاسع ميلادي، وازدهرت بازدهار المدن وإسهام حكام الدول المتعاقبة في تفعيلها وتطوير

1- ينظر عن تفاصيل هذه الحملات محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي- كتاب مضمار الحقائق وسرّ الخلائق، فقرات حول حملة قراقوش على إفريقية (575-584هـ/1180-1188م)- المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة- تونس-2012م- ط1- ص ص 35- 88.

2- الزهري- المصدر السابق- ص 108.

3- مدينة من بلاد إفريقية؛ وهي على ساحل البحر، عامرة بالناس، وكثيرة المساجد، وأسواقها عامرة، والمسافرون إليه والصادرون عنها بأعداد كبيرة. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 331.

4- نجوى عثمان- مساجد القيروان- مطبعة دار عكرمة- دمشق- 2000م- ط1- ص ص 13-45. ويوسف أحمد حواله- الحياة العلمية في إفريقية "المغرب الأدنى" منذ انتهاء الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري- طبعة جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية- مكة المكرمة-2000م- ط1- ص ص 200-24.

5- المرجع السابق- ص ص 250-257.

المظاهر الحضارية بها سواء تعلق الأمر بانتشار العلوم والفنون أو تنويع منشآتها المعمارية، ولا يكاد يخلو عصر من عصورها إلاّ و به خصائص وسمات يتميّز بها، ونافس أهلها بلاد المشرق في شتى الجوانب العلمية والحضارية كما تنافست المدن والأقاليم الأندلسية فيما بينها.

ولم يقتصر هذا النشاط العلمي على المدن الكبرى فحسب بل تعداه إلى القرى والحصون والقلاع، ولعل ما يدلل على ذلك اهتمام ابن الأبار برصد أسمائها ومواقعها وذكر من انتسب إليها من الأعلام[1]، وبذلك حافظ على نبذ من تاريخها وجغرافيتها بينما أهملت كتب الجغرافية ذكرها.

وأمام هذا الزخم الكبير للمراكز العلمية سيتم الاقتصار على نماذج لأشهر قواعدها عبر مختلف الجهات الجغرافية للأندلس، ومنها:

- قرطبة: وهي مثابة العلم والعلماء منذ العهد الأموي، وقد أشاد الحميري بمكانتها العلمية عبر العصور، ووصفها "بأم البلاد وواسطة عقد الأندلس"[2]، وهي "أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة"[3]، وبها مساجد كثيرة، وأشهرها جامعها الكبير، و"مسجد أبي رباح"، و"مسجد رحبة أبان"، و"مسجد كوثر" و"مسجد أم هشام"، و"مسجد أبي حامد"، و"مسجد ابن حنين"، و"مسجد البلنسي"، وفيها درّست مختلف العلوم[4]، وتعددت مكاتب تعليم الصبيان، وتنافس أهلها في اقتناء الكتب[5]، ومن لطائف ما روي عن الحوار الذي دار بين ابن رشد القرطبي(ت595هـ/1198م) وعالم آخر من إشبيلية، وقد تفاخر كل منهما ببلده في حضرة أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي فردّ ابن رشد قائلاً: "لا أدري ما تقول غير أنه إذا

1- ينظر منه على سبيل المثال- التكملة-ج3- ص58.
2- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 456.
3- المقري- المصدر السابق- ج1-
4- وردت أسماء هذه المساجد عند ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج5- ص ص 306-486 و –ج6- ص ص 102-153.
5- إحسان عباس- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة- دار الثقافة- بيروت- ط2- 1969- ص ص 21-32.

مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُملت إلى قرطبة حتى تُباع فيها، و إن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُملت إلى إشبيلية، قال: و قرطبة أكثر بلاد الله كتبا"[1].

لقد تعددت في قرطبة الأسواق الخاصة بالوراقين والنساخ وبائعي الكتب، واشتهرت في الأمصار بكثرة مكتباتها[2].

وكان دخول الموحدين مدينة قرطبة سنة 543هـ/1148م، ولم تكن تعقد ولايتها إلاّ لأبناء الخلفاء أو المقربين منهم، وحرصوا في مدة ولايتهم عليها بالأخذ بمظاهر الحضارة ومخالطة العلماء لما اشتهر من حال قرطبة العلمي، فأخذ ولاتها بتنظيم مجالس علمية خاصة يحضرها العلماء والطلبة والحفاظ، وتناقش فيها مختلف المسائل العلمية، وقد رصدت كتب التراجم العديد من علمائها في مدن بلاد المغرب خلال الحقبة الموحدية[3].

- إشبيلية: مدينة كبيرة وعامرة، وبها خلق كثير[4]، وقد بادر أهلها بإرسال وفد من أشهر الفقهاء لمبايعة عبد المؤمن حين دخوله مراكش، وهو ما عجّل بدخول الموحدين إليها قبل انقضاء سنة 541هـ/1146م، وفرار من كان بها من المرابطين، ويرى غير واحد من الباحثين أن مبادرة أهل إشبيلية هي التي كانت وراء اهتمام الموحدين بها إضافة إلى قربها الجغرافي من أقرب مجاز إلى بر العدوة المغربية واتصال نهرها الكبير بالبحر المحيط[5].

لقد جعلها الموحدون ثاني مدينة بعد حاضرتهم مراكش، ونقطة انطلاق جيوشهم الداخلة إلى الأندلس، ولم يعيّن من الولاة عليها إلاّ أبناء الخلفاء، وكبار الدولة من أبناء عمومتهم، وكان عبد المؤمن بن علي أول المبادرين بذلك فعيّن ابنه وولي عهده على رأسها وهو لا يزال شاباً[6]، وعلى الرغم من أنّ إشبيلية عرفت بعمارتها الدينية والعسكرية منذ عهد بني

1- المقري- المصدر السابق- ص 155.
2- جودة هلال ومحمد محمود صبح- قرطبة في التاريخ الإسلامي- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- 1986م- (د ط)- ص 81.
3- سيرد الحديث عنهم وتتبع أخبارهم في الفصلين المخصصين لمختلف العلوم المتداولة في الفترة الموحدية.
4- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 58.
5- عبد الله عنان – المرجع السابق- ص 642. وحسين مؤنس- معالم تاريخ المغرب والأندلس- طبعة دار الرشاد- القاهرة- 2004م- ط1- ص ص 437-440.
6- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 165. وابن عذاري- المصدر السابق- ص 56.

عبّاد إلاّ أنّ الموحدين أولوا لها اهتماماً بالغاً فبنوا المساجد والقصور، وجددوا مرافقها (شبكات المياه)، وبقيت آثارهم شاهدة على صنيعهم، وقد خصتها إحدى الباحثات بدراسة توثيقية لآثارهم للتعرف على مدى إسهامهم في تطورها الحضاري، والتنافس في عمارتها على الرغم من طابع البداوة الذي وصف به المصامدة، وناسب أن تسمي بحثها "إشبيلية الموحدية"[1].

بادر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن والي إشبيلية من قبل أبيه إلى تقريب العلماء والفلاسفة، وعقد مجالس للمناظرة العلمية بين العلماء، وكان "يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء خاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب"[2].

لا خفاء لما آلت إليه إشبيلية في العصر الموحدي من اهتمام فاق غيرها من المدن الأندلسية، ولعل ما سيتم التعرض له حين تتبع العمائر الهندسية التي ظهرت في عهدهم ما يدلل على هذا التوجه الملفت للإنتباه، كما لا تختفى تلك المنافسة الدائرة بين بني عبد المؤمن وأحفاده على ولايتها، ونزول من حظي منهم بالخلافة إليها كلما اجتاز إلى الأندلس، وعن ذلك روى ابن سعيد الغرناطي عن أبي العلاء المأمون بن المنصور الموحدي حين بايعه أهل إشبيلية بالخلافة، وكان مقامه في غرناطة وقتها، ولم يسْلِه حسنها عن إشبيلية فأنشد قائلاً: [الكامل]

سَئِمْـتُ الْمُقَـامَ بِغَرْنَـاطَـــةَ وَأَلْسُنُ حَالِي بِذَا تَنْطِـقُ

وَمَا أَنْكَرَتْ مُقْلَتِي حُسْنَهَا وَلَكِنَّهَـــا غَيْرَهَـا تَعْشَـقُ[3]

وقد عرفت إشبيلية بكثرة مساجدها منذ العهد الأموي، ومن أشهر جوامعها التي اتخذت منارات للعلم والعبادة "جامع إشبيلية الأعظم" الذي بناه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن،

---

1 -Magdalena Valor piechotta, sevilla almohade, editorial sarriá, Malaga, 2008, p 63.
2- عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 176.
3- ابن سعيد الغرناطي- المغرب- ج2- ص 287.

وأتم صومعته ابنه يعقوب، و"مسجد العدبس"، و"مسجد عرفة"، و"مسجد ابن الأخضر"، و"مسجد التبانين"، و"مسجد الصباغين"[1]، وغيرها.

- غرناطة: من مدن الأندلس الكبيرة، إحدى قواعدها المحصنة، وفي أوصاف الجغرافيين لخيراتها ما يغني عن تتبع ما تحوزه منها، عمّرها وحصّنها ملوك صنهاجة في القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، وهي ذات عمائر دينية ومدنية[2]، وبالرغم من المحاولات المتكررة للموحدين من دخولها إلاّ أنهم لم يتمكنوا من إخضاعها إلى سلطتهم إلاّ في سنة 557هـ/ 1161م ويعود السبب في ذلك إلى قدرة من بقي من المرابطين وحلفائهم على تحصينها والصمود فيها[3]، وكغيرها من القواعد الأندلسية لم يوكل عبد المؤمن أمر ولايتها إلاّ لمن يثق به " فتناوبها جملة من بنيه وأقاربه"[4].

وفي أحيائها وأرباضها مساجد عديدة، وأشهرها "الجامع الأعظم"، و"مسجد البيازين"، و"مسجد دار القضاء"، والظاهر أنه كان بالقرب من دار القضاء فسمي بذلك، و"مسجد حمزة"، و"مسجد الغبار"، و"مسجد القاضي"، و"مسجد قنطرة الحواتين"[5]، وقد ذاع صيت علمائها في المشرق والمغرب، ورحل الطلبة إليها من جميع البلدان، وتعددت بها مكاتب تأديب الصبيان[6]، وتم رصد أعلام كثر من ذوي الأصول الغرناطية في مدن بلاد المغرب على اختلاف مراتبهم وعلومهم خلال القرنيين السادس والسابع الهجريين.

- بلنسية: مدينة بشرق الأندلس، وقاعدة من قواعدها، ولها أقاليم كثيرة، وهي على نهر جار متصل بالبحر وعبره تدخل السفن إليها، واتصلت عمائرها الدينية والعسكرية خلال العهود الإسلامية التي مرت بها[7]، وفي فترة الاضطرابات التي مرت بها الدولة المرابطية في آخر

1- ينظر عن هذه العمائر الدينية ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج5- ص ص98-206.
2- ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 45.
3- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 196. وابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 74-77.
4- ابن الخطيب- المصدر السابق- ج1- ص 41.
5- ينظر عن هذه المساجد ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج6- ص ص 369-380.
6- تعقب ابن الأبار ذكرها في غرناطة، وترجم لبعض المؤدبين فيها ينظر على سبيل المثال- المصدر السابق- ج3- ص73.
7- كمال السيد أبو مصطفى- تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري- مركز الإسكندرية للكتاب- الإسكندرية- (د ت)- ص ص 193-200.

عهدها تمكن محمد بن سعد الشهير بابن مردنيش من الوقوف في وجه تطلعات الموحدين لتوحيد الأندلس تحت رايتهم؛ بحيث لم يتمكن عبد المؤمن بن علي من وضع يد الموحدين على المنطقة الشرقية وكبرى قواعدها بلنسية بسبب تحالف ابن مردنيش مع مملكة قشتالة للوقوف أمام تقدمهم[1]، واستمرت إمارته زهاء العشرين عاماً إلى غاية وفاته سنة 567هـ/1171م، وهي السانحة التي مكّنت يوسف بن عبد المؤمن من التحرك نحو بلاده وإخضاعها لسلطته " ودان له جميع بلاد شرق الأندلس"[2].

تعتبر كتابات ابن الأبار وما رصده من معلومات عن الحياة العلمية ومراكزها في مدينة بلنسية أثبتها بين المصادر؛ إذ هو من يمكن الاعتماد عليه في التعرف عليها لعدة اعتبارات؛ ومن أهمها أنه بلنسي المولد والنشأة، وقريب عهد بالعصر الموحدي، ولأنه أرّخ للحياة العلمية من خلال تراجمه لعلماء الأندلس، وقد احتوى كتابه "التكملة" على ذكر عدد من المساجد التي انتصب العلماء للتدريس بها، وتتبع آثارهم وأخبارهم، وضبط سنوات وفاتهم، وسيتم الاقتصار منها على ما يوافق الفترة الموحدية.

ومن أشهرها ذكراً: "جامع بلنسية الأعظم"، ومن أبرز من درّس فيه محمد بن عمر بن واجب القيسي (ت583هـ1187م) ، و"مسجد ابن عيشون" نسبة إلى عبيد الله بن عيشون[3] (ت574هـ/1187م)، و"مسجد الشراجب" وفيه كان عبيد الله بن خلف الأزدي[4] (ت600هـ/1203م)، و"مسجد السيدة"، وفيه أقرأ عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي[5] (ت619هـ/1222م)، و"مسجد رحبة القاضي"، وفيه كان محمد بن أبي زاهر[1]

1- ابن عذاري- المصدر السابق- ص ص 88-89.

2- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 211.

3- هو عبيد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عيشون المعافري من أهل بلنسية، رحل إلى بلاد المشرق فأخذ عن علمائها، وعاد إلى بلده لنشر ما رواه، وكان من أهل اليسار وهو الذي بنى المسجد المنسوب إليه، وتوفي سنة 574هـ/1187م. ابن الأبار- المصدر السابق- ج2- ص ص 312-313.

4- هو أبو مروان عبيد الله بن عبد الله الأزدي من أهل إشبيلية وسكن بلنسية، كان حافظاً لمسائل الرأي وعارفاً بالفروع، وأمّ صلاة الفريضة والخطبة في مساجد بلنسية، وكانت وفاته بعد سنة 600هـ/1232م. نفس المصدر والجزء- ص 314.

5- هو أبو محمد عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله القضاعي، والد ابن الأبار أصله من أندة، وسكن بلنسية، عالم بالقراءات وله نصيب من الآداب، وكان بصلي بالناس بمسجد السيدة ببلنسية، وكانت وفاته سنة 619هـ/1222م. نفسه- ص ص 291-292.

(ت633هـ/1235م)، إضافة إلى "مسجد بني واجب" و "مسجد باب القنطرة" و"مسجد ابن جرج"، و"مسجد بني حزب الله"، و"مسجد الزقاق"، و"مسجد الغرفة" ويعرف بجامع ابن سرنباق، و"مسجد الغلبة" و"مسجد حميد"[2].

وفي دراسة قام بها الباحث الإسباني بثنتي كوسكويا عن مدينة بلنسية في الحقبة الإسلامية ضمن مقاربة حاول فيها تعقب مرافقها الحضارية والتعريف بها؛ ومن بينها المساجد و مدارسها القرآنية التي أكد تحولها إلى كنائس عقب سقوط المدينة في يد النصارى بداية من سنة636هـ/1238م، ووقف على تحديد مواقعها، بينما شكلت لدى المسلمين واجهة للمدينة بحيث لم تتخذ مكاناً للعبادة وحسب؛ وإنما كانت ذات توجهات علمية وسياسية واجتماعية بمثابة المعاهد الجامعية[3]، مع العلم أنه أهمل المادة التي رصدها ابن الأبار في مؤلفاته عن مدينته بلنسية وما تبعها من أرباض وقرى وحصون؛ وبخاصة في كتابه "التكملة".

والملاحظ أنه لا تخلو أي مدينة كانت سواء في بلاد المغرب أو الأندلس من جامع كبير يطلق عليه في العادة "الجامع الأعظم" ثمّ بقية المساجد في مختلف أحياء المدينة وما بها من أحواز وأرباض.

المبحث الخامس: مظاهر اتصال أسانيد التعليم وتداعياتها بين العدوتين:

عبّر ابن خلدون عن سبل انتقال العلوم بين الشعوب والأصقاع وتواصلها أو انقطاعها بحركة سند التعليم، وبيّن أنّ حركة العلماء من ذوي الكفاءات العلمية قد يسهمون في انتقال العلوم والفنون في حال الهجرة والتجوال بين الأقطار، وما رافق ذلك من اتصال المرويات و مختلف الإجازات، وأمكن لهذا الأسلوب من تحقيق أهدافه التعليمية، وتنشيط الحياة

1- هو أبو حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي زاهر المكتب من أهل بلنسية، له إجازة في القراءات، وكان يكتب المصاحف، وعرف بالنزاهة والعدالة، وصلى بالناس في مسجد رحبة القاضي، وكانت وفاته سنة 633هـ/1235م. نفسه- ص 135.

2- تنظر أسماء هذه المساجد عند ابن الأبار- نفسه- ج4- ص 179و-ج2- ص 291. و-ج3- ص 73.

3 -Vicente Coscollá Sanz, La Valencia musulmana, carena editors, valencia, 2003, p p:75-76.

العلمية في مدن المغرب الإسلامي التي لم تعرف أنماط المدارس النظامية التي ظهرت في بلاد المشرق.

1.إسهام الإجازات العلمية في مد جسور المعرفة:

تعتبر الإجازات العلمية من أشهر الطرق في نشر العلوم وتداولها بين طبقات أهل العلم، وهي قديمة من حيث الظهور؛ إذ تعود في تاريخ العلوم عند المسلمين إلى القرن 2هـ/8م؛ وهي الفترة التي انتشرت فيها المرويات العلمية بين الشيوخ وتلاميذهم في مختلف الأمصار[1]، وورد في معناها العام الإذن برواية العلم وتحمله من المجيز إلى المجاز، وارتبط تعريفها برواية الحديث ثمّ عممت على سائر العلوم والفنون، وهي تختلف من حيث صيغها وأنواعها وطرق تحملها بحسب كل فن، وبين العلماء اختلافات حول جواز ما وقع فيه التساهل وكثر فيه الترخيص[2]، ولا تخفى ما كان منها عن بعد؛ إذ "من منافعها أن ليس كل طالب وباغ يقدر على سفر ورحلة، وبالخصوص إذا كان مرفوعاً إلى علّة أو قلة"[3] فتغنيه الإجازة الخطية المرسلة عن تحمل مشقة ذلك.

يطلع المتنقل بين تراجم علماء المغرب والأندلس على الانتشار الكبير للإجازات العلمية وأهميتها في اتصال العلوم بين القطرين لاسيما ما كان منها عن طريق المباشرة؛ وهي "إيراد ما رواه بالقراءة أو السماع وبالمناولة، الإعلام بروايتهم إياه بالإجازة (...) لما في ذلك من علو الرواية وقرب الإسناد"[4]، وقد تكون عن طريق المكاتبة الخطية أو بالوسائط[5]، وتنافس الطلبة في من يحوز على الإكثار من إجازات الشيوخ والتفاخر بها[6]، وقد أفضى ذلك إلى التمييز بين خطوط الشيوخ، ومعرفة أسماء الرواة المجازين؛ وهو ما مكّنهم من معرفة الإجازات المزيفة من الصحيحة لسهولة التزوير والتحريف التي قد تتعرض لها هذه

1- ذياب سعد آل حمدان الغامدي- الوجازة في الأثبات والإجازة- دار قرطبة- بيروت-ط1- 2007م- ص ص 21-25.
2- ينظر عن أنواعها واختلافات علماء المغرب والمشرق حولها- المرجع السابق- ص ص 32- 41.
3- السلفي، أبو طاهر صدر الدين- الوجيز في ذكر المُجاز والمُجيز- تح محمد خير البقاعي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1-1991م- ص 23.
4- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص 444.
5- نفس المصدر والجزء والصفحة.
6- نفسه-ج1- ص501.

الوثائق، وقد نبّه على ذلك ابن عبد الملك المراكشي عن أحدهم "كان خبيثاً مزوراً خطوط الشيوخ لنفسه ولأبيه ولغيرهما"[1]، وأورد رواية لطيفة تظهر ما بلغته التنافسية العلمية بين العلماء في مسائل الإجازات وتتبع أصولها، وشبه ما وقع بين أحدهما "من التنافس ما يكون بين المتواردين على مشرع واحد"[2]، وأفضى ذلك إلى تأليف أحد المتنافسين لكتاب ردّ فيه إجازات طلبة منافسه سمّاه "المبدي خطأ الرندي"[3].

أشارت العديد من التراجم إلى ضربين من الإجازة بين عموم العلماء؛ ومنها نوع عرف بالإجازة الخاصة وتكون من الشيخ إلى الطالب المذكور باسمه في نص الإجازة في علم بعينة أو كتاب باسمه من دون تعميم، ونوع منها عامة؛ وفيها ينص الشيخ على إجازة مروياته إلى جميع من طلبها من عموم الناس[4]، ويفرقون بعبارات واضحة بين الإجازات المباشرة بحضور الشيخ وطالبها وتلك التي تكون بالمراسلة عن بعد أو عن طريق الوسائط؛ كأن يقول المترجم " كتب إليه مجيزاً ولم يلقه"[5]، وسيتم التعرض إلى هذه الإجازات بحسب كل فن في فصلي العلوم النقلية والعقلية، ويلاحظ أنّ جمهرة من أهل الأندلس وبلاد المغرب تساهلو في أمرها فأجازوا للصبية الصغار بطلب من آبائهم[6]، وأظهرت نصوص هذه الإجازات بعض ضوابط وشروط طلب الإجازة من الشيوخ والأدب في مخاطبتهم [7].

تكمن أهمية هذه الإجازات العلمية في فتح مجال تلقي العلوم وروايتها لأكبر عدد ممكن من طلبة العلم والراغبين في تحصيله، وقد أسهمت في التواصل العملي بين مدن بلاد المغرب والأندلس، وفي الجدول التالي تتبع للمسارات التي سلكتها هذه الإجازات بين العدوتين فيما يتوافق مع العصر الموحدي، والاقتصار منها على ذكر الشيوخ الذين درّسوا لأزيد من عقد زمني، واشتهر أمرهم بين طلبة العلم في المنطقة.

1- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج8- ص 234.
2- المصدر نفسه- ج5- ص 453.
3- نفس المصدر والجزء والصفحة.
4- نفسه-ج6- ص ص 295-296. وج1- ص369.
5- نفسه-ج1- ص 216.
6- نفسه-ج8- ص ص 299-301، و-ج5- ص 257.
7- ينظر نص استجازة ابن حبوس الهمذاني إلى أبي عبد الله بن عبد الحق التلمساني مؤرخة سنة 615هـ/1218م بالملحق رقم: 06 ص 358.

المُجيز	أصله	المُجاز	موضع الإجازة	نوع الإجازة
عبيد الله بن عمر الحضرمي (ت550هـ)	إشبيلية	طلبة مغاربة ومن وفد عليهم	مكناسة-مراكش-تلمسان	القراءات
محمد بن يوسف بن مفرج (ت600هـ)	إشبيلية	طلبة تلمسان ومن وفد عليها	تلمسان	القراءات
أبو بكر محمد بن عبد الله العبدري (ت567هـ)	قرطبة	طلبة مراكش ومن وفد عليها	مراكش	التفسير
عمر بن عبد المجيد الأزدي(ت616هـ)	رندة	طلبة مراكش وسبتة	مراكش	التفسير
عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي (ت582هـ)	إشبيلية	طلبة بجاية ومن وفد عليها	بجاية	الحديث وعلومه
علي بن محمد ابن القطان الكتامي (ت628هـ)	فاس	طلبة فاس ومن وفد عليها	فاس	الحديث وعلومه
علي بن عتيق بن أحمد الأنصاري (598هـ)	فاس	طلبة فاس ومن وفد عليها	فاس	العقائد
أبو الحسن علي بن أحمد ابن خمير(ت614هـ)	سبتة	طلبة أندلسيون ومغاربة	سبتة	العقائد
أبو محمد عبد المنعم بن عشير(ق6هـ)	الجزائر	عتيق بن علي المالقي وغيره	الجزائر (سنة561هـ)	الفقه وأصوله
أبو عبد الله محمد بن أحمد النفزي (ت610هـ)	شاطبة	طلبة أندلسيون ومغاربة	بجاية	الفقه وأصوله
أبو علي حسن بن عبد الله الأشيري (ت569هـ)	تلمسان	طلبة أندلسيون ومغاربة	تلمسان	النحو واللغة والأدب

أبو موسى عيسى الجزولي(ت607هـ)	مراكش	طلبة أندلسيون ومغاربة	الجزائر- المرية- مراكش	النحو واللغة والأدب
أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال(ت578هـ)	قرطبة	طلبة أندلسيون ومغاربة	قرطبة	التراجم والتاريخ
أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي(ت581هـ)	الأندلس	طلبة أندلسيون ومغاربة	إشبيلية- مراكش	التراجم والتاريخ
أبو الوليد بن رشد(ت595هـ)	قرطبة	طلبة أندلسيون ومغاربة	قرطبة- مراكش	العلوم العقلية (المنطق والفلسفة والطب)
أبو الحجاج يوسف بن محمد ابن طُمْلُوس (ت620هـ)	جزيرة شقر (الأندلس)	طلبة أندلسيون ومغاربة	الأندلس- مراكش	

وقع الاختيار في هذه النماذج المعروضة على التباعد الزمني في سنوات الوفاة بين القرنيين السادس والسابع الهجريين عند عرض كل علم، والهدف من ذلك هو التأكيد على نهج التواصل في منح الإجازات العلمية لا سيما في العلوم النقلية التي ذكرت فيها الألفاظ الدالة على ذلك، غير أنّ طبيعة بعض العلوم العقلية تتطلب التجريب والمعاينة كالعلوم الطبية، ولا يتم ذلك إلاّ بملاقاة شيوخ هذه الفنون والأخذ عنهم، وسيتم التعرض لذكر أشهر الشيوخ والتلاميذ عند الحديث عن العلوم العقلية بشيء من التفصيل.

2. المنافسة العلمية بين الصُقعين:

للمنافسة في منحاها العام عدة أبعاد ومسالك قد تؤدي إلى إذكائها في المجتمع الواحد وبين الشعوب وإن تباعدت، وهي ذات بعد اجتماعي وسياسي أو حضاري وعلمي، وتعود جذور المنافسة بهذا المفهوم بين المغاربة والأندلسين إلى فترة القرن الرابع الهجري العاشر ميلادي ممثلة في الصراع السياسي القائم بين الفاطميين والأمويين، والذي شكل العلماء

والأدباء جزءاً من مشهده العام[1]، وازدادت وتيرة هذه المنافسة مع هجرة المغاربة إلى الأندلس، ورحلتهم لطلب العلم في أوج التطور الحضاري الذي بلغته الأندلس في هذه الفترة، وتأثير فتنة القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي في قرطبة على بعض مؤرخي الأندلس وأدبائها حين عكست كتاباتهم صور البغض والمنافرة للمغاربة من ذوي الأصول البربرية بسبب اشتراكهم في أحداثها[2].

ازدادت شدّة هذه المنافرة وارتسمت معالمها مع توحيد العدوتين تحت راية المرابطين، وانتقال الحاضرة السياسية للدولة إلى بلاد المغرب، وبداية الظهور الفعلي لمظاهرها ضمن التدافع الحاصل بين بيئتين مختلفتين؛ بيئة مغاربية ضاربة في البداوة والبعد عن محاسن الدنيا وبهرجها، وبيئة أندلسية تنافس أهلها في تتبع الكماليات إلى حد العُجب والمبالغة في التصنع، وقد لخصت رسالة ابن أبي الخصال الأندلسي[3](ت540هـ/1145م) هذه النمطية في المنافرة لدى الأندلسيين من نظرائهم المغاربة في رسالته إلى جنود الملثمين حين تخاذلهم في الحرب؛ ومنها "ومن لرعاة الإبل بالحد المقبل لقدم ما أذهبتم التالد والطارف (...) فلولا من لدينا من ذويكم، وضراعتهم فيكم، لألحقناكم عجلاً بصحرائكم، وطهرنا الجزيرة من رحضائكم، بعد أن نوسعكم عقاباً، ونحدَّ أن لا تلووا على وجه نقابا"[4].

ليس من الغريب أنّ تمتد هذه المنافرة إلى ميادين العلم وحلقه، وتثبّت في المدونات وما خلّفه المغاربة وأهل الأندلس من آثار دون أن يرد ما يشير إلى بلوغها حد التشهير والإستهزاء بالمغاربة في الأندلس، أو من هاجر من الأندلسيين إلى بلاد المغرب، وينساق تعجب الفقيه ابن رشد القرطبي (ت520هـ/1126م) من فرط ذكاء تلميذه عياض اليحصبي

1- ينظر بعض نماذج هذا الصراع والمنافسة عبد العزيز فيلالي- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب- دار الفجر للنشر والتوزيع- القاهرة- 1999م- ط2- ص ص 127- 232. وفتحي زغروت- العلاقات بين الأمويين والفاطميين في الأندلس والشمال الإفريقي 300-350هـ- دار النشر والتوزيع الأسلامية- القاهرة- 2006م-ط1- ص ص 285-291.

2- ينظر تفاصيل هذه الأحداث عبد القادر بوباية- البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (92-422هـ/711-1031م)- دار الكتب العلمية- بيروت-2011م- ط1- ص ص 390-430.

3- هو محمد بن مسعود بن فرج بن أبي الحصال، أحد أعيان الكتاب، أصله من فرغليط، من ناحية شقورة، شاعر وأديب، وليلقب بذي الوزارتين، وكانت وفاته سنة 540هـ/1145م. ابن سعيد- المصدر السابق- ج 2- ص66.

4- ينظر نص رسالته، حسين مؤنس، نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- ط1- 2000م- ص23.

السبتي (ت544هـ/1149م) مع هذا المنحى بقوله: "عجباً لرجل ينشأ في البلاد البحرية على أكل السمك من أن يكون له هذا النبل والذكاء"[1]، وقد انفرد المقري بنقل هذا الخبر، وأورده في سياق افتخاره بمغاربية القاضي عياض والإشادة بعلمه وفضائله.

أما في فترة احتدام الصراع بين المرابطين والموحدين نجد الشاعر يحيى بن سهل اليكي الأندلسي[2] (ت560هـ/ 1164م) يصف المرابطين بقبيح هجائه حين يجردهم من أصولهم البشرية وقد شبههم بالزّراجين[3]، بقوله: [البسيط]

رأَيْـتُ آَدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَــهُ أَبَا الَبرِيَةِ إِنَّ النَّاسَ َقدْ حَكَمُـوا

أَنَّ الزَّرَاجِيْنَ رَهْطُ ِمنْكَ قَالَ إِذاً حَوَّاءُ طَالِقَةُ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا[4]

استمرت الطبائع النمطية المنفّرة بين العدوتين، وفي العصر الموحدي نكّب يعقوب المنصور القاضي ابن رشد الحفيد (ت595هـ /1198م) لما بلغه من وصفه له بملك البربر، وهو يصف حيوان الزرافة ورؤيته لها عنده في كتابه "الحيوان " فلم يشفع له اعتذاره بأن الأمر مجرد تصحيف وأن أصلها "ملك البرين"[5]، وهذا التبرير لا يحجب مدى الكره والبغض الذي كان يكنه ابن رشد لبربر بلاد المغرب، والغرباء عن الأندلس، ففي معرض تلخيصه لكتاب الخطابة للفيلسوف اليوناني أرسطو قام بتفصيل شرح العداوة بين بني البشر ومثل لها بقوله: "والبغضة والعداوة فقد تكون وإن لم يفعل المبغضُ بالمبغضِ له شيئاً فإنا نبغض ذوي النقائص وإن لم يجنو علينا شيئاً، و بالجملة إذا ظننا بالمرء ما يستحق

1- المقري- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض- تح سعيد أحمد أعراب وعبد السلام الهراس- طبع اللجنة المشتركة لنشر الكتاب الإسلامي- المغرب و الإمارات العربية المتحدة- 1980م- (د ط)- ج5- ص 79.

2- هو يحيى بن عبد الجليل بن سهل اليكي، أديب وشاعر أندلسي، توفي نحو سنة 560هـ/1164م، واشتهر بالهجاء الخبيث. الضبي- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس- ضبط وتقديم صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- بيروت- ط-1 2005م- ص467- وخير الدين الزركلي- المرجع السابق- ج8- ص152.

3- الزّراجين: يرى ابن القطان أنها صفة أطلقها ابن تومرت على المرابطين، حيث شبههم بطائر أسود البطن أبيض الريش يقال له " الزّرجان " لأنهم بيض الثياب سود القلوب، ابن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان- تح محمود علي مكي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1- 1990م- ص 132.

4- أبو بحر صفوان بن إدريس- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر- أعده وعلق عليه عبد القادر حداد- دار الرائد العربي- بيروت- 1980م- ص120.

5- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق- ج2- ص ص 488- 489، وروى الغبريني أن أحد الفقهاء هو الذي أنقذ ابن رشد فأشار عليه بهذه الحيلة- المصدر السابق- ص 96.

البغضة فنحن نبغضه أبدا "[1]، ثم مثل لقوله : "وأما البغضة والعداوة فإنها تكون للجنس فإنا نبغض البربر ويبغضوننا"[2]، ثمّ فرّق بين الغضب والبغضة؛ فالأول عنده "إنما هو تشوق إلى شر محدود أن ينزل بالمغضوب عليه"[3]، وأما الثانية "فإنها تشوق إلى أن ينزل بالمبغض شر غير محدود"[4].

تعود سلوكيات التعصب بين الأندلسيين والمغاربة إلى جذور تاريخية قديمة قبل عصر ابن رشد وقد ألمح إلى استمراريتها عبر التاريخ "ما لم يفعل المعادى بالمعادي ما يوجب مودته "[5]، وفي شرحه لمعاني الجور والظلم أقحم صنف الغرباء من الناس بقوله: "وهنا صنف من الناس يجار عليهم وينالون بالضر والانتقام، لا لمنفعة، لكن لمكان الإستلذاذ بذلك، وهؤلاء هم الغرباء، إما في المدينة وإما في الجنس وإما في الشيم، وإما في اللسان وإما في الملة (...) وإنما يستلذ الجور على الغرباء لأنهم لا يعرفون ما هو إهانة واستخفاف عند أهل تلك المدينة أو عند ذلك الجنس"[6].

أ. تشبث الأندلسيين بالترجمة لأهل حواضرهم:

تدخل الترجمة للعلماء والتأريخ لحياتهم ومدنهم ضمن باب المنافسة والمفاخرة البلدانية؛ بحيث تشبث الأندلسيون بشروط الترجمة للأندلسيين مولداً ونشأةً، واعتبار غيرهم من فئة الغرباء، وقد شكّلت هذه الشروط مثار جدل بين المغاربة والأندلسيين، واعترض عليها ابن عبد الملك المراكشي وهو يقدم لكتابه "الذيل والتكملة"، فتتبع ما دوّنه ابن بشكوال(ت578هـ/1182م) في كتابه " الصلة"، وابن الأبار(ت658هـ/1259م) في "التكملة لكتاب الصلة" بعدة مواضع، وبين تعصبهما للأندلس وأهلها.

1- ابن رشد- تلخيص الخطابة- تح محمد سليم سالم- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة- 1967م- ط1- ص 311.
2- نفس المصدر والصفحة.
3- ابن رشد المصدر السابق- ص 312.
4- المصدر نفسه- ص 313.
5- نفسه.
6- نفسه- ص ص 206-207.

ومن المفارقة أنّ أهل التراجم كثيراً ما ربطوا بين الترجمة للأعلام والتاريخ السياسي لعصورهم، الأمر الذي فتح المجال لظهور علاقاتهم بالحكام والولاة والوقائع والأحداث غير أنّ الّأمر اختلف مع ابن بشكوال الذي عاصر فترتين مهمتين من تاريخ بلاد المغرب والأندلس ألا وهي فترة المرابطين والموحدين، بحيث لم يورد ولا معلومة عن هذه الحقب الزمنية متعمداً تجاهلها، بينما يظهر ما ارتبط بالتاريخ السياسي للأمويين وملوك الطوائف.

وحسب تتبع التسلسل الزمني لحياة ابن بشكوال (494-578هـ/1100-1182م)، ندرك أنه عاصر ثلاث فترات مختلفة من تاريخ الأندلس وبلاد المغرب ميزتها مجموعة من الأحداث كان لها تأثير مباشر في مسيرة العلماء والحياة العلمية بها، وهي على التوالي:

- فترة تولي المرابطين حكم الأندلس (بداية بولاية علي بن يوسف بن تاشقين500-537هـ/1106-1142م).
- الفترة الانتقالية من نهاية المرابطين ومستهل الموحدين (فتنة 539هـ/1144م)).
- فترة جواز الموحدين إلى الأندلس وتولي أمر المسلمين بها، ومعاصرته لابن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف.

ولا ترد أية علاقة مباشرة له مع من تولى حكم الأندلس وبلاد المغرب خلال هذه المدة غير ما ذكره ابن الأبار من توليه لخطة القضاء[1]؛ وهو المنصب الأقرب إلى مخالطة أهل السياسة والخوض في أمورها بحكم تدخل ولاة الأمر في تعيين من يتولاها، حيث يترتب عنها- في أحسن الأحوال – تعرض صاحبها للعزل دونا عن إرادته أو اعتزاله بمحضها، وقد بادر ابن بشكوال إلى اعتزال هذا المنصب، ولا يعرف على وجه التحديد سبب ذلك ولا الفترة التي تولى فيها هذه الخطة الدينية.

والدافع وراء خوضه لفن كتابة التراجم - مثلما جاء في مقدمته- هو مواصلة التعريف بأعلام الأندلس، وإتمام ما بدأه ابن الفرضي المتوفى سنة (403هـ/ 1012م) في كتابه "تأريخ علماء الأندلس"، وعن ذلك يقول : "من حيث انتهى كتابه وأين وصل تأليفه متصلا

1- ابن الأبار- المصدر السابق- ج2- ص226.

إلى وقتنا"[1]، ومؤكدا على إتباع منهجه في التأليف: "ورتبته على حروف المعجم ككتاب ابن الفرضي وعلى رسمه وطريقته، وقصدت إلى ترتيب الرجال في كل باب على تقادم وفياتهم كالذي صنع هو رحمه الله"[2]، ولكن عقد مقارنة بين الكتابين تظهر لنا أن ابن بشكوال تحايل في إتباع هذا المنهج، ولم يلتزم فيه خطأً واحدا، ويتضح ذلك من خلال إعراضه وتجاوزه عن وصل النبذة التاريخية التي استهل بها ابن الفرضي كتابه عندما تعرض لذكر من تولى حكم الأندلس من بني أمية وإلى غاية آخر خليفة عاصره وهو المؤيد بالله هشام بن الحكم[3] مبينا غرضه من ذلك بقوله:" لما رأيت كثيرا من الوفيات ترتبط بدول الملوك، لم أجد بدا من ذكرها في صدر هذا الكتاب ليكون دليلا على ما تعلق بها و أضيف إليها، مع ما في علم ذلك من الفائدة "[4].

والمتتبع لهذه الإشارة عند ذكر الأعلام المترجم بهم في كتابه يدرك أن الفائدة التي رام ابن الفرضي التنبيه إليها؛ هي أن معرفة الفترة السياسية التي عاصرها العلماء، غايتها إيضاح علاقة السلطة بأهل العلم خاصة وبالحياة العلمية عامة، ولذلك لم يغفل مختلف المحن التي تعرضوا لها على أيديهم تنويها بصبرهم وصلابتهم واتعاظ من يقتدي بهم، كما أنه لم يفوت ذكر ما نالوه منهم من تكريم وحظوة واحتفاء[5].

كان الأحرى بابن بشكوال-على ما قرره في شرطه- أن يبدأ من حيث انتهى ابن الفرضي فيفتتح كتابه بذكر من تولى حكم الأندلس، إما بإعادة من ذكرهم ابن الفرضي ثم وصل ذلك بمن تولى بعد هشام المؤيد بالله إلى آخر من عاصر من حكام الموحدين، وهو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، كما فعل الضبي في بغيته عندما وصل كتاب "جذوة

1- ابن بشكوال- المصدر السابق- ص17.

2- نفس المصدر والصفحة.

3- هو هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الأموي يكنى أبا الوليد ويلقب بالمؤيد بالله، أمه أم ولد تسمى صبح، ولي وعمره عشرة أعوام فتغلب عليه حاجبه المنصور بن أبي عامر، وقد جرت له أحداث ومحن في حياته إلى أن قتل سنة 403هـ/1012م، وقيل غير ذلك في خبر طويل، ينظر الحميدي- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس- تح روحية عبد الرحمن السويفي- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1997م- ص21. وابن بسام- المصدر السابق- ج1- ص25، و-ج2- ص 19.

4- ابن الفرضي- تأريخ علماء الأندلس- تحقيق بشار عواد معروف- دار الغرب الإسلامي- تونس- ط1- 2008م- ج1- ص33.

5- ينظر مثلا ما تعرض له فقهاء قرطبة في حادثة الربض الشهيرة على عهد الحكم الربضي سنة202هـ/817م، وامتحان علماء من القرن 4هـ/10م، وتكريم آخرين، ابن الفرضي- المصدر السابق-ج1- ص149- 216- 220. و-ج2- ص 62 وما بعدها.

المقتبس في ذكر ولاة الأندلس" للحميدي المتوفى سنة (488هـ/1095م)[1] ، وإما الاقتصار على ذكر أسماء من عاصر منهم إذا اقتضى ذلك وصف حال المترجم به، إلا أنه أعرض عن ذلك وتجاوزه مكتفياً بعبارة "متصلا إلى وقتنا"، أي إلى النصف الثاني من القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي بدليل أن آخر سنة وفاة أوردها هي (564هـ/1169م)[2] ، دون أن يشير إلى أحد من حكام الموحدين، ولا حتى مجرد الإشارة إلى دولتهم أو تواجدهم بالأندلس، أو علاقة العلماء بهم، فلم أغفل ابن بشكوال ذلك وتجاوز؟ وهل ثمة من المغاربة أهل التراجم من تنبّه لهذا العزوف منه؟ أم أنّ الأمر لا يعودو أن يكون مجرد التزام بمنهج الكتاب وشرطه، وقلة تراجم الأعلام الذين تتزامن وفياتهم مع المرحلة.

يحتاج الأمر إلى استقراء نصوص كتابه التي تتوافق مع العصر المؤرخ له قصد الوقوف على بعض النقاط التي يمكن أن ترفع الغموض الذي انتاب تراجم هذه المرحلة من تاريخ العدوتين المغربية والأندلسية.

الظاهر أن الكشف عن هذا الغموض وتقريب الإجابة عن هذا التساؤل تكمن في تتبع الأعلام الذين ترجمهم في صلته، و كانوا ممن عاصر دولة الموحدين التي لم يحبذ الحديث عن حكامها صراحة، ولا عن دورهم في الحياة العلمية بالأندلس- وهو المؤرخ الذي لا تخفى عنه أهمية ذلك والتنبيه إليه- ودون أن نتتبع ترجمة جميع أعلام العلماء الذين ربطتهم بالموحدين أحداث وعلاقات تقرر في غير شطط أنه لا يسع لمن يترجمهم تجاهلها؛ وبخاصة من بذكرهم يذكر أهل السلطة والحكم كالقضاة والكتاب والشعراء، ثم سائر من انتسب لأهل العلم، لأنه لا توجد أي إشارة ذات صلة بوضع العلماء والحياة العلمية على

1- الضبي- المصدر السابق- ص43.

2- وهذا عند ترجمته عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن قزمان المتوفى سنة564هـ/1168م، ابن بشكوال، المصدر السابق، ص288، و لقد أخطأ متوهما إبراهيم الأبياري عندما اعتبر أن سنة 534هـ/1139م المدونة في آخر الجزء الأول من الصلة هي التي انتهى إليها ابن بشكوال في حصر من جاءوا بعد ابن الفرضي ومفسرا كلام ابن دحية الكلبي في كتابه"المغرب" من أنه قرأ كتاب الصلة على مؤلفه سنة 574هـ/1178م، أي بعد مرور 40 سنة من تأليفه له ومستنتجا من هذه العبارة أن ابن بشكوال لم يمض في كتابه تأليفا إلى آخر عمره، والصواب أنه كان ينقح كتابه بما يضيف إليه من زيادات واستدراكات إلى آخر حياته، ودليله سنوات وفيات الأعلام الواردة ضمن الكتاب، والتي آخرها سنة 564هـ/1168م، علما أن الأجزاء العشرة الأخرى لا ترد فيها سنوات الفراغ من النسخ عدا الجزء 10 الذي ورد في إحدى نسخه المخطوطة أن الفراغ منه كان سنة 555هـ/1160م، بينما ترد فيه ترجمة توفي صاحبها سنة 560هـ/1164م، ولذلك نجد السيوطي في بغيته يعتمد على استدراكات ابن بشكوال في بعض تراجم الأندلسيين بقوله:

عهدهم تؤرخ لذلك إيجابا أو سلبا، وإن كان ولا بد فلن نجد دليلا واضحا من إغفاله – متعمدا– محنة شيخه وصاحبه القاضي عياض اليحصبي[1] على أيدي الموحدين، وكل ما قاله عنه - بعد ما عرض مراحل حياته العلمية - : " توفي - رحمه الله- بمراكش مغربا عن وطنه وسط سنة 544هـ"[2]، و هو ما يقال عن أبي بكر بن العربي[3] و تجاوزه خبر دخوله على عبد المؤمن بن علي ومحنته آخر حياته[4].

وبالجملة فإن كتابة ابن بشكوال على منهج ابن الفرضي في التأريخ لعلماء الأندلس إنما يتوقف قبل نهاية القرن5هـ/11م، ثم يظهر بعد ذلك بمنهجية مختلفة تماما عما سبقها من القرون، وهذا إلى غاية النصف الثاني من القرن 6هـ/12م، وهي الفترة التي تولى فيها المغاربة حكم الأندلس وأضحت مراكش حاضرة العدوتين ومركز القرار والسلطة بهما، فتجده يتحاشى ذكر أمرائهم وخلفائهم وولاتهم سواء كانوا من المرابطين أو الموحدين، ويتغافل عن الكثير من الأحداث ذات الصلة بمسيرة الحياة العلمية، كحركة جلاء العلماء عن مدنهم بسبب الاضطرابات السياسية التي عرفتها الأندلس نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، فجاءت تراجم هذه الفترة خالية من أي حدث تاريخي له صلة بالعصر، ولم تظهر بوضوح صورة تواجد عناصر القبائل التي اجتازت إلى الأندلس خلال هذه المرحلة سواء من الذين استوطنوها وتناسل أعقابهم بها أو الوافدين عليها، مشكلين بذلك فئتي

1- هوعياض بن موسى بن عياض اليحصبي، من أهل سبتة يكنى أبا الفضل استقضي ببلده مدة طويلة، ثم ولي قضاء غرناطة، له عدة مؤلفات، توفي سنة 544هـ/1149م.ابن بشكوال- المصدر السابق- ص 359-360.

2- ابن بشكوال- المصدر السابق- ص360. ويتضح من المصادر التي ترجمت حياة القاضي عياض أن سبب امتحانه هو ولاؤه لدولة المرابطين، ورغم عفو عبد المؤمن بن علي عنه إلا أنه أبعد عن بلده حين عين قاضيا في إحدى المناطق النائية، وتختلف الروايات حول سبب وفاته بين قائل أنه مرض خارج مراكش أو أنه مات مسموما أو مات فجأة في الحمام أو أنه قتل. ينظر تفصيل محنته، ابن خلدون- المصدر السابق-ج6- ص307، والمقري- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض- تح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي- مطبعة فضالة-المغرب(د ت) -ج-3- ص11 وما بعدها، والنباهي- تاريخ قضاة الأندلس- تح لجنة إحياء الترات العربي- دار الأفاق الجديدة – بيروت- 1980م- ص95- وابن أبي زرع- المصدر السابق- ص247.

3- هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي المعافري من أهل إشبيلية، يكنى أبا بكر، رحل إلى المشرق وأخذ عن علمائها توفي بالعدوة ودفن بفاس سنة 543هـ/1148م.ابن بشكوال- نفسه- ص459-460.

4- حسب رواية ابن أبي زرع فإن عبد المؤمن سأله عن لقائه لابن تومرت عند الغزالي و ما كان يقول فيه ، فنفى ابن العربي لقاءه ونسب للغزالي قوله " إن هذا البربري لا بد سيظهر"، ويتحدث غيره من أنه تعرض للسجن مدة عام، وعند انصرافه توفي في طريقه إلى فاس. ينظر المقري- المصدر السابق-ج3- ص63 وما بعدها، وابن أبي زرع، المصدر نفسه- ص 246 .

البلديين والغرباء توافقا مع ما درج عليه كتاب التراجم في الأندلس حيث قسموا أعلامها على أساس المولد والنشأة[1].

إن البحث عن الدافع وراء لجوء ابن بشكوال إلى تجنب ذكر حكام الأندلس المغاربة، وعدم فسح مجال الترجمة بشكل أوسع لأعلام بلاد المغرب متعمدا تغييب صورة الحياة العلمية على عهدهم، ليس ببعيد عما كان يجيش في نفوس الأندلسيين تجاه أهل العدوة المغربية منهم من نفرة وعداوة وبغضاء، شكل عامة قرطبة وثلة من خاصتهم الأنموذج الأكثر تكرارًا ووضوحًا عبر الحقبة التي تلت فتنة القرن (5هـ/11م)، حين اجتاح الخراب مدينة قرطبة، وجعل أهلها يحّملون البربر والمغاربة وزر غيرهم فألحقوا التهمة بهم[2]، وغذّت تلك الأحداث عصبيتهم المفرطة في حبهم لبلدهم، ونفرتهم ممن كان غريبًا عنها، ودون حصر لهم نذكر من علمائها وكتابها ابن مفرج[3]، وابن حزم[4]، وابن أبي الخصال، وابن بشكوال، والقاضي ابن رشد الحفيد.

لا خفاء ما للإجراءات التي بادر الموحدون إلى اتخاذها ولم تلق رضى العامة في قرطبة؛ ومنها تلك الترتيبات الإدارية والخيارات السياسية؛ كتقديم مدينة إشبيلية عن قرطبة من حيث الأولوية الإدارية والحضارية - سيرد الحديث عنها بشيء من التفصيل- من دور في حنق عامتها على الوافدين الجدد، وأنّ فقدها للمكانة التي اشتهرت بها كحاضرة للأندلس، ومنافستها لكبرى المدن في العالم الإسلامي، ونهاية حكم من منحهم أهلها فرائض الطاعة والولاء من بني أمية حزّ في نفوس أهلها تسلط غيرهم عليها لا سيما ممن استوطنها

1- ظهر هذا التقسيم مع ابن الفرضي حيث اعتبر أن كل من لم يولد في الأندلس فهو غريب عنها وليس من أهلها وإن نشأ ومات بها، وعكسه أن يترجم للعلم في البلديين أهل الأندلس وإن انتقل إلى غيرها ونشأ وتوفي بها، وقد تبعه على هذا التقسيم كل من سار على نهجه فيما عرف بكتب الصلات.

2- تبرز بشكل واضح هذه النفرة والعصبية في تراجم النصف الأول من القرن (5هـ/11م)، ومن ذلك وصفهم لمن قتل في هذه الأحداث على أيدي البربر بالشهداء وعلى هذه الصفة يدفنون، ابن بشكوال،المصدر السابق ص214-389.

3- هو محمد بن مفرج بن حماد بن الحسين المعافري يعرف بالقبشي ويكنى أبا بكر من أهل قرطبة توفي سنة 430هـ/1038م، له كتاب سماه " الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال" أتمه سنة 420هـ، ونقل فيه الكثير من الأحداث ذات الصلة بفتنة القرن (5هـ/11م)، ونقل عنه ابن بشكوال كثيرا، وفيه يظهر مدى حنقه على البربر ووصفه لهذه الفتنة بالبربرية، ينظرابن بشكوال- المصدر نفسه- ص 126 و156.

4- تظهر عصبيته وكرهه للبربر من ذوي الأصول المغاربية عندما اعتبر أن " كفار البربر كانوا أشر كفار فإنهم ليسوا أهل كتاب ولا ارتباط بشرع وكذلك مسلموهم شرار المسلمين وأكثرهم غائلة" مؤلف مجهول، فتح الأندلس- تح لويس مولينا- المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- مدريد-(د ت)- ص 55.

المغاربة الداخلين إلى الأندلس " حتى إنّ السّيد أبا يحي بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن[1] لما انفصل عن ولايتها قيل له: كيف وجدت أهل قرطبة؟ قال مثل الجمل إن خففت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته به صاح، ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنتجنبه، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرًا من عامة العراق ، وإنّ العزل عنها لما

قاسيت من أهلها عندي ولاية، وإني إن كلفت العود إليها لقائل لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين"[2] وأردف ابن سعيد الغرناطي الذي أورد هذا الخبر أن أبا يحي لم يخرج عن قرطبة حتى بنى بها قصرًا من أبدع القصور على نهرها الكبير[3]، وعندما سئل "كيف تأنّقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة؟ فقال: "علمت أنهم لا يذكرون واليا بعد عزله ولا له عندهم قدر لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المروانية، فأحببت أن يبقى لي في بلادهم أثر أذكر به على رغمهم"[4].

ورد أنّ في إحدى زيارات المنصور الموحدي لهذه المدينة رغب في الوقوف على أطلال مدينة الزهراء[5] بنية الاعتبار، وعندما اقترب منها "أمر بقلع الصورة التي كانت على بابها"[6]، وأورد راوي هذا الخبر ما اتّفق من هبوب لريح عاصفة - بعد تصرفه هذا- غيّرت أثر المكان الذي زاره المنصور" فأرجف جهال من عوام قرطبة أنّ ذلك بسبب صورة الزهراء، وأنها كانت طلسماً لما ارتدعها من الأشياء"[7]، وعندما بلغ المنصور خبر

1- لم أقف له على ترجمة منفردة، وما ما يمكن استخلاصه من كتب التاريخ أن اسمه زكرياء بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الزناتي يكنى أبا يحي، عينه والده واليا على قرطبة برغبة من ابن رشد في سنة 579هـ/1183م، وأنه كان محبا للعلوم مقربا للعلماء والشعراء، وفي دعم ابن رشد له ما يؤكد ذلك، وأن أخاه المنصور أقدم على قتله مع أخيه عمر وعمه سليمان سنة 582هـ/1186م، ينظر عن ذلك ابن عذاري- المصدر السابق- قسم الموحدين- ص156 و205، وابن أبي زرع- المصدر السابق- ص 286.

2- المقري- نفح الطيب- ج1- ص 462.

3- وصف هذا القصر الشاعر ناهض بن إدريس شاعر وادي آش بقوله : [الطويل]

أَلاَ حَبَّذَا القَصْرُ الّذِي اِرْتَفَعَتْ بِهِ   عَلَى المَاءِ مِنْ تَحْتِ الحِجَارَةِ أَقْوَاسُ

وقد نزله المنصور الموحدي عند جوازه سنة 586هـ/1190م. المقري- المصدر السابق- ج1- ص470، وابن عذاري المصدر السابق - ص205.

4- المقري- نفس المصدر والجزء- ص462.

5- مدينة في غربي قرطبة بناها الناصر عبد الرحمن بن محمد على سفح جبل العروس بداية سنة325هـ/936م، وكانت قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها، وكانت في ذاتها عظيمة يعجز الواصفون عن وصفها، ثمّ خرب ذلك كله، وبقيت أطلالها ماثلة إلى اليوم. ينظر عن وصفها ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 265، والمقري- المصدر نفسه- ج1- ص ص 524- 527.

6- ابن عذاري- المصدر السابق- ص 205.

7- المصدر نفسه- ص 205.

ما راج بينهم قلّل من شأنه واعتبره من "علوم أهل قرطبة القديم، ومن غبايتهم وتقليدهم الذميم"[1].

لقد أكد ابن خلدون هذه النظرة عن أهل الأندلس إجمالا بقوله: "وذلك أنّ أهل الأندلس لما انقرضت الدولة العربية منهم وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا ملكهم وثقلت وطأتهم عليهم فأشربت القلوب بغضاءهم"[2].

لاغرابة أن يكون السبب وراء تجنب ابن بشكوال وتجاوزه عن ذكر دولة الموحدين هو تجنبه خطر البوح بما كان يكنّه اتجاه ما قام به خلفاء الدولة وولاتها في الأندلس بما لا يروقه، وفي حادثة نقل المصحف العثماني- سيرد الحديث عنه لاحقاً- من قرطبة إلى مراكش في عهد عبد المؤمن بن علي أبرز مثال على عدم رضى ابن بشكوال عن تصرفه هذا، وقد نقل عنه ابن عبد الملك المراكشي من حاشية له وبخطه ما نصّه: " اخرج هذا المصحف عن قرطبة وغرب عنها ليلة السبت 11 من شوال سنة 552هـ، وحمل صبيحة يوم السبت وجوّز إلى العدوة، أخذ الله من سعى في تغريبه وخروجه عن الحضرة أخذ آسف، ولا أمهله بالذي لا إله إلاّ هو، وعجّل بصرفه إلى مكانه"[3]، ولغة الرفض لكل ما قد ينسب للموحدين واضحة في سياق كلامه من تجاهل ذكر اسم عبد المؤمن وتمسكه بتسمية قرطبة بالحضرة- حسب الإصطلاح الأموي- وتجنب ذكر اسم مراكش، كما أن مخاطبتهم وذكر أسمائهم يصاحبه الإقرار بألقابهم في الخلافة وإمارة المؤمنيين[4]، وهذا ما حدا به إلى عدم إظهار ما كان يضمر بنفسه في كتابه "الصلة".

ب. منافحة ابن عبد الملك المراكشي عن أعلام المغاربة:

1- هناك بتر واضح من كلام المنصور بعبارة (كذا) و (كذا) في وصف أهل قرطبة. ابن عذاري- المصدر السابق- ص 205.

2- ابن خلدون- المصدر السابق-ج1- ص 207.

3- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص 159.

4- أغلب الظن أن ابن بشكوال تجنب ذكر أسماء حكام الموحدين وأمرائهم صونا لنفسه من إيراد ألقاب وتعابير ذات دلالات شرعية وسياسية وعقدية، كالخليفة والمهدي والسيّد وما يترتب على ذلك من دعوات لهم وتقديم فرائض الطاعة والولاء مثلما كان الأمر سائدا زمن الموحدين.

لقد تنبه ابن عبد الملك المراكشي إلى هذا الإجحاف والتجافي الذي تعرض له المغاربة من طرف كتاب التراجم في الأندلس، وهو ما أهله لأن يكون حامل لواء الدفاع والمنافحة عن أهل بلده من خلال تذييله وتكملته لصلة ابن بشكوال على تاريخ ابن الفرضي، فسمى كتابه "الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة"[1] مواصلاً الترجمة لعلماء "أهل الأندلس والطارئين عليها من غيرهم بذكر من أتى بعده منهم وتكميلها بمن كان من حقه أن يذكراه فأغفلاه"[2]، ورغم اقتصاره على هذين العنوانين إلا أنه اتخذ من كتابه مرجعاً لتوجيه نقده لأشهر من وصل أو ذيل عليهما من أهل الأندلس[3]، أو من سار على نهجهم من المغاربة[4] ويمكن التماس رغبته بالوقوف في وجه ما اعتبره "إفراطًا في التعصب واحتقارًا لأهل العدوة "[5] في ثلاث نقاط :

- إهتمامه بالغرباء الوافدين على الأندلس:

لقد أظهر ابن عبد الملك المراكشي في تقديم منهج كتابه عن نقد لاذع لكتاب التراجم الأندلسيين، معترضًا على طريقتهم في ترتيب أسماء الاعلام بحيث انفردوا بتقديم الأندلسيين وتأخير الطارئين عليهم من الغرباء، معتبرًا أن هذا "خارج عن عرف المحدثين والمؤرخين"[6] الذين اهتموا في المترجم به "موضع استقراره فهم إنما ينسبونه إلى البلد الذي صار مستقره"[7] وضاربًا المثال بأصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) الساكنين بالمدينة أنهم مدنيون مع أن أصلهم من مكة[8] "وكذلك يقولون فيمن استوطن بلدًا غير بلده الذي ولد به"[9].

1- يتألف من تسعة أسفار عكف عليه مؤلفه عمره كله، وقد وصلت إلينا منها الأول من قسمين وقطعة من الرابع، والخامس من قسمين، والسادس، والثامن من قسمين، في حين بقي الثاني والثالث وقطعة من الرابع والسابع والتاسع في حكم المفقود، ينظر محمد بن شريفة- المرجع السابق- ص 42-43.

2- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج1 ص6.

3- كابن الأبار في التكملة، وابن الزبير في صلة الصلة.

4- هو أبو العباس أحمد بن يوسف بن فرتون الفاسي في كتابه "الذيل على الصلة" ينظر نقد ابن عبد الملك له، المصدر السابق، ج1 ص10.

5- ابن عبد الملك المراكشي- المصدرالسابق- ص11.

6- المصدر نفسه- ج1- ص 10.

7- نفس المصدر والجزء والصفحة.

8- نفسه - ص 11.

9- نفسه- ص11.

على الرغم من ابن عبد الملك لا يستثني أحدًا من أهل التراجم بداية بابن الفرضي ثم ما جاء بعده، إلا أن ابن الأبار نال النصيب الأوفر من هذا النقد لأجل أنه تعمد صراحة تبرير ذكره لبعض المغاربة في قسم الأندلسيين بسبب شهرتهم ومكانتهم العلمية، وهو ما اعتبره ابن عبد الملك " إفراطًا في التعصب الذي كان الغالب عليه حتى غلا فيه"[1] ومستشهدًا بابن المناصف[2]، حيث إن ابن الأبار أكد مصححًا مولده ببلاد المغرب إلا أنه عمد إلى الإخلال بشرطه قائلاً عنه :" وذكره في الغرباء لا يصلح ضنانة بعلمه على العدوة"[3] فعطف ابن عبد الملك معلقا: "وحسبك ما اشتمل عليه هذا القول من الشهادة على قائله بما لا يليق بأهل الإنصاف من العلماء واستحكام الحسد المذموم، واحتقاره طائفة كبيرة من الجلة العدويين"[4].

تجدر الإشارة إلى أنه لم يرد أي اعتراض على هذا التصنيف عند من سبق ابن عبد الملك من المغاربة، ولا من أتى بعده بل هناك من اتبعهم على سبيل الموافقة والتأييد، وهو ما نلمحه من كلام ابن بشكوال في المراسلات التي تمت بينه وبين القاضي عياض في عدة مواضع من كتابه الصلة[5].

لقد كان بالإمكان أن نقف على صورة أكثر وضوحًا في دفاعه عن أهل بلاد المغرب من العلماء على اختلاف مشاربهم وإنصافه لهم لو وصلنا هذا القسم كاملاً من مصنفه الشهير "الذيل والتكملة"[6] وبخاصة المغاربة منهم لأنهم أصحاب الحظ الأوفر من الترجمة في الجزء الواقع بين أيدينا – حيث يبدو القرب الجغرافي للعدوتين أهم محفز لانتقالهم – على الرغم من أن مصطلح الغرباء يراد به كل من طرأ على الأندلس من غير أهلها[7]، سواء كانوا من المشارقة أو المغاربة، ولعل هذا ما يفسر سبب اهتمامه بهم خاصة وأن

1- ابن عبد الملك المراكشي نفسه- ص 10.

2- هو محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ بن محمد الأزدي، مهدوي نشأ بتونس وهو قرطبي الأصل، يكنى أبا عبد الله تولى قضاء بلنسية ومرسية وله الكثير من المصنفات، توفي سنة 620هـ/1223م. ابن عبد الملك المراكشي- نفسه- ج8- ص 345-349 .

3- ابن الأبار - المصدر السابق-ج2- ص203.

4- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق-ج1 ص11.

5- منها على سبيل المثال قوله عن إسماعيل بن حمزة بن زكرياء الأزدي المالقي بعد ما أورد اسمه ضمن البلديين "وهو من أهل سبتة بها ولد ... نبهني على ذلك القاضي أبو الفضل، وكتب به إلي صحيفة أن يذكر في الغرباء، ابن بشكوال- المصدر السابق- ص99.

6- يرى المحقق محمد بن شريفة أن السفرين السابع والثامن من الذيل والتكملة أكثر أسفار هذا الكتاب صلة بتاريخ المغرب ورجاله، وذلك لاختصاصهما بتراجم الأعلام المغاربة، واشتمالهما على فوائد جليلة ومواد نافعة لدارسي عصر الموحدين، ينظر مقدمة المحقق- الذيل والتكملة- ج8- ص 133-134.

7- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص11.

تراجمهم عند أهل الأندلس توحي بقلتهم ويغلب عليها الاقتضاب بينما هم يشكلون في نظره "طائفة كبيرة"[1]، قام بفصلهم عن الأندلسيين في آخر كتابه، معللاً ذلك بأن " إفرادهم بالذكر بعد الفراغ من ذكر أهل الأندلس يكون أرفع لهم، وأدل للناظر على ملتمسهم وأوضح لتمييزهم عن سواهم"[2].

ومن شدّة اهتمامه أنه كان يستطرد في أخبارهم ويطيل فيمن له شهرة منهم، إطالة لا عهد لتراجم الأندلسيين بها[3].

- ذكره لإسهام المغاربة ومنافستهم للأندلسيين في مجال العلم والمعرفة:

بالرغم الانتقائية التي انتهجها ابن عبد الملك عند ترجمة المغاربة بسبب تقيده والتزامه بشرط الأندلسيين في ذكر الداخلين إلى الأندلس فقط، إلا أن هذا لم يمنعه من إبراز افتخاره وإشادته بمن ذكرهم، منافسة للأندلسيين ووقوفًا في وجه تعصبهم واحتقارهم لأهل المغرب، فنذكر من ذلك إشادته بعلم أبي موسى الجزولي[4] المغربي الداخل إلى الأندلس ودفاعه عن صحة نسبة كراسته القزولية[5] إليه، ردًا منه على الأندلسيين الذين شككوا في نسبتها إليه وأن "كل ذلك مما ينبغي التعريج عليه، وإنما هي نقولات حسدته النافسين عليه"[6] ومعتمدًا على تأكيد صحة نسبتها إليه بوقوفه على خط صاحبها، زيادة على رسوخ قدمه في علم النحو[7]، ومن الشواهد التي ذكرها ودلّت على المنافسة العلمية بين المغاربة وأهل الأندلس هي

1- المصدر نفسه- ص13.

2- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج1- ص13.

3- ينظر مثلا ترجمته لميمون بن علي بن عبد الخالق الصنهاجي، وعلي بن محمد بن عبد الملك أبو الحسن بن القطان الكتامي، ابن عبد الملك المراكشي – المصدر نفسه- ج8- ص388-404، و-ج8- ص165-195.

4- هو عيسى بن عبد العزيز بن يللبخت بن عيسى بن يوماريلي البربري اليزد كتني العلامة أبو موسى الجزولي المراكشي، وجزولة بطن من البربر واليزدكتني فخذ منها، رحل إلى المشرق فزار مصر وتجول بها فأخذ العربية والنحو عن علمائها، ثم قفل إلى بلاد المغرب فأقام بجزائر بني مزغنا، فأخذ أصول الفقه وبها درّس العربية، ثم أجاز إلى الأندلس، وفي المرية أخذ عنه جماعة من أهلها، ثم استوطن مراكش حيث قربه المنصور الموحدي، واحتفى به، ثم لقي حظوة عند ابنه الناصر إلى أن توفي سنة 607هـ/1210م، ينظر السيوطي- المصدر السابق- ج2 - ص197. وابن عبد الملك المراكشي- نفسه-ج8- ص246 وما بعدها.

5- هي كراسة في النحو وعنها يقول السيوطي : "هي حواشي على الجمل للزجاجي، وقال بعضهم، ليس فيها نحو، وإنما هي منطق بحدودها وصناعتها العقلية" السيوطي، المصدر السابق، ج2 ص197.

6- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ص 248.

7- هو عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي، الإشبيلي أبو عمر الشلوبين، كان ذا معرفة بالقراءات، متقدما في العربية، قدم مراكش أيام المنصور من بني عبد المؤمن، وتوفي بإشبيلية سنة645هـ/1247م. ابن عبد الملك المراكشي، نفسه- ج5- ص460 وما بعدها.

القصة الطريفة لأبي علي الشلوبين الأندلسي[1] عند قدومه مراكش، وكيف أنه بهت لما شاهد مجلس الجزولي واطلع على قدرته في علم النحو واستبحاره فيه، فأقر على نفسه بأنه لن يسود بعلمه في هذا البلد[2] "وعاد إلى إشبيلية مقضيًا العجب مما شاهده"[3].

سلك ابن عبد الملك المراكشي هو ذاته طريق المنافسة والتفاخر بتتبع سقطات الأندلسيين والرد عليهم، والتعليق على كتبهم وأخبارهم، واتبّع في أحيان كثيرة الشدة في الـرّد والطعن والقصوة في استعمال الألفاظ، والطعن في منتحلي الأنساب العربية، وقد تنبّه

إلى ذلك لسان الدين الخطيب واعترض عليه، ومنه ما نسبه لنفسه حينما شكك في عبارة كان قد أثبتها ابن بشكوال في صدر كتابه الصلة[4] حيث يتوهم الواقف عليها أنها من كلامه بينما أصل العبارة حسب ما أكد ابن عبد الملك هي لأحد أشياخ بلاد المغرب[5]، وهذا التشكيك في أسلوب ابن بشكوال إنما يفهم منه مدى قدرة ابن عبد الملك على معرفة أساليب كتاب التراجم والتفريق بينها.

اعترض في موضع آخر من قسم الغرباء على ابن الأبار ذكره لأحد الخرسانيين[6] منكرًا عليه ذلك على اعتبار أنه لم يدخل الأندلس أصلاً، وأن تونس هي أقصى ما وصل إليه من بلاد المغرب[7]، إلا أنه استأنس بترجمته حيث ناسب ذلك أن يورد لأبي زيد الفازازي

1- هو عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي، الإشبيلي أبو عمر الشلوبين، كان ذا معرفة بالقراءات، متقدما في العربية، قدم مراكش أيام المنصور من بني عبد المؤمن، وتوفي بإشبيلية سنة 645هـ/1247م. ابن عبد الملك المراكشي- نفسه-ج5- ص460 وما بعدها.
2- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج8- ص249.
3- المصدر نفسه-ص250.
4- وردت هذه العبارة في قوله : " سألني صاحبنا الفقيه الزكي المحدث الكامل أبو محمد عبد الله بن إسماعيل بن فرج، تولى الله تعالى كرامته وضاعف جلالته، مناولة كتاب الصلّة، فأجبته إلى ما سأل على وجه الطاعة له بعد أن أشفقت مما رسم أن يتعاطى مثلي مع مثله منزلة الأشياخ، لكن بعض الشيوخ كان يقول: موافقة الإخوان خير من الإبقاء على النفس"، وأن العبارة المنتحلة هي بداية من قوله : " فأجبته (...) إلى النفس "، كتبها أبو عمر السفاقسي إلى القاضي أبي عمر أحمد بن محمد بن الحذاء الأندلسي المتوفى سنة 335هـ/965م، وقد عبر ابن عبد الملك عن سروره بصدق حدسه في ذلك، ينظر، ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج4- ص 182-
5- هو أبو عمر السفاقسي، لم أقف على ترجمته وتبدو مغربيته ظاهرة من نسبته إلى سفاقس إحدى المدن بإفريقية.
6- هو محمود بن أبي القاسم الفارسي يكنى أبا المعالي، زار المغرب على عهد الناصر من بني عبد المؤمن، كان فقيهًا شافعي المذهب، ذا حظ صالح من الأدب ناظمًا ناثرًا، توفي بالعراق ولا تعرف سنة ذلك. ابن عبد الملك المراكشي- نفسه-ج8- ص ص 368-372.
7- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر نفسه- ج8- ص368.

المغربي قصيدة في مدح هذا الخرساني، معللاً إثباتها – مع طولها – بأن في ذكرها " تنبيهًا على ما لأهل المغرب في الفضل من الحسن والزيادة"[1].

تحظى " بلاد المغرب" عنده بمكانة بارزة في الحياة العلمية لا تقل أهمية عن الأندلس، لاسيما عند ذكر الأندلسيين الذين تجولوا بها طلبا للعلم، فتراه لا يغفل عن ذكرها تنويهًا بمدنها ومجالسها العلمية، وأعلامها الذين أسهموا في التواصل العلمي بين العدوتين، ومن المؤكد أن لأصوله ومعرفته بالمدن التي زارها كفاس وسبتة وتلمسان دورًا في هذا الإلمام الذي مكنه من إتمام ما أغفله غيره[2]، ومن باب الإنصاف والموضوعية التأكيد على أن المنهج الذي سلكه ابن عبد الملك المراكشي في "الذيل والتكملة" جعله يمثل الطرف المغاربي الأكثر مبالغة في منافرة الأندلسيين ومنافستهم، فلم يسلم هو ذاته من الدخول في معتركها، وهذا لكثرة ما يمكن أن نرصده له من متابعة ونقد لهم أوصله إلى حد التشكيك والهجاء والتعريض بهم[3].

- ذكره لإسهامات الموحدين العلمية في الأندلس والتأريخ لدولتهم:

يعتبر كتاب "الذيل والتكملة" من الوثائق المصدرية المهمة في التأريخ لدولة الموحدين عامة والحياة العلمية على عهدهم خاصة، وإن أفرده للصُقع الأندلسي إجمالاً، فإن ما أورده ابن عبد الملك المراكشي يعد بحق تتبعا لما تم إغفاله وعرضًا للمسكوت عنه؛ ولذلك وصفه محمد من شريفة بإمام المؤرخين بالمغرب بعد أن عرض منهجيته في الكتابة التاريخية، وأن ما ورد في كتابه يعد "أوثق ما يعتمد عليه في تاريخ الموحدين وأصح نصوص هذا التاريخ؛ ذلك لما عرف به محررها من اطلاع واسع وإكباب طويل على المدونات التاريخية والوثائق الرسمية، ولما يلتزم به من منهجية صارمة وموضوعية عادلة"[4]، وعن

1- نفسه- ص 368.

2- يظهر تفاوت بين ابن عبد الملك المراكشي وغيره من كتاب التراجم الأندلسيين عند تتبعنا لذكر عبارة "بلاد العدوة" أو ما أدل عليها، ينظر عن ذلك للمقارنة ابن عبد الملك المراكشي- نفسه- ج6- ص ص 24- 191و ص 252-255، 289، 429.

3- شكك في نسبة كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" لابن رشد، وتتبع نسب ابن عميرة المخزومي ورده إلى الأصول اليهودية، وعرّض بأبي علي الشلوبين الإشبيلي النحوي عندما اعتبر أن كثيرا من أهل بلده كانوا يرغبون بأبنائهم عنه ولا يسمحون للتتلمذ له لقبيح لا يليق بأهل العلم نسبوه إليه، ناهيك عن حدته في الرد على الأندلسيين فيما له علاقة بالشعر والنثر، وقد تنبّه إلى ذلك التجيبي وهو أحد تلامذته حيث دافع عن أستاذه ابن الزبير في تعليقاته التي وردت في السفر الرابع من الذيل والتكملة. ابن الخطيب- الإحاطة-ج1- 62.

4- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج8- ص 16.

قيمة الكتاب العلمية فيرى محققه " أنها أوسع من قيمته الأدبية لأن الحياة العلمية من حيث حركة التعليم والتأليف هي محور الكتاب ومداره"[1] وأن الواقف على عدد المصادر والموارد التي اعتمد عليها في تأليفه يجد أنها "تؤلف القاعدة العريضة لمن يدرس الحركة العلمية والفكرية في عصر الموحدين دراسة منهجية ومتقصية"[2]، وهو يقدم بذلك عرضًا غاية في الإلمام والوضوح مما يتيح للباحث رصد علاقة السلطة الموحدية بطبقة العلماء المغيبة عند صاحب الصلة، حيث جاء حافلاً بأسماء خلفاء الموحدين وأمرائهم وولاتهم الداخلين إلى الأندلس، ذاكرًا لإسهاماتهم العلمية في عرض لمناقبهم ونوادر أخبارهم؛ وهو ما سيتم الوقوف عنده في مباحث العلوم النقلية والعقلية.

ومن مظاهر المنافسة العلمية بين الأندلسيين والمغاربة ما كان يثار من مسائل علمية في المجالس السلطانية بين العلماء في شكل مناظرات الغاية منها إثراء العلم بما كان يصدح به المتناظرون، وسواء كانوا من أهل العلوم النقلية أو العقلية، وأحياناً تأخذ طابع المفاخرة والمفاضلة بين الأصقاع والمدن، وقد جمعت هذه المناظرات في شكل رسائل أدبية غير أنه لم يصل إلينا منها إلاّ القليل.

كثيرا ما يستفاد من المناظرات العلمية عندما تعقد بين العلماء، وتزداد شهرتها حينما تكون في حضرة الحكام ، وتطلعنا المصادر الأولية على ما كان شائداً منها زمن الموحدين،

ومن أشهر هذه المناظرات ذات النبرات التنافسية ما جرى في مجلس والي سبتة على عهد الموحدين أبي يحي بن أبي زكريا[3] بين الأديب والشاعر أبي الوليد الشقندي الأندلسي[4] (ت629هـ/1231م) و يحي بن المعلم الطنجي[5]، ومن الغريب أن كُتاب الأندلس تناقلوا رسالة الشقندي وتم الحفاظ على نصوصها، بينما رسالة ابن المعلم فهي في حكم المفقود

1- مقدمة المحقق - المصدر نفسه- ج8- ص16.
2- نفسه- ص17.
3- لم أقف على ترجمته، وكل ما ورد عرضاً في التاريخ عنه أنه أبو يحي بن أبي زكريا صهر ناصر بن عبد المؤمن، ولي على مدينة سبتة في عهد محمد الناصر. ابن عذاري- المصدر السابق- ص 248.
4- هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد من شقندة قرية مطلة على نهر قرطبة، أديب وشاعرمشهور، وكانت وفاته سنة 629هـ/1231م. المقري- المصدر السابق- ج3- ص ص 222-223.
5- لم أقف على ترجمته.

بسبب الإعراض عن نقلها أو الاقتباس عنها، وقد نبّه محمد بن شريفة إلى أن معظم رسائل المغاربة فقدت؛ ومنها "رسالة المكناسي في المفاخرة بين بلاد الأندلس وبلاد العدوة"[1].

يعود سبب هذه المناظرة بينهما إلى نشوب الخلاف بداية بالمفاضلة بين الموطنين، بحيث بدأ الشقندي مفاخرته بقوله: " لولا الأندلس لم يذكر بر العدوة، ولا سارت عنه فضيلة، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم، فقال الأمير أبو يحي: أتريد أن تقول كون أهل برنا عرباً وأهل بركم بربر؟ فقال: حاش لله ! فقال الأمير: والله ما أردت غير هذا، فظهر في وجهه أنه أراد ذلك، فقال ابن المعلم: أتقول هذا وما الملك والفضل إلاّ من برّ العدوة"[2].

اقترح الأمير الموحدي أن يدّون كل واحد منهما رسالة في تفضيل موطنه، ومما جاء فيها تعقيباً على ابن المعلم "إن كان الآن كرسي جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بني عبد المؤمن- أدامها الله تعالى- فقد كان عندنا بخلافة القرشيين"[3].

وبعد ما عرّج على ذكر خلفاء الأندلس وملوكها، انتقل إلى تفضيل علماء الأندلس- على اختلاف علومهم ومراتبهم- وهي طويلة أتى على ذكرها كاملة المقري في نفحه.

ومن الأندلسيين من أبان عن منافسته بالذود في كتاباته عن تفضيل الأندلس على برّ العدوة بحيث صرّح ابن سعيد الأندلسي قائلاً: " منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت في برّ العدوة، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا[4] وسبتة، ثمّ طفت في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس(...) لم أرى ما يشبه الأندلس"[5].

وأخذ حكام الموحدين وولاتهم على أنفسهم الظهور بمظهر يفاخرون به الأندلس وأهلها؛ ولذلك كانوا يتأنقون في البنيان، ويتنافسون في جلب العلماء ويشجعون علماء بلاد المغرب على مقارعة نظرائهم الأندلسيين، فقد روي عن عبد المؤمن بن علي مفاخرته بشاعره أبي

1- محمد بن شريفة- ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره- تح محمد بن شريفة- مطبعة النجاح الجديدة- المغرب- ط1-1994م- ص ص 95-96.
2- المقري- المصدر السابق- ج3- ص 186.
3- المصدر نفسه- ص 188.
4- مدينة ببلاد المغرب على ساحل البحر، ولها أسواق نافقة وتجارات، ولأهلها سعة أموال، وكان يوسف بن عبد المؤمن أمر ببناء مدينة كبيرة متصلة بالقصبة. الحميري- المصدر السابق- ص319.
5- المقري- المصدر نفسه-ج4- ص 201.

العباس الجراوي[1] الذي روى ما أسرّ به إليه عبد المؤمن بن علي عند جوازه معه إلى الأندلس قائلاً: "يا أبا العباس إنّا نباهي بك أهل الأندلس"[2]، وقد عرف عن أبي العباس الجراوي بأنه شاعر الخلافة الموحدية.

3. الرحلة العلمية بين بلاد المغرب والأندلس :

إن انتشار العلوم والمعارف في مختلف الأوضاع التي امتد إليها الإسلام تطلب من الساعين إليها تنويع الأساليب والطرق التي تمكنهم من التحصيل والأخذ عمن اشتهر من الشيوخ والرواة، وإن تباعدت المسافات وطال الزمن، لذلك ظهرت الحاجة إلى الرحلة في طلب العلم وتحمل مشقتها وتبعاتها، ولأهميتها صنف بعض الأعلام في فضلها والأمر بها مؤلفات خاصة[3] ويرى ابن خلدون أن "الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم"[4] وغدت الرحلات العلمية إحدى الطرق التي أسهمت في انتقال العلوم والفنون وقاربت بين الشعوب والحضارات .

المتتبع لمسالك أصحاب الرحلات يقف على نوعين مختلفين تبدو فيهما معالم الحدود السياسية للمناطق والدول عاملا مهما في التعريف بينهما، فالأولى داخلية بين مدن الصقع الواحد، والثانية خارجية باتجاه الدول المجاورة، ولأن المغرب والأندلس شكلا وحدة سياسية وعلمية في عهد الموحدين فلا اعتبار هنا للتفريق بين القطرين إلا ما كان على سبيل طبيعة الحدود الجغرافية بين الضفتين، ومن النماذج المختارة لهذه الفترة رحلة ابن تومرت بين حواضر بلاد المغرب والأندلس قبل شده الرحال إلى المشرق، ومنها تنقل من المغرب الأقصى إلى قرطبة فقرأ على يد القاضي ابن حمدين ثم سافر إلى بجاية ومنها إلى

1- هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي الغفجومي الفاسي، أصله من قبيلة "جراوة" البربرية، درس الجراوي في بلده ثمّ تنقل بين فاس و مراكش، وقد جمعت أشعاره في ديوان خاص. ابن الأبار- المصدر السابق- ج1- ص 128.

2- ابن سعيد- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة- تح إبراهيم الأبياري- دار المعارف-القاهرة- ط2-(دت)- ص 100.

3- الخطيب البغدادي- الرحلة في طلب الحديث- تح نور الدين عتر- دار الكتب العلمية- ط1- بيروت- 1975م. ص ص38-91.

4- ابن خلدون- المصدر السابق- ج1-ص 624.

المهدية للأخذ عن الإمام المازري[1] ولا تعرف على وجه التحديد المدة الزمنية التي مكثها في الأندلس والمهدية، والمعلوم من المصادر أنه استغرق في رحلته غربا وشرقا أربع عشرة سنة.

أدى اهتمام كتاب التراجم الذين تتبعو حركة العلماء، وتنقلاتهم بين المدن والأصقاع، ورصد أماكن استقرارهم ومواضع انتصابهم للتعليم إلى ذكرعدد كبير من المساجد على اعتبار أنها دور للعبادة ومنارات لنشر العلم والمعرفة فحددوا مناطق وجودها، وأسمائها وأشهر من درس فيها وعلى الرغم من إشارتهم إلى من اشتهر من العلماء والخطباء الذين كان يتم استدعائهم من طرف الخلفاء وولاة الأقاليم وبخاصة في كبرى حواضر بلاد المغرب كمراكش وفاس وسبتة وتلمسان وبجاية والإشراف إداريا على تعيينهم في المساجد والمدارس وقصور الحكام إلا أن المصادر لا تطلعنا على كيفية التحاق غيرهم ببقية المدن والقرى وتصدرهم للتعليم، وما يمكن استخلاصه من مظاهر النصوص أن اختيار العديد من علماء الأندلس لمدن بلاد المغرب تكمن وراءه عدة أسباب تختلف باختلاف الأزمان والأحوال، ومنها :

- الانتقال بسبب الفتن والإضطرابات التي عرفتها المدن الأندلسية وبخاصة في نهاية حكم المرابطين، وفترات تكالب النصارى على أراضي المسلمين .
- فحوى المراسلات التي كانت تتم بين طلبة العلم المغاربة – أو من ناب عنهم – وعلماء الأندلس وفيها ورد التصريح برغبتهم في وفود العلماء عليهم تشريفا لمدنهم من جهة وكفاية أبنائهم أعضاء الرحلة إليهم.
- امتهان بعض علماء الأندلس للتجارة مكنتهم من التواصل مع أهل العدوة المغربية، وناسب مكرتهم في المدن التي وصلوها أن أسهموا في نشر المعرفة لمن رغب فيها.

ليس هناك ما يشير إلى تدخل سلطة الموحدين في شؤون الحياة العلمية الخاصة بشيوخ المساجد وطلبتهم من خلال ترتيبات تنظيمية شبيهة بتلك التي عرفتها المدارس المشرقية، حيث تمتع العلماء بحرية في اختيار موادهم وتنظيم حلقاتهم حسب ما هو متعارف عليه

1- هو أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد التميمي المازري، محدث وفقيه، من أهل إفريقية، ومن أشهر مؤلفاته" المعلم بفوائد مسلم" وكتاب" الفتاوى"، توفي سنة 536هـ/1141م. ابن فرحون- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب-تح مأمون بن محي الدين الجنان- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1999م- ص 374.

حتى اكتفت السلطة الحاكمة بفرض رقابة سياسية على المساجد تمكنها من رصد حالات الخروج عن طاعة الموحدين أو التحريض ضدهم.

وتتباين المعلومات المستقاة حول طرق التدريس وأنماطه، واختيارات هؤلاء الأعلام لما يدرسونه حسب رغباتهم المرتبطة بالعلوم والفنون التي يتقنونها، وهي بذلك تخضع لمعايير إجازاتهم العلمية وما اشتهروا به بين أقوالهم وليس بالضرورة أن يتم إجبارهم على تتبع توزيع منطقي للعلوم المنتشرة في حلق المساجد، على أن تكون الحرية للطلبة في الإختبار والمعاملة بين الشيوخ .

4. إسهام العلماء في حملات الجهاد بالأندلس:

منذ أن رفع المسلمون راية الفتوحات في الأندلس بداية من سنة 92هـ/711م بقادة طارق بن زياد فإن وتيرته لم تنقطع على مدار القرون التي تلت افتتاح الأندلس، وعلى الرغم من أنّ بعض الفترات شهدت تراجعاً بسبب الفتن والصراعات الداخلية بين المسلمين؛ وبخاصة في عهدي الولاة وملوك الطوائف، إلاّ أنّ جذوته اشتعاله أعيد إيقادها مع دخول المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين، وتواصلت مع مجيء الموحدين وإسهامهم في صدّ هجمات النصارى وحماية الثغور في ذروة قوتهم، وقد شارك العلماء كغيرهم من عناصر المجتمع الإسلامي في جميع المعارك والحروب الناشبة بين المسلمين والنصارى.

وتطلعنا المصادر وبخاصة كتب التراجم على دور فعال قامت به فئة العلماء في المعارك الدائرة في الأندلس إلى جانب الجيوش الموحدية، وتكمن إسهاماتهم في منحيين اثنيين:

الأول: حث الناس على الجهاد وتحريضهم على التضحية في سبيل الله دفاعاً عن النفس والعرض والأرض، وقد اتبعوا في ذلك عدة أساليب تمكنهم من إيصال رسائلهم، ومن أشهرها الوعظ والخطب في المساجد والأماكن العامة التي يتجمع الناس فيها عادة.

ويعتبر المحدث والفقيه: أبو القاسم بن حبيش[1] (ت584هـ/1188م) من أشهر العلماء الذين كانوا يحرّضون الناس على ملاقاة أعدائهم، ويعود السبب في شهرته بذلك إلى إقامته في المدن المحاذية للممالك النصرانية إذ كان يتنقل بين بلنسية ومرسية وشاطبة، ومن فرط اهتمامه بأمر الجهاد ألف كتاباً يذكّر الناس فيه بما كان عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) سماه كتاب "المغازي"[2].

ومن صور المشاركات في الجهاد ضد النصارى جمع الأموال لتجهيز الحملات العسكرية أو المساهمة في افتكاك أسرى المسلمين، كالعمل الذي قام به في جامع إشبيلية الأعظم عندما عمد إلى دعوة المسلمين جمع المال لأجل افتكاك أسرى المسلمين، فذكر مترجموه أنه جمع ما لم يتوقعه أحد ممن حضر، حتى أنّ من لم يملك المال أعطاه من فاخر ثيابه التي كان يلبسها.

أما الثاني: فهو المشاركة الفعلية في المعارك ضد النصارى لمن قدر عليه جسدياً ومالياً، وقد أحصى أهل التراجم من مات في المعارك أو فقد أثناءها، ومنهم من لزم الرباط في الثغور، ومنهم المحدث والفقيه محمد بن أحمد الأنصاري الأندلسي[3] (ت574هـ/1178م) الشهير بابن المجاهد الذي كان يهرع إلى جواده كلما دعا الداعي إلى الجهاد، ومنهم محمد بن علي بن المرابط[4] (ت589هـ/1193م) الذي لقب بذلك لكثرة مرابطته في الثغور.

وقد أشار ابن الأبار إلى ثلة من العلماء الذين استشهدوا في وقيعة العِقاب سنة (609هـ/1212م) أو فقدوا أثناءها، ومنهم القاضي محمد بن حسين بن صاحب الصلاة الذي كان يحظ الناس على مواجهة النصارى في هذه المعركة، وكان هو من بين من فقدوا

1- هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف الأنصاري، من أهل المرية، عالم باللغة والفقه والحديث، اشتهر بكثرة طلبته. ابن الأبار- المصدر السابق-ج3- ص ص34-36.
2- المصدر نفسه- ص35.
3- هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري، من أهل إشبيلية، عالم بالفقه والحديث واللغة، وكان كثير الجهاد والغزو. ابن الأبار- المصدر السابق-ج2- ص ص48-49.
4- هو محمد بن علي بن محمد التجيبي من أهل مرسية، من علماء القراءات، عرف بالوعظ والزهد. ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق- ج6- ص 493.

فيها، وأبو عبد الله محمد بن حماد العجلاني من أهل فاس، كان عالما بالحديث والرواية، وكان يحضر مجالس الموحدين لقراءة الحديث، واستشهد في هذه الوقيعة الشهيرة[1].

ومِمن ذكر أيضاً من شهداء هذه المعركة أبو عمر أحمد بن محمد بن عات (ت609هـ/1212م)؛ بحيث أشار تلميذه أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي (ت658هـ/1259م) إلى أن شيخه " لما رأى المسلمين ولو الأدبار، وأباحوا أكتافهم للنصارى استقبل ابن عات العدو بوجهه، ومضى قدماً حتى استشهد"[2].

وعندما حاصر النصارى قصر أبي دانس[3] سنة (ت614هـ/1217م) كان من بين المدافعين عنه المحدث والفقيه أبو بكر محمد بن عبد النور الإشبيلي[4] الذي اشتهر بكثرة غزواته إلى أن استشهد وهو يدافع عن أهله في قصر أبي دانس.

ومنهم أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الحميري، محدث وفقيه وشاعر بليغ، كان خطيب مسجد بلنسية وقاضيها، وكانت الرحلة إليه للأخذ عنه، وله في الحيث عدة مصنفات أتى على ذكرها من ترجم به، منها كتاب "الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء"[5]، وفي مقدمته يظهر مدى الحاجة إلى تذكير الناس بالمغازي في الوقت الذي تكالب النصارى على أراضي المسلمين، وخرج أبو الربيع على رأس كتيبة من علمائها في جيش بلنسية لمواجهة النصارى في "موقعة أنيشة"[6]، وفيها قتل صبرا سنة (ت634هـ/1236م) مع

1- المصدرنفسه- ج8- ص 298.

2- ابن عميرة المخزومي- رسائل بن عميرة المخزومي- تح محمد بن معمر- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1-2012م- ص 187.

3- موضع بغربي الأندلس، وهو حصن كبير، وفيه كانت الوقيعة على المسلمين سنة 614هـ/1217م. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 475.

4- هو محمد بن عبد النور بن أحمد بن محمد السبائي، روى عن خلق كثير، عالم بالقراءات والحديث. ابن عبد الملك المراكشي- المصدر نفسه- ج6- ص ص 411-413.

5- أبو الربيع موسى الكلاعي- الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء- تح مصطفى عبد الواحد- مكتبة الخانجي- القاهرة- ط1- 1968م-ج1- ص 6.

6- موضع بالقرب من بلنسية من أرض الاندلس؛ وهي على جبل معترض عالٍ على البحر بمسالك صعبة. ابن عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص 41.

جماعة من علماء بلنسية وصلحائها، وكان وقع هذه الهزيمة عظيما على الأندلسيين، وقد رثى إبن الأبار من مات فيها بقصيدة طويلة أتى على ذكرها ابن عبد الملك المراكشي[1].

5. المراسلات العلمية بين أعلام بلاد المغرب والأندلس:

من بين وسائل التواصل الاجتماعي والمعرفي التي ربطت بين العدوتين المغربية والأندلسية هي ظهور المكاتبات والمراسلات العلمية التي كانت تتم بين علماء الأندلس ونظرائهم المغاربة، وتشير مجمل كتب التراجم إلى هذا النوع من الرسائل والمكاتبات على اعتبار أنها إحدى طرق التقارب العلمي، وتختلف طبيعة هذه المكاتبات حسب الموضوع و المضمون، وما تم الوقوف عليه منها يمكن تقسيمه إلى:

- رسائل طلب إجازات علمية من الشيوخ.
- رسائل تتضمن أسئلة عن وتوضيحات عن الأعلام قصد تقييد المعلومات عنهم.
- رسائل لطلب فتوى في نوازل معينة.
- رسائل توصية للمتعلمين وأهل المعرفة.

أتثبت مختلف النصوص التي وصلتنا أهمية المكاتبات العلمية التي كانت تتم بين أعلام بلاد المغرب والأندلس، وقد أشار ابن بشكوال (ت578هـ/1182م) إلى ما المراسلات التي كان بعث بها من قرطبة إلى شيخه بسبتة القاضي عياض (544هـ/1149م) فكثيراً ما أورد في صلته "وقد سألت عنه القاضي عياض مكاتبة"[2] في معرض التحري عن سنة وفاة أحد الأعلام المغاربة الغراباء، و" كاتبني القاضي عياض"[3]، و"أبلغني القاضي عياض مكاتبة"[4].

1- المصدر السابق- ج4- ص ص 89- 95.
2- ابن بشكوال- المصدر السابق- ص126.
3- ابن بشكوال- المصدر السابق - ص 245.
4- المصدر نفسه- ص 288.

الظاهر من هذه المراسلات أنّ ابن بشكوال وهو يدوّن معلوماته عن تراجم الأعلام أثناء تصنيفه لكتاب" الصلة"، كانت تقف مجموعة من الإشكالات حول أنساب بعض الأعلام أو تحديد وضبط سنوات وفاتهم، وجميع من كان هذا حالهم كانوا من المغاربة، ولذلك اتجه إلى شيخه حسب تعبيره ليسأل عنهم لمعرفة القاضي عياض بالأنساب وتراجم الرجال.

من بين المراسلات التي حفظت لنا المصادر بعض نصوصها الرسائل والمكاتبات الخاصة بالاستجازة أي طلب الإجازة من الشيوخ؛ وهي التي تعرف بالإجازة العامة، ومنها رسالة أبي زكريا يحي بن علي بن حبوس (ق7هـ/13م) إلى علاّمة تلمسان أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني (ت625هـ/1227م) ومن مقتطف ما جاء فيها قوله: "يرغب إلى الشيخ الفقيه (...) في الإنعام عليه بإجازة ما اشتمل عليه برنامج رواياته"، فأجاب الشيخ بقوله: "أجزت لكم أكرمكم الله جميع ما سألتموه، وأبحت لكم من ذلك ما طلبتموه إجازة عامة على شروطها المعمول بها"[1].

تظهر أهمية الكتب والمراسلات بين الشيوخ وتلامذتهم عند أبي العباس بن العريف[2] (ت536هـ/1141م) في كتابه "مفتاح السعادة"؛ بحيث ضم عددا كبيراً من المراسلات والمكاتبات بينه وبين مريديه الذين عاصروا الفترة الموحدية، ومعظمها ذات استدلالات علمية، والتي كانت تصله بمختلف المعلومات عن مريديه وتلامذته؛ ومنها ما أشار إليه في معرض حديثه عن سفر أحدهم إلى مراكش وإعلامه عن حاله[3].

وحسب ما تم الوقوف عليه فإن هذه المكاتابات كانت تنقل إما عن طريق الرقاص الخاص بنقل الرسائل بين المدن أو نقلها عن طريق المسافرين بين المدن كالتجار، وفي

1- الغبريني- المصدر السابق- ص ص 254- 255، وينظر نص هذه المراسلة بالملحق رقم:06 ص 355.
2- هو أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي الشهير بابن العريف، ةلد بالمرية، وتعلم في مدن وحواضر الأندلس في الفترة المرابطية، واشتهر بالتصوق والزهد في الدنيا، واتبعه في ذلك رهط من المريدين، وهو ما أحنق الفقهاء عليه، وذكر أنه مات مسموماً. ابن الأبار- المصدر السابق- ج1- ص62. وابن الزيات التادلي- المصدر السابق- ص 118.
3- ابن العريف- مفتاح السعادة وتحقيق السعادة- تح عصمت عبد اللطيف دندش- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1- 1993م- ص147.

نص منه يشير إلى كتاب بلغ ابن العريف "ورد إلي كتابك، وعرفت محبتك من حسن الله لديك"[1]، وفيه إشارة إلى من اسم من اوصل له الكتاب.

وفي أخرى"وصل يا أخي كتابك أكرم بكما مع الإجازات والفهارس وسائر ما تضمنه كتابك على أكمل وجوه المرغوب"[2].

وتختلف مدة هذه المراسلات حسب المسافات بين المدن، غير أن مسالك الطرق البحرية مدتها أقل من الطرق البرية، ومثاله فيما كتبه أيضاً ابن العريف قائلاً "كتبته ليلة الخميس عشر من ذي القعدة، وقبله بخمسة أيام ورد كتابك الكريم صحبة أبي بكر بن البنّاء"[3]، وهذا المكتوب كان بين سبتة والمرية حسب السياق الذي ورد فيه.

ومن الرسائل والمكاتبات التي تعود إلى العصر الموحدي المكاتبة بالإجازة، وقد أورد كتاب التراجم منها الكثير من النماذج.

ومن رسائل التوصية ما ورد عن أبي زيد الفازازاي القرطبي من مراسلات بينه وبين أسرة بني عذرة، تدل بعض الرسائل التي تبادلها أبو زيد الفازازي مع أعلام الأندلس على صلة التواصل التي كانت تربطهم، وموضوعها يدور حول وصايا علماء بني عذرة[4] لأبي زيد بأن يهتم بأبنائهم الوافدين على قرطبة ورعايتهم قصد طلب العلم، وفيها إشادة بما كان يقوم به أبو زيد من خدمة للطلبة الوافدين على قرطبة[5].

ومن أشهر المكاتبات العلمية التي عبرت عن جانب مهم من العلاقات بين الأعلام ما يلي:

1- ابن العريف- المصدر السابق- ص192.
2- المصدر نفسه- ص222.
3- ابن العريف- المصدر السابق- ص143.
4- هذه الأسرة من البيوتات العلمية، سكنوا الجزيرة الخضراء- ومن أعلامهم عمر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز الأنصاري- كان فقيها حافظا- راوية للحديث ذا حظ من الشعر- استقضي ببلده و بسبتة- توفي سنة 576هـ/1180م- وابنه عبد الرحمن شاعر وأديب، اشتهر بوضع وصية لأبنائه يحضهم فيها على طلب العلم، توفي في حدود سنة 600هـ/1203م- ابن عبد الملك المراكشي- المصدر السابق - ج5- ص448. وابن الزبير- المصدر السابق- ج3- ص202
5- ينظر أدب الوصية من الآباء للأبناء- ويليه مكاتبات علماء بني عذرة لعبد الرحمن بن يخليفتن القرطبي يوصونه بأبنائهم في طلب العلم- تحقيق محمد بن عزوز- دار ابن حزم – بيروت- ط1- 2003 م- بداية من ص 38.

المرسل	المناطق الجغرافية	المرسل إليه	زمنها	نوع الرسالة
ابن بشكوال(ت578هـ)	من قرطبة إلى سبتة	القاضي عياض	القرن 6هـ	طلب معلومات عن انساب الاعلام وتاريخ وفاتهم
علي بن أبي نصر فاتح(ق7هـ)	من بجاية إلى الأندلس	ابن عميرة المخزومي	القرن 7هـ	طلب إجازة علمية
مغيث بن يونس بن محمد(ت552هـ)	من قرطبة إلى المغرب	عدد من العلماء	القرن 6هـ	طلب إجازة علمية
أبو عبد الله محمد بن عبد الحق (ت625هـ)	من تلمسان إلى الأندلس	ابن حبوس	القرن 7هـ	طلب إجازة علمية
ابن فرتون الفاسي (ت666هـ)	من فاس إلى سبتة وقرطبة	ابن الزبير في صلة الصلة	القرن 7هـ	إعلام بسنوات وفات بعض الأعلام
ابن عصفور العبدري(ت669هـ)	من إشبيلية إلى تلمسان	عدد من العلماء	القرن 6هـ	اسئلة نحوية واخرى علمية

6. انتشار بيوتات العلم في بلاد المغرب والأندلس:

كثيراً ما اهتم كتاب التراجم في الأندلس بالتنبيه إلى صلات القرابة التي كانت تربط الأعلام المترجم بهم، وهو ما سهّل على الدارسين عملية تجميع شجرة البيوتات الأندلسية، وأوضح أهمية مشاركتها في الجوانب السياسية والفكرية، وأهل التراجم كانوا يردفون– في الغالب- عمن كان هذا حالهم من الأعلام عبارة "إنه من ذوي البيوت العلمية"، وما قارب هذا المعنى في إشارة منهم إلى دور الأسرة العلمية في حياة المتعلم، ولم يقتصر إسهام البيوتات العلمية على بلاد الأندلس فحسب وإنما امتدّ إلى بلاد المغرب بعد انتقال من تعاقب من أفرادها إليها، وكانت لصفة الحسب وعراقته مكانتها لدى أهل السياسة والسلطان؛ وهو ما تظهره نماذج البيوتات المتنقلة بين العدوتين، ويتم الاقتصار في ذكر من يتوافق تاريخ وفاتهم مع العصر الموحدي دون ذكر من سبق الفترة من أصولهم أو من تعاقب بعدها من فروعهم.

الخاتمة

يكاد يجمع السواد الأعظم من الباحثين- على اختلاف أجناسهم ومدارسهم الفكرية- عن دور الحضارة الإسلامية الغنية بقيمها الروحية ومظاهرها المادية في تطوير مناهج البحث والرفع من مستويات التفكير لقرون من الزمن خدمة للحضارة الإنسانية، وبعيداً تماماً عن ضروب التهويل والتخويف التي تتخندق خلفها بعض الأبواق المشككة في الإنتاجات المعرفية للمسلمين؛ بل وفي الإسلام ذاته، هذه الحضارة التي ارتكزت في انطلاقها على المعاني السامية لوجوب نفاذ أمر الظاهرة العلمية المختزلة في الفعل "إقرأ"، ومن الملاحظ أنّها لازالت تثير اهتمام من تعلّق بموروثها المصدري المخطوط من حيث التنقيب عنه والكشف عن قيمته العلمية في إعلان عن استمرارية عطائها المتجدد، وقد وقع الاختيار على حلقة من تاريخها الطويل تبحث في تاريخ العلوم واتصالها بين الشعوب بمعالم زمنية ومجالية محددة سميتها **"الروابط العلمية بين بلاد المغرب والأندلس على عهد الموحدين (541-626هـ/1146-1228م)"** ضمن مقاربة تاريخية الهدف منها الكشف عن سبل ومظاهر التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، وفي اعتماد المؤرخين والجغرافيين لمصطلح "العدوتين" أكثر من دلالة تعبيرية على القرب وسهولة الرحلة بالرغم من التباين التاريخي والجغرافي والاجتماعي بين الصُقعين.

ومن دواعي اختياري لهذا الموضوع:

- اهتمامي بتاريخ المغرب الإسلامي وحضارته عامة، وتعلقي بتتبع مختلف العلوم والفنون و حركيتها عبر التاريخ.
- محاولة الوقوف على أبرز جوانب الإسهامات الحضارية والعلمية للمغاربة والأندلسيين ضمن مقاربة الروابط العلمية ومعرفة مدى نجاعتها، وإعادة ترتيب مختلف المعطيات والنصوص التاريخية لاستنباط آراء ومفاهيم أقرب لفحوى هذه الوثائق المصدرية بعيداً عن التأويل وتحميل النص ما ليس فيه.
- محاولة رصد آراء المؤرخين والباحثين عن الوتيرة التنافسية الحاصلة بين العدوتين، وتدافعها الحضاري، ومدى تأثرها بالتحولات السياسية والاجتماعية في ظل الهيمنة الموحدية على مشاهدها التنظيمية ذات الأبعاد العقدية والمذهبية.

تفرض طبيعة الموضوعات ذات المسالك المتداخلة الاستفهام عن التأثيرات السياسية للسلطة الموحدية في مشهد الحياة العلمية، وكيفية تفاعل المصادر والموارد المرافقة لهذه الحقبة الزمنية أو القريبة منها مع ما اشتهر من العلوم في المرحلة الوسيطية والطبائع المصاحبة لمنتحلها من حيث الإثبات والنفي أو الإقبال والنّفور ومبرراتهما ؟ ويتفرع عن محورها محاولة الإجابة عن مدى تأثر هذه المعارف بتداعيات الأنماط الاجتماعية والتاريخية التي عرفتها المنطقة؟ وما أبرز تأثيراتها في ذهنية العالم والمتعلم وفرص تواصلهما من عدمه بين بلاد المغرب والأندلس سواء لمن اهتم بالنقليات أو العقليات منها ؟ وهل ثمة ما يفيد في معرفة دوافع ظهورها وانتشارها أو معوقات انحسارها وأفولها؟

ومن هنا تتضح أهداف الموضوع في إمكانية التعرف على تأثير الأبعاد السياسية والاجتماعية بظهور الحكام المغاربة في إدارة الدولة المشرفة على الشؤون العامة للسكان، وربطه بالأبعاد و الاعتبارات المعرفية للعناصر المعنية بالدراسة ممثلة في نخبة المجتمع وأعيانه، وتتبع ذكر أعلام العلماء في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتب التراجم ومحاولة تحديد فوارق المجال الجغرافي بين الأندلسيين والمغاربة، ثم مقارنتها بعهودهم السابقة عن الفترة المدروسة.

نظراً إلى طبيعة الموضوع المركبة وتعدد مسالك أبعادها السياسية والعلمية آثرت الاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي في تتبع الأطوار التاريخية التي مرّت بها حركة التواصل المعرفي بين العدوتين المغربية والأندلسية، ودعمه بالمنهج الإحصائي الكمي لأجل سبر غور إسهام الأعلام ومعرفة أسمائهم ومراتبهم العلمية ومواطن استقرارهم؛ وهو ما حتم إدراجهم ضمن جداول إحصائية جمعت بين التحقيب الزمني والمجال الجغرافي للأعلام المترجم بهم، مع الوقوف على إنتاجهم العلمي وإسهامهم الحضاري، والغاية من ذلك هو الاطلاع على مدى فعالية مبادراتهم الفردية والجماعية في انتقال العلوم ونشرها بين ضفتي المتوسط، ورصد دور السلطة الموحدية في الأحداث التي رافقت الظاهرة العلمية ذات الشهرة الواسعة بالمجتمعات الإسلامية في الحقبة الوسيطية على اختلاف تجلياتها ومشارب روادها.

تعددت الأبحاث التي رصدت مختلف مناحي الحياة السياسية والعلمية في بلاد المغرب والأندلس في عصر الدولة الموحدية؛ غير أنّ ما وقع بين أيدينا منها لا يكاد يظهر بالشكل والمضمون اللذين ظهر بهما الصُقع الأندلسي وأهله لاسيما حركة تنقل العلماء- في شمول استغراق هذا الجمع لأهل العلم ومن انتسب إليهم- من أهل العدوتين ضمن هذا المجال الجغرافي، وما من تفسير واقعي ومقنع لاهتمام جمهرة من الباحثين المحدثين بالأندلس إلى درجة الانبهار ومنذ ثلاثينيات القرن الماضي إلاّ لأنهم أحيطوا بزخم تراثي مشبع ومتنوع بعطائه العلمي والحضاري المستفاد من رسوخ أقدام المسلمين فيها زهاء الثمانية قرون.

الظاهر من هذا التفوق الأندلسي - منذ العهد الأموي- وما قابله من تأخر في بلوغ بلاد المغرب وأهلها للمستوى المادي والحضاري الذي عرفته الأندلس بالرغم من ظهور بوادر المنافسة والمجاراة إلاّ أنّ هذا انعكس على معظم الدراسات التي انساقت ورواء الموضوعات ذات المواد المصدرية الوافرة، وابتعدت عن نظيرتها التي تشهد شحا في المعلومات وندرتها في أحايين كثيرة، غير أنّ هذا لم يمنع من ظهور بعض الأبحاث العلمية والأطروحات الأكاديمية التي رصد أصحابها أوضاع الحياة العلمية بمختلف تجلياتها بين العدوتين الأندلسية والمغربية في العصر الموحدي؛ ومنها: ما قدمه محمد المنوني في كتابه "حضارة الموحدين" بحيث عدّد أنواع العلوم والفنون التي انتشرت في عهد الدولة الموحدية، وبيّن دور خلفائها في تشجيع عامة الناس على تعاطيها والاشتغال بها إلاّ أنه أولى اهتماما واضحاً لقطر المغرب الأقصى فلم تنل بقية المدن والحواضر في بلاد المغرب إلاّ النزر القليل، وسار على هذا النهج مواطنه علي عبد الله علام في بحثه "الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي".

وفي عمل أكاديمي قدم الباحث يوسف العريني دراسة عن "الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين"، وفيها إحاطة بالموضوع من خلال ما رصده من مصادر تاريخية وتراجمية أثرت دراسته؛ بيد أنه أفرغ جهده في تتبع إسهامات الأندلسيين وأخبارهم، ولم يحظ غيرهم من المغاربة؛ وبخاصة من دخل منهم إلى الأندلس بنصيب وافر من الترجمة والتنويه، وأكثر من ذلك أنه تجنب الخوض في الجوانب السياسية والعقدية لدى الموحدين فلم تظهر صورة علاقتهم بالحركة العلمية التي عرفتها المنطقة في عهدهم.

من بين الدراسات التي فتحت المجال للنقاش حول أبعاد تأثير الاختلافات المذهبية والعقدية للموحدين في حياة أهل المعارف بين بلاد المغرب والأندلس ظهرت دراسة الباحث محمد المغراوي في رسالته للدكتوراه والموسومة بـ"العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين"، ولكن اقتصاره على طبقة المتصوفة ينسجم مع ما تمّ إقراره آنفاً من شح المادة العلمية المتعلقة ببلاد المغرب خلافاً للمتصوفة الذين تعددت مصادر تراجمهم لا سميا في القرنيين السادس والسابع الهجريين، وذاك كان مسعى الباحث وغايته من خلال وقوفه على معلومات أثرى بها دراسته، ولكن ما يلاحظ على هذه الدراسة أنّ صاحبها غلّب الجانب التصوفي على غيره حتى عند الأعلام الذين ورد التصوف في حياتهم عرضاً وليسوا متصوفة بالأساس، إضافة إلى أنّ مصطلح "المغرب" الوارد في عنوان الأطروحة محدود المعالم الجغرافية بما لا يتوافق مع الحدود السياسية للدولة الموحدية في أقصى اتساعها.

ولهذا الغرض حاولت الاطلاع قدر الاستطاعة على ما وقع بين يدي من مصادر ومراجع لإثراء موضوع البحث وتنويع موارده المطبوع منها والمخطوط، واقتناء العديد منها، والاستفادة من آراء من سبقني من الباحثين الذين اهتموا بالأبحاث ذات الصلة بموضوع الأطروحة؛ ولأجل ذلك لم أكتف بما حصلت عليه في جامعة وهران فقمت بزيارة جامعة الجزائر العاصمة وكبرى مكتباتها، وجامعتي منتوري والأمير عبد القادر بقسنطينة، كما سافرت إلى جامعة تونس واطلعت على أبرز الأطروحات العلمية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وما احتوت عليه مكتبتها، وتجولت بين بعض جامعات المملكة المغربية وعدد من مراكز البحث وخزائن المخطوطات بها.

قسّمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول وقسم خاص بالملاحق، وقدمت لها بمقدمة استهلالية وفصل تمهيدي ورد فيه عرض توضيحي للمعالم الاختيارية المركبة في عنوان الأطروحة بغرض استجلاء أبعاده الزمنية والمجالية، وبسط القول في إشكالية الاختلافات المنهجية الظاهرة عند المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين، وتقديم مبررات التوصيف الإصطلاحي لعبارة "الروابط العلمية" عند مؤرخي العلوم، وأهمية المرافقة الإحصائية للنصوص التاريخية في استنباط الآراء واستخلاص النتائج.

وأما الفصل الأول فكان عن الأوضاع السياسية وتأثيرها في الحياة العلمية بالعصر الموحدي بداية بالمرحلة التي أعقبت سقوط مدينة مراكش، وإعلان نهاية الدولة المرابطية، وكيفية تعامل الموحدين مع ما شهدته الأندلس من اضطرابات، ومعرفة تأثيرها في حياة الأندلسيين؛ وبخاصة طبقة العلماء، ثمّ تتبع أبرز الأعمال التي قام بها الموحدون بعد جوازهم إلى الأندلس سواء تعلق الأمر بالجوانب السياسية والأمنية أو الحياة العلمية لتكاملهما في تحقيق غاية التواصل والاستقرار مع عرض لأهم نتائج إسهاماتهم في المجال العلمي.

وأما الفصل الثاني فتم فيه رصد أبرز الأعلام الذين أسهموا في تولي الخطط الدينية والإدارية في الدولة الموحدية سواء كانوا من الأندلسيين أو المغاربة، وتقديم ما يبرر كثرة تواجدهم في بلاد المغرب مقارنة بالعهود السابقة، وتتبع أهمية ظهورهم على رأس الهياكل التنظيمية للدولة، و مدى تأثير مكانتهم في المجتمع، ومبلغ استفادة الموحدين من هذا الدور في ترسيخ سلطتهم بالعدوتين المغربية والأندلسية، والتعرض للخصائص التي ميّزت الإدارة الموحدية خلال الفترة التي أدار فيها خلفاء الدولة وولاتها جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والحضارية.

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن أشهر العلوم النقلية التي تم تداولها في المراكز التعليمية، ومعرفة عوامل انتشارها وتحليلها عند مقارنتها ورصد أبرز أعلامها، والهدف من ذلك هو الاطلاع على مدى تأثير الظروف المحيطة بحياة العلماء في دعم أواصر التواصل المعرفي بين المغرب والأندلس، والتطرق إلى مظاهره والعوامل المحفزة على انتشار العلوم، ودوافع طبقة العلماء في اختيار مناطق استيطانهم، والتعرف على علاقتهم بالسلطة الحاكمة، وما تخلل ذلك من مناقشات لآراء الباحثين حول جملة من الأطروحات والنظريات التي ظهرت في أبحاثهم عن تاريخ العلوم في العصر الموحدي.

أما الفصل الرابع فورد فيه التأريخ للعلوم العقلية ومحاولة تقصي أبرز معالمها، والترجمة لأشهر المشتغلين بها مع التطرق إلى إشكالية النفور من بعض فنونها؛ وهي الظاهرة التي عرفتها العصور الإسلامية في مرحلتها الوسيطية، ومناقشة آراء الباحثين حول بعض موضوعاتها ذات الصلة بالانتشار والانحسار، وتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف،

والغاية من ذلك هو محاولة الكشف عن موقف السلطة والمجتمع ممن جاهر بالخوض في فنونها، ومدى انتشارها بين الأندلس وبلاد المغرب في ظل ما اشتهر تاريخياً عن من انتحلها علماً، وتتبع مواطن استقرار روادها وأهم تنقلاتهم بين الضفتين.

فهارس عامة

- **فـهرس الآيـات القرآنيـة**

- فهرس الأحاديث النبوية
- فـهرس الأعـــلام
- فهرس القوافي الشعرية
- فهرس الأماكن الجغرافية
- قائمة المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات.

- فـهرس الآيـات القرآنيـة:

الآيــة السـورة رقمها

/ص

● **فهرس الأحاديث النبوية:**

الحديث **مصدره** **/**

ص

(مَا حَقُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهً شَيْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِي فِيهِ)	صحيح مسلم	137
(إنّ هَذَا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُف فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ)	صحيح البخاري	179

فهارس عامة

- فـهرس الآيـات القرآنيـة
- فهرس الأحاديث النبوية
- فـهرس الأعـــلام
- فهرس القوافي الشعرية
- فهرس الأماكن الجغرافية
- قائمة المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات.

- **فـهرس الآيـات القرآنيـة:**

● فهرس الأحاديث النبوية:

الحديث	مصدره	ص /
(مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِي فِيهِ)	صحيح مسلم	137
(إنّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُف فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ)	صحيح البخاري	179

فـهرس الأعــــلام:

الألف

الباء

التاء

الجيم

الحاء

الخاء

الراء

الزاي

السين

الشين

العين

الطاء

الغين

الفاء

القاف

الميم

النون

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر

- **القرآن الكريم:** برواية ورش عن نافع.

أ. المصادر المخطوطة:

1. مخطوط لنسخة تامة وفريدة **للقرآن الكريم** تعود إلى العصر الموحدي، منسوخة بتاريخ 624هـ/1226م بمدينة إشبيلية (منقولة عن متحف بلنسية عبر موقع مجلس الألوكة).
2. ابن تومرت، **موطأ ابن تومرت**، مخطوط رقم 840ج، الخزانة العامة، الرباط.
3. **الترغيب في الصلاة**، كتاب ألف بطلب من المنصور الموحدي، مخطوط رقم 4478، الخزانة الحسنية، الرباط.
4. الجلدكي، علي بن محمد، (كان بقيد الحياة سنة 742هـ/1341م)، مخطوط **التقريب في أسرار التركيب**، نسخة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم التصنيف: 540/ت.ج.
5. ــــــــ، مخطوط **غاية السرور في شرح ديوان الشذور**، نسخة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات رقم التصنيف: 540/غ.ج.
6. ــــــــ، مخطوط **نهاية الطلب في شرح المكتسب** - نسخة جامعة الملك سعود- قسم المخطوطات رقم التصنيف: 540/ ن.ج.
7. الحسن، أبو علي المراكشي (من أهل القرن7هـ/13م)، **جامع المبادئ والغايات في علم الميقات**، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية صورة منه بإشراف فؤاد سيزكين، 1984م، ج1.
8. ابن حيون، محمد بن علي الصقلي الأندلسي، **كتاب الجمان في أخبار الزمان**، مخطوط رقم 2614، المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، الجزائر.
9. ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الفاسي (ت628هـ/1230م)، **فضل عاشوراء**، مخطوط خزانة ابن يوسف بمراكش، رقم 5/168.

10. القلصادي البسطي، أبو الحسن الأندلسي (ت891هـ/1486م) **كشف الأستار عن علم حروف الغبار**، مخطوط مايكرو فيلم بالمكتية البريطانية- لندن- قسم المجموعات الشرقية، رقم: ADD 9626.

11. أبو عمران، موسى بن عبيد الله القرطبي (ت601هـ/1204م)، **الرسالة الفاضلية في الطب**، معهد المخطوطات العربية، رقم 5115.

12. ابن النّقرات، والمعروف بابن إرفع رأس، أبو الحسن علي بن موسى الأنصاري الأندلسي (كان بقيد الحياة سنة 593هـ/1196م)، **شذور الذهب والجامع لمعاني الحكم والأدب في الصنعة الإلهية**، نسخة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم التصنيف: 540/ش.أ.

13. ابن هارون، أبو عبد الله محمد الكناني التونسي (ت750هـ/1349م)، **اختصار النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام**، نسخة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم التصنيف: 216.6/أ.م.

14. الندرومي، أبو عبد الله محمد بن سحنون التلمساني (من معاصري الدولة الموحدية بين ق6-7هـ/ 12-13م)، **رسالة في خواص الحروف**، مخطوطة بخزانة الماجد للتراث فهرس مخطوطات علم الفلك برقم: 227971.

ب. المصادر المطبوعة:

15. ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت658هـ/1260م)، **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، (د ط)، 1995م.

16. ــــــــــ، **الحلة والسيراء**، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م.

17. ــــــــــ، **تحفة القادم**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986م.

18. ــــــــــ، **معجم أصحاب أبي علي الصدفي**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ودار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1989م.

19. ـــــــــــ، **إعتاب الكتاب**، تحقيق صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، (د ط)، 1961م.

20. ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد ابن القاسم السعدي الخزرجى موفق الدين، (ت668هـ/1269م) **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق عامر النجار- دار المعارف، القاهرة، ط1، 1996م.

21. ابن الأجدابي الطرابلسي، أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل (من أهل القرن 6-7هـ/12-13م)، **الأزمنة والأنواء**، تحقيق عزة حسن، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط2، 2006م.

22. ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأمير (ت807هـ/1405م)، **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.

23. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (القرن6هـ/12م)، **أنس المنهج وروض الفرج**، تحقيق الوافي نوحي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط1، 2007م.

24. ـــــــــــ، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994م.

25. ابن الإمام التونسي (ت824هـ/1421م)، **رسالة الجمانة في إزالة الرطانة بحث في لغة التخاطب في الأندلس وتونس**، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، دار المقتبس، بيروت، ط1، 2014م.

26. البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2002م.

27. ابن بسام، أبو علي الشنتريني (ت542هـ/1148م) ، **الذخيرة في محاسن الجزيرة**، تحقيق سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، ج1.

28. البرزلي، أبو القاسم البلوي التونسي (ت841هـ/1438م)، **فتاوى البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2002م، ج6.

29. ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت578هـ/1183م)، **الصلة في تاريخ علماء الأندلس،** اعتنى به ووضع فهارسه صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط1، 2003م.
30. البلوي، أبو جعفر البلوي الوادي آشي (ت938هـ/1532م)، **ثبت أبي جعفر البلوي،** تح عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1983م.
31. ابن البنّاء المراكشي، **المقالات في علم الحساب،** تحقيق أحمد سليم سعيدان- دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1984م.
32. البونسي، أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن (ت651هـ/1253م) **كنز الكتاب ومنتخب الآداب،** تحقيق حياة قارة، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 2004م.
33. البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (من أهل القرن 6هـ/12م)، **كتاب أخبار المهدي بن تومرت،** تحقيق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط1، 1975م.
34. ـــــــــــ، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب،** تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971م.
35. ابن البيطار، أبو محمد عبد الله المالقي (ت646هـ/1248م)، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية،** دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م.
36. الترمذي **- سنن الترمذي-** تخريج صدقي جميل العطار- دار الفكر- بيروت- ط1- 2005م.
37. التنبكتي، أحمد بابا (1036هـ/1626م)، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج،** تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004م.
38. ابن تومرت، محمد بن عبد الله الهرغي (ت 524هـ/1129م)، **أعزّ ما يطلب،** تحقيق عمار طالبي، طبعة وزارة الثقافة الجزائرية، (د ط)، الجزائر، 2007م.
39. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت429هـ/1038م)، **فقه اللغة وسر العربية،** تحقيق خالد فهمي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1998م.

40. الجراوي، أبو العباس أحمد بن عبد السلام (ت609هـ/1212م)، **ديوان الجراوي**، تحقيق علي إبراهيم الكردي، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 1994م.
41. ـــــــــــ، **المستدرك على شعر أبي العباس الجراوي مستخرج من مخطوط الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة في صلة المطمح والذخيرة لابن الفخار الرعيني** (ت666هـ)، تحقيق البشير التهامي ورشيد كناني، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب ط1 2005م.
42. الجرجاني، علي بن محمد (ت816هـ/1413م) ، **التعريفات**، دار القلم، بيروت، ط1، 1984م.
43. ابن الجزري، *أبو الخير شمس الدين محمد* (ت833هـ/1429م)، **منجد المقرئين ومرشد الطالبين**، اعتنى به علي بن محمد العمران- دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط1، 1419هـ/1998م.
44. ـــــــــــ، **غاية النهاية في طبقات القراء**، تحقيق برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006م، ج2.
45. الجزنائي، أبو الحسن علي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط ،1991م.
46. الجزولي، أبو موسى عيسى بن عبد العزيز المراكشي (ت607هـ/1210م.)، **المقدمة الجزولية في النحو**، تحقيق شعبان عبد الوهاب محمد، مطبعة أم القرى، مصر، 1988م.
47. ابن جلجل، أبو داوود سليمان بن حسان الأندلسي (من أهل القرن 4هـ/10م)، **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق فؤاد سّيد، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة،2005م.
48. الجلدكي، علي بن محمد بن أيدمر (كان بقيد الحياة سنة 742هـ/1341م)، **المصباح في علم المفتاح**، طبعة حجرية قديمة طبعت بالقاهرة سنة 1302هـ/1884م.

49. أبو حامد، محمد بن عبد الرحمن بن ربيع القيسي الغرناطي (ت565هـ/1169م)، **تحفة الألباب و نخبة الإعجاب،** تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.
50. الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت393هـ/1002م)، **الصحاح تاج اللغة و صحاح العربية،** تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990م.
51. ابن حبيب، أبو مروان عبد الملك بن سليمان السلمي (ت238هـ/852م)، **رسالة إلى معلم ولده،** نشرها وعلق عليها سعيد أعراب، مجلة الثقافة المغربية، العدد 07، 1972م.
52. ـــــــــ، **الأحكام،** تحقيق أحمد بن عبد الكريم نجيب، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 2014 م.
53. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (456هـ/1064م)، **جمهرة أنساب العرب،** تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، 1962م.
54. ـــــــــ، **رسائل ابن حزم الأندلسي،** تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987م.
55. ـــــــــ، **طوق الحمامة في الألفة والألاف،** تحقيق إحسان عباس، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ط1، 1992م.
56. الحسن الوزان، ابن محمد الفاسي (من أهل القرن 10هـ/16م)، **وصف إفريقيا،** تحقيق محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ج1.
57. الحصري، أبو الحسن علي (ت488هـ/1095م) ، **الحصرية في قراءة نافع،** تحقيق توفيق أحمد العبقري، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، ط1، 2002م.
58. الحميدي، أبو عبد الله محمد الأزدي (488هـ/1095م)، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس،** تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997
59. ابن عميرة، أبو المطرف أحمد بن عبد الله المخزومي (ت658هـ/1260م)، **تاريخ ميورقة،** دراسة وتحقيق محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م.

60. ـــــــــــ، **رسائل بن عميرة المخزومي**، تحقيق محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2012م.
61. ابن العوام، أبو زكريا يحي بن محمد الإشبيلي (ت580هـ/1184م)، **الفلاحة الأندلسية**، تحقيق أنور أبو سويلم وسمير الدروبي وعلي أرشيد محاسنة، منشورات مجمع اللغة العربية، الأردن، ط1، 2012م.
62. عياض، أبو الفضل بن موسى القاضي اليحصبي السبتي (ت544هـ/1149م)، وولده محمد (ت576هـ/1180م)، **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**، تحقيق محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1997م.
63. ابن غالب الغرناطي، محمد بن أيوب (من أهل القرن6هـ/12م) **قطعة من كتابه فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس**، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، نوفمبر1955م، ج2.
64. الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله، (ت714هـ/1314م)، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979م.
65. الغزالي، أبو حامد محمد الطوسي (ت505هـ/1111م)، **المستصفى في علم أصول الفقه**، تحقيق محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1997م، ج1.
66. بن غلبون، أبو الحسن طاهر بن عبد المنعم (ت399هـ/1008م) ، **التذكرة في القراءات الثمان**، تحقيق أيمن رشدي سويد، مطبعة راسم للدعاية والإعلان، جدة، ط1،1991م.
67. ابن فرحون، أبوإسحاق إبراهين بن نور الدين بن علي (ت799هـ/1396م)، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق مأمون بن محي الدين جنّان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1969م.
68. ـــــــــــ، **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**- تعليق جمال مرعشلي، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 2003م، ج1.

69. ابن الفرضي، أبو الوليد أبو عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي القرطبي (ت403هـ/1012م)، **تأريخ علماء الأندلس**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2008م.
70. ابن فضل الله العمري، أبو العباس أحمد بن يحي شهاب الدين، من أهل مصر (ت749هـ/1348م)، **وصف إفريقية والمغرب والأندلس**، تحقيق حسن حسني، تونس، 1969م.
71. ـــــــــــ، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى هزايمة، و يوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، 2001م، ط1، ج4.
72. الفازازي، أبو زيد عبد الرحمان بن أبي سعيد يخلفتن (ت627هـ/1229م)، **آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي**، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار قتيبة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1994م.
73. ابن القاسم محمد الأنصاري السبتي (كان بقيد الحياة سنة 825هـ/1421م)، **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، (د ن)، الرباط، ط1، 1983م.
74. ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت960هـ/1552م)، **جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والعراقة، الرباط، 1973م.
75. ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الفاسي (ت628هـ/1230م)، **إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر**، تحقيق إدريس الصمدي وفاروق حمادة، دار القلم، دمشق، ط1، 2012م.
76. ـــــــــــ، **الإقناع في مسائل الإجماع**، تحقيق حسن بن فوزي الصعيدي، الفاروق للطباعة والنشر- القاهرة- ط1- 2003م.

77. ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد الكتامي المراكشي (كان حيا سنة 646هـ/1248م)، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م.
78. القلقشندي، أبو العباس أحمد الفزاري (ت821هـ/1418م)، **صبح الأعشى**، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د ط)، 1922م-ج1.
79. ابن القنفذ، أبو العباس أحمد بن حسين بن علي القسنطيني (ت809هـ/1406م)، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية، تونس، 1968م.
80. ـــــــــ، **مبادئ السالكين في شرح رجز ابن الياسمين**، تحقيق يوسف قرقور، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز الماجد، دبي، العدد 67، أكتوبر 2009م.
81. كتاب الدولة الموحدية، **رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، جمع وتحقيق ليفي بروفنسال، معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، 1941م.
82. كتاب الدولة الموحدية، **رسائل موحدية**، دراسة وتحقيق أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب، ط1، 1995م.
83. ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك التوزري (كان حيا أواخر القرن 6هـ/ 12م)، **تاريخ الأندلس**، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م.
84. الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي (من أهل القرن6هـ/12م)، **إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والمغرب**، تحقيق محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1985م.
85. اللبلي، أبو جعفر الأندلسي (ت691هـ/1291م)، **برنامج أبي جعفر اللبلي الأندلسي**، تحقيق محمد بوزيان بنعلي، مطبعة إسبارطيل، طنجة، ط1، 2011م.
86. الماجري، أبو علي الحسن بن علي بن حسون (كان حياً سنة592هـ/1195م)، **أسهل الطرق إلى فهم المنطق**، تحقيق محمد ن شريفة، مجلة المناظرة، العدد2، السنة الأولى، 1989م.

87. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت450هـ/1058م)، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق أحمد مبارك البغدادي- مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، ط1، 1989م.
88. المجريطي أبو القاسم مسلمة بن أحمد (ت397هـ/1007م) ، **غاية الحكيم في الأرصاد الفلكية**، مكتبة إشاعة الإسلام، طبعة هندية قديمة، (د ط)، (د ت).
89. مجهول، (من أهل القرن 6هـ/12م)، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (دت).
90. مجهول، (من أهل القرن 7هـ/13م)، **أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة أو الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، تحقيق عبد الغني أبو العزم- منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات- مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء- ط1- 2009م.
91. مجهول، **السياسة والحيلة عند العرب رقائق الحلل في دقائق الحّيل**، تحقيق رينيه خوام، ترجمة نازك سابا بارد، دار الساقي للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 1994م.
92. مجهول، (كان بقيد الحياة في القرن 8هـ/14م)، **تاريخ الأندلس**، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م.
93. ابن مريم المليتي المديوني التلمساني، (كان حياً سنة 1025هـ/1616م)، **البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان**، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2014م.
94. مسلم، بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم**، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2006م.
95. ابن مغاور، أبو بكر عبد الرحمن بن محمد السلّمي الشاطبي (ت587هـ/ 1191م)، **ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره**، دراسة وتحقيق محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1، 1994م.
96. المقدسي، أبو عبد الله شمس الدين (ت380هـ/990م)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، نشر دي خويه، مطبعة بريل، ليدن، (دط)، 1906م.

97. المقري، أبو العباس أحمد بن محمد شهاب الدين التلمساني (ت1041هـ/ 1631م)، **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض،** ضبط وتحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، المغرب (دت).
98. ـــــــــــ، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب،** تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د ط)، 1988م.
99. المكلاتي، أبو الحجاج يوسف بن محمد (ت626هـ/1228م)، **لباب العقول في الرّد على الفلاسفة في علم الأصول،** تحقيق فوزية حسين محمود، دار الأنصار، القاهرة، ط1977،1م.
100. الملزوزي، أبو فارس عبد العزيز (ت697هـ/1297م)، **نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء و الملوك،** تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط1، 1963م.
101. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي جمال الدين (ت711هـ/ 1311م)، **لسان العرب،** دار صادر، بيروت، 1997م.
102. ابن المواق، أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت642هـ/1244م)، **بغية النقاد النقلة فيما أخلّ به كتاب "البيان" وأغفله أو ألمّ به فما تمّمه ولا كمّله** ، تحقيق محمود خرشافي، قسم الدراسة، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط1، 2004م.
103. بنو موسى، **كتاب الحيل** لبني موسى (أسرة عاش أفرادها بين القرنين 2-3هـ/8-9م)، منشورات جامعة حلب، ط1، 1981م.
104. النّباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي (من أهل القرن 8هـ/ 14م)، **تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا،** تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م.
105. النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق النَّديم (من أهل القرن 4هـ/10م)، **كتاب الفهرست،** تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ط1، 2009م.

106. النّويري، أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد البكري (ت732هـ/ 1331م)، **تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب،** تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1984م.
107. ابن وصول، أحمد بن خلف الطليطلي (من أهل القرن4هـ/10م)، **كتاب منتخب الأحكام وبيان ما عُمل به من سيّر الحُكام،** تحقيق حميد لحمر، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2008م.
108. الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي التلمساني (ت914هـ/1508م)، **المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق،** تحقيق عبد الرحمن بن محمود بن عبد الرحمن الأطرم، دار البحوث للدراسات الإسلامية، دبي، ط1، 2005م، ج1.
109. ابن الياسمين، أبو عبد الله محمد بن حجاج الفاسي **(**ت601هـ/1204م)، **الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة،** نسخة رقمية مأخودة من كتاب منظومات ابن الياسمين في أعمال الجبر والحساب، تحقيق جلال شوقي، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي والترجمة والنشر، مطابع القيس التجارية، الكويت، ط1، 1988م.
110. اليعقوبي، أبو العباس أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت284هـ/897م)، **كتاب البلدان،** دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1988م.
111. اليوسي، الحسن بن مسعود (ت1102هـ/1690م) ، **القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم،** تحقيق حميد حماني، مطبعة شالة، الرباط ، ط1، 1998م.
112. ــــــــــــــــ، **المحاضرات في الأدب واللغة،** تحقيق محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2006م.

ثانيا المراجع العربية و المعربّة:

113. أبلاغ محمد، **طبيعة الفكر الرياضي الذي طوره الرياضيون المغاربة،** بحث ضمن كتاب مشترك بعنوان **العلوم في المجتمعات الإسلامية، مقاربات تاريخية وآفاق**

مستقبلية، تحت إشراف محمد أبطوي، طبعة مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، المغرب، ط1، 2007م.

114. إدريس الهادي روجي، **الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن10 إلى 12م**، ترجمه إلى العربية حمادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م، ج1.

115. إغناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، تر صلاح الدين عثمان هاشم، طبعة جامعة الدول العربية، القاهرة، (د ط)، 1957م.

116. الأوسي، حكمة علي، **الأدب الأندلسي في عصر الموحدين**، مكتبة الخانجي، القاهرة، (دت).

117. بالنثيا أنخل جنثالث، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008م.

118. البختي جمال علال، **الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع الهجري**، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط1، 2003م.

119. بروفنسال ليفي، **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د ط)، (د ت).

120. ـــــــــــــ، **مؤرخو الشرفاء**، تعريب عبد القادر الخلادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ، (د ط)،1977م.

121. البعلبكي منير- **معجم أعلام المورد**، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1992م.

122. بن منصور عبد الوهاب، **قبائل المغرب**، المطبعة الملكية، الرباط، 1968م.

123. بلعربي خالد، **تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الزيانية (55-633هـ/675-1235 م)**، الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط1، 2011م.

124. بلغيث محمد الأمين، **دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسة إلى مدينة العلم**، دار الوعي، الجزائر، ط1، 12009م.

125. بنبين أحمد شوقي، **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، تر مصطفى طوبي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1، 2003م.

126. بوتشيش إبراهيم القادري، **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي،** دار الطليعة، بيروت، ط1، 2006م.

127. ــــــــــــــ، **مقالات في تاريخ الغرب الإسلامي خلال عصري المرابطين والموحدين،** مطبعة سجلماسة، المغرب، ط1، 2007م.

128. بوروبية رشيد، **ابن تومرت،** ترجمة عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

129. بوعياد محمود، **الرحلة العجيبة لنسخة من مصحف الخليفة عثمان في أرجاء المغرب والأندلس،** موفم للنشر، الجزائر، ط1، 2007م.

130. بولقطيب الحسين ، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين،** منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1، 2002م.

131. بييكروسا خوسي ماريا مياس، **علم الفلاحة عند المؤلفين العرب،** تع عبد اللطيف الخطيب، معهد مولاي الحسن، مطبعة المخزن، المغرب، 1957م.

132. الترغي عبد الله المرابط، **فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن2هـ، منهجيتها- تطورها- قيمتها العلمية،** منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتيطوان، جامعة عبد الملك السعدي، المغرب، ط1، 1999م.

133. التهامي إبراهيم، إبراهيم التهامي، **جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة،** مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1، 2005م.

134. توات الطاهر محمد ، **أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن،** ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ط) 1993م.

135. التونجي محمد، **المعجم الذهبي فارسي عربي،** دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1969م.

136. الجابري محمد عابد، **ابن رشد سيرة وفكر دراسة ونصوص،** مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1998م.

137. الحداد حميد، **النفي والعنف في الغرب الإسلامي،** إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2013م.

138. الحسين عبد الهادي أحمد، **مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب في عهد المنصور الموحدي**، اللجنة المشتركة لإحياء التراث الإسلامي، المغرب، 1982م.
139. حسن علي حسن، **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين**، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980م.
140. بن حماد الجوهري إسماعيل، **الصحاح تاج اللغة و صحاح العربية**، تح أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990م، ج3.
141. بن حمادة سعيد و البركة محمد، **مشاريع إصلاح القضاء بالغرب الإسلامي مقاربة تاريخية لآثار العدل في إقامة العمران**، طبعة إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2014م
142. حقي محمد، **البربر في الأندلس، دراسة التاريخ مجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية** (92-422هـ/711-1031م)، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2001م.
143. حواله يوسف أحمد، **الحياة العلمية في إفريقية "المغرب الأدنى" منذ انتهاء الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري**، طبعة جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة، ط،1، 2001م.
144. خليفة حاجي، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار إحياء التراث، بيروت، (د ط)،1941م.
145. دندش عصمت عبد اللطيف، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصر الطوائف الثاني**، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988م.
146. رابطة الدين محمد، **مراكش زمن الموحدين، جوانب من تاريخ الإنسان والمجال**، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1، 2008م.
147. ريبيرا خوليان، **التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية**، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة (دت).
148. الزّركلي، خير الدين **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.

149. زغروت فتحي، **العلاقات بين الأمويين والفاطميين في الأندلس والشمال الإفريقي (300- 350هـ)**، دار النشر والتوزيع الأسلامية، القاهرة، ط1، 2006م.
150. زينل نهاد عباس، **الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوربا القرون الوسطى (92-897هـ/711-1492م)**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013م.
151. سالم السيّد عبد العزيز، **المساجد والقصور في الأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط1، 1986م.
152. السفياني إدريس، **الوثائق والأحكام بالمغرب والأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين**، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2012م، ج1.
153. السّلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد بن حمّاد الناصري الدرعي (ت1315هـ/ 1897م)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفري الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997م.
154. سلطان جاسم محمد ، **من الصحوة إلى اليقظة استراتيجية الإدراك للحراك**، مؤسسة أم القرى للتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 2005م.
155.

سادسا: المراجع باللغة الأجنبية.

156. Abdelaziz Benabdallah, Le Millénaire de la médecine au Maroc, Editions et Impression Bouregreg, Rabat, 1[ère] édition 2006.
157. Alfonso Jiménez M, Notas sobre la mezquita mayor de Sevilla almohade, Revista del Departamento de Historia del Arte de la Universidad de Zaragoza, N :22, 2007.
158. Allen j.Fromherz, the Almohads the rise of an islamic empire, edition new paperback, published by I.B.tauris e co ltd, 2013, p p 126 – 127.
159. Andrés Martínes Rodríguez, Lorca almohade, ciudad y territorio, Universidad de Murcia, Servicio de Publicaciones, 1[a] Edición, 2013.

160. Antonio Almagro, the Great Mosque of Tlemcen and the Dome of its Maqsura, AL-Qantara, Vol 36, N1, enero-junio 2015.
161. Antonio Almagro, Una nueva interpretación del patio de la casa de Contratación del Alcázar de Sevilla, AL-Qantara, Vol 28, N 1, enero-junio 2007.
162. *Dolan Marion*, The Role of Illustrated Aratea Manuscripts in the Transmission of Astronomical Knowledge in the Middle Ages, the *University of Pittsburgh School of Arts and Sciences,* in the *United States*, *2007.*
163. Dominique Urvoy, Averroès, Les ambitions d'un intellectuel musulman, paris, grandes biographies, flamarion champ, 2001, p p 86-89.
164. Dominique Urvoy : Le Monde des Ulémas Andalous du V/XI^{e} au VII/ XIII^{e} siècle, librairie droz, Genève- 1978.
165. Dominique Urvoy : Pensée D'Al-Andalous, La Vie intellectuelle a Cordoue et siècle au Temps des empires berbères (fin XI^{e} siècle- début XIII^{e} siècle)- édition du centre national de la recherche scientifique, Toulouse- 1990.
166. Esteban Moreno Toral, La farmacia Andalusí, Grandes Innovaciones profesión, Revista de Estudios Andaluces, N 23, 2001.
167. Faraj Abdalmalik , Relations médicales Hispano – Maghrébines aux XIIe siècle, édition végo – Paris, 1935.

168. Forcada Miquel, Ética e ideologia de la ciencia- EL médico-filósofo en al-Andalus (siglos X-XII), Fundación Ibn Tufayl de Estudios Árabes, Al-Andalus, Impreso en España, 2011.
169. Gabriel Martinez- Gros : Identité Andalouse, sindbad- Grenade- 1997.
170. Joaquín Fernández Pérez, Agricultura y pesca en la España medieval, número especial de La exposición **Ars Mechanicae** realizada por el **Centro de Estudios Históricos de Obras Públicas y Urbanismo**, Madrid 2008.
171. Khalef Mohamed Nadjib, L'Evolution de la ville maghrébine de la conquête Islamique à la fin des Almohades, doctorat d' état en archéologie islamique, université d'Alger, 2001/2002.pp 154 -167.
172. Magdalena Valor piechotta, sevilla almohade, editorial sarriá, Malaga, 2008.
173. Manuela Marín, Sentido y usos de *ŷāh* en biografías de Ulemas Andalusíes, AL-Qantara, Vol 32, N 1, enero-junio, 2011.
174. Mouloud Gaid : les berbères dans l'Histoire en Espagne Musulmane, édition, mimouni- Alger- 1996.
175. Pedro chalmeta, el zoco medieval, Contribucion AL estudio de la historia del mercado, fundacion ibn tufayl de estudios-espane ;

176. Sebastián Gaspariño García, Las fuentes de la historia almohade, Revista AL-Mulk, Instituto de Estudios Califales de la Real Academia *de Córdoba*, N° 11 Año 2013.

177. Vicente Coscollá Sanz, La Valencia musulmana, carena editors, valencia, 2003.

395. the Oxford Encyclopedia of philosophy, Science, and technology in islam, Publisher: Oxford University Press, printed in the usa, Version: 2014.

روابط المواقع الإلكترونية المتخصصة:

394 . www.majles.alukah.net.

395 . www.islamic-manuscripts.net.

- **فهرس الموضوعات:**